ميخائيل شولوخوف

المجلد ٤

لقد قاتلوا من
اجل الوطن
ومصير انسان

دار «رادوغا»
فرع طشقند، ١٩٨٧

لقد قاتلوا من اجل الوطن

ترجمة شوكت موسى شردان
رسوم بوريس اليكسندروفيتش عليموف

М. ШОЛОХОВ

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ

в 4-х томах

ТОМ IV

ОНИ СРАЖАЛИСЬ ЗА РОДИНУ
СУДЬБА ЧЕЛОВЕКА

На арабском языке

Ш $\frac{4702010200-471}{031(01)-87}$ 082—87

© الترجمة الى اللغة العربية – دار «رادوغا» فرع طشقند، ١٩٨٧، طبع في الاتحاد السوفيتي.

ISBN 5—05—000704—6
ISBN 5—05—001203—1

قبل بزوغ الفجر، نفخت في الوهدة المنبسطة، ريح ربيعية دافئة من جهة الجنوب.

وعلى الطرق، تعرقت البرك التي جمدها صقيع الليل. وأخذت بقايا الثلوج الشبيهة بالاسفنج تهبط في الوهاد مخشخشة. وسبحت السحب، منحنية ومنبسطة فوق سطح الارض كالاشرعة السوداء، تدفعها الريح شمالا في السماء المكفهرة، وراحت تسابقها في انسيابها المهيب البطيء، الآلاف المؤلفة من أسراب البط والاوز، والطيور البرية وهي تصفر وتحفحف بأجنحتها بحدة، مخترقة الهواء الرطب، مالئة الجو بشقشقتها وصياحها، عائدة بشوق وفرح الى الدف، والى اعشاشها الدائمة، وقد فرغ صبرها وهي في منتصف الطريق.

قبل شروق الشمس بمدة طويلة، افاق من نومه نيكولاي ستريلتسوف، كبير المهندسين الزراعيين في محطة تشيرنوياريسك للسيارات والجرارات. كانت درف النوافذ تصرف وكانها تشكو، والرياح تئن في المدخنة، والصفيحة المعدنية، غير المثبتة بصورة جيدة على سطح المنزل تحدث ضجيجا حادا.

بقي ستريلتسوف مستلقيا على ظهره متوسدا يديه، ناظرا بعينين شاردتين الى زرقة السحر، ومصغياً تارة الى حفيف الرياح وهي تصطدم بجدران البيت، وطورا الى تنفس زوجته النائمة بجواره، هادئا منتظما كتنفس الاطفال.

وسرعان ما اخذت قطرات المطر تهطل على السطح محدثة جلبة، وهدات الرياح قليلا، وأصبح بالامكان سماع خرخرة المياه وهي تتدفق في الميازيب والمرازيب وتنسكب منها على الأرض المترطبة بلطف تارة وبعنف مرة.

لم يستطع ستريلتسوف الاغفاء ثانية، فنهض من سريره، وسار حافي القدمين، بهدوء وحذر على الارضية الخشبية المصرصرة، واقترب من الطاولة وأشعل المصباح وجلس يدخن. ومن خلال صدوع ألواح الأرضية غير المرصوفة كما ينبغي، أحس بريح باردة ثاقبة، فضم ساقيه الطويلتين الى بعضهما شاعراً بعدم الارتياح، ثم اتخذ وضعاً مريحاً في جلسته وأنشأ يصغي: لم تكن الأمطار تخف، بل كانت تزداد غزارة.

«ما أحسن ذلك! ستزداد رطوبة الأرض»، – فكر ستريلتسوف بسرور وغبطة، وعندئذ قرر الذهاب صباحاً، الى الحقل ليلقي نظرة على مزروعات كولخوز «الطريق الى الشيوعية» الشتوية، وعلى الأرض المحروثة تمهيدا لزرعها في الربيع، في آن واحد.

وبعد انتهائه من تدخين سيجارته، ارتدى ثيابه، وجزمته المطاطية القصيرة، وممطرته، ولكنه لم يتمكن من العثور على قبعته مهما حاول. وأمضى فترة طويلة وهو يبحث عنها تحت المشجب في الدهليز شبه المعتم، وخلف الخزانة، وتحت الطاولة، ثم دخل غرفة النوم، ولدى مروره، بهدوء، قرب سرير زوجته توقف للحظة، ورآها نائمة ووجهها صوب الحائط، وشعرها الأشقر الضارب للحمرة قليلا منثوراً على الوسادة بغير ترتيب، وقميص نومها الأبيض الناصع، ذو الفتحة العميقة يكاد يلامس الشامة المستديرة ويضغط على كتفيها السمراوين الممتلئتين.

«انها تنام وكأنها طاهرة الذمة تماماً... ولا تسمع لا الأمطار ولا الرياح» – فكر بمودة وببغض ناظراً الى المنظر الجانبي المظلل لزوجته.

ظل واقفا لمدة قصيرة مغمض العينين، كاتماً الألم في

قلبه مستعيداً الماضي القريب بذكرياته السعيدة المشتتة وغير المترابطة، ربما باستثناء أسعد اللحظات، وشاعراً بالسعادة الهادئة وهي تتلاشى بتؤدة ولكن دون تمهل، بتأثير أمطار ما قبل السحر هذه، والعواصف التي تشق هدأة الشتاء، وهو على عتبة يوم عمل صعب وممتع في حقول الكولخوز...

خرج ستريلتسوف الى الطنف حاسر الرأس. ولم يعد يكترث الآن بخفيف أجنحة البط الطائر في السماء المتجهة شمالاً في السنين الخوالي، ولم يعد الصياح الحزين الكئيب لاسراب الأوز المحلقة في البعد غير المرئي، يثير حماسه وولعه الشديدين السابقين المعهودين للذهاب للصيد. في تلك اللحظة الخاطفة حين نظر الى وجه زوجته القريب والغريب في نفس الوقت، شعر بشيء ما ينغص عليه حياته، وبدا له ان كل الأشياء المحيطة به مختلفة، وأن كل هذه الدنيا الشاسعة الواسعة المترامية الاطراف التي أفاقت لتبدأ يوماً جديداً من حياتها، انما هي على غير طبيعتها...

مازالت الأمطار تزداد شدة وتهطل مائلة بزخات غزيرة قوية أشبه ماتكون بالأمطار الصيفية، وهي تروي الأرض. عرض ستريلتسوف رأسه المكشوف للمطر والريح، وفتح منخره بنهم شديد عله يشم رائحة الأرض السوداء المتحررة من الثلج، لكن الأرض الباردة كانت عديمة الرائحة. وحتى هذا المطر الموسمي بدا، بعد انقضاء فصل الشتاء، وقبيل السحر، مملا وسخيفاً وليس فيه ذلك الأريج الذي تمتاز به الأمطار الربيعية. على أي حال هكذا بدت لستريلتسوف.

غطى ستريلتسوف رأسه بقلنسوة ممطرته، واتجه الى الاسطبل كي يعلف حصانه – الأسحم – الذي شعر بقدوم صاحبه، قبل وصوله، وأطلق صهيلا خفيضاً، وجعله التلهف الى لقائه يضرب بقائمتيه الخلفيتين على الأرضية الخشبية بالتناوب محدثا بحافريه وقعاً خافتا.

كان داخل الاسطبل دافئاً، مشبعاً برائحة الأعشاب اليابسة المكدسة ونكهة الصيف الماضي البعيد، ورائحة

عرق الخيل. أشعل ستريلتسوف المصباح، ووضع عشبا يابساً في المعلفة، ثم ازاح القلنسوة عن رأسه.

شمشم الحصان، الذي كان يعاني من الوحدة في الاسطبل المعتم، العشب اليابس بلا رغبة، فشخر، ومد رأسه بحذر ملامساً بشفتيه الناعمتين كالحرير خد صاحبه، وما ان اصطدمتا بشنبه الخشن، حتى زنخر مستاء وأطلق في وجهه زفرة حارة مفعمة برائحة العشب اليابس الذي كان يلوكه في فمه، ومن ثم أنشأ يلوك كم ممطرته مداعباً. كان ستريلتسوف، دائماً، حين يكون رائق المزاج يجاذب حصانه اطراف الحديث ويتقبل مداعباته له بارتياح وسرور. غير انه الآن لم يكن يتمتع بمثل ذلك المزاج. اذ انه دفع الحصان ناهرا اياه بقسوة ويمم صوب الباب.

واستدار الأسحم بدلال غير مقتنع تماماً بتعكر مزاج صاحبه معترضاً سبيله وموصداً الممر بعجزه. وبصورة غير متوقعة لستريلتسوف نفسه أهوى على ظهر الحصان بضربة قوية وصرخ به بصوت مبحوح:

– لقد استرسلت في لهوك، أيها الشيطان الرجيم!..

جفل الأسحم مقشعرا بكل جسمه، وتقهقر الى الوراء وهو يخبط بقوائمه، والصق جنبه بالجدار خائفاً. واعتمر كيان ستريلتسوف شعور الخجل بسبب تصرفه الطائش الذي لا مبرر له. ورفع المصباح المعلق على مسمار، لكنه لم يطفئه، ولسبب ما، وضعه على الأرض، وجلس على السرج الموضوع قرب الباب، وأخذ يدخن، وبعد مرور مدة قصيرة، قال بهدوء:

– أرجو المعذرة يا صاحبي، لا شيء في هذه الدنيا غير ممكن حصوله...

ثنى الأسحم عنقه بحدة، وجحظ بمقلتيه البنفسجيتين البراقتين، ونظر الى صاحبه الجالس مكتئباً، ثم أخذ يمضغ أعشابا يابسة راحت تخشخش بين أسنانه.

كانت رائحة حشائش السهب الذابلة المكدسة في الاسطبل، تبعث الكآبة في النفس، والمطر لا يزال يهطل

على السقوف القصبية دون توقف ويحدث حفيفاً خفيفاً كما في فصل الخريف، والفجر الداخن ينبلج رمادياً... اطال ستريلتسوف جلوسه، منكساً راسه ومتكئاً بمرفقيه على ركبتيه بتثاقل، غير راغب في دخول البيت حيث تنام زوجته، فهو لا يريد رؤية شعرها الأشقر المجعد قليلا والمنثور على الوسادة، وتلك الشامة المستديرة المألوفة على كتفها السمراء. اذ ان البقاء في الاسطبل، بالنسبة له، كان أفضل وأجدى واهدأ للنفس...

فتح ستريلتسوف الباب على مصراعيه، والفجر يكاد يكون قد انبلج تماماً، وأبصر الضباب الرمادي المتلبد، عالقاً فوق أشجار الحور الجرداء، غامراً بنايات محطة للسيارات والجرارات، ويكاد يحجب العزبة النائية عن الأبصار بكثافته وتلبده. كانت أشجار الأكاسيا المقرورة تهتز في الريح، واهنة باغصانها البيضاء الدقيقة التي لفحها الصقيع. واذا بصوت غرنوق كئيب يطرق المسامع، آتياً من كبد السماء الزرقاء، من وراء السحب، مخترقا سكون ساعة السحر.

أحس ستريلتسوف بالم يهصر قلبه، فتوقف على الأثر، واصاخ السمع طويلا الى أصوات أسراب الغرانيق الخافتة، وانّ بصوت خفيض وأخذ يتكلم كمن يرى مناماً:

– لا، لن استطيع ان أتحمل أكثر من ذلك! لا بد من استيضاح أمر اولغا حتى النهاية.. لقد فرغ صبري، خارت قواي ونفدت طاقتي!

وهكذا استقبل نيكولاي ستريلتسوف أول يوم ربيعي حقيقي والحزن والغيرة يسحقانه. وفي صباح ذلك اليوم بالذات وفي تلك اللحظة التي أشرقت فيها الشمس، برزت أول وريقة لاول نبتة، على الرابية الرملية الطينية الواقعة قرب بيت ستريلتسوف، برأسها الأخضر الشاحب المدبب مخترقة ورق القيقب المتعفن ولايعلم الا الله من اين جاءت الريح به في الخريف، وسرعان ما انثنت تحت قطرات المطر.

ثم انحدرت الريح الجنوبية الى الاسفل محولة ورق القيقب التالف، الذي عاش قدر ما كتب له، الى فتات رطب، واهتزت قطرة وتدحرجت الى الأرض، وهنا بدأت النبتة ترتعش برمتها ونهضت منتصبة وبدت وحيدة، تافهة غير ملحوظة على الارض الواسعة الفسيحة، الا انها كانت تنزع بثبات ولهفة الى المصدر السرمدي للحياة، الى الشمس.

وقرب التبن المكدس حيث لا تزال الأرض متجمدة، استدارت جرارة «ЧТЗ» * بحدة، وانطلقت بسرعة الى الحظيرة والطين اللزج الممتزج بالتبن يتطاير من حصيرتها اليسرى. وما أن بلغت بداية الحظيرة حتى تورطت في الطين فجأة، وكلما حاولت الاندفاع الى الأمام غاصت حصيرتاها الفولاذيتان في الطين أكثر وتوقفت. تلفعت الجرارة بالدخان الأزرق المنتشر على الحقل الاسود المحصود كقطعة قماش مفترلة. أخذ المحرك يشتغل متباطئا ثم سكت تماماً.

سار سائق الجرارة الى كشك فرقة سائقي الجرارات وهو ينظف يديه بمشقة أثناء سيره ساحبا رجليه من الوحل بصعوبة.

– ألم أقل لك، يا ايفان ستيبانوفيتش، انه لاينبغي البدء بالعمل هذا اليوم، – ها قد ورطت الجرارة في الطين. ولن تتمكن حتى العفاريت من اخراجها الآن! وسينشغلون بها حتى المساء، – قال ستريلتسوف بامتعاض وهو يعض شاربيه الصغيرين، وينظر بضجر ظاهر الى مدير محطة السيارات والجرارات ذي الوجه المتورد الممتلىء.

تنحنح المدير متكدراً فحسب، ولكن لم يرد بأي شيء. وبعد اقترابهما من الكشك، نظر بطرف عينيه الى ستريلتسوف بلطف، وقال:

– لا تقلق. لا داعي للقلق لأمر تافه. لن تغرق جرارتك في الطين ولن يحصل لها أي شيء، سيسحبها الشبان حتى المساء، وغداً سنحاول ثانية. من هاب خاب. لا بد لنا من

---

* جرارات من صنع مصنع تشيليابينسك للجرارات.

المباشرة بذلك يوماما، أفهل سننتظر حتى تغبر الأرض؟ هل ذهبت الى المزروعات الخريفية؟

– ذهبت قبل خمسة أيام.

– وكيف وجدتها؟

– لا بأس، صمدت للشتاء. ولكن في الأسفل قرب وهدة غولي، فسد جزء منها.

– كثير؟

– لا، قسم ضئيل، أقل من هكتارين، ولكن لا بد من زرع بذور اضافية. والآن ساذهب الى هناك للكشف عنها مرة أخرى. ولكن لا تفكر يا ايفان ستيبانوفيتش، بحراثة الأرض بعد مرور يوم! انني أعرف أنك انسان عنيد، ولكن عنادك هذا لن يجفف التربة بصورة أسرع. لو كنت مكانك لأرسلت جرارتين مجنزرتين الى «ستالينيتس»، أنت نفسك تعرف أن الأرض هناك رملية، وبالامكان حراثتها بلا تردد.

أنشأ المدير يلوح بيديه متخوفا:

– وماذا عن المسافة؟ والوقود الذي سيستهلك؟ خير لك الا تحدثني عن ذلك! انه لأمر مضحك، ارسال الجرارات الى مسافة تزيد عن اثني عشر كيلومتراً لفارق يومين من الزمن! انهم في مكتب اللجنة الحزبية للناحية، سيقطعون اوصالي! سيقولون انني لم أتمكن من تعبئة الطاقات في الوقت المناسب. وانني مقصر، وهل ستكون التوبيخات الأخرى التي ستنهال على رأسي قليلة! كلا، انني لا أريد سماع كلامك عن ذلك.

– اذن، أتعتقد، أنه من الافضل أن تظل الجرارات هنا، عاطلة عن العمل؟

قطب المدير وجهه، وأتى بحركة من يده، صامتاً، تدل على أنه يعتبر الحديث منتهيا. لم يكن يرغب، البتة، في الاستماع الى المزيد من براهين ستريلتسوف، فحثّ الخطى، غير أن ستريلتسوف لحق به وساله:

– لم لا تجيب؟ ليس الصمت مبررا ولا حجة.

– لقد قلت لك كل شيء، والآن، هيا اذهب الى فرقتك ولا تناقشني.

– حسناً. سننقل النقاش، كما تقول، الى مكان آخر.

– الى أين، مثلا؟

– الى اللجنة الحزبية للناحية فرضاً.

نادرا ما كانت الدماثة تفارق المدير ذا الطبع الحار. وهنا أطلق ضحكة مدوية، وربت براحته الربلة على كتف ستريلتسوف:

– آه، انك لمهندس زراعي ذو همة وحمية متوقدتين، يا ميكولا*! أتعرف الى أين ستقودك همتك وحميتك؟ هنا عقدة المسألة! فلمجرد ذهابك الى اللجنة الحزبية ستتلقى أنت نفسك توبيخاً صارماً بالدرجة الأولى، وكذلك سأشكو لهم مخالفتك لي وتدخلك في شؤوني الادارية. فما هو اذن رأيك؟

كانت طيبة نفس ايفان ستيبانوفيتش الدمث التي لانهاية لها، تخمد دائما غضب ستريلتسوف. وهنا ودون الاكتراث بالمزاح، قال ستريلتسوف ولكن بلهجة ألطف بكثير وبشكل ملحوظ:

– انني لا أتدخل، بل أنصح...

غير أن المدير قاطعه:

– المهم ألا تضطرب. فالاضطراب، وانت ضعيف البنية، أمر يضرك.

ولكن ما أن رأى ستريلتسوف يتجهم وجهه ويقطب حتى كف عن مزاحه، وأخذ يحدثه جاداً:

– من يدري، وقد تكون محقاً. سأفكر بالمسألة، وسأستشير رئيس الفرقة واذا ما تطلب الأمر ذلك، فاننا سنحرك الجرارات الى «ستالينيتس» ليلا. اذ لا شك أنه من الممكن مباشرة الحراثة هناك. على أنني اعتقد ان رومانينكو بوسعه تدبير أمره وحده. لابد من الاتصال به لمعرفة، اذا

---

* ميكولا – صيغة التحبب لنيكولاي.

كان قد باشر الحراثة، أم انه لا يزال متردداً. – وخاطب سائق الجرارة المقترب، هازاً رأسه بعتاب: – آه، فيودور، فيودور! كيف سمحت لنفسك يا عزيزي، بتغريز الجرارة في الطين؟ كيف هذا، وقد خدمت في الجيش سائق دبابة، وكنت ممتازاً في التدريب الحربي...

ليس عبثا وسدى ان اصدقاء فيودور بيليافين كانوا يلقبونه بـ«الجعل الأسود»: فجزمته السوداء، وبنطاله المضرب بالقطن وكذلك معطفه القصير على كتفيه العريضتين، وقبعته ثلاثية الآذان وفوقها جلد أسود، وكشته السوداء الكثيفة المتدلية من تحت القبعة، ووجهه الأسمر المسخم بالسناج والمازوت المتعذر ازالتهما – كل هذه الأشياء كانت تؤكد صدق اللقب الذي ألصق به الى الأبد.

مضيقاً عينيه البراقتين ببياضهما الضارب للزرقة، ومظهراً أسنانه الناصعة المتلألئة المائلة للزرقة، أجاب فيودور بتهكم:

– ورطتها بفضلك، يا ايفان ستيبانوفيتش! لقد أخبرناك جميعاً – رئيس الفرقة، والمهندس الزراعي، وكل سائقي الجرارات، أن الجرارة لن تستطيع السير، ولكن من يمكنه أن يقنعك برأيه في مناقشة؟ انك تصر على كلمة واحدة هي جرب فحسب. والآن متع نظرك بها وساعدنا في اخراجها. انك قوي بما فيه الكفاية. فأنت نفسك تشبه جرارة الـ «ЧТЗ» لقد سمنت جيداً خلال الشتاء!

– بدأت تشكو وتبكي! – قال المدير بلهجة يشوبها شيء من الاستخفاف. – ها قد ذرفت الدموع، أما البنات فهن ينظرن اليك كبطل همام، وهذا باطل في رأيي... هلم بنا ننظر كيف زججت بها في الطين.

اتجه كلاهما الى الجرارة. والى هناك أيضاً، سار رئيس فرقة العمال وبصحبته اثنان من سائقي الجرارات. وخطا ستريلتسوف متثاقلا شطر الكشك حيث كان «الأسحم» مربوطاً. لم تكن لديه رغبة بمغادرة الفرقة، حيث كان التنفس أسهل؛ لان تواجده في العمل بين العمال كان يخفف

عنه عبء المصيبة التي ألمت به. الا أنه كان يتوجب عليه الكشف عن المزروعات الخريفية في الكولخوزات المجاورة، فسار بخطى وئيدة فوق العشب الأصفر المدهوك، ناظراً أمام قدميه ومحاولا جهده عبثا طرد الافكار التي بدأت تعاوده وتعتريه من جديد وهي المتعلقة بزوجته وعلاقتها مع المدرس اوراجني، وكل الأشياء المخزية التي كانت تثقل صدره معذبة اياه ولا تفارق خياله ليل نهار ولا تسمح له بالحياة والعمل بصورة طبيعية...

– ابق عندنا، أيها الرفيق ستريلتسوف، لتفطر معنا! لقد أعددت عصيدة قمح لم تذق مثلها طيلة عمرك! – هتفت به مارفا، طاهية الفرقة، لدى مرور ستريلتسوف، مكتئباً مقوس الظهر محدودبه بالقرب من المطبخ المقام بعناية واهتمام قرب الكشك، وكان قد أقامه سائق جرارة يتقن بناء الافران.

أومأ ستريلتسوف برأسه شاكراً اياها، وابتسم لها بلا رغبة:

– هيا أسكبي لي، يا مرفوشا، فلن أصل الى البيت حتى المساء.

جلس ستريلتسوف على الدرجة السفلى لسلم الكشك، وتناول قصعة العصيدة الساخنة من يد الطاهية، وهنا فقط، تذكر أنه لم يأكل منذ صباح الأمس. وبعد احتسائه بضع ملاعق من العصيدة المائعة اللذيذة الداخنة قليلا وضع القصعة على الأرض – وكم من مرة مد يده منذ هذا الصباح الى علبة سجائره القديمة المكسوة بالجلد – وها هو مجدداً يخرج سيجارة مغضنة...

* * *

كان شهر مايو – أيار على وشك الانتهاء، أما الأمور في أسرة ستريلتسوف فما زالت على سابق عهدها. لقد حدث تصدع في الحياة الزوجية، بين ستريلتسوف وزوجته اولغا،

لا يمكن رأبه. حصل الشقاق في علاقاتهما بشكل يبدو وكأنه غير مرئي، وتدريجيا صارت هذه العلاقات فوق الطاقة والاحتمال، الأمر الذي لم يخطر ببال الزوجين اطلاقاً قبل نصف سنة، وحتى ما كان بمقدورهما مجرد التفكير به. وما فتئت الروابط الوثيقة التي كانت تربط ما بينهما تتلاشى من يوم لآخر، وغدت الأمسيات اللطيفة، التي كان الزوجان يقضيانها بأحاديثهما الودية، في طي النسيان، ولم يعد أحد من الزوجين يبدي رغبته في مشاطرة الآخر همومه ومشاغله ومشاكله، والأمور البسيطة المفرحة التي تصادفه في عمله. وعوضا عن ذلك صارا يتخاصمان أكثر من أي وقت مضى، وفي بعض الأحيان، ولأسباب تافهة، ينشب بينهما الخلاف فجأة كما تشب النار في سقيط الأغصان الجافة في مهب الريح، وحينما يتصالحان لفترة قصيرة، لم يكن هذا التصالح يجلب لهما الراحة والطمأنينة، وكان أشبه ما يكون بهدنة بين قوتين متعاديتين لا تزيل حالة التحفز والبغضاء الكامنة.

تزايد فتور العلاقات شبه المستتر في البداية ليغدو ظاهرة ملازمة ومزعجة. وكان ستريلتسوف يشعر أحيانا كما لو أنه أمضى مدة طويلة في غرفة باردة توّاقا الى دفء الشمس.

ولاحظ وكأنه غريب عن نفسه، أنه أصبح سريع التأثر والغضب بشكل مفرط، في البيت وفي العمل، ويزداد عصبية في معاشرته للناس ويثور غضبه بلا أي مبرر. ولم يكن ذلك، حاله في الماضي... الا أنه لاحظ الشيء عينه في تصرفات اولغا أيضاً. كان ذلك كله سبب نشوء المهاترات العرضية التي كانت تؤدي، حتماً، في نهاية المطاف الى مشاجرة.

كان ستريلتسوف يراقب، بمرارة والم، ابتعادها المتزايد عنه على مر الايام في حين لا يستطيع هو مناداتها بكلمة لطيفة أو اعادتها الى سابق حالها. فهذا الشعور بالعجز النفسي، وعدم القدرة على اجراء أي تغيير، والانتظار

المتعب للنهاية المرعبة المرتقبة، كل هذه الاشياء جعلت الحياة تحت سقف واحد بغيضة لاتطاق.

فمنذ الربيع، أخذت اولغا، بذريعة اقتراب موعد الامتحانات، تمضي كل اوقات فراغها بعد الظهر، في المدرسة تارة، وعند صديقاتها المدرسات طوراً. لم تكن تهتم بطفلها تقريباً، اذ عهدت بتربيته كليا الى الجدة، ولم يكن ستريلتسوف بحاجة للبحث عن مبررات حتى يقلل من فترة مكوثه في البيت اذ ان انشغاله بالحراثة وانتقاء البذور وزراعة المحاصيل الربيعية، ثم زراعة المحاصيل الأخرى والاعتناء بالأراضي البور، واستئصال الأعشاب الضارة من حقول الحنطة كانت تستغرق وقته بأكمله. ففي الصباح كان يغادر البيت والارتياح والعذاب يتنازعان في نفسه، في آن واحد، ولا يعود الى البيت الا ليلا حينما تكون أولغا قد فرغت من تصحيح الدفاتر، وأوت الى فراشها. وكان هذا الوضع يقلل من مشاداتهما الى حد ما. غير انهما بتجنب بعضهما البعض، خشية كل واحد منهما، فيما بينه وبين نفسه، الانفراد مع الآخر، كانا يؤجلان خوض الحديث الحاسم، وبهذه الطريقة بالذات كانا يضاعفان من تعذيب احدهما الآخر، ومن التعقيد في أسرتهما.

كان الشقاق، على ما يبدو، يبث الرعب في قلبيهما على حد سواء، وعلى الرغم من أن حتميته كانت جلية لكلا الطرفين، لم يكن أي منهما يريد ان يكون هو البادىء.

ومهما بدا الأمر غريباً فأن حماة ستريلتسوف ناصرت صهرها بادىء ذي بدء واتفق عدة مرات، أن عاد ستريلتسوف ولاسباب معينة الى البيت بصورة غير متوقعة، وسمع صدى صوت أولغا وسيرافيما بيتروفنا الصاخب، وهو لا يزال بعيداً في فناء الدار. ولكن، ما ان دخل الدهليز وامسك بمقبض الباب، حتى عم الصمت البيت فجأة. وكانت حماته تمر بالقرب منه زامة شفتيها، بخيلاء وزهو، معبرة عن استيائها كأم، أما اولغا، بعينيها المغرورقتين، فكانت تحاول الخروج من البيت بأسرع ما يمكن، ولا تعود الا في

الغسق، بعد غياب طويل. لئلا يتبين وجهها المنتفخ من الدموع.

ثم ان الصغير كوليا لاحظ، فوراً، الخلاف بين والديه كما لو كان راشداً، ولكن عجزه عن ادراك أسبابه، جعله ينجذب نحو جدته، فصار يراجع دروسه في حجرتها المجاورة للمطبخ، وينام هناك أيضاً، بعد انتقاله من غرفته دون استشارة أحد بحجة خوفه من البقاء وحده ليلا. وكم من مرة لمح ستريلتسوف نظراته المتفهمة الخاطفة اثناء تناول الطعام ولم يكن لديه عليها جواب.

كانت اولغا لا تلتقي بيوري اوراجني في المدرسة فحسب. وكان ستريلتسوف يحزر ذلك، غير انه لم يكن قادراً على اجبار نفسه على مراقبة زوجته، ولا بأي حال من الأحوال. كان ذلك فوق قدرته. ولدى تأخرها في المدرسة او عند احدى صديقاتها الى وقت متأخر من الليل، كان لا يخرج من صحن الدار، وينتظرها جالساً على الدرج في الظلام وهو يدخن بصمت حتى يسمع وقع خطواتها السريعة خلف الخوخة. كان يعرف جيدا هذه الخطوات السريعة الحثيثة، وبامكانه تمييزها من بين خطوات آلاف النساء. وما أن يسمع الوقع المألوف لكعبي حذائها العاليين حتى كان، دائماً، يشعر باختناق خفيف، ويحس بتباطؤ في دقات قلبه. أما اولغا فكانت تمر بالقرب منه نافحة اياه برائحة فستانها النظيف وغبار الأمسية الدافيء، في حين يسحب هو ساقيه الطويلتين قليلا فاسحاً لها الطريق ومن ثم يتبعها الى المطبخ ليتناولا عشاءهما صامتين ونادراً ما يتبادلان بعض العبارات الفارغة الجوفاء، وبعد ذلك يذهب كل الى فراشه. وفي الصباح كان كل شيء يتكرر من جديد.

وطوال فصل الربيع، لم يصادف ستريلتسوف يوري أوراجني الا مرة واحدة — التقاه صدفة في الشارع. كان ستريلتسوف متجهاً الى الحقل ممتطياً صهوة «الأسحم» أما الآخر فكان مقبلا نحوه وهو في طريقه الى الدكان. كانت الريح تهب على سطوح البرك المترسبة محدثة فيها تموجاً

خفيفاً، ومياه البرك تسطع تحت أشعة الشمس بصورة لا تطاق، وكان الهواء الساخن مشبعاً بالرائحة الطيبة للثلج الذائب والأرض السوداء الرطبة. كان «الأسحم» يشق طريقه ضارباً الماء بحوافره، ورشاش الماء يتطاير من حوله لامعاً تحت أشعة الشمس كقوس قزح، والكتل الطينية السوداء الدبقة تسقط من حوافره مبقبقة. كانت الديكة تصيح فرادا، ودجاجة ما في مكان ما من صحن الدار القريب تقوقيء بفتور، واول قبرة، مجربة قوتها، تغرد في زرقة السماء الكالحة، وتنخفض رويدا رويدا متجهة الى المرعى الرطب. كانت غبطة هادئة تخيم فوق سوخوي لوغ لدرجة انها جعلت ستريلتسوف ينسى كل شيء في الدنيا، ويواصل سيره متمايلا في السرج وفق خطوات الحصان، مطلقاً له العنان، شاعراً بنشوة السعادة بكل احاسيسه وجوارحه من النسيم العليل، والشمس التي توارت لهنيهة خلف السحب الشبيهة بندف ضبابية شفافة، وتردد القبرة في محاولتها التغريد.

وهنا، ولدى مشاهدته ليوري اوراجني، قريباً منه، يسير بحذر شاقاً طريقه بجوار السور المصنوع من الأغصان المجدولة وهو يكاد يتزحلق في الوحل، أحس فجأة بغصة شديدة تضيق الخناق عليه. خرست الدنيا بصورة غريبة، وتلاشت الأصوات تماماً. لم يكن ستريلتسوف يرى شيئاً سوى يوري اوراجني المقترب منه. كان يراه بأكمله من قمة رأسه الى اخمص قدميه: وجهه جميل، أسمر متورد، مستدير ذو شنب أسود دقيق وتتدلى كشة خصلة ناصيته الفاحمة من تحت الخافة المثنية لقبعته الرمادية الناعمة، متأنق، يرتدي قميصاً اوكرانياً طرز عليه شكل مربع باللونين الأحمر والأسود، وقد القى بغير اهتمام على كتفيه العريضتين سترته الرمادية المقلمة، قدماه تكادان تتزحلقان على الوحل وجزمته المطاطية القصيرة ملطخة بالطين. هكذا انطبعت صورة يوري اوراجني في ذاكرة ستريلتسوف وظلت عالقة الى الأبد كلقطة مأخوذة من فيلم سينمائي ملون. في

تلك اللحظة ظل ستريلتسوف يحدق بنهم ولا يحول عينيه عن وجه ذلك الانسان الذي حطم حياته، وأصبح عدوه اللدود. فما أن صار بمحاذاته حتى ابتسم له يوري اوراجني كاشفاً عن أسنانه البراقة:

– صباح الخير، يا نيكولاي سيميونوفيتش! ما هذا الوحل! وعلى الرغم من ذلك تسمى المنطقة «سوخوي لوغ»*.

أراد ستريلتسوف الرد على تحيته، لكن الكلمات بقيت خافتة مبحوحة في حلقه. ابتلع ريقه شاعراً بتشنج في حلقه، على أنه لم يتمكن من التفوه بكلمة. وحينما رفع يده اليمنى ليرد عليه التحية، أحس بالسوط الذي يمسك به ثقيلا كما لو أنه حديدة أثقال تزن بوداً...

وبعد أن ابتعد عنه زهاء عشر خطوات، استند ستريلتسوف على وسادة السرج بيده اليمنى، والتفت الى خلفه. كان يوري اوراجني ينظر اليه ممسكا بطرف غصن من أغصان السياج المجدول، وتعلو شفتيه واضحتي التقاطيع ابتسامة مبهمة.

وصل ستريلتسوف الى منعطف الزقاق على صهوة جواده بخطى عادية، وهنا عاد ليسمع، من جديد، زنخرة «الأسحم» التي تنم عن الرضا، وتغريد القبرة التي تشدو بلا كلل مختفية بحلول الربيع. وعادت الأصوات، والروائح لتعم الكون ودبت الحياة... ووراء المنعطف، أطلق ستريلتسوف عنان «الأسحم» ليعدو خبباً حتى العزبة، ومن ثم جعله يركض رمحاً سريعاً ولم يوقفه الا في السهب بعد أن قطع نحو كيلومتر ونصف الكيلومتر. فبعد توقف الحصان وفارسه، أطلقا كلاهما زفرة عميقة في آن واحد.

«لقد كان بامكاني قتله. منذ بضع دقائق فحسب. وذلك بأن أترجل عن صهوة حصاني هكذا، واقترب منه مادا يدي لأمسك بخناقه بدلا من مصافحته. ولاطرحه تحتي على الوحل وانقض عليه كلمح البصر. ومن الذي كان بامكانه تخليصه

---

*سوخوي لوغ – الوهدة الجافة.

مني؟ ومن كان يمكنه انتزاعه من بين يدي؟ كان الشارع خالياً خاوياً. وريثما ينتبه الناس... أنا أقوى منه، واقوى منه بكثير. كنت ساضغط يده اليمنى على الأرض بيدي اليسرى، وهذا كل ما في الأمر. وتحل النهاية! وماذا بعد؟..»

ولفترة قصيرة، ذكرته في تلك اللحظة ذاكرته الخدوم زيادة عن اللزوم، كيف انه قبل اثنتي عشرة سنة، حينما كان لا يزال طالباً في المعهد، كاد يخنق أحد رفاقه في الدراسة لاهانته له في الحفلة التي أقيمت عند احدى زميلاتهم في الدراسة. عندها لم تترك يداه عنقه الا بعد فقدان وعيه اثر ضربة قوية بكرسي ثقيل تلقاها على رأسه... ومن جديد لاح أمام عينيه وجه يوري اوراجني الجميل، وابتسامته المترددة الحائرة...

أحس ستريلتسوف بغثيان خفيف، رفع سدارته عن رأسه. أصبحت يداه مبللتين بالعرق.

منذ تلك اللحظة، صار يتجنب الالتقاء بيوري اوراجني. لم يكن ثمة من داع ليجازف بأمر لا يعرف منتهاه. ولم يكن من داع للعبث بحياة غيره، وبحياته هو...

لقد بدا الوضع الغامض في الأسرة وكأنه أمر مالوف ومتأصل. ولم تتزعزع هذه الحياة الكئيبة الا بعد وصول برقية من أخي ستريلتسوف الاكبر من مدينة كيسلوفودسك بصورة غير متوقعة. سلمت لستريلتسوف، صباحاً، في مكتب محطة السيارات والجرارات. وجاء في البرقية «بتاريخ ٣ رقم القطار ٢٠ العربة ٧ ساكون في المحطة، استقبلني، أعانقك – الكسندر».

سار ستريلتسوف وهو عاجز عن اخفاء بسمة الفرح بخطى أسرع من خطوه المالوف، ودخل مكتب المدير، ووضع البرقية على طاولته برفق.

– انني انتظر ضيفاً، يا ايفان ستيبانوفيتش!

نظر المدير اليه، من تحت اطار نظارته المعدني، مندهشاً.

– أهو أخوك القادم يا ترى؟
– هو بذاته.
– ولكن أعتقد أنه حصل على بطاقة استراحة في المصح حتى منتصف شهر يونيو – حزيران – أليس كذلك؟
فتح ستريلتسوف يديه والبسمة لا تزال مرتسمة على شفتيه.
– يظهر أنه لم يتحمل نظم المصح، وهرب قبل الموعد المحدد. اذ لا يشعر المرء هناك بالمتعة في بداية الأمر، وهو على ما أذكر، يذهب للمصح للمرة الأولى. انه، دائماً، كان يفضل الاستراحة الحرة، الصيد، وصيد السمك.
قرأ المدير البرقية مرة أخرى، ودس نظارته في الجيب الداخلي لمعطفه الكتاني القديم، وقال بغبطة وارتياح:
– أجل، ان أخاك لرجل رائع، يا ميكولا. انه يتصرف بحكمة. فانه سيرتاح عندنا اكثر، وسيجديه الهدوء في شفاء قلبه. ان هواء براري الشيح لدينا، حسب اعتقادي، تساعد لا على شفاء امراض القلب فحسب، بل وسائر الأمراض الأخرى. لقد قرأت أن الكونت تولستوي* كان يسافر الى بشكيريا ليتعالج بالهواء وليشرب القوميس**. أما فيما يتعلق بالقوميس فما الذي يمكنني أن أقول... شربت منه كثيراً لدى القلميقيين، أثناء الحرب الاهلية وهذا ما استنتجته: لاجدوى منه اطلاقاً للانسان الروسي! ولا فائدة منه بتاتاً باستثناء التجشؤ في الأنف والقرقرة في البطن! وبدافع حب الاستطلاع شربت القوميس الصرف. ألم يسبق لك أن جربته، يا ميكولا؟ لا؟ ولا تجربه. انه ماء أزرق، حلو نوعاً ما، كثير الرغوة لا يسمن ولا يغني من جوع، ولم الاحظ شيئاً من هذا القبيل، وكيف يسع المرء ملاحظة ما هو غير موجود. – صمت قليلا، ولزيادة التأكيد، أردف: –

*الكونت تولستوي: المقصود هنا ل. ن. تولستوي من عمالقة الأدب الروسي الكلاسيكي.
** القوميس – لبن حجر مختمر.

طبعاً بالهواء وحده، حتى بهوائنا، لا يمكنك العيش، ولكن علاوة على ذلك، فلدينا لا القوميس السخيف بل حليب البقر الطبيعي المغذي، نسبة الدهن فيه خمسة في المائة، والبيض الطازج من تحت الدجاجة مباشرة وليس جافاً قديماً، اضف الى ذلك الشحم الذي يبلغ سمكه اربعة اصابع، وهناك الفطائر بالقشدة الرائبة وبلحم الضأن الفتي وغيرها، لا يوجد أي قلب يتعذر شفاؤه هنا، سيشفى تدريجيا وسيعود الى حالته الطبيعية. واذا ما زدنا على ذلك حساء الكرنب وكأساً قبل الغداء، فان أخاك سيعيش هنا حتى يبلغ المئة دون أن يعاني من أي مرض! لقد اتخذ قراراً سليماً بالمجيء الينا! وسليماً جداً!
كانت كلمات ابن السهب، المتمتع بعافية جيدة، مفعمة بسذاجة الأطفال وبالبساطة في نظرته الى الأمور لدرجة أنها جعلت ستريلتسوف يضحك جهرا ويقول:
– وأنا أيضاً أفكر هكذا، يا ايفان ستيبانوفيتش، ولكن كيف بالنسبة للسيارة؟
– وهل يمكن أن يكون في هذا خلاف، خذها في الصباح واذهب بها الى المحطة لاستقباله.
– وانت، ألن تحتاج اليها؟
– اذا ما استدعى الأمر، فسأركب الحصان. أما أنت فخذ السيارة. ان أخاك جنرال، وكذلك من الذين عانوا، وليس من اللائق استقباله كيفما اتفق. أخبر السائق، ليكون جاهزاً، وسافر في وقت أبكر. ولدى المجيء به ليقد السائق السيارة بمزيد من العناية والهدوء لئلا تهتز في طرقنا الوعرة، نظرا لمرضه.
– شكراً، يا ايفان ستيبانوفيتش!
– لا شكر على واجب. أهنئك، يا ميكولا، بهذه المناسبة السعيدة!
– شكراً لك، مرة أخرى، انها، فعلا، لمناسبة سعيدة جداً بالنسبة لي. اذ أننا لم نلتق منذ تسع سنوات.
نهض المدير من وراء طاولته.

– أنا ذاهب الى الورشة، أما أنت فما هي مشاريعك لهذا اليوم؟

– لا بد من اشعارهم في البيت، والاستعداد لاستقباله. اسمح لي بالبقاء في البيت اليوم.

– طبعاً. أيمكنني مساعدتك بأي شيء؟

– شكراً، كل المطلوب متوفر لدي، وباستطاعتي اتخاذ الترتيبات اللازمة بنفسي.

وبعد أن تململ المدير، قليلا، قرب الطاولة، اقترب من ستريلتسوف عن كثب، ولسبب ما سأله هامساً:

– كم سنة امضى في السجن، يا ميكولا؟

– زهاء أربع سنوات ونصف.

قطب ايفان ستيبانوفيتش جبينه مكتئباً. ثم اتجه الى الباب بخطى ثابتة، وأغلقه بالمفتاح، ودعا بايماءة، ستريلتسوف للجلوس، أما هو فانهبد، متثاقلا على الكرسي القديم، من صنع أيام ما قبل الثورة، والذي لم يصرصر وانما أعول شاكياً تحت ثقل جسمه. وسأله بعد صمت قصير:

– ما هي في رأيك الدوافع التي دعت الى اطلاق سراح أخيك؟

هز ستريلتسوف كتفيه، صامتاً. لقد فوجيء بالسؤال.

– وعلى كل حال، ماذا تعتقد؟

– لا شك أنهم، في نهاية المطاف، تأكدوا من براءته، فأفرجوا عنه.

– أهذا هو اعتقادك؟

– وكيف علي أن أعتقد، يا ايفان ستيبانوفيتش؟

– أما أنا فأعتقد، بناء على تفكيري البسيط: ان عيني الرفيق ستالين قد بدأتا تتفتحان تدريجياً.

– الا تبالغ... وهل هو يحكم البلاد بعينين مغمضتين؟

– يبدو هكذا. ولكن ليس طوال فترة حكمه، بل منذ عام سبعة وثلاثين.

– اتق ربك، يا ستيبانوفيتش! ما الذي نراه من هنا، من محطة السيارات والجرارات؟ وهل بمقدورنا البحث في

مثل هذه الأمور؟ اذن حسب اعتقادك، عاش ستالين خمس سنوات كفيفاً، واذا به يفتح عينيه فجأة؟

– تحدث في الحياة أشياء من هذا القبيل...

– انني لا أومن بالمعجزات.

– ولا أنا. ولكن على أية حال أليس من الضروري معرفة حقيقة ما حصل لأخيك؟ الم يكتشف ستالين حقيقة يجوف؟ وما أدراك، ربما أنه أيضاً بدأ، شيئاً فشيئاً، يكتشف بيريا على حقيقته؟

– هيا بنا، سأوصلك الى الورشة. انني لا أحب التكلم على طريقتك: فأنت تهمس تارة وتصرخ أخرى... دعنا نختم حديثنا ونحن في طريقنا الى الورشة.

– ألست صالحا لأعمال الخلسة وكتمان السر؟

– مطلقاً! أنت عصبي جداً.

نهض المدير بصعوبة ممسكا بظهره وهو يتأوه. وسار نحو الباب وهو يعرج قليلا ويدمدم مستاء:

– العلم يقول أن الألم في الظهر ينتج عن البرد. ان هذا ليس علماً بل سخافة! انهم يعتبرون أنفسهم أطباء! فما أن اضطرب عصبيا حتى أشعر رأساً بهذا الألم اللعين يستبد في القطن قرب العصعص. فكر كما تشاء. فبالنسبة للعلم، لي وجهة نظري الخاصة، فليكفوا عن تضليلي. كل هذه الاشياء عندي منذ الحرب الأهلية...

سارا صامتين في الممر الخالي من الناس، وخرجا من الباب الاحتياطي الى فناء المحطة الموحش الواسع ذي السياج الخشبي المغبر، حيث تعبث الريح بالأعشاب الجافة التي داستها حصائر الجرارات، وهي تغير اتجاهها دوماً: تهب خفيفة من الغرب تارة، وتعود لتهب من الجنوب تارة وعندئذ تشتد ويزداد تيارها قوة، لسبب ما. كان الطقس معتدل البرودة منذ الصباح. وفي السماء الزرقاء الكالحة، كانت سحابة بيضاء وحيدة تشبه الرغوة تسبح منفردة في دربها، وجلبة خافتة ناتجة عن خراطة تتناهى الى السمع من بوابة الورشة العريضة المفتوحة على مصراعيها، وتسمع

الطرقات الايقاعية المتتابعة للمطارق في ورشه الحدادة يؤازرها صوت نفخ أكيار الحدادة، أما هنا، خلف السياج الخشبي، فتصدح في القنب البري المعشوشب سمانة وكأنما تتجاوب، بحماس ودون كلل، بايقاع يتوافق ودوي المطارق.

توقف ايفان ستيبانوفيتش وسط الباحة قرب بئر الماء. وجلسا، غير متفقين، على خرزة البئر المنخفضة:

– أعتقد، – قال ايفان ستيبانوفيتش – أن أخاك، في بداية الأمر، سيتجنب الالتقاء بالناس، ولكنه لن يستمر على هذا النحو.

– الكسندر – شاب طيب المعشر. على أية حال، كان هكذا، – قال ستريلتسوف مستغرقاً في التفكير.

– «كان» وهنا تكمن المسألة، وكيف أصبح الآن؟ وهذا ما سنراه. ولكن أهو الوحيد الذي أفرج عنه؟ لا شك انه يعرف. ولهذا السبب، يا ميكولا، أعتبر قدوم أخيك بمثابة عيد بالنسبة لي أيضاً. وقد يطلقون بعده سراح السجناء الذين اعتقلوا دون ذنب، ها؟ ما هو تفكيرك بهذا الصدد، يا ميكولا؟

– هذا ما أود معرفته، وليس التخمين...

– أجل، بالضبط. اذ ليس من الممكن انهم أفرجوا عنه وحده.

– ولم لا؟ وقد يكون وحده. سننتظر وصول الكسندر، يا ايفان. اننا لا نعرف شيئاً، ولا داعي للتخمين عبثاً.

ضرب ايفان ستيبانوفيتش بيديه القصيرتين القويتين كفاً على كف بطريقة نسائية:

– كيف هذا، لا نعرف شيئاً؟ فريثما انتظر وصول أخيك سيتصدع رأسي من التفكير! وها قد بدأت أعصابي تضطرب منذ الآن، وأخذت آلام الظهر الحادة توخز قطني. ولا أدري كيف سأنهض عن خرزة البئر هذه، وقد اضطر للذهاب الى الورشة زحفاً على الأربع... فبعد أن يستريح أخوك، استفسر منه، على الفور، عن الأمور كيف وماذا.

لقد كان في موسكو، ولا بد وأنه يعرف بما يفكر به قادتنا هناك. كن يقظاً وحذراً في تصرفك معه واستعلم منه عن حقيقة كل الأمور واستدرجه ليخبرك عنها.

قال ستريلتسوف معتذراً:

– ليس فوراً. فلندعه يسترجع نفسه. أنت تعرف، يا ايفان، أن التحدث عن كل هذه الاشياء سيؤلمه. فهنا لا بد من اللباقة والحذر...

– لقد قتلتني، يا أخي، شر قتلة بكلامك هذا! «اللباقة، الحذر، سيؤلمه»... ماذا بشأننا أنا والآخرين، ألا يؤلمنا عدم معرفة الحقيقة؟ يا أخي، يا ميكولا!

– نعم، كل هذا مفهوم!

– أنك لا تفهم شيئاً! أتذكر حينما وبختني أمام الحضور في الاجتماع الذي عقد في الربيع، قائلا: أن ايفان ستيبانوفيتش جبان ومن أجبن ما يمكن، ويخشى احراق الوقود الزائد، ويهاب المسؤولين، ويخاف من كل شيء... ربما تكون محقاً: لقد أصبحت جباناً في السنوات الأخيرة. أما في عام ١٩١٨ فلم أخف من مواجهة البيض ومحاربتهم ببندقيتي التي لم يكن في مخزنها سوى مشط واحد للرصاص، لا غير! ولم أخف من مهاجمة ضباط جيش دينيكين المتطوعين. لم أكن أخشى شيئاً في تلك السنين العزيزة على قلبي! الا أنني الآن أخشى احراق الوقود الزائد، وهذا البراد الكسول – فانكا لا أقدر على شتمه كما ينبغي، وأرجف أمام المسؤولين... أصبحت جباناً! ولقد حول صعالكة اوديسا كلامنا الى مهزأة: «ما الذي كافحنا من أجله!» أنا أعرف لماذا كافحت! فحينما التقي بأخيك، لن أتحدث معه هكذا عن الطبيعة وعن قضايانا المتعلقة بالشؤون الزراعية. لا، انني لا أريد التحدث بتاتا عن مثل هذه الأمور، لعنة الله عليها ثلاثاً، ان ما أريد معرفته هو، ما الذي يجري في موسكو، وما الذي يفكر به قادتنا وما هي أنفاسهم وأفكارهم. وهل يعقل أن ندخل في حرب مع الفاشيست قبل أن نرتب أمورنا الداخلية؟ أما أنت فعليك ان تتابع أخاك وما

يقوله، ومن ثم أطلعني على ما يقول. طبعاً بالنسبة لك فمن منزلة القرابة يمكنك أن ترى الأمور أفضل.

نهض ايفان ستيبانوفيتش مدمدما واطلق زمجرة محبوسة، ودلك قطنه بباطن كفه طويلا، وقال له مودعاً:

– لقد انفعلت تماماً بصحبتك، واضطربت أعصابي، والآن سيضايقني ألم الظهر اللعين، وسيقيدني وفق كل قواعد فنون الحرب. من الضروري أن أسافر الى كولخوز بيريا، ولكن كيف سأسافر؟ انه لأمر مخجل، يترتب علي أن أطلب من زوجتي وسادة قديمة لاضعها تحتي، والا فلن أتحمل الجلوس في العربة. – وتنهد بصعوبة: – واي محارب كنت، وكيف كنت مقداماً واشتعل حماساً كالنار الملتهبة! يا الهي، ولماذا أطلق اسم بيريا على هذا الكولخوز؟ وما الداعي لذلك، واي أحمق بليد فكر باطلاق هذه التسمية عليه؟ والشيء المهم، لمه؟ ولم ضعضعة أعصاب من وجد نفسه تحت تصرف ادارته، دونما اي سبب؟ فالكولخوز جيد والناس فيه كادحون طيبون، وحينما تسافر الى هناك، تبدأ تشعر بغثيان، أسوأ من غثيان المرء بعد افراطه في شرب الخمر... نحن أساتذة في كل فنون اللف والدوران والمراوغة، آه أساتذة، فليصبه الله بقرحة في كبده بيريا هذا! أنا ذاهب، يا ميكولا! انني في انتظار بعض الأخبار منك.

* * *

وصل ستريلتسوف الى المحطة قبل قدوم القطار بساعة. كان الوقت يقارب الساعة التاسعة صباحاً. منذ فترة قصيرة نزل مطر خفيف، وأخذت تفوح من طرق السكك الحديدية رائحة غير رائحتها العادية: ليست رائحة دخان فرن القاطرات، والمازوت، وفضلات الفحم المجروف فحسب، بل ورائحة البقة، رائحة الأرض، التي رطب المطر غبارها،

والاعشاب المبللة، ومن أكوام الخشب الحديثة الكبيرة المصبرة قرب بناية مستودع البضائع الحمراء التي يتصاعد منها البخار انبعثت، فجأة، روائح الصنوبر والصمغ العطرة التي تدوخ الرأس، حتى خيل لستريلتسوف، للحظة، أنه يسير في حرش صنوبر في ظهيرة يوم قائظ، ويسمع ازيز قاطرة المناورة كما لو أنه خفيف أشجار الصنوبر الباسقة المعمرة. توقف ستريلتسوف لهنيهة، وحتى أنه أغمض عينيه، واستنشق رائحة الصنوبر بمتعة، مبتسما ابتسامة هادئة عائدا بفكره الى أيام طفولته النائية التي لا تفارق ذكرياتها مخيلته. اذ انه، مهما كان، من أم فقد ولد في مقاطعة فولوغدا النائية المحاطة بالغابات، وعاش فيها حتى بلغ الثامنة. وهكذا يتضح، حتى ان ربع القرن – هذه السنين الطويلة التي امضاها في سهوب جنوب روسيا المترامية الأطراف، لم تستطع ان تؤثر في تعلقه وحبه لأريج الغابة وعبير الصنوبر اللطيف المنعش... «ان طبيعة الانسان لغريبة»، – فكر ستريلتسوف، صاعداً الى رصيف السكة الحديدية، بصعوبة والتفت مرة أخرى، ليلقي نظرة على أكوام الألواح الخشبية الذهبية الشاحبة على الجانب الآخر للرصيف. الآن، كانت الشمس المطلة من وراء السحب تلقي بأشعتها عليها، وبخار خفيف يتصاعد من الألواح العلوية الخشنة التي تعتمت من تأثير المطر، وكانت رائحة الصمغ القوية اللطيفة، والرائحة الأليفة لمنشآت المستقبل والحضارة، تنبعث وتنتشر الى مسافات بعيدة.

مساء أمس، دخل ستريلتسوف غرفة نوم أولغا، بعد أن طرق الباب. كانت تمشط وترتب شعرها قبل النوم وهي واقفة وظهرها نحو الباب. لمح ستريلتسوف جيدها الذي نحف بعض الشيء، ونظر الى النقرات الداكنة قرب أذنيها الصغيرتين. وحاول، مجتهدا، دون جدوى، كبت شعوره بالشفقة، ذلك الشعور الذي لا داعي له، وقال بصوت خافت جدا:

– لي عندك، يا اولغا رجاء وحيد، سياتي الكسندر، فكوني حريصة كل الحرص لئلا يلاحظ... حتى لا يلاحظ ما بيننا...

ادارت وجهها نحوه ملتفتة بحدة. وعلت شفتيها ابتسامة تنم عن التالم. وأخذت تنظر الى ستريلتسوف من أعلى رأسه الى أسفل قدميه، شاعرة بالتهيب والخشية، وهمست:

– سأحاول، يا نيكولا، وأنت... أباستطاعتك تمالك أعصابك؟

أومأ ستريلتسوف برأسه وخرج، مغلقاً الباب خلفه بهدوء.

كان ستريلتسوف يمشي على الرصيف المقفر، ويدخن متذكرا حديث مساء الأمس مع زوجته، وابتسامتها التي تثير الألم والشفقة، وهو مطبق بشدة على أسنانه، شاعرا بتمزق قلبه شفقة على اولغا السابقة، لعذابها المضني...

مرت عربات البضائع متثاقلة، ومحدثة جلبة وقعقعة شديدتين، تجرها قاطرة «ف. د»* البخارية. وظلت رائحة الزيت الساخن التي خلفتها القاطرة الجبارة وراءها عالقة في الهواء فوق الرصيف لمدة طويلة. ثم ظهر قطار سريع.

في هذه المحطة الصغيرة، لم ينزل منه سوى عدد ضئيل من المسافرين.

خف ستريلتسوف مسرعاً من نهاية الرصيف. قرب العربة السابعة كان يقف شخص متوسط القامة، عريض المنكبين. يرفع قبعته اللبادية القاتمة، عالياً، فوق رأسه. وقد تغضن وجهه الضامر الشاحب مبتسماً، وكقطع جليد أوائل نوفمبر – تشرين الثاني – برقت من تحت حاجبيه اللذين وخطهما الشيب عيناه الزرقاوان اللامعتان، الجاحظتان الدامعتان.

أخذ ستريلتسوف يوسع خطاه، ثم لم يصبر، فراح يركض كصبي، فاردا ذراعيه على وسعهما لمعانقة القادم.

* «ف.د» – ماركة «فليكس دزرجينسكي».

* * *

بعد قدوم الضيف، وعلى مدى اليومين التاليين، تغيرت الحياة في أسرة ستريلتسوف تغيراً شديداً. اذ دبت الحيوية والنشاط والبهجة باولغا، ونادراً ما كانت تخرج من البيت، واقبلت برغبة شديدة وكسابق عهدها على مساعدة سيرافيما بيتروفنا في الطهو وسائر الأعمال المنزلية الاخرى. وحتى كوليا الصغير كانما استرجع لحين من الزمن طفولته المفقودة: لم يفارق عمه خلال اليومين، وظل يلازمه كظله في نزهاته في سوخوي لوغ، وفي الليل لم يكن لياوي الى فراشه الا بعد استماعه الى قصة او حكاية اخرى يرويها له عمه الكسندر، الذي حنكه الدهر وعركته التجارب، عن الحرب الأهلية وهو يصوغها بطريقة تتناسب والطفل الذي كان يستمع الى محدثه مسمراً عينيه المندهشتين على وجهه، وبعدها يستلقي في فراشه ويمضي فترة طويلة وهو يحملق بعينيه الواسعتين وابتسامة سعيدة حالمة مرتسمة على شفتيه، وفي الليلة الثانية وقبل النوم، صعد الصبي الى فراش سيرافيما بيتروفنا، وهمس في اذنها منفعلا:

– ياجدتي، العم الكسندر، بالمناسبة، قال لي بان القائد جلوبا كان مجدور الوجه. وهل يعقل أن يكون القائد الحقيقي بوجه مجدور؟

أخذت سيرافيما بيتروفنا، الضحوك بطبيعتها والميالة للمرح والدعابة دائماً، تهتز من ضحكها المكتوم.

– وي، يا كوليا! ولم لا يعقل؟ كل انسان معرض للاصابة بالجدري، وهذا المرض ليس مقصوراً على فئة معينة من الناس.

– أما انا فقد كنت أعتقد أن المجدورين ما هم الا قطاع طرق، – مط كوليا كلامه بخيبة أمل، وعاد ببطء الى فراشه وهو يفكر في هذا الاكتشاف الجديد في حياته.

وبعد لحظة، قال باستياء:

– لا أرى ثمة داعيا الى الضحك، وكفي من فضلك عن حركة الاختضاض هذه تحت لحافك. انك تهزين السرير ولهذا لا أستطيع النوم. يالك من امراة حمقاء خرقاء!

– يا الهي! اين سمعت هذه الكلمة؟ – سالت سيرافيما بيتروفنا مشدوهة.

– البارحة واثناء سيرنا، انا وعمي الكسندر، سمعت امراة تشتم وتسب جارتها بعبارات بذيئة. فقال لي عمي: «لا تصغ اليها، انها امراة خرقاء». وانت خرقاء مثلها أيضا.

– ولكنني ياكوليا لا أنهال على احد بالشتم والسباب ولا اقذع في الخطاب.

– انك تضحكين ليلا، في حين لا يضحك غيرك أحد، وتمنعين مقلتي عن الاغفاء، فانت اذن سخيفة، يا جدتي! – واستمر يكرر ببطء ناطقا الكلمات في تثاؤب بصوت واهن يغالبه النعاس. – لكن المجدورين كلهم لصوص وقطاع طرق ورجال عصابات وانا متأكد من ذلك. فها هو الجد فاسيلي، النجار، انت تعرفين انه مجدور الوجه ايضاً. لقد سالته حينما كان يصلح سياج المدرسة: «أيها الجد فاسيلي، هل كنت قاطع طريق في شبابك؟» فاجابني: «طبعا، وأي قاطع طريق! وعلى الاخص فيما يتعلق بالنساء». وسالته: وكيف هذا «فيما يتعلق بالنساء»؟ فقال: «كنت أتسلل الى أديرة الراهبات وأسلب منهن من أشاء» الا أنه لم يخبرني اكثر من ذلك، واكتفى بمسح شنبه وبرمه. أما عيناه فكانتا تبرقان وكانهما تضحكان، ثم وضع كمية من المسامير في فيه، وكف عن مبادلتي أطراف الحديث، وأنشأ يدق الالواح الخشبية بالمسامير وبضربتين لا غير كان المسمار ينفذ في اللوحة الخشبية حتى آخره ناشبا فيها ويلتصق رأسه المسطح على الخشبة، وعلى الرغم من كونه قطاع طريق، الا انه عجوز طيب وعيناه دوما كانهما من البشاشة تضحكان، وهو لا يلعن ولا يشتم قط، ولا يتفوه بالكلمات البذيئة القذرة أو «السوداء» كما تصفينها. وذات مرة وعلى مرأى مني أهوى، خطأ، بضربة قوية من مطرقته على اصبعه

ولكنه لم تند عنه سوى: «آه» مدوية من شدة الألم ثم عبارة: «ان الله يحب أمك!» أهي مسبة لائقة يا جدتي، أم لا؟ أتسمعينني يا جدتي، أم أنت نائمة؟

دفنت سيرافيما بيتروفنا رأسها في الوسادة كاتمة أنفاسها، وظلت صامتة لا تجيبه، ولا تنبس ببنت شفة، وحينما أطلقت العنان لضحكها، كان الطفل قد أغفى وراح يتردد من أنفه أزيز خافت.

كانت سفرته بالسيارة، الى مركز المحافظة، برفقة عمه الذي سافر لتسجيل اسمه في قيد اللجنة الحزبية للمنطقة، بمثابة حدث هام بالنسبة له، اذ اتيحت له فرصة لتناول الطعام على قدم المساواة مع عمه والسائق، وعلاوة على ذلك، اذا كان نصيب عمه والسائق قدحاً من الفودكا لكل واحد منهما، فحسب، فكان نصيب كوليا الصغير زجاجة كاملة ولكن من الليمونادة الذي لم يسمع به في سوخوي لوغ، حتى مجرد سماع.

عادا من السفرة وقد أصبحا صديقين حميمين الى حد عجيب. اذ لم يكن من الصعب على العم ذي القلب الطيب والمرح أن يستحوذ على قلب الصبي ويجعله يتعلق به كل التعلق. وأثناء تناول طعام العشاء وحينما قال كوليا: «انني، يا عمي الكسندر، افكر بالانتقال من غرفة جدتي الى غرفتك، وعلى أية حال فأنت رجل، واعتقد أنني سأرتاح اكثر في نومي بجوارك»، – ثارت اولغا مشدوهة، وصرخت به: «يا كوليا! كيف تتجرأ على مخاطبة عمك بصيغة المفرد قائلا له: «أنت*»؟ اعتذر منه الآن حالا، أيها الصبي غير المؤدب!» ولكن الكسندر سرعان ما هب لنجدة صديقه: «لقد اتفقنا على التخاطب بـ «أنت» فهذا أسهل بالنسبة لنا في عشرتنا الدائمة».

لا يسعك أن تقول شيئاً، فقد كان من المحاربين القدامى –

---

* كان عليه أن يخاطبه بصيغة الجمع وفق آداب الحديث واصول التربية لكونه اكبر منه سناً.

اجتماعي المعشر ومتواضعاً بسيطا وبوسعه ايجاد مفتاح الى كل قلب. وقد سحر اولغا بلطفه ومحاباته وبمجاملاته البسيطة لها وباعجابه، غير المكتوم جيداً، بجمالها. وقد ادركت هذا تماما ولمحته وهو يختلس النظر اليها باعجاب، وشعرت لذلك بالفخر والزهو حتى أنها أبدت بعض التدلل والدلال بشكل لا يتجاوز حدود صلة القربى. ولشدما دهشت سيرافيما بيتروفنا ببساطة الضابط الضيف، وبكونه خدوماً وشدهت تماماً، واستغربت لكونه عثر، في الممر تحت المشجب، على حذائها المخروق واصلحه بمهارة واتقان، وكما لو كان اسكافيا ماهرا أو صانع أحذية يعمل في ورشة لصناعة الأحذية. ومن أجل ذلك، حصل كوليا الصغير على مخرز وخيط مشمع رفيع من عند جارهم الحذاء، وأصلحا الحذاء في الاسطبل لئلا يراهما أحد.

أما ستريلتسوف، فكان ينظر الى أخيه، ويلاحظ تعوده وتاقلمه السريعين الشديدين على الحياة في بيته، ويكتفي بالابتسام مسرورا بينه وبين نفسه.

– أين احترفت صناعة وتصليح الأحذية، يا ألكسندر؟ – سأله وهو يتأمل خذاء حماته.

– في المعتقل، – أجاب الكسندر باقتضاب. – وبالطبع لم نتعلم هذه الحرفة في أكاديمية فرونزه، بل في أكاديمية أخرى: وباستطاعتي العمل كصانع أحذية أو مواقد، وأنا أتقن حرفة النجارة الى حد ما. لا شر بدون خير ورب ضارة نافعة. لكنني يا أخي، لم أحصل على هذه الحرف بسهولة، فقد كلفتني في تلك الظروف هناك...

وهنا دخلت سيرافيما بيتروفنا الى الغرفة، فانقطع الحديث.

* * *

في صباح يوم السبت الباكر قصد الكسندر وكوليا النهر لصيد السمك. وبعد انقضاء ساعتين عادا بمهابة، فخورين بما اصطادا، وطلبا من سيرافيما بيتروفنا وعاءاً

كبيراً مطلياً بالميناء، وأفرغا صامتين، وباعتداد الصيادين وشموخهم الحقيقيين، من سطل حفظ الاسماك مجموعة من الاسماك النهرية الصغيرة وهي تخفق وتشهق.

قال الكسندر:

– عزيزتي سيرافيما بيتروفنا! ان هذه الأسماك الصغيرة اللطيفة يبلغ عددها الثلاثة والستين بالتمام والكمال. فاذا ما نظفت وقليت بسمن البقر الصافي حتى تقرقش، ومن ثم اذا ما أضيفت اليها عشر بيضات، فلا فطور أفضل من هذا! وهو حلم كل صياد سمك حقيقي!

وعند الانتهاء من الفطور، وحينما انسل كوليا تاركاً المائدة متسللا دون ان يلاحظه أحد، أطال الكسندر النظر بعينين ضاحكتين الى سيرافيما بيتروفنا، وهو ينقر بأصابعه على المائدة، ويبتسم مشاكساً.

– لم تضحك هكذا يا ألكسندر؟ – سألت سيرافيما بيتروفنا، وقد احمر وجهها لا ارادياً.

– انا لا أضحك، انني سعيد ومغتبط، وقد يكون في ابتسامي وأنا أنظر اليك بالفعل شيء من السخافة. انني افكر: لا شك أنك كنت امرأة رائعة الجمال في شبابك! حتى الآن لا تشبع عيناي من النظر اليك ولا ترتويان، ولكن كيف كنت قبل عشرين سنة؟ أغلب الظن أن الرجال كان يغمى عليهم ويسقطون أرضا صرعى جمالك الرائع وحسنك البديع.

– ولا شك، يا ألكسندر، أنك كنت في شبابك، هماماً مقحاماً...

– لم الحق أن أكون مقحاماً، يا عزيزتي، لم يتح لي المجال، لقد استنزفت الحرب مني كل شيء!

– كل شيء على الاطلاق؟

– على الاطلاق! المعذرة، لقد استدعيت للخدمة في الجيش القيصري وأنا في العشرين من عمري، ثم أمضيت اربع سنوات في الحرب العالمية، ثم حلت الحرب الأهلية، وبعدها شاركت في محاربة قطاع الطرق وغيرهم من رجال العصابات، ومن ثم تزوجت. ومتى كان بمقدوري ابداء

براعتي؟ أما أنت – فالأمر بالنسبة لك يختلف. هل ترملت في وقت مبكر...

– وأنا في الحادية والعشرين من عمري.

– قوزاقية طليقة في الحادية والعشرين!

– طليقة، وهل هذا حسن! وكيف بالنسبة للطفلين الصغيرين اللذين كانا معي؟ واية طليقة! كنت كالسجينة تقريباً.

– في أية سنة ترملت؟

– في سنة ١٩١٨ م.

– ياربي، وكيف لم التق بك في تلك السنين الرائعة؟ اذ انني مررت ضمن فوجي عبر قريتك مارى – اوبول.

– اذن، لم يكتب لنا أن نلتقي، – تنهدت سيرافيما بيتروفنا بحسرة. وقهقهت بحماسة كحرارة الشباب وهي تقول: – ولكن ما الفائدة حتى لو التقينا؟

رفع الكسندر حاجبيه الابيضين متصنعا الدهشة:

– كيف «وما الفائدة»؟ لو صادفتك اذن لاوقعتك في أسرى.

– وماذا لو في اسرك؟

– لألقيت عليت عباءتي، حتما، ولقلت لك «أنت لي!» ولا جدال في الامر.

– لم يبخل الله عليك بالثقة الزائدة بالنفس، الا انني، حينها، كنت خفيفة الحركة رشيقة لدرجة وكان بوسعي الافلات من تحت عباءتك!

– عفوا، يا سيرافيما بيتروفنا، ما كنت لتستطيعي الافلات من تحتها! كنت سألقيها عليك بحيث لا يمكنك الافلات منها. اذ أنني كنت أيامها شابا ملتهبا همة ومتوقدا! أما الآن فقد اصبحت شعلة النار... وتصوري، للحظة، قائد فوج في سن الرابعة والعشرين ينتعل جزمة، ذات مهماز ضباط صغيرين، تجلجل قليلا، ويرتدى سروال خيالة أحمر اللون من الجوخ، ومعطفا جلديا، وعلى يساره سيف ذو مقبض مزخرف بالفضة وتنتهي حمائله المجدولة بشراشيف

متراقصة وعلى يمينه مسدس من نوع ماوزر ذو مقبض من الخشب مطعما بالعاج وعلى رأسه باباخا مائلة قليلا، وفي عينيه تلتهب نار زرقاء... ويشع منهما البريق! وينضح العناد! لا تأخذه رحمة بالجنس اللطيف! فاذا ما سرت في الشارع بخيلاء متبخترا بمثل هذه الملابس المدهشة فاذا بالنساء اللواتي يصادفنك على قارعة الطريق يغضضن من أبصارهن أمام نظراتك النارية. فلا تسمع من خلفك الا الحسرات الخفيفة والآهات اللطيفة تتبعك... أما بعضهن فانهن...

– وماذا تعني بقولك «فانهن»؟ – اتكأت سيرافيما بيتروفنا بمرفقيها على المائدة، وأخذت تنظر الى محدثها بعينيها الدامعتين من الضحك، وشفتاها المتوردتان ترتعشان، غير قادرة على كبت بسمتها.

– وكيف ماذا اعني؟ أعني أنهن يشعرن بشبه غيبوبة، هذا ما أعنيه! وفي بعض الأحيان، خاصة في الحالات الخطيرة جداً، يصبن بصدمة نفسية، لا أكثر ولا أقل. فنحن، آنذاك، لم نكن من المازحين، يا سيرافيما بيتروفنا! وحتى، في الوقت الحاضر، أصادف أحياناً نساء من جيلي أو أصغر، لم يفرجن عن أحزانهن بالبكاء بعد، فأفكر بصورة عفوية: «وها هي ضحية أخرى من ضحايا الحرب الأهلية وقلة الحذر. اذ وجهت نظراتها الثاقبة وأفرطت بالنظر الى شاب وسيم لاتتخطاه العيون هكذا، كما كنت انا، فرضاً، واليك النتيجة، تفضلي فانظري – لقد تحطم قلبها شر تحطيم والى أبد الآبدين!» لن يمر كل هذا بلا أثر على جنسكم اللطيف، لن يمر ولا أمل لهؤلاء النساء في الشفاء! ولكن كيف كان بمقدورك البقاء سالمة، لو التقيت بي حينذاك؟!

– ورغم كوني غير مؤمنة، الا انني أعتقد أن القديسة بربارة – حامية النساء الضعيفات – ولا أحد غيرها هي التي وقتني. فلم التق بك، وسلمت!

– ولم كان حتما على بربارة هذه التدخل في شؤوننا؟ ومن الذي رجاها ان تفعل هذا؟ آه، من هؤلاء النساء، حتى

ولو أنهن كن من القديسات! فلقد ضاع كل شيء بسبب هذه القديسة المسماة بربارة!..

ضغط الكسندر بيديه على رأسه الذي بدأ يعلوه الصلع وانشأ يهزه بتكدر وتأثر ويهتف متظاهراً بالحيرة:

– لقد ضاع كل شيء، ان الذنب كله هو ذنب بربارة! انها ليست قديسة بالمرة، بل هي المتآمرة المدمرة لسعادة الآخرين، ولنا في هذا فوق كل ذلك حسود! يا الهي ما أسخف النساء في شعورهن، وحتى القديسات منهن!

– كفى، يا عزيزي الكسندر! انني لم أعد أحتمل اكثر من ذلك! – رجته سيرافيما بيتروفنا وهي تلهث ضاحكة وبصوت كصوت الشاكي والباكي.

كانت اولغا تبتسم بهدوء، وتصغي الى العجوزين اللذين انجرفا في حديثهما اللعوب، في ذلك الوقت كان ستريلتسوف يتكلم بصوت خافت بالتلفون:

– ... انه صامت... لم يحصل أي شيء، يا ايفان... وانا أيضاً أعتقد هكذا. ولكن، انتظر. سأخبرك في الحال بكل أمر عند حدوثه. طيب، الى اللقاء.

خرجت المرأتان لمزاولة أعمالهما المنزلية، وما فتىء الأخوان جالسين قرب المائدة، يحتسيان شايا ثقيلا، على الطريقة القديمة وهما يقضمان السكر، ثم يرتشفان بعد ذلك، ويتحدثان بتأن وتؤدة.

تسربت من النافذة المفتوحة على مصراعيها، ريح دافئة، وأخذت تهز الستائر وتنفخها كالأشرعة، وجلبت معها الى الغرفة، مزيجاً من روائح البطونة، بقلة الرئة، والبنفسج الليلي النامية تحت النافذة والتي بقيت آثار روائحها اللطيفة منذ الليل والرائحة الكريهة المرة لنبات الشيح، المسترخي تحت الشمس، والمنبعثة من المرعى السهبي الذي يمتد حتى صحن الدار بالضبط. وراحت نحلة طنانة دخلت الغرفة، تطنطن بطنين حاد مستمر ثابت في مكان ما تحت السقف. وكانت درف النافذة تحدث صريفاً حاداً كئيبا.

وقبل أن ينهض الكسندر عن المائدة، رنا بعينين كليلتين الى أخيه، بصمت، ثم قال بصوت هادىء:

– انني أنظر اليك، يا نيكولاي، فتتملكني الدهشة: ما أشبهك بأمنا! نفس الابتسامة، ونفس حركة الكتفين وهزة الراس، ونفس الحاجبين والعينين حينما يعارضك أحد... الا ان عينيك السوداوين قد اختلفتا عن عيني أمنا، واصبحتا كثيبتين نوعا ما... ماذا، هل بدأت تشيخ؟

– لقد آن الأوان. اني تخطيت العقد الرابع من عمري ردون أن أدري... لم أدر أبداً، يا الكسندر! السنون – كلها تمر كما في المنام!

أدار نيكولاي وجهه الى النافذة – اما بفعل اللهجة الودية التي قيلت بها عبارات أخيه الأكبر أو بفعل تذكره المفاجىء لوالدته المرحومة – واذا به، بغتة، يشعر باشفاق شديد لايطاق على نفسه، كما كان يشعر في الماضي في أيام طفولته. أبسبب ان شبابه قد ولى، بالفعل، مختفيا وراء أفق السهب البعيد متلاشياً في سديمه الأزرق، أم بسبب حياته العائلية المحطمة التي لا يمكن اصلاحها، – ان لحظات الألم التي عاناها كانت حادة وكأن ناراً تلعقه بلسانه اللاذع، وجعلت نيكولاي يحس بالدموع الحارة في عينيه، فخجل منها، وخجل من حساسيته الصبيانية، وقال بحيوية، وهو لا يزال مستديرا بوجهه نحو النافذة.

– دعنا من الأمور المحزنة! ففي مثل هذا الصباح لا يحسن الحديث عما هو محزن ومكرب. أتعرف أن الذكرى التاسعة لوفاة والدتنا، حلت قبل وصولك بيوم واحد، بالضبط... آه كفى!

فتذكر فجأة الكسندر ملاحظاً تأثره:

– انه لصحيح، يا أخي، انني لم أتطرق الى هذا الموضوع في الوقت المناسب. ولكن ماذا بوسعك أن تفعل، فهذه الذكريات لا تبالي بمزاجك، وتأتيك متى شاءت، وفي أي وقت من اليوم، مثل وجع الأسنان. ولم لم تخبرني عن ذكرى الوفاة، لدى وصولي؟ حسناً، أعرف، كفى. اسمع،

يا نيكولاي، ما قولك لو ذهبنا الى رحلة حقيقية لصيد الأسماك. أتذكر حينما كنت تتباهى بكثرة السمك. ولقد قلت بأن النهر فيه مكان عميق على بعد حوالي عشرة كيلومترات. ما رأيك لو بتنا هناك؟ فاذا ما اصطدنا نحو عشرين فرخا نهريا على الأقل، طبخنا منها حساء على ضفة النهر... ما رأيك بهذه الفكرة، يا نيكولاي.

– رأيي: حتى الثانية عشرة – استعداد، ومن ثم أقرن حصاني الأسحم – وهيا.

– هذا يعجبني! وبم يمكنني مساعدتك؟

– كل ما هو مطلوب عدم التدخل لئلا تشوش علي تدبير الامور.

– وهذا، أيضاً، يعجبني أكثر. لا تنس أن تحسب حسابي بتدبير بنطال قديم لألبسه. اذ انني لن أذهب لاصطياد السمك بالبدلة.

– حاضر! اسمع، ابحث عن كوليا لجمع ديدان الزبل. انه يعرف أين يمكن الحصول عليها. ولكن الرجاء ألا تكون متساهلا معه بافراط، فلن نأخذه معنا، في الليل ، سيأكله البعوض هناك ويشبع جلده لسعا.

– سنبحث عن الديدان، يا نيكولاي، وسنقنع الصبي بعدم لزوم الذهاب معنا، ولكن لم الانطلاق في عز الحر؟

– ألست تريد حساء السمك الطازج؟ اذن فعلينا بالتوجه في وقت مبكر، لكي نطبخ السمك قبل غياب ضوء النهار، ولئلا نضطر الى طهوه في عتمة الظلام.

– هذا كلام معقول: سوف نتوجه في الوقت المناسب دون الاكتراث بوقدة الحر. انني على استعداد لأية تضحية من أجل حساء من الأفراخ النهرية. وكل ما نحتاجه هو اصطياد نحو عشرة منها لا أكثر. أو لن نتمكن من ذلك، ياترى؟ فاذا ما وعدتني بصحن من هذا الحساء الجيد، فسأذهب سيراً على الأقدام!

في حدود الساعة الثانية ظهراً كانا قد وصلا الى النهر. فك ستريلتسوف الحصان من العربة، وعقله، ووضع كل

ادوات الصيد في قطعة كبيرة من اللباد، واقترح على الكسندر:

– تعال لتلقي نظرة على لسان النهر العريض المنبسط. انه يسمى بتجويف باخوم. كان العجوز باخوم قد غرق هنا في غابر الأزمان، وبهذه المناسبة سمي التجويف باسمه، أنا واثق من أن هذا اللسان سيعجبك.

شقا من خلال الخمائل المتشابكة طريقهما غائصين في الرمل اللين حتى رسغي قدميهما، وانحدرا سالكين منحدراً غير شديد الى لسان رملي ضيق.

كان سطح الماء الهادىء كالمرآة الذي يناهز عرضه الستين متراً، يشبه حوض غسيل ضخم مثبت في الأرض. وكانت الضفة المقابلة للمجري قائمة الانحدار تحف بها غابة قديمة لم تمس ولم تقطع أشجارها ولم تنظف، وتنمو فيها اشجار مختلفة: قصيرة، بسيقان ضخمة يبلغ محيطها باعين أو ثلاثة، وهناك أشجار البلوط، والحور الأسود باغصانه المتداخلة المتشابكة مع اغصان التفاح البري، والصفصاف، والحور العادي والرجراج، – كانت كل هذه الاشجار الورقية المتداخلة والمتشابكة بكثافة تمتد على طول الضفة المتعرجة المصقولة، وفي البعد، في المنطقة المتاخمة للسهب الكثير التلال تلوح أشجار الحور الاسود والدردار برؤوسها الباسقة الشاهقة بمهابة، وبجذوعها الثخينة الخضراء الشاحبة كالاعمدة المرمرية.

كانت الغابة، مقابل المنحدر المؤدى الى النهر مباشرة، تنقسم الى قسمين مكونة ممرا عريضا. في حين تتوسطه شجرة حور رجراج بهية الجمال وارفة الظلال، متشعبة الاغصان، لدرجة أن قطيعا كاملا يبلغ عدده حوالي ثلاثمئة رأس من الغنم كان يستظل في فيئها بحرية. فالاغنام التي أعياها قيظ الظهيرة، والمنقسمة الى عدة مجموعات، كانت تتزاحم في حلقات، رؤوسها الى الداخل، ونادرا ما تحرك قوائمها الخلفية، وتزنخر بصوت خافت. وكانت رائحة الحظيرة المتنقلة للاغنام حادة لدرجة كبيرة وتصل الى الضفة الاخرى.

وتحت أشعة الشمس المحرقة كان الراعي العجوز ذو الحية الشائبة يقف بلا حراك مستنداً على عصاه بكلتا يديه، معصباً رأسه بخرقة حمراء كالحة، يرتدي سروالا جنفاصياً قذراً، وقميصاً طويلا حتى ركبتيه، وحزامه أسفل خصره.

كان في هذه اللوحة الرائعة شيء ما اسطوري يوحي الى الماضي السحيق: أشجار الدردار السرمدية، الراعي العجوز واغنامه، الغابة العذراء التي لم تمسها يد الانسان، السكون الموحش الذي نادرا ما يمزقه صفير الصفاريات ونواح القماري، – كانت كل هذه الأشياء كما لو انها خرجت من اطار لوحة فنان قديم ودبت بها الحيوية واخذت تنطق واكتست بألوان زاهية لا مثيل لها.

نظر الكسندر الى اخيه بعينين براقتين، وقال هامساً:

– انها، يا نيكولاي، كما في القصص الخيالية! يا لها من روعة، ما كنت أحلم، أبداً، برؤية مثل...

– انها منطقة جيدة، – قال نيكولاي ببساطة. – هيا نذهب بأمتعتنا الى الماء، سنصطاد السمك، وسنبيت على الجهة الأخرى.

– ولكن أين الزورق؟

– غائص في الماء، سآتي به حالا. لا تنزع حذاءك، الرمل حار جداً، لن يمكنك الوقوف عليه.

– ماذا تقول، يا أخي، وهل تريدني أن أسير على هذا الرمل البكر، الذي لم تطأه بعد قدما انسان، منتعلا حذائي؟ لن أقدر ان هذا – لكفر!

وجلس على الرمل، وبسرعة، نزع جزمته القصيرة وجواربه، وحرك أصابع قدميه شاعراً بالمتعة. وبعد ذلك، وعقب تردد قليل، نزع بنطاله. فتكشفت بطتا رجليه مترهلتين زرقاوين شاحبتين تغطيهما بقع داكنة مختلفة. فما ان لاحظ الكسندر نظرات اخيه، حتى ضيق عينيه وقال:

– أتظن انها آثار خروق الرصاص؟ لا، انها ليست آثار أعمال بطولية. ان هذا الجمال هو نتيجة عملي في

قطع الأشجار. أصبت بالبرد، فالاحذية في المعتقلات تلك... فأخذت الدمامل تخرج من رجلي. كدت أنفق. ليس من الأمراض، بل من سوء التغذية. وكما هو معروف: «من لا يعمل، لا يأكل»، وعلى الأصح، يقللون من حصته والتي هي قليلة أصلا. وكيف بوسعك العمل وأنت لا تستطيع الوقوف على قدميك؟ كان الرفاق يطعموننا. ففي مثل هذا الظرف، كما في سائر الظروف الحرجة، تعرف مدى أهمية رفاقك! وبم تظننا، كنا نعالج الدمامل؟ كنا نعالجها برماد التبغ. لم يكن هناك علاج أنجع منه. وهكذا تمت الأمور بسلام، غير انني أصبحت حتى ركبتي نمراً ارقط، أما فوقهما – فلاشيء من علائم هذا الوحش الكاسر، بل أنا على العكس: نباتي وحيوان مجتر بمعنى الكلمة. أرجو، مؤقتا...

كان الكسندر مستندا بكلتا راحتيه على الرمل، ومقعسا رأسه الى الوراء قليلا ويتأمل أخاه من أعلى رأسه الى أخمص قدميه، مبتسماً بصورة لم تتوافق فيها ابتسامته الطفلية الطيبة ومزاحه الفظ، بحيث جعلت نيكولاي يكتفي بهز رأسه فحسب.

– يا لك من انسان صامد، ثابت الجأش، يا الكسندر! لو كنت مكانك لما استطعت...

– هكذا محتدي وفطرتي الروسية. زد على ذلك انني جندي قديم. ومهما كان، على مواجهة كل المحن بصبر. وعلى اية حال، يا نيكولاي، ولو كنت مكاني لتحملت أيضاً! ولأجبرتك الظروف على ذلك. وعلى رأي المثل: قد يرقص الطير من شدة الألم... ولكن هيا بنا، اذ لا داعي لاضاعة وقتنا الثمين سدى، والا فلن نتمكن من صيد ما نطبخ منه الحساء. لا، هذا غير ممكن! هل من المعقول أن نبقى بلا حساء في مثل هذا المكان؟ هيا بنا فلنصطد ولو قليلا من السمك ما يكفي لطبخ حساء ولو بكمية ضئيلة! خمسة أفراخ نهرية تكفينا. انني، يا أخي، لم أتذوق طعم حساء السمك الحقيقي منذ عشر سنوات.

– لطبخ الحساء الجيد عليك أن تصطاد وحدك.

– وأنت ماذا ستفعل؟ أستكون متفرجاً؟

– علي تحضير الحطب لاشعاله في الليل، ونصب الخيمة، بالاختصار أنا – مسؤول الشؤون التدبيرية، أما أنت فالمزود بالسمك. لديك ثلاث ساعات من الوقت، ويجب تحضير الحساء في ضوء النهار، وهكذا، اذن كل شيء يعتمد على همتك...

– لن اقدر على ذلك وحدي، يا نيكولاي، – قال الكسندر بلهجة متوسلة. – بالله عليك، دعنا نصطد كلانا معاً، والا فلن يتبقى لدينا الا الشاي وحده. انني لست متأكداً من أن أوفق في انجاز هذه المهمة، أما أنت، فصياد قدير. لا، لن أقبل، الا أن نفعل ذلك معاً! وكذلك لا يجوز لنا المجازفة بهذه الرعونة. لقد رأيت سيرافيما بيتروفنا حينما وضعت في السلة الخبز، البطاطا، الشمار، البصل اليابس والأخضر، وحتى نصف لتر من الفودكا. انها لانسانة طيبة، أعطتنا كل هذه الاشياء ولا ينقص لاعداد الحساء سوى شيء بسيط – السمك واذا بك تعرض كل هذه الأشياء الى مخاطرة سخيفة لا ضرورة لها. فانا وحدي لن أستطيع اصطياد سمكة واحدة!

ظل نيكولاي مصراً على موقفه:

– أتريد حساء، اذن فاحصل على السمك. فان مشاغلي تكفيني بدون ذلك. وعلينا أيضاً أن نجمع ملء سطل من القواقع.

– ولم هذا؟

– طعماً للشبوط.

– يا نيكولاي، ان أسماك الشبوط شيء من باب الخيال. وقد لا يكون لها هنا وجود، أما بدون الحساء فهذا من المحال. وما حاجتنا الى غرنوق في السماء بينما العصفور يكاد يكون في أيدينا.

– اذن أمسك بهذا العصفور. وعلى العموم كف عن شكواك ونواحك. جنرال ونواح. تريد أن تصطاد – اذن فاصطد ولا كلام. الأسماك هنا، كما لو انها في حوض لحفظ

السمك، في حين أنت تدمدم. سننتقل الى الجهة الاخرى وسأصطاد لك حوالى عشر اسماك صغيرة، اقطع كل واحدة الى ثلاثة أقسام. ان ذنب السمك ورأسه خير طعم للفرخ النهري. لا تعلق سمكة كاملة، فهذا يستدرج سمك الكراكي، وعندئذ اقرأ الفاتحة على الصنارة! العمق هناك بطول الزورق – ثمانية اذرع، أي ستة أمتار. وغير بعيد، خلف الارض البور بقليل، جذع شجرة دردار كبيرة غائصة في الماء بأكملها، هناك مأوى الأفراخ. ستلقي الصنارة هكذا: الطول الزائد من الخيط – طول قصبة الصنارة ثلاثة أمتار – تمسك به بيدك اليسرى على شكل حلقات، وعلى يمينك من الأسفل الى الأعلى تلقي الصنارة، ويمتد الخيط بكل طوله حاملا الطعم. رصاصة الصنارة، سترها، انها صغيرة مصنوعة بشكل السيجارة، وذلك حتى لا تبقبق لدى القائها في الماء.

– هل ستطول هذه التعليمات؟ – قال ألكسندر وقد فرغ صبره.

بيد ان نيكولاي واصل كلامه بلا اكتراث.

– واضافة الى ذلك، فالرصاصة الخفيفة لا تسحب الخيط الى الأسفل خلفها. وبواسطة طرف القصبة يمكنك التأكد، فيما اذا كانت السمكة قد وقعت في الصنارة. لا ضرورة للعوامة، لانها تعيق عن الالقاء، اليك بالمدية لتقطع السمكة الصغيرة، فباستطاعتك استعمالها في حال ابتلاعها الطعم أيضاً. والآن – باشر. أما فيما يتعلق بالتعليمات – المعذرة، اذ لا يمكنك، دونها، القاء الصنارة. انني أعرف صيادي السمك في المدن – هواة لا خبرة لديهم!

وعلى الجهة الثانية من النهر حفر نيكولاي بالمجذاف حفرة في الرمل، وجر أنف الزورق بحيث أنه جعل مؤخرته تهبط الى الأسفل، وقال:

– ليحالفك النجاح! ضع هذا المشمع على مؤخرة الزورق، حتى لا تحدث القصبات جلبة حين تضعها. أولا انقعها في الماء لمدة خمس دقائق. ستصبح ذات ليونة

ممتازة. وفي وقت لاحق سأمر عليك. اربط القفص بالمسمار المدقوق على الجانب الأيمن.

وفي محاولتين لالقاء الصنارة تداخل الخيط وتشابك وتعقد. وانهمك طويلا في فك العقد وهو يشتم ويسب بصوت خافت، وأخيراً، في المحاولة الثالثة، نجح في القاء الصنارة، فاحدثت رصاصتها صوتا خافتاً مصطدمة بسطح الماء، انحنى الطرف الطري لقصبة الصنارة وهي من غصن شجرة بتولا، واستقام ثانية، – استقرت الرصاصة في قعر النهر.

لم تهبط درجة حرارة الجو. ومن تحت برنيطة القش القديمة ما زالت قطرات العرق تنهمر باستمرار على جبين الكسندر وعنقه، وتدغدغ صيواني أذنيه. وتتسرب باردة من تحت القميص الى ظهره، بيد أن صياد السمك العنيد، اكتفى، فقط، بهز راسه، وظل ممسكا بالصنارة بيده اليمنى.

كان الجو ساكنا لاتهب فيه أية نسمة، والسحب الخفيفة النادرة تسبح متثاقلة في السماء الزرقاء الكالحة المتوهجة. وبدا الماء الضارب للخضرة كثيفا، كأنه زين عباد الشمس، وليس ثمة ما يشير الى جريانه البطيء سوى فتائت القذى الطافية على سطحه. كانت الاعشاب، والضفة الرطبة، والوحل تفوح برائحة التوابل.

لم يفك الكسندر خيط الصنارة الثانية، حتى يبقى مركزاً انتباهه. لم تقع أية سمكة في الصنارة. لقد دخن الصياد السيجارة الثالثة، وعاوده الأمل، بعد أن يئس، ومن جديد تغلب اليأس على الأمل. كان طرف الصنارة جامداً بلا أية حركة حتى أن اليعاسيب الخضراء، والصفراء أخذت تحط عليه باطمئنان لترتاح. كان السكون موحشاً ولا يسمع الا تغريد هدهد رتيب، وصوت وقواق حزين في البعد. كان الوقت يمضي، وبدا الكسندر يشعر بتعاس لذيذ يسيطر عليه. وتملكته الرغبة في ترك الصيد، والتمدد على مقدمة الزورق لينام، ولكن في تلك اللحظة اهتز طرف الصنارة بحدة، ومن ثم غاص في الماء مهتزا بتشنج. وانتفض

الكسندر من مكانه منفعلا لدرجة كاد الماء معها ينسكب داخل الزورق. كانت سمكة كبيرة في طرف الخيط تنتفض بعنف محاولة الافلات. انحنت القصبة الطرية، تماماً. وتمكن الكسندر بصعوبة، من الامساك بالخيط، والقى القصبة في الزورق، وبكل أصابعه، ويديه أحس بحدة، مقاومة عنيفة لصيده. انها سمكة ضخمة، تزن زهاء كيلوغرام، لاح جانبها العريض المنقط وهي تندفع تحت الزورق. وراح جاهدا في شد الخيط، ومنفعلا للغاية، حتى تمكن الصياد السعيد، أخيرا، من اخراجها من الماء. أخذت السمكة تخفق في قعر الزورق البليل، وتلطم بذيلها مطبطبة بقوة. وبحذر ضغط الكسندر على السمكة الجميلة المرنة النافشة زعانفها بصورة عدائية والتي لا تزال محتفظة ببرودة مياه العميقة على ظهرها شاداً باحكام على مقربة من رأسها وسحب الصنارة من فمها، وأنزلها بحرص في قفص السمك المستدير المصنوع من الاغصان المجدولة. وعندها فقط لاحظ ارتعاش يديه الخفيف. ماسحاً راحتيه ببنطاله من قماش القنب، ومندهشا لانفعاله، ابتسم طويلا، ولم يستعجل في القاء الصنارة، وظل يدخن وهو ينظر بطرف عينيه الى قفص السمك، في عتمة الغسق الخضراء حيث كانت السمكة تحوم بشكل دائري ولاوية ظهرها السمين المكتنز.

«وخمس سمكات أخرى، مثل هذه السمكة البديعة، نكون قد ضمنا الحساء! وأي حساء!» – فكر الكسندر باعجاب وبهجة وهو يضع الطعم ويلقي الصنارة.

وبعد ما يقارب الخمس دقائق، اهتز طرف القصبة اهتزازا بسيطا، وانثنى قليلا نحو الماء. وبعد أن انتشل سمكة صغيرة، بحجم بقية قلم رصاص، انقادت بخضوع الى الزورق، ما كان من الكسندر الا أن تنحنح بخيبة أمل وهو ينظر الى صيده التافه. وأراد تركها، ولكنه تذكر المثل القائل: «ليس المهم في الصيد الحجم بل العدد» – ووجدت السمكة الصغيرة نفسها في القفص أيضاً.

انخفضت درجة الحرارة، واختفت الشمس خلف سحابة

مستطيلة، وهبت نسمة، وازداد نقر الأسماك للطعم. واذا بسمكة فرخ كبيرة تزن اكثر من كيلوغرام، أخذت تسبح في العمق المعتم الغامض طويلا وهي تشد الخيط الى الأسفل بقوة وعناد، وأنشأ الكسندر يسب هامسا بالشتائم الغليظة، وهو يمد يده اليسرى ولا يقدر على الامساك بالخيط، لقد سقطت السمكة في الزورق، وكانت قد قفزت عالياً بحيث أنها كادت تقع في الماء. ومن جديد أحس الكسندر بارتعاش غريب في يديه، وبسعادة غامرة عارمة مصحوبة بشيء من القلق.

لقد توقف الزمن، كان الكسندر يراقب طرف القصبة بعينين مغرورقتين. تملكته رغبة شديدة في التدخين، ولكن لم يكن لديه مجال ليخرج سيجارة من جيبه. اصطاد سمكة ثالثة كانت متوسطة الحجم والتهمت الطعم بنهم.

فبعد أن افلتت السمكة الأولى التي تدل مقاومتها على انها كبيرة، بدأت الأسماك تفلت الواحدة تلو الأخرى. أفلتت سمكة الفرخ الرابعة من الصنارة وكادت تصطدم بالزورق. وتوقفت على سطح الماء مشدوهة، وخفقت بومضة خضراء وتلاشت في عمق الماء.

— كلا، ان الصيد بلا شبكة الانتشال—عمل صبياني!— قال الكسندر بصوت مبحوح مسموع، وبصق متكدراً على ذلك المكان الذي ظهرت فيه السمكة منذ برهة وجيزة.

وبعد انقطاعه عن التدخين لساعتين، عدل الكسندر ظهره، وأخذ يدخن شاعراً بالمتعة. ومن خلفه، اقترب أخوه من الجرف بخطى غير مسموعة، وأطال النظر اليه، وهو يضحك بصوت خفيض.

— انك، يا الكسندر، بقبعة القش هذه تشبه، الى حد غريب ذلك العجوز — زارع البطيخ. وتجلس جلسة عجوز، محدودب الظهر، كما لو أنك في سن الثمانين.

— وماذا، وهل من الضروري، حتى أثناء صيد السمك، المحافظة على استقامة واعتدال ظهري على الطريقة العسكرية؟ ولم لا تسألني كم اصطدت؟ لقد تفوقت على

نفسي، اذا كنت تريد أن تعرف. انني لم أقدر كفاءتي حق قدرها! تفضل، متع ناظريك.

نزل نيكولاي الجرف الطيني، مستعيناً بكعبي حذائه حتى لا يتزحلق، وخطا في الزورق. في القفص المنتشل من الماء كانت الأسماك تخفق بأجسامها البليلة محدثة جلبة.

— تكفي لاعداد كمية كبيرة من الحساء، — قال برغبة واضحة للاطراء على أخيه. — وكم عددها؟ وا، هنا سمكتان كبيرتان ممتازتان!

— ثلاثة وعشرون ذيلا! وقد أفلت عدد منها: لم لا توجد لديك شبكة انتشال لمثل هذه الأسماك؟ انه لأمر في منتهى السخافة! الخيط طويل، ويتوجب عليك الامساك به بيدك، وتقع في الصنارة السمكة تلو الأخرى.

— انني لا أصطاد مثل تلك السمكات، ولا اهتم بمثل هذه التفاهات، ولكن لدي مغرفة كبيرة لسمك الشبوط. لا تكن طماعا يا الكسندر، فما اصطدته يكفينا. لف الصنارة، وهيا بنا نصنع حساء السمك. لقد قلت لك ان الأسماك هنا، كما لو أنها في المسمكة.

تمطى الكسندر مطقطقاً بعظامه، وقال:

— لن تصدق، يا نيكولاي، مدى ما تمتعت به خلال هذا اليوم. لم أشعر بمثل هذه السعادة والانفعال منذ أمد بعيد! أتعرف انني أمضيت أربع ساعات جالساً مقوساً ظهري، منذ أن بدأت الأسماك تعض الطعم، ومضى الوقت كما لو أنني لم أجلس سوى أربع دقائق. ولعدة ساعات عدت الى أيام الطفولة، وما أسعد ذلك لو عرفت! ولا أية فكرة في رأسي ولا بصيص من الذكريات... انك لا تتصور، كم أدخلت من البهجة الى قلبي بهذه الرحلة. تعال هنا، كي أعانقك، يا أخي الشيشاني القاسي!

وعند المغيب تعشيا عشاء دسما من السمك وحسائه الممتاز. قبل السمك المسلوق شرب الكسندر قدحاً من الفودكا. ورفض شرب القدح الثاني رفضاً قاطعاً:

— لا تجبرني، يا أخي. ففي الماضي كان بمقدوري أن

أشرب كثيراً دون الشعور بنشوة شديدة، أما الآن... فأنا منشرح الصدر دون فودكا! دعنا نتحدث، فهذا أفضل. فعلي أن أحدثك عن قصتي الملحمية. صب لي شاياً، ثقيلا.

أخذت الرطوبة تنبعث من الماء. وبرد الجو بشكل ملحوظ. وعند المغيب، وخلف الصفصافات النامية على الضفة توهج الشفق. وتحركت الظلمة الزرقاء آتية من الشرق. وفي السمت كانت سحابة وحيدة، تضيىء الشمس أسفلها، تتألق بلونها اللطيف الشبيه بلون حجر الأوبال لدرجة أن نيكولاي، لسبب ما، كان يشعر بأسى شديد مؤلم وهو ينظر اليها.

طفقت العنادل تشقشق مترددة. وكان الكسندر يجلس قرب النار الخابية يحرك الرماد بعود صغير بحثا عن جمرة لاشعال سيجارته بنار طبيعية. وللحظة أصاخ السمع الى شقشقة عندليب متواصلة وقال:

– انه غر، لم يغرد بعد، ولم يتعلم التغريد كما ينبغي. – صمت، تمطق بشفتيه، مدخناً سيجارته المترطبة. – هكذا، أيها الشبان، على أية حال – قسم منكم، فقبل اكتساب الخبرة في الحياة، تبدأون بالحكم على كل الأشياء، وحتى تلك التي لم تفكروا بها تماماً كما ينبغي، ولم تتأملوا ما هو خفي في أعماقها، ولكنكم تغنون بصوت غريب وتشقشقون مثل هذا العندليب، الذي لا يجيد التغريد الحقيقي... ولقد اضطررت، قبل أمد غير بعيد، الى التكلم مع شخص مشقشق من هذا القبيل. كان يجادل قائلا: وماذا كان مضمون الثورة في زمنكم؟ كان كل شيء في غاية البساطة وحتى بدائيا: «الأرض – للفلاحين، المصانع – للعمال». أما في الحياة العملية، والنضال الطبقي، فان كل هذه الأمور أكثر صعوبة وتعقيدا. دون شك، الحياة – مسالة معقدة، ولكن بالنسبة لهذا «البدائي» – «الارض – للفلاحين، والمصانع – للعمال» – فقد سبقه قرن من نضال الثوريين، وعشر سنوات من الجهد العظيم لحزبنا، ذلك الجهد الذي كلف التضحيات، نعم وأية تضحيات!

أتعرف أنه قد صدرت في باريس للجنرال دينيكين – قائد جيش المتطوعين* السابق، مؤلفات في عدة مجلدات تحت عنوان «دراسات حول الفتنة في روسيا» حيث يكتب دينيكين، انه لم يكن لدى المتطوعين شعار ليسير في اثره الجنود والضباط ذوو النظرات التقدمية. بل كان الأمر على العكس: فما ان وصل جيش المتطوعين، المتجه نحو موسكو، حدود مقاطعات روسيا واوكرانيا حتى بدأ الكورنيلوفيون، الماركوفيون، والدروزدوفيون – أولاد الملاكين – في ضيعاتهم بشنق الفلاحين وانهالوا عليهم ضربا بالقضبان وذلك لأنهم تقاسموا أملاكهم، واستولوا على ماشيتهم وادواتهم الزراعية. وهكذا في الواقع، جرى الجزء الأول من الشعار «البدائي» – «الأرض – للفلاحين»! وما أن سيطر جيش المتطوعين على المركز الصناعي، وأنشأ اولاد أصحاب المصانع وملاكي المناجم المستائين، وهم ضباط جيش المتطوعين هذا، بشنق العمال، مؤممي مؤسساتهم، واطلاق النار عليهم. وهكذا تم الجزء الثاني من الشعار «البدائي». انني لم أقرأ كل هذه الاشياء فحسب، بل وشاهدتها ابان الحرب الأهلية، محاربا هؤلاء المتطوعين.

وبأية سعادة كان العمال والفلاحون ينضمون الى جيش المتطوعين؟ لقد قدم الدينيكينيون للسلطة السوفيتية مساعدة باهرة في ترسيخ اقدامها! فاذا كانت هذه هي شهادة دينيكين نفسه، فماذا ينبغي علينا ان نقول في هذا المجال؟ فمن أجل هذا الشعار «البدائي» مضيت قبيل انتفاضة اكتوبر**، كنت حينها في الجبهة رئيساً للجنة الثورية في الفوج. وكنت أنت حينها طفلا لا يعي شيئاً.

على أية حال، فمنذ طفولتي، ومنذ دراستي الثانوية

---

* جيش المتطوعين – القوة الضاربة لمناهضي الثورة في جنوب روسيا ابان الحرب الأهلية.

** سياسة البلاشفة: أي ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى عام ١٩١٧.

كان ادراكي لمثل هذا الغبن الاجتماعي ينغص علي حياتي: أبناء التجار، والملاكين، والأغنياء الآخرين متخمون ومرفهون، وأبناء الفقراء، أبناء الموظفين الصغار، والحرفيين، وذوي الرتب المختلفة يرتدون بناطيل وسراويل كثيرة الرقع. وكان هذا حتى في ذلك الحين يمزق قلبي! وبعد أن كبرت، بدأت اقرأ وأفكر، باهتمام وشغف، شأني شأن الجرو الذي يدور حول صحن من الحليب، وهنا – اندلعت الحرب، وفي الخنادق أبصرت الأمور على حقيقتها تماماً. اذ أنني كنت عسكرياً متطوعاً*. فبعد تخرجي من الكلية العسكرية كنت قد أصبحت ضابطاً. وقبيل انتهاء الحرب كنت ملازماً. ولكن الرتبة العسكرية لم تحولني الى مدافع عن النظام القيصري! لقد استحوذت على ذهني وفؤادي، والى الأبد، سياسة البلاشفة**، وأنكرت تماماً سياسة الأحزاب شبه الاشتراكية الثورية، والمناشفة وغيرهم من الفوضويين، وأصبحت، ياأخي، بلشفياً متحمساً، مخلصاً، لا بل ومتعصباً جداً. لم يكن ولا ولن يكون لدي ما هو أقدس من قضية حزبنا! وهل أنا الضابط الوحيد الذي ترك جيش القيصر لينضم الى البلاشفة؟ وبروسيلوف، شابوشنيكوف، كامينوف، وغيرهم كثيرون من الضباط ذوي الرتب الصغيرة؟ وذات مرة، في العشرينات، حضر ستالين التدريبات الميدانية لمنطقتنا العسكرية. وفي المساء دارت دفة الحديث حول الحرب

*عسكري متطوع: في الجيش الروسي والجيوش الأجنبية، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان العسكري يلتحق بالخدمة العسكرية بمحض ارادته بعد انهاء الدراسة الثانوية أو العليا ويتمتع ببعض الامتيازات.

** سياسة البلاشفة: الحزب السياسي الذي نشأ في عام ١٩٠٣ نتيجة لكفاح الثوار الروس الماركسيين تحت قيادة ف. ا. لينين لتكوين حزب ثوري حقيقي. تاريخ البلشفية – هو تاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي. ومن عام ١٩١٧ ولغاية ١٩٥٢ كانت كلمة «البلاشفة» تدخل في التسمية الرسمية للحزب.

الأهلية. واذا بأحد القادة العسكريين، تفلت منه هذه العبارة عن كورنيلوف: «كان انساناً شريفاً في الواقع» ضيق ستالين عينيه الصفراوين، كعيني النمر متحفزا للوثوب على فريسته ولكنه قال بهدوء تام: «ان الانسان الشريف حقاً، هو الانسان الذي يقف الى جانب الشعب في نضاله من أجل أهدافه، أما كورنيلوف، فكان ضد الشعب وحارب الجيش الذي ألفه الشعب، وأي انسان شريف هذا؟» وهنا ظهر ستالين على حقيقته تماماً – أوضح الحقيقة باختصار. انني بهذا الصدد اوافقه رأيه جملة وتفصيلا! لقد انضم كل الشرفاء من المثقفين وحتى من النبلاء، الى البلاشفة، الى الشعب، والى السلطة السوفيتية. وماكان ينبغي اتخاذ موقف آخر: اما – مع، واما – ضد، أما من كانوا وسطاً فقد انسحقوا جميعا وطحنوا بين شقي حجري الرحى هذين. أنت تعرف ماذا تلا ذلك. صرت عسكرياً نظامياً. وربطت مصيري بالجيش الأحمر.

وأي جيل أنشأنا خلال عشرين سنة! انه نخبة من المحاسن الانسانية! كنا نحن ننشأ وننشىء من هم أصغر منا، مخلصين للحزب حتى الرمق الأخير، مثقفين، وقادة قديرين وجديرين وعلى أهبة الاستعداد لتلبية نداء الوطن لحمايته ضد أي معتد أثيم، انهم شبان متواضعون بسطاء، ليسوا من هواة النقود ولا طماعين بالمال، وغير وصوليين. كانت ممتلكات أسرة كل قائد لا تزيد عن حقيبتين، وكانت زوجته كقاعدة عامة، ندا له، وشريكة حياة وجهاد لا تقتني السجاجيد والأنسجة المشجرة، وما أبسط ملابسها، ولا يرسل لها «نجارو الأثاثات الفاخرة الأثاث الى بيتها». لم يكن هدف الحياة لدينا يكمن في ذلك! وهل في الجيش وحده نشأ مثل هؤلاء البشر؟ والمدنيون الشيوعيون، والكومسوموليون؟ هذا الترس الفولاذي المنيع للوطن الذي تم تشكيله صلبا مفلوذا بحيث يقيه شر أي اعتداء. فاننا سنكسر رقبة اي معتد وسنقصم ظهره!

كنا نعيش حينها، كما في الروايات! فكل قلوبنا

الممتلئة حماسا، وكل عقولنا، وكل طاقاتنا – كانت مكرسة لبناء الجيش، ولتدعيم قوة نظامنا الوحيد العادل في العالم! لم نكن نهتم كثيراً بنسائنا العزيزات وأسرنا، والعزاب– بالفتيات، ومع ذلك كن يكتفين بما نتكرم به عليهن من العطف واللطف ولا يعتبن علينا! فنساؤنا الذكيات، كن يدركن اننا أدرنا عجلة التاريخ التي لا يجوز ايقافها! – لاذ ألكسندر بالصمت ناظراً الى النار، ومتذكراً الماضي على مايبدو، ومبتسماً لذكرياته بهدوء، ثم بدأ يدخن وعاد لمواصلة حديثه من جديد. وماكان هناك ما يدل على انفعاله المكبوت، الا طريقة تدخينه، حيث كان يسحب نفساً عميقاً، ويبتلع دخان سيجارته. – فأنا، يا نيكولاي، لم أكف، أبداً، عن اعجابي بأناسنا وكنت صارماً مع من هم تحت امرتي بكل صرامة النظام القديم، وأعجب بهم في دخيلة نفسي. فالجنود الشبان واولئك الذين استدعوا الى التجمعات الاقليميـة، – كانـوا، جميعاً، يتمتعون بالصفات السوفوروفية*. وما كان أشد فرحة الجد سوفورف لو انه شاهد أحفاده الصناديد. أقسم لك بالله، انني لا اكذب، ولا اختلق! فلو أفاق سوفوروف من رقدته في مثواه، وشاهد تدريباتنا – لانهمرت دموعه متأثرا ولشرب عرق يانسون اكثر من قارورة فرحاً.

انني لا أتحدث عن الضباط. لقد شاهدت رفاقي في اسبانيا**، بما فيه الكفاية، وأنا فخور جداً بهم! وما أروع النسور الذين كانوا هناك! اليك مثلا قائد الفرقة، كيريل

---

* السوفوروفية: نسبة الى ا. ف. سوفوروف (١٧٢٩ – ١٨٠٠) قائد روسي بلغ رتبة جنراليسيم – اعلى الرتب العسكرية.

** اثناء الحرب الوطنية التي خاضها الشعب الاسباني ضد الفاشية (١٩٣٦–١٩٣٩) مدت القوى الديموقراطية في العالم كله يد العون لجمهورية اسبانيا، وكانت ضمن المتطوعين فصائل سوفيتية.

ميريتسكوف، أو آمر اللواء نيكولاي فوررنوف، أو العقيد روديون مالينوفسكي، او العقيد بافيل باتوف. انهم قادة جاهزون، وباستطاعتي القول، من الدرجة العليا! وكذلك الشبان يفيم تروتسينكو، ميخائيل شوميلوف، ميخائيل دميتريف – ما شاء الله عليهم! لا يتخلفون عنهم لا في مهارتهم ولاخبرتهم ولاقوة ارادتهم! وحتى اولئك الذين كانوا أصغر منهم سناً فقد كانوا على مستوى رائع، أمثال الملازم أول نيكولاي لياشينكو، والملازم ثان ساشا روديمتسوف، – فهؤلاء، كن مطمئناً، هم قادة المستقبل بغض النظر عن فقرهم وأصلهم. وعلى العموم فانهم جميعاً – لا يقدرون بثمن! وبالمناسبة فروديمتسوف حينما كان قائد فصيلة، كان ينقش اسمه وكنيته على الهدف بنيران رشاشته. فالويل لمن يقع تحت نيران رشاشة روديمتسوف... ولكن اذا نظرت اليه قلت انه لا يسيىء الى ذبابة، لطيف، شاب متواضع، مثله مثل الكثيرين في روسيا الحميمة. وماذا يمكن القول في هذا الصدد. كان هؤلاء الشبان الرائعون يسافرون الى اسبانيا، ويبقى منهم العدد الكافي في الوطن، وذلك تحسباً لقدوم ضيف غير متوقع لكي يؤدوا واجب حسن الاستقبال... أتذكر وصف بوشكين الرائع لمازيبا* وحبه لماريا؟ – ركع الكسندر الذي كان يجلس متربعاً على الطريقة القازاخية قرب النار، وأخذ يلقي من حفظه عن ظهر الغيب دون انفعال زائد، وبالقاء على الطريقة التقليدية:

يشتعل القلب الشاب ويخمد حالا
يهجره الحب ويعاوده مجدداً
وتختلف فيه الأحاسيس في اليوم مراراً:

---

* مازيبا. ا. س. (١٦٤٤ – ١٧٠٩) القائد العام للجيش الاوكراييني، هنا شخصية في شعر ا. س. بوشكين (١٧٩٩ – ١٨٣٧ «بولتافا».

لم يعد خفيفاً ولا مطيعاً
ولم يعد كسابق عهده يضطرم فجاة
قلب العجوز المتحجر مع مر السنين.
وحمى في نار الغرام بصبر وثبات طويلا
لكن النار الاخيرة لن تهمد ولن تفارقه حتى يفنى.

وبالنسبة لنا نحن معشر المسنين، اذا ما بدلت شيء في هذه القصيدة وحلت بدلا من اسم المحبوبة ماريا هذه كلمة «أفكارنا»، وهي الأفكار البلشفية، اذن لكان الأمر منطبقا علينا تماماً! باستثناء فارق بسيط، الا وهو اننا كنا منذ شبابنا، مفتونين بهذا الحب الوحيد ومازلنا مخلصين له حتى شيخوختنا. وما رايك بقوله «لكن النار الأخيرة لن تهمد ولن تفارقه حتى يفنى». ما أروع ذلك! نعم، يا أخي، فبعد تجاوزك العقد الخامس يختلف فهمك لبوشكين وشعره. فالانسان الروسي لدى قراءة أشعار بوشكين لابد من أن تنهمر دموعه، حتى ولو كان هذا الانسان مثلي بعيدا عن أهل الفن والأدب، ففي المعتقلات، وحينما كنت عاجزا عن النوم، كانت ذاكرتي تسترجع دوما أشعار بوشكين، وتيوتشيف، وليرمونتوف... وأتذكر أشعاراً جيدة وعلى الأخص في الليالي التي أعاني فيها من الأرق. فأتحرر من العذاب النفسي، ولم تكن دموعي حارقة جداً...

وحل عام ١٩٣٧ كزوبعة ثلجية مفاجئة. لقد فقدنا في الجيش الكثيرين والكثيرين جداً. الحرب ضد الفاشيين على الأبواب... وكان ذلك مدعاة للقلق في نفوسنا وليس وحده!

ولقد حصل لي، ما حصل للكثيرين: لقد وشى أحد اللئام زوراً وبهتاناً، على العشرات من الاشخاص، أي تقريبا على كل الذين عرفهم واشتغل معهم خلال العشرين عاما التي امضاها في الخدمة. وكنت أنا من بينهم. واعتقل كل من وشى بهم، ونفيت زوجاتهم، وزوجتي آنيا، طبعاً، ولعلك كنت تسمع عن أساليب الاستجواب والاستنطاق العنيفة المتجاوزة للحدود وطريقة اجراء التحقيقات، والنظم الصارمة

في المعتقلات. لاشك أنك كنت تسمع عنها أليس كذلك؟

— نعم، سمعت عن ذلك.

— لا يمكن اخفاء ذلك، ولا أريد اثارة الآلام في نفسك مرة أخرى، حرصاً على شعورك، يا أخي. لقد حصلت كل هذه الامور في اماكن شتى وأساليبها مختلفة. وليست المسألة في هذا، بل في امكان حصول مثله. من المذنب في ذلك؟ انني متأكد تماماً أن معظم الذين كانوا في المعتقلات لا ذنب لهم، انهم ليسوا اعداء، أما الاعداء فهم اقلاء بل ولا يعتد بهم. في عام ١٩٣٨، في روستوف، وابان الاحتفالات بعيد الأول من مايو — أيار — ما كادت أصوات المتظاهرين، وهي تنشد «النشيد الأممي» تبلغ مسامع المعتقلين في السجن حتى أخذنا ننشد «النشيد الأممي» معهم. بل وكيف كنا ننشده! لم أسمع مثل ذلك أبداً، وأرجو الله ألا يجعلني أسمعه مرة أخرى!.. كنا ننشد بحماس وسخط ويأس! ونهز قضبان السجن منشدين... وأخذ السجن يهتز من نشيدنا! وهل كان بوسع الأعداء أن ينشدوا هكذا؟! — تلعثم الكسندر وصعر وجهه الضامر، بيد ان عينيه ظلتا جامدتين من الدموع. صمت طويلا، ثم بدأ يتكلم مجدداً، فقط بعد أن تمكن من السيطرة على اضطرابه. — انني أقول لك هكذا: ظل الشيوعيون الحقيقيون شيوعيين هناك أيضاً... وانا أيضاً، لم أفقد ثقتي بحزبي، والآن أيضاً جاهز لفعل كل شيء من أجله! وهل أشطب على كل حياتي الواعية؟ اما اخفاء سخطي فلا أقدر عليه! انني عاتب على ستالين لسماحه بحصول مثل هذه الامور. بيد انني انتسبت الى الحزب حينما كان لايزال تحت ظل شخصية لينين العظيمة. أما الآن فهو الزعيم المعترف به. كان يقود النضال من أجل تصنيع البلاد، وانشاء التعاونيات. ما من شك في انه الشخصية العظيمة الثانية في حزبنا بعد لينين، واذ به يلحق بهذا الحزب مثل هذه الأضرار الجسيمة. انني أحاول تحليل مواقفه بصورة موضوعية ولكنني أجد نفسي عاجزاً. ومايمنعني هو أمر واحد، فلسنا، أنا واياه في ظروف

متساوية: فاذا ما عبرت عن استيائي فانه لن يكترث بذلك ولن يؤثر فيه، أما اذا ما عبر هو عن استيائه وناصبني العداء فعندها سيؤثر في واي تأثير... وأية موضوعية يمكن أن تكون من جانبي؟ ولكني لست بصبي، وادرك تمام الادراك انه لا يجوز التسرع في الحكم. ومهما كان، فيبدو لي انه سيبقى شخصية غامضة لأمد طويل لا بالنسبة لي وحدي. سآتيك بمثال: في الثلاثينات، وبعد التدريبات التي تمت في المنطقة العسكرية التي اشرت اليها سابقاً، وافق ستالين على تناول الغداء معنا. كان هناك ثمانية من القادة الكبار. وأثناء الحديث تحدث أحد قادتنا عن قائد احدى الفرق بتشكيك وارتياب قائلا: «انه كان ضابطاً لدى القيصر». فرد عليه ستالين: «وماذا في ذلك، اذا كان ضابطاً سابقاً؟ فليس كل الضباط السابقين متشابهين. في ضاحية تساريتسين، في عام ١٩١٨، وقرب كريفوي موزغ، أسرنا ضابطاً قوزاقياً جريحاً، مصابا برشقة رشاش في ساقيه اللتين لم تصابا بكسور. فقررنا، أنا وفوروشيلوف*، محادثته. ولما جئنا اليه وجدناه مستلقياً فوق الحمالة على الارضية الاسمنتية. وسألناه: «لم تحاربوننا؟» فاذا به يبصق ويصرخ: «انني لا أتكلم مع مندوبي البلاشفة!» أتينا اليه ثانية. اما هو فيلزم الصمت. وفي المرة الثالثة، تمشينا معه، تعود علينا، وأنشأنا نتحدث اليه، نكلمه في السياسة، ونوضح له الأمور... وهو الآن من قادتنا الكبار».

في عام ١٩١٨، كان يهتم بمصير ضابط معاد، على انه بعد مرور عشرين عاماً لا يهتم بمصير آلاف الشيوعيين. فما الذي جرى له؟ ان الشيء الواضح لي بجلاء تام هو: انه كان يبلغ بالمعلومات المغلوطة، وعرضة للتضليل بصورة فظيعة،

* فوروشيلوف. ك. ي. (١٨٨١ – ١٩٦٩) رجل دولة، وشخصية حزبية وعسكرية. مارشال الاتحاد السوفيتي. احد مؤسسي الجيش الأحمر، وبطل الحرب الأهلية.

وببساطة كان اولئك الذين أسند اليهم جهاز أمن الدولة، هم الذين يمارسون عمليات التضليل، واعتباراً من يجوف. فاذا كان ذلك يمكن ان يبرر موقفه الى حدما... – صمت الكسندر فجاة، وجعل يصغي.

طرق السمع صوت خشخشة أقدام على العشب، ومن ظلام الغسق سمع صوت جهوري رنان يقول:

– السلام عليكم، أيها الصيادون!

– أهلا بك وسهلا، أيها الجد سيدور، – أجاب نيكولاي. – تفضل اجلس، ستكون ضيفنا.

اقترب راعي الغنم من النار، ولمس الخرقة الحمراء الملفوفة على رأسه، وطفق يتكلم بصوته الرنان:

– ان اغنامي تبيت هنا على مقربة، وفكرت، سأذهب الى ميكولا – المهندس الزراعي، ربما تبقى لديه شيء من حساء السمك، ولا شك في انه سيطعم الراعي العجوز. في الماضي كنت تطعمني الحساء، والآن كيف، ماذا اصطدت؟

– لدينا حساء، ولدينا سمك، وباستطاعتنا أن نقدم لك مشروباً، أيها الجد.

– بارك الله فيك، انك لانسان طيب، ولينعم الله عليك وعلى ضيفك بالعافية.

هبط العجوز على ركبتيه بخفة، وجلس على رجله اليسرى، وبعد أن اتخذ وضعاً مريحاً في جلسته، رنا الى الكسندر من عينين مرحتين من تحت حاجبيه الرماديين بنظرة ثاقبة مترعة بالحيوية والنشاط.

بعد التكلم عن الأمور المألوفة بصدد المحاصيل، واعشاب المروج، والطقس، سأل العجوز:

– الست، أيها الرفيق، اخا ميكولا – مهندسنا الزراعي؟

– بالضبط، أيها العم. امنا واحدة، ولكننا من أبوين. مات والدي، فبقيت أمي أرملة لزمن طويل، ثم تزوجت من شخص آخر. وكان زوجها هذا هو والد نيكولاي. مفهوم؟

– وما الذي لا يمكن فهمه هنا؟ وحسب تفكيري، الأم – هي الاصل، أما الآباء، فهم باختصار، هكذا... وهل مات والداكما كلاهما؟

– نعم، وبقينا أنا وأخي يتيمين لطيمين، بلا ابوين، ولا ام، ونغتني من الفقر والسعادة.

– لا بأس! فقد كبرتما. ستعيشان ولن تنتبها عند اقتراب الشيخوخة منكما أيضاً، وسوف تدق الأبواب عليكما... هكذا كما طرقت بابي... ان الناس لدينا يثرثرون زاعمين انه قد حكم عليك بالسجن لأسباب سياسية. أهذا صحيح؟

– حصل ذلك.

– المعذرة لجرأتي، في الاستفسار، وكم سنة أمضيت في السجن؟

– لا تتحرج، سل ما تشاء، فلن أخفي عنك شيئاً، أيها العم. – ألقى الكسندر بعض العيدان الجافة في النار الخابية، ليرى العجوز بصورة أفضل. – أمضيت أربع سنوات ونصف.

ظل الراعي يحدق صامتا، ثم قال كمن شعر بخيبة أمل:

– انها ليست مدة طويلة.

– هكذا يخيل اليك من هنا، أما في السجن فتبدو طويلة...

– انها لكذلك، ولكن حسب تفكيري، لم يكن ذنبك فاحشاً ازاء السلطة.

– ولم تفكر هكذا؟

– لأن كنتي حوكمت بعشر سنوات عام ١٩٣٣. قضت منها سبع سنوات، وأسقط عنها الباقي. عادت السنة الماضية فحسب، كانت قد سرقت من البيدر، في سنة القحط، أربعة كيلوغرامات من القمح لتسد غائلة الجوع. وهل كان عليها ان تدع اطفالها يموتون جوعا؟ ذهبت الى البيدر غير المحروس فأخذت القمح بلا اذن. وجزاءاً على هذه الأرطال العشرة حكم عليها بسنة واحدة مقابل كل رطل.

ودفعت مقابل ذلك سبعة أعوام من عمرها. أما أنت فقد حكمت بأربعة أعوام. اذن فان جرمك أقل من نصف جرمها... أليس كذلك؟

– ليكن بعلمك، أيها العم، انني لم أرتكب أي جرم، وكان الحكم علي من باب الخطأ. فانت تعرف، انني لم أسجن بسبب السرقة، ولا يجوز عقد مثل هذه المقارنة. فليست هذه بمقارنة سليمة، وفي تلك الأيام لو لم يكن السجن عقاب من يختلس أربعة كيلوغرامات من القمح، لاختلس كل شخص أربعة سنتنارات* أليس هذا صحيحاً. أيها العم؟

– لاشك. ولكانوا قد نهبوا الكولخوز برمته وعن بكرة أبيه!

– ها قد اتفقنا اذن. – أخذ الكسندر يقهقه.

وضحك الراعي بصوت خافت واضعا راحته السوداء على فمه.

– يا لك من داهية، أيها العم! وانت تتظاهر بعدم المعرفة! – قال الكسندر.

– البطة، هي الداهية، فهي تتحايل فتأكل في اليوم اربعين مرة، وأي داهية أنا؟ شربت لبنا رائبا مع كسرة خبز في الصباح وها قد حل الليل وللآن لم ينزل الى جوفي شيء، وبفضلكما سأحتسي حساء السمك – وستدب بي الحيوية ثانية. وفي العزبة عندنا لا أحد رأسه محشو بالتبن سواي، أما الباقون فكلهم اذكياء، كلهم منهمكون في السياسة. فمثلا، يدخل خنزير ايفان في بستان جاره بيتر، ويسبب ضرراً، أما بيتر فلا يتفق مع جاره بالطرق السلمية، مثلنا أنا واياكما، بل يتناول قلمه ويبلله بلعابه ويكتب رسالة مغفلة الى الادارة السياسية للدولة، ضد ايفان زاعماً: كان جاري ايفان، يخدم في الحرس الأبيض ويعتدي على زوجات وعوائل جنود الجيش الأحمر. فكانت الادارة السياسية تجر ايفان من ياقته وتستضيفه،

---

* السنتنار – ١٠٠ كغم.

واذا به بعد شهر يرسل الى سبيريا ليشم هواءها البارد. ويكتب أخو ايفان ضد بيتر، بأنه هو نفسه الذي كان عضوا في الحملات التأديبية، ويرتكب من الأمور المنكرة ما يصعب ذكره! فيأخذون هذا ايضاً، فيتناول أحد أقرباء بيتر قلماً، وبعد أن يبلله بلعابه، يكتب ضد أخي ايفان. وبهذه الوسيلة كانوا هم بأنفسهم يسجنون ويعذبون أنفسهم، ولم يبق في عزبتنا من الرجال سوى عدد قليل. ان أهل عزبتنا الآن يسمون هؤلاء «أهل الأقلام». هكذا، كانوا يتصرفون كالكلاب المتنازعة. أصبحوا أسرى هواية أن يسجن أحدهم الآخر، وصار الجميع يمارسون السياسة. أما في السابق فلم يكن شيء من هذا. في الماضي اذا ما أساء أحد الى الآخر كانا يهشمان وجه بعضهما البعض، وتنتهي السياسة كلها على هذا النحو. أما الآن فالأساليب حديثة.

– وأنت، أيها العم، ألم تكتب ضد أحد؟

– لقد شملني الله بعطفه واعفاني من هذا الشر. صحيح، انني كنت أريد أن أكتب شكوى ضد الأغنام، لكونها لا تطيعني ولا تسمع كلامي، أنا العجوز، وتركض الى حيث تشاء، والى الفصفصة على وجه الخصوص... وقد فضلت الرعي على العيش بين أناس تسودهم هذه العلاقات.

سخن نيكولاي ما تبقى من حساء السمك، وملأ قصعة كاملة، وقطع كسرة من الخبز وقدمهما للضيف. شرع العجوز يأكل على مهل، مادا عنقه الهزيل المعروق. كانت أسنانه قياسا الى عمره جيدة ولا تبدو كأسنان انسان عجوز: لدى قضمه المتاني لكسر كبيرة من الخبز ما كان يسمع سوى صوت الخشخشة المنبعث من أطراف الخبز. وتقبل العجوز كأس الفودكا بانحناءة من رأسه باحترام، وتجرعها حتى الثمالة، وباشر بأكل السمك البارد.

وبعد أن شرب الشاي، وشبع، قال بارتياح:

– لم آكل بمثل هذه المتعة منذ زمن بعيد. شكراً لكم، أتمنى لكم الصحة والعافية. ان بيتي بعيد ولذا أبات الليل هنا قريباً، مع أغنامي أقتات الطعام الجاف كيفما اتفق،

أما الآن فقد شبعت عندكم، وما أكلته يكفيني ليومين.

– أتستطيع الرعي وحدك، بلا مساعد؟ – سأل نيكولاي وهو يقلب الآنية المغسولة رأساً على عقب.

– وحدي. مساعدي الآن في بيته يستعد لتقديم الامتحانات. لقد أنهى الصف العاشر، – قال العجوز مفتخراً. – نعم بمقدوري أن أرعى الأغنام وحدي.

– ألا تخشى من أن تهجم الذئاب على أغنامك؟

– لا، فلدي اتفاقية مؤقتة مع الذئاب: ألا تمس أغنامي. بيننا شرط: لا تمسني، ولن أمسك. في هذه الغابة، وفي ربيع هذا العام ولدت صاحبتي الذئبة، فها أنا أرعى الاغنام بالقرب من مأواها. انها لا تكتسب قوتها بالقرب من وجرها، بل تذهب بعيداً، وكذلك لا تسمح لزوجها الذئب بالافتراس قرب بيتها. وهكذا أعهد اليها بالأغنام حتى فصل الخريف. وفي شهر آب – أغسطس تذهب بجرائها الى مزارع البطيخ لتطعمهم. قل لي من فضلك، كيف يستطيع هذا الحيوان تمييز البطيخ الناضج من الفج؟ وما ان يحل فصل الخريف حتى تنقطع صداقتنا الى ما قبل حلول السنة القادمة. وعندئذ أبتعد بأغنامي عنها، اذ انه من المحتمل أن تعتدي عليها في هذا البرد بسبب جرائها، أما أنا فلا رغبة لي بقتلها، فلتعش هذه الذئبة، انها عجوز، ذكية وتحترمني، ولذا فلتعش ما تبقى من حياتها بأمان. اذ انها ان تنعم بالعيش اكثر من خمس سنوات... وليكن بعلمكما، أيها الرجلان الطيبان، انه من الممكن ائتمان الذئبة حتى حلول البرد، أما ختلر* فلا يجوز ائتمانه. ان الحيوان اكثر ائتماناً دائماً، فله ضميره الوحشي. أما ختلر فأي ضمير له؟ وكم من دولة فرض عليها احتلاله! انه لا يحتاج الى انتظار البرد! وجراؤه قد كبرت. وأغلب الاحتمال أن حسكة رمادية وخطت جلودهم وقد أصبحوا كجراء شرسة بالغة...

شكرهما الراعي على العشاء، مرة ثانية، وقال مودعاً:

---

* ختلر: كان قصده ان يقول هتلر.

– سأذهب الى اغنامي لامضي ما تبقى من الليل معها، أنها بدوني تشعر بالسأم. وعلى أية حال فانها تزداد شعوراً بالاطمئنان حينما يكون بقربها انسان.

ذهب الراعي طارقا بعصاه الأرض الجافة مبتعدا عن ضوء النار، واختفى في الظلام.

– انه لعجوز ظريف! – قال الكسندر بارتياح، ومن خلال صوته كان يبدو أنه يبتسم في الظلام. – أما فيما يتعلق بهتلر فانه، على العموم، يفكر بطريقة سليمة. اذن لابد وأن الناس يتحدثون عن الحرب، أليس كذلك؟

– يقولون أشياء مختلفة. أما انت فكيف تفكر، أيها الجنرال؟

– اصدقائي العسكريون يترقبون. آه، حبذا لو تمكنوا من اعادة تجهيز الجيش بالأسلحة الحديثة. ولكن هل ستتاح لنا المهلة حتى نكمل ذلك؟ فهم هناك، ليسوا بمغفلين أيضا. لقد كتب لي الاصطدام مع الألمان مرتين، في الحرب العالمية الاولى وفي اسبانيا. وأخشى، اننا سنلاقي صعوبة بالغة في بداية الأمر. فجيشهم في حالة استنفار تام، وذو مهارة قتالية، وخبرة عملية اكتسبها خلال سنتين، نعم انه لخصم عنيد على العموم. ولكن «ألم يتغلب الروس على البروسيين دائما»؟ سنتغلب عليهم هذه المرة أيضاً! بأي ثمن؟ ولكن، يا أخي، حينما تكون المسألة مسألة حياة أو موت، لايجري الحديث عن الثمن ولا يسأل عنه! ان ماتنشره صحفنا تبعث على الطمأنينة، وعلى العموم من يعش يره! أما أنا، شخصياً، فانني لا أستبعد قيام الحرب عاجلا – في هذا العام.

واصلا حديثهما حتى انبلاج الفجر. وما كاد الفجر يبزغ، حتى غلى الكسندر ابريق الشاي مجدداً، ووضع حفنة كاملة من الشاي في الماء المغلي، وقال وهو يترشف الشاي الأسود الساخن جداً، من الفنجان:

– حينما كنت في سيبيريا، تعودت على شرب الشاي حاراً جداً، حتى أتدفأ، أما الآن فلا داعي لذلك، غير انني

لا أستطيع ترك هذه العادة. ان ما أود أن أرجوك به هو أن تستضيف، بطريقة ما، صديقك ايفان ستيبانوفيتش. أريد التكلم معه. انه ينظر الى الأمور نظرة ساذجة. فاطلاق سراح عدة أشخاص لا يعني هذا اطلاق سراح الجميع على التوالي. وذلك الشخص اللئيم الذي زج بنا في السجن، اتضح أنه هو نفسه جاسوس، وقد زاول التجسس على مدى فترة طويلة. ولكن بعد أن نقبت أجهزة استخباراتنا وتأكدت تماماً من عمله لصالح الاستخبارات الألمانية منذ تقاربنا مع المانيا بعد اتفاقية رابالو*، عندها فقط باشروا بالتحقيق في قضايانا وتأكدوا من أن التهم الموجهة الينا باطلة ولا أساس لها من الصحة، فقرروا الافراج عنا، معتذرين الينا كما ينبغي... كنا حينها في المعتقلات، واستمر التحقيق في قضايانا سنتين حتى توصلوا الى النهاية الحميدة بالنسبة لنا. كان كل شيء صعباً، يا نيكولاي وصعباً للغاية! هيا، لعله من الأفضل أن نختتم حديثنا هذا اليوم، والا فلن نستطيع صيد السمك. يجب شرب هذا السم على جرعات صغيرة. لدينا متسع من الوقت، أسبوع كامل، وبوسعنا التحدث عن كل شيء. من الافضل لو أريتني ادوات صيد الشبوط، وارشدتني الى ما يجب فعله لاصطياده. لقد اصطدت أسماك الفرخ، والآن علي اصطياد كمية من الشبوط لاهدائها الى سيرافيما بيتروفنا. ينبغي أن اكون في منتهى اللباقة. هل تفهم نزوتي الفروسية؟

– بالضبط. ولكن كف عن انتقاداتك الشديدة لصنارة الشبوط، فانها مجربة عملياً.

أتى نيكولاي بصنارتين من الشاطىء، وقال:

– ان أصول الصيد هي نفس تلك الأصول، عليك بالقاء الخيط بنفس الطريقة. لكن الطعم يختلف. فالشبوط

---

* اتفاقية رابالو – عام ١٩٢٢ عقدت بين الاتحاد السوفيتي والمانيا لاعادة العلاقات الدبلوماسية والتعاون التجاري – الاقتصادي بين البلدين.

كما سترى، لا يقبل على الطعم المؤلف من العجين أو العصيدة او البطاطا المسلوقة، والطعم النباتي، فهو لم يتعود على مثل هذه الأشياء، انه من أكلة اللحوم. ولذا جمعت أمس القواقع. انها طعامه المفضل.

تأمل الكسندر خيط الصنارة وتحسسه، فقال مستغرباً:

– المعذرة، يا نيكولاي، فعن أي أصول للصيد، وعن أي طعام يمكننا التحدث، اذا كان غلظ خيط الصنارة بغلظ عود الثقاب؟ واي شبوط مغفل سيعلق بحبل كهذا؟ فبامكانك ربط الحصان بخيطك هذا!

– وما الذي تأمرني أن أفعله؟ – اعترض نيكولاي.– فالشبوط يقطع خيط الصنارة الرفيع كما يقطع خيطاً عادياً تالفاً. هنا، من الضروري استعمال حبل عادي، البكرة لا تجدي، فالجذوع الغائصة في الماء حولنا في كل مكان. أفهمت؟

– وهل يوجد شبوط جيد هنا؟

– سترى بنفسك أو ستحس بالصنارة. الخيط الرفيع لا يمكن استخدامه هنا، لن يتحمل. والشبوط يفلت والصنارة في فمه، جريحاً، ولذا أستعمل خيطاً متيناً. أنا ضد ايذاء صيدي وتركه جريحاً. هذه الخيوط جدلتها من اثني عشر خيطاً من الكتان، فليحاول قطعه ان شاء.

– ألا يوجد احتياطي ارفع؟

– لا ولن يوجد.

– اذن، لاحيلة لنا، سننتظر حتى يعلق الشبوط بهذا الحبل. أمر سخيف...

– واية حبال. أنها خيوط صنارة كل ما في الامر هو انها ثخينة قليلا.

– آه، يا صديقي الشركسي الأسمر القاسي، دعنا نترك الجدال جانباً، ولكنها خيوط غليظة.

– أنا معك، ولكنها متينة. اضافة الى ذلك فكر، يا الكسندر، جيداً ودون تسرع: إذا أراد الشبوط الأكل فسيعض الطعم وان كان على خيط ثخين، أما اذا لم يرد فلن

يعضه ولو كان على خيط حرير رفيع. ولاتنس ايضاً أن نهر بيستشانايا هو ريف الأسماك النائي: الشبابيط هنا غير مثقفة وامية تماماً، ولا يوجد بينها من يحمل شهادة عليا، ولذا فهي تعض الطعم، غير مبالية بالخيط معتمدة على قوتها، فهي لا تقطع الخيطان الثخينة بسهولة فحسب، بل وتكسر الصنارة، وأحياناً تحطم القصبة كذلك.

ابتسم الكسندر بسخرية وارتياب، غير انه لم يقل شيئاً. نزلا الجرف. وعاد الكسندر الى الزورق ثانية ليصطاد السمك. واتخذ نيكولاي مكانه على الشاطىء على بعد زهاء عشرين مترا أعلى، باتجاه التيار، قرب شجرة حور، اقتلعها الفيضان، غائصة في الماء حتى نصفها.

كان الصباح قارّاً، والضباب يعلو سطح الماء. وقطرات الندى الثقيلة تحني أوراق الأعشاب نحو الأرض. ومن جديد عادت شقشقة الطيور المختلفة لتسحر الكسندر ولترغمه على نسيان كل شيء في الدنيا. ولكن أخذت كآبته الخفيفة الغامضة تتبدد ببطء في قلبه لدى سماعه الوقواق يوقوق في البعد بصوته اللطيف الحنون.

مضى أكثر من نصف ساعة. وظلت الصنارات التي تحمل القواقع بلا حراك. وكان الكسندر كلما نظر الى الخيوط الثخينة الرمادية الكالحة المتدلية من أطراف القصبات وهي ساكنة أحس بالتكدر، وبدت علامات اليأس في عينيه، بجلاء، «أمر سخيف! عبثاً أمضي هذا السحر جالساً. انه لمن الأفضل لو عدت ثانية لاصطياد أسماك الفرخ»، – فكر هو، ومد يده لتناول علبة السجائر «بيلومور» من مؤخرة الزورق وهنا لفت انتباهه صوت يشبه تموج الماء والنشيج، نظر من فوق القصبات واذا به يرى شبوطا، في منتصف المجرى، يشق سطح الماء بظهره المحدودب، ويبلغ طول جسمه البرونزي – الفضي حوالي المتر. ولوح بذيله العريض البرتقالي الضارب الى الحمرة، الذي يشبه مكنسة من الدخن، ولطم الماء محدثا جلبة عنيفة، حتى جعل الماء يتموج من حوله بعنف وعلى شكل دائري،

ولدى بلوغه الزورق، هزه رافعاً مؤخرته الهابطة في الماء. وفي تلك اللحظة، وكمن كان ينتظر اشارة، قفزت سمكة شبوط متوسطة الحجم وكأنها الشمعة قرب الضفة المقابلة، وشبوطة ثانية ضخمة جداً – جذفت في الماء بذيلها على يمين الزورق، ولمعت حراشفها الشبيهة بالذهب الخالص، وعادت لتغوص ثانية، بأنين خافت، في الموجة المشربة بالاخضرار.

استمرت الشبابيط في لهوها، بلا توقف، حوالي ربع ساعة، ثم خفت ضرباتها وقلت. وطوال هذا الوقت ظل الكسندر يحدق في الماء الصاخب مشدوها معقود اللسان، وعاجزاً عن احصاء عدد الشبابيط التي كانت تقفز، وتلك التي ظهرت للحظة من الماء، وعادت لتختفي، وهي تئن، غائصة في مياهها الحميمة.

– الآن، انتظر! – قال نيكولاي بصوت خفيض.

رد عليه الكسندر، صارخاً بأعلى صوته، بصورة لا تلائم صيادي السمك وهو عاجز عن اخفاء دهشته الشديدة:

– ان الشيطان نفسه لا يعرف ما هذا! لم ار، طيلة حياتي، مثل هذا المشهد، يا نيكولاي!

– أستحلفك بالله أن تسكت! – نصحه نيكولاي بنفس الصوت الخفيض.

أجبر الكسندر نفسه على السكوت، وانشأ يحدق في أطراف القصبات بعينين متلالئتين. لذعت بعوضة شحمة اذنه اليسرى بحدة، لكن الصياد تحمل حكتها بصبر وتجلد، حتى انه لم يرفع يده، وما برح ينتظر شد الشبوط للخيط. لكن الحظ لم يحالفه ولم يسعفه. سقط في صنارة نيكولاي شبوط غير كبير الحجم، لكنه كان رشيقاً، وجعل نيكولاي، صامتاً، يحاول جره الى الضفة.

– لا تتحامق، يا نيكولاي! لا تحاول سحبه بالقوة، ايها الاينغوش* دعه ينطنط، سيتعب من تلقاء نفسه! –

* الاينغوش: من القوميات التي تقطن في القوقاز.

كان الكسندر يقدم له النصح متحمساً، وواقفا بطول قامته في مؤخرة الزورق، ويخبط بقدميه العاريتين.

ولمجرد رؤية الكسندر القصبة منحنية على هيئة قوس، أحس بقشعريرة تعتري كل جسده.

وبعد صعود الشبوط الى سطح الماء وابتلاعه الهواء، استجمع قواه الأخيرة، وظل لخمس دقائق أخرى يدور، بحيوية ونشاط، وبحركات دائرية، شاقا سطح الماء، تاركا خلف الخيط شريطاً مائيا شفافا مائلا، وضارباً للبياض. وسرعان ما كان الشبوط الرائع ذو الظهر الأصفر، والذي يزن حوالي أربعة كيلوغرامات، يتخذ مكانه في قاع القفص الكبير. لم يتمالك الكسندر نفسه، فذهب لينظر اليه. جلس القرفصاء، وأخذ يمسد ظهر السمكة البارد بلطف، ويقول بامتعاض:

– يا لحسن حظ هؤلاء النوغوي والقومق وسائر الشعوب والقوميات الصغيرة! في حين انك أنت الروسي الأصيل تجلس على ضفة النهر العريق الذي ورثته عن أجدادك، كالمجنون، وهذه الشبابيط اللعينة تمر بك مرور الكرام! لا تعلق بصنارتنا، انه اجحاف الطبيعة! ويالله من اجحاف شديد! وأي حكيم يمكنه حل هذا اللغز! فكر كما تشاء، أما أنا فالحقد الأسود يأكلني!

– اذهب واجلس في الزورق. السعادة تنتظرك، أيها الفارس، يامن عهد بقلبه الى سيرافيما الحسناء، – أخذ نيكولاي يبتسم وهو يعد الحبل.

– أنت تمزح، أما أنا فبأي عين سأنظر اليها؟ حينما وضعت نصف اللتر من الفودكا في السلة شددت بيدي على صدري، وهمست لها: «سيرافيما بيتروفنا، ان أضخم وأسمن شبوط في تجويف باخوم، سأصطاده بنفسي، وسيكون أمام قدميك غداً».

– وماذا قالت؟

– ابتسمت بجلال، وقالت: «انني أصدقك، يا الكسندر ميخايلوفيتش».

– عزيزي الكسندر ميخايلوفيتش؟

– لا، مجرد الكسندر ميخايلوفيتش، لكن «عزيزي» ظلت عالقة في الهواء. أي أن ذلك كان بديهيا ودون أي كلام.

– اذن هكذا، «مجرد الكسندر ميخايلوفيتش»، ولئلا يظل وعدك عالقاً في الهواء، وكي تصطاد شبوطا حقيقيا، ليس بديهياً، وكي تبتسم لك صاحبتك الحسناء بيتروفنا بجلال مرة أخرى، – تفضل بالذهاب لاختبار الطعم وانتظر بصبر.

– حسناً، وهو كذلك! – استدار الكسندر بحدة وكاد يقع، اذ تعثرت رجله بكتلة طينية، لكنه استعاد توازنه، وسار الى الزورق بخطى رشيقة وهو يضحك.

وعند شروق الشمس ازدادت البرودة، هبت نسمة خفيفة، زال الضباب، وتجلت أشجار الحور بلونها الأخضر المشرق تحت الأشعة الرقيقة للشمس المنخفضة.

«ان الشبابيط الصغيرة والمتوسطة تلتقط الطعم وتشده نتراً، أما الكبيرة جداً فتشده بقوة وببطء، وتثني طرف القصبة تدريجياً»، – كان نيكولاي يرشد أخاه. وسرعان ما اختبر الكسندر مثل هذه العملية بالضبط والتي جعلته يضطرب للحظة الى أقصى الحدود، اذ استوى خيط الصنارة اليمنى وتحرك قليلا، ثم غاص في الماء، وعلى اثره بدأ طرف القصبة ينحني تدريجيا وببطء شديد. تمالك الكسندر أعصابه تماماً، وانتظر حتى غاص طرف القصبة في الماء، وعندئذ فقط بدأ يجذب الشبوط ببطء وانتظام ولكن بقوة. واحس لهنيهة كما لو أن الصنارة قد علقت بأحد الجذوع الغائصة في النهر، بصورة محكمة. وبعد لحظة أحس بنترة عنيفة وقوة خارقة تكاد تعادل قوته، أحنت القصبة بقوة وعناد متزايدين وأرغمته على القفز من مكانه، والامساك بالقصبة متشبثا بها بكلتا يديه.

اسرع نيكولاي الى الزورق، مجتازاً الكتل الطينية المنهارة من الجرف بقفزات طويلة، ممسكاً بالقفص ملوحاً به بيده اليسرى فوق رأسه، وهو يصرخ:

– القصبة! اسحب القصبة! لا تدعه يشد الخيط بتوتر!

لكن الكسندر لم يسمعه. واستند برجله اليسرى، وهو في مقعده، على مؤخرة الزورق، والقى رأسه الى الخلف مقاوماً تلك القوة العنيفة التي تحاول انتزاع قصبة الصنارة من يديه، ولا يسمع سوى صوت مرعب واحد: كانت الصرصرة تسري في القصبة ابتداءا من منتصفها وانتهاءا بمقبضها، كما لو أن تياراً كهربائياً يسري داخلها. انه لم يكن يسمع هذه الصرصرة فحسب، بل ويشعر بها بأصابع يديه وعضلاتهما التي ابيضت من شدة ضغطها على القصبة.

دنا نيكولاي من الزورق راكضاً، وهو يصرخ أثناء ركضه:

– اتركها! أتسمعني اتركها!..

وفي تلك اللحظة، استقامت القصبة المنحنية حتى يدي الصياد بخط مستقيم مع امتداد الخيط، – استقامت محدثة أزيزاً، وفرقع الخيط المقطوع بصوت رنان جاف. كان كل شيء قد انتهى.

– أرأيت؟ – تساءل الكسندر بصوت مبحوح مفعم بالأسى، وهو يستدير، مترنحاً، بوجهه الشاحب نحو نيكولاي.

– ماذا رأيت؟ كان عليك أن تترك الخيط في الوقت المناسب.

– وكيف... أترك مثل هذا الحبل؟

– والآن هل تأكدت من نوعية الشبابيط الموجودة في نهر بيستشانايا؟ انها عظة لمن لا يتعظ!

– لا، يا نيكولاي، ان هذا لأمر يصعب تصديقه! ان الله وحده هو الذي يعلم ما هذا! جذب الخيط كدارة اللف! يالغرابة قوته! انني لم أستطع انتزاعه من القاع... لا، ان مثل هذا الصيد سيسبب لي أزمة قلبية بكل تأكيد! انني للآن، لم أعد الى وعيي! ان ركبتي لا تزالان ترتعشان كالصبي...

– لا بأس، خذ نفساً عميقاً، وسيزول كل شيء.

– فلتذهب الى الجحيم، أنت ونصائحك! سأبقى جالساً قرب هذا التجويف الى أن أصطاد جد هذا الشبوط العزيز. سأبقى جالساً حتى ولو تطلب الأمر مني البقاء هنا لمدة شهر، ولكنني سأصطاده! وما الفائدة لو تركت القصبة؟ من المؤكد أنه كان سيجرها الى الجذل!

– حتماً.

– اذن، لم تقول: كان عليك أن تتركها في الوقت المناسب؟

– مع ذلك هناك أمل ما، واحتمال ذهابه الى الجهة الأخرى. لقد حدث مثل ذلك...

– لخنوصة في قريتك؟

انفجر نيكولاي مقهقها، مطلقا العنان لضحكه الذي طالما كبته. وابتسم الكسندر ولكن بابتسامة كابية.

لم يتمكن الكسندر بعد من التخلص من اضطرابه، وحينما أشعل سيجارته كانت يداه ترتعشان بشكل ملحوظ، ولم يستطع اخراج عود الثقاب من العلبة، بسرعة.

وفي حوالي الساعة الثامنة سقط شبوط آخر في صنارة الكسندر، فالتهم الطعم بعنف، وانحدر الى العمق، مما جعل صياد السمك الذي كان يدخن يسقط علبة سجائره في القعر المبلل، ويجذب القصبة بالكاد. صعد الشبوط الى منتصفه من الماء، ودار دورتين سريعتين، ثم ارتفع الى الأعلى، وأحدث رواهاً خضراء هائجة، وضرب بذيله سطح الماء مطبطباً، وافلت من الصنارة.

كان نيكولاي قرب الزورق جاهزاً وقد أعد القفص، مغطساً اياه في الماء، حينما خيب الشبوط آمال الصيادين أفظع واشنع خيبة.

في هذه المرة تحمل الكسندر فشله بهدوء ظاهري. وقال بصوت واهن وهويتأمل الشص بامعان:

– يالسوء الحظ! انه لحظ سيىء جداً! وعزائي الوحيد هو أن هذا الشبوط ليس جد الأول، وأغلب الظن انه ابن ابن أخيه...

– هذا عزاء طفيف، – قال نيكولاي وهو يبتسم مواسياً.

– يا عزيزي الأوسيتيني*، ان العزاء البسيط في المحن يساوي ذهباً. هل تبقى لدينا شيء من الفودكا؟

أكثر من نصف زجاجة، وتوجد زجاجة أخرى كاملة.

– ومن أين ظهرت الاخرى؟

– جئت بها خلسة، وضعتها في المشمع لما خرجنا من البيت...

– يا صديقي الاميريتيني*! انك لعبقري! سأذهب الى الخيمة حالا، لأصب منها في جوفي كأساً دهاقة، أغرق بها أحزاني. انني معكر المزاج تماماً ولا أستطيع الحفاظ على توازني النفسي. وشأني شأن لب القواقع هذه، أشعر بارتخاء...

– ولكن لا يجوز لك أن تشرب، يا الكسندر.

– والحالة هذه، لسمح لي حتى بوتكين** نفسه بالشرب والسكر. لا تخالف من هو أكبر منك سناً! ولا أية كلمة!

و ما ان تأهبا للافطار تحت شجرة وارفة الظلال، حتى سمعا، في الجهة الثانية هدير محرك سيارة، واشارة صوتية قصيرة.

– أغلب الظن، انه جاء في اثري، – قال نيكولاي بعدم ارتياح، وهو ينظر الى خمائل الصفصاف النامية على الضفة.

– هل حدث شيء؟

– ربما اجتماع، وهل الأشياء التي يمكن حدوثها قليلة، وعلى أية حال، ليس هذا في أوانه بالمرة. في حالة ذهابي عليك بالبقاء هنا يا الكسندر، غدا سأعود اليك، وسآتيك بشيء من الطعام، او سأرسل لك شخصا ما.

---

* الأوسيتين الاميريتين: من شعوب القوقاز.

** بوتكين س. ب. (١٨٣٢ – ١٨٨٩) – طبيب أمراض باطنية روسي، مؤسس معهد الأبحاث الطبية.

– بكل ارتياح!..
– ألن تسأم وحدك؟
– ماذا تقول! بالنسبة لي صيد السمك والوحدة – علاج ناجع. ولكن من هذا الذي أتى؟

خرج من بين خمائل الصفصاف شخصان، واقتربا من الضفة. وقال نيكولاي بعد أن دقق النظر فيهما:

– انهما سائق سيارة اللجنة الحزبية للمنطقة، وايفان بيتلين المستشار في اللجنة. لا، ان المسألة مسألة أخرى...

– أوصلني، يا نيكولاي سيميونوفيتش! – سمع من الضفة الأخرى.

نزل نيكولاي الى الزورق صامتاً.

تقدم الملازم ثان بيتلين، الذي سرح من الجيش الأحمر السنة الماضية فحسب، تقدم نحو الكسندر بخطى عسكرية وأدى له التحية، ملصقاً كفه بطرف سدارة سلاح المدفعية التي على رأسه.

– اسمح لي أيها الرفيق الجنرال، أن أقدم لك، – وناوله مغلفاً. – رسالة بالشفرة وردت باسمك.

قرأ الكسندر الرسالة. ابتسم بابتسامة عريضة، وعانق نيكولاي الذي كان يقف بجواره. وأخذ يلهث ويتنفس بصعوبة ويتكلم وهو يتوقف وقفة قصيرة بين العبارة والأخرى.

– انهم، يا أخي، يأمرونني بالذهاب الى موسكو فوراً لتعييني. هذا هو أمر قائد الأركان. لم ينسني غيورغي كونستانتينوفيتش جوكوف*! وماذا اذن، سنخدم الوطن وحزبنا الشيوعي! سنخدم بكل أمانة واخلاص، حتى النهاية! – وضم، بشدة، نيكولاي الذي لاحظ لأول مرة عينيه مغرورقتين بالدموع.

---

* جوكوف غ. ك. – (١٨٩٦ – ١٩٧٤) قائد عسكري سوفيتي بارز، مارشال الاتحاد السوفيتي وفي الوقت المشار اليه (يونيو – حزيران) – رئيس هيئة الأركان العامة.

* * *

في السماء الزرقاء اللازورية الصافية – تسطع شمس يوليو – تموز المحرقة، وسحب نادرة ناصعة البياض، بعثرتها الريح. وفي الطريق – آثار عريضة واضحة لحصائر الدبابات فوق الأرض الرمادية المغبرة تتخللها آثار عجلات السيارات. وفي جميع الجهات – يبدو السهب و كان القيظ قد أهلكه: فالأعشاب تنبطح تعبى، والسباخ تبدو كابية وبلاحيوية، والسراب الازرق مرتعش فوق التلال النائية، والسكون الموحش المقبض للنفس مطبق ومخيم على المكان بأسره الى درجة بحيث يستطيع المرء سماع صفير السوالق البعيد، ويظل يرتجف لفترة طويلة في الهواء الساخن حفيف الأجنحة الحمراء للجنادب أثناء طيرانها.

كان نيكولاي يسير ضمن الصفوف الأولى. التفت الى قمة المرتفع، وبنظرة واحدة لاحظ جميع الذين بقوا سالمين بعد القتال من أجل عزبة سوخوي ايلمين. انهم مئة وسبعة عشر مقاتلا وقائداً هم بقايا الفوج الذي كابد ماكابد في المعارك الأخيرة وكانوا يسيرون بصفوف متراصة، وهم يجرون أقدامهم جرّاً من الارهاق والعناء، ويبتلعون غبار السهب المر المتصاعد فوق الطريق عثيراً متلويا ومنتشراً في الهواء. وبنفس الطريقة، كان قائد الكتيبة الثانية، النقيب سومسكوف، المصاب برضة والذي تولى قيادة الكتيبة بعد موت الرائد، يسير على جانب الطريق وهو يعرج قليلا، كذلك كانت تتأرجح فوق عاتق الرقيب لوبتشينكو العريض صارية راية الفوج الملفوفة والمغمدة في قراب باهت، حصلوا عليه من مكان ما من عمق النسق الثاني وأتو به الى الفوج، وعلى هذا النحو أيضاً، كان المقاتلون المصابون بجراح طفيفة يسيرون في الصفوف بضماداتهم المتسخة بالغبار، غير متأخرين عن رفاقهم.

كان التحرك البطيء للفوج المحطم، والسير الرتيب للرجال الذين تجرعوا مرارة القتال، وعانوا من حمارة

القيظ، وسهد الليالي وقطع المسافات الشاسعة، والحاضرين الآن، رغم ذلك كله على اهبة الاستعداد للعودة الى القتال مجدداً، وفي أية لحظة، يوحي بروح المهابة، ويثير العواطف الجياشة.

ألقى نيكولاي نظرة خاطفة على الوجوه المألوفة التي تضمرت واسودت. وكم فقد الفوج من الرجال في هذه الأيام الخمسة اللعينة! شعر نيكولاي بارتعاشة في شفتيه المفلوعتين والمتشققتين بفعل الحر، فأشاح بوجهه بسرعة. وفجأة استبد به نشيج متقطع كما لو أن غصة تضيق الخناق على حلقه، فطأطأ رأسه، وأنزل خوذته، التي جعلتها الشمس حامية منكساً اياها على عينيه حتى يخفي دموعه عن رفاقه... «لقد خارت قواي وانهارت، واعتراني الوهن تماماً... وهذا كله بسبب حرارة الجو والتعب»، — كان يفكر وهو يمشي بصعوبة، كما لو أن ساقيه مسبوكتان بالرصاص، وراح يحاول جهده لئلا تتقاصر خطاه.

والآن أخذ يسير، غير ملتفت حوله، ويرنو متطلعا بنظرة بلهاء الى ما تحت قدميه، لكن مشاهد المعركة الأخيرة التي وضعت بداية هذا التراجع الكبير، عادت لتلوح مجدداً أمام عينيه، مبعثرة ولكن واضحة وجلية الى حد غريب، لا تفارقه، وكأنما يرى حلماً، بل كابوساً لجوجاً. وأخذ، من جديد، يرى بعين خياله سيل الدبابات الالمانية وهي تلعلع وتقرقع منطلقة بسرعة سالكة منحدر الجبل، ورماة الرشاشات يجرون ملفعين بالغبار، والأعمدة السوداء لدخان الانفجارات، ومقاتلي الكتيبة المجاورة المشتتين شذر مذر في حقل الحنطة والمتراجعين بغير انتظام... ثم أعقب ذلك القتال ضد مشاة العدو الآلية، والافلات من وضع كانوا فيه شبه محاصرين والنيران المستعرة الهائلة للرمي الجناحي، ولاحت في ذاكرته صورة نباتات عباد الشمس الممزقة بشظايا القنابل والقذائف، وتذكر المدفع الرشاش المطمور بمقدمته المضلعة في حفرة غير عميقة، ورامي الرشاش مستلقياً على ظهره وقد طرحه الانفجار جانباً وأوراق أزهار

عباد الشمس بلونها الأصفر الفاقع تغمره، وجسمه مضرج بالدم على نحو فظيع ومريع...

في ذلك اليوم أغارت قاذفات القنابل الألمانية، أربع مرات، على الطرف الأمامي لقطاع الفوج تمهيدا للهجوم، وصدت أربع هجمات شنتها الدبابات. «لقد حاربنا كما ينبغي، ولكن لم نستطع الصمود بوجه الزخم العارم لمثل هذا الهجوم...» فكر نيكولاي بمرارة، متذكراً.

ولدقيقة، أغمض عينيه، ومرة أخرى لاحت في خياله نباتان عباد الشمس المزهرة، حيث يستقر على الأرض الرخوة بين صفوف نبات اللبلاب المنبسط المستقيمة جثمان رامي الرشاش القتيل... وطفق يفكر، وهو مشتت الذهن، بأنهم لم يستأصلوا الأعشاب الضارة من حقول عباد الشمس وذلك نظراً لنقص الأيدي العاملة لدى الكولخوز، وعلى هذا النحو تجري الأمور في كولخوزات كثيرة الآن، اذ لم تتم المكافحة ضد النباتات الطفيلية المنتشرة في حقول عباد الشمس حتى ولا مرة واحدة منذ الربيع، وفكر بان رامي الرشاش هذا كان، على ما يبدو، شاباً في عز الشباب ولهذا أشفقت عليه المنية الحربية ورحمته من التشويه، كان مستلقياً وهو يفرد ذراعيه كما في لوحة فنية دون خدوش أو رضوض، وكراية مطرزة بالنجوم، تغطيه اوراق ازهار عباد الشمس الذهبية. وبعد ذلك فكر نيكولاي بأن كل هذا التفكير ماهو سوى سخف في سخف ليس الا... فكم شاهد من الشبان الحقيقيين الجديرين بهذا التعبير معنى ومبنى وقد مزقت شظايا القذائف أجسادهم إرباً إرباً وشوهتهم شر تشويه، وان ما حدث لرامي الرشاش ما هو الا من باب الصدفة اذ أدى اهتزاز موجة الانفجار العنيف الى سقوط وريقات أزهار عباد الشمس المحيطة به، وحطت برفق على الشاب القتيل، ملامسة وجهه وكأنها آخر لمسة حنان دنيوية. ربما كان ذلك جميلا، ولكن الجمال الظاهري في الحرب، يبدو شيئاً مشيناً، وهذا ما جعل منظر الشاب القتيل ينطبع في ذهنه طويلا بقميصه العسكري الباهت

الضارب الى البياض، وذراعيه القويتين المبسوطتين على وسعهما فوق الأرض المحترقة، والعينين الزرقاوين الذابلتين المحدقتين غير مبصرتين في الشمس مباشرة...

حمل نيكولاي نفسه على طرد الذكريات الباطلة من ذهنه. وقرر أن الأفضل هو ألا يفكر الآن وألا يتذكر أي شيء، وأن يسير هكذا مطبقا عينيه، مصغياً الى الايقاع الثقيل لوقع الخطى، ومحاولا قدر المستطاع، نسيان الألم غير الحاد في ظهره، ورجليه المتخدرتين.

أحس بالظمأ. ومد يده الى مطرته، رغم معرفته حق المعرفة بأنها فارغة، ورجها، وبصعوبة بلع ريقه الكثيف اللزج المتجمع في فمه.

وعلى سفح المنحدر، لعقت الريح الطريق ونظفته تماماً مزيلة الغبار. وفجأة واذا بالخطى، التي كانت منذ برهة تسمع بالكاد، وهي تغوص في الغبار، أخذت تحدث على الأرض المتعرية وقعا مدوياً. فتح نيكولاي عينيه. كانت العزبة تلوح في الأسفل ببيوتها القوزاقية البيضاء التي يناهز عددها الخمسين والمكتنفة بالبساتين، — وسطح النهر العريض الذي تصب فيه مياه نهيرات السهب. ومن هنا، من فوق المرتفع، كانت البيوت البيضاء الساطعة تبدو كالحصى المنثور على العشب كيفما اتفق.

دبت الحيوية في المقاتلين السائرين بصمت. وسمعت أصوات لغطهم:

— لا بد من التوقف هنا.

— وكيف لا نتوقف، بعد قطعنا، منذ الصباح ما يقارب الثلاثين كيلومتراً.

تمطق شخص ما بشفتيه بصوت مرتفع من خلف نيكولاي، وقال بصوت رفيع حاد:

— آه على نصف سطل من ماء ينبوع بارد...

ودخلوا العزبة، مارين بالطاحونة الهوائية التي فردت اجنحتها بلا حراك يلفها جمود السكون. كانت العجول المغراء المرقطة ترعى متكاسلة الأعشاب المحترقة قرب

السياج القائم من الأغصان المجدولة، وكانت احدى الدجاجات تقوقئ مضطربة في مكان ما، ورؤوس نباتات الخبيزة الحمراء القانية تتدلى ناعسة خلف الاسيجة، وستارة بيضاء لاحدى النوافذ المفتوحة على مصراعيها تهتز بشكل لا يكاد يلحظ، وهكذا فجأة وجد نيكولاي نفسه في جو مفعم بالطمأنينة والهدوء لدرجة أنه فتح عينيه على اتساعهما، وحبس أنفاسه، وكأنه يخشى أن يختفي هذا المنظر المألوف، الذي كان قد شاهده في الماضي البعيد، وأن يضمحل ويتلاشى كسراب في يوم قائظ.

وعلى الساحة المعشوشبة بنباتات القاقلي، تخافت ثم انقطع وقع أقدام المشاة الرتيب، ولم يعد يسمع سوى خفق سيقان الجزم وهي تصطدم بدوالي العناقيد الثقيلة المطاطئة للنباتات التي راحت تعفر الجزم بغبار أخضر، ومن خلال رائحة الغبار الخانقة للانفاس، كانت زهور القاقلي التي لم يكتمل تفتحها، تفوح بأريج ذكي يبعث على الحزن والأسى.

لقد وصلت الحرب حتى الى هذه العزبة الصغيرة المنسية في سهب الدون المترامي الأطراف. كانت سيارات كتيبة الاسعاف والخدمات الطبية تصطف في الأفنية ملتصقة بجدران العنابر، وقوات سلاح الهندسة التابعة للجيش الأحمر تجوب الشوارع، والسيارات ذات حمولة ثلاثة أطنان، المشحونة بألواح الصفصاف الحديثة النشر تتجه نحو النهر، وبطارية المدفعية المضادة للطائرات ترابط في الحديقة القريبة من الساحة. كانت المدافع منصوبة الى جانب الأشجار، وموهة بالأغصان الخضراء بصورة جيدة، والأعشاب الذابلة فوق ركام طين الخنادق التي حفرت حديثاً، وسبطانة المدفع الاخير المثبت قرب الزقاق، بفوهتها المتوعدة والموجهة الى أعلى يعانقها باطمئنان غصن شجرة التفاح الكبيرة، المثقلة بالثمار الخضراء الكالحة غير الناضجة بعد من صنف «انتونوفكا».

ولكز زفياغينتسيف نيكولاي بكوعه، وهتف فرحاً:

– هذا مطبخنا، يا ميكولا! فاشمخ بأنفك الى العلاء! سنتوقف هنا، وسيكون لدينا ماء النهر، وبيتكا ليسيتشينكو مع مطبخه، وما الذي تريده أيضاً؟

استقر الفوج قرب ضفة النهر مباشرة، في حديقة كبيرة مهملة. أخذ نيكولاي يشرب الماء البارد المالح قليلا بجرعات صغيرة، وكثيرا ما كان يرفع رأسه منقطعاً عن الشرب وينحني ثانية على السطل ليشرب بنهم، وقال زفياغينتسيف ناظراً اليه:

– أنت تتصرف على هذا النحو أيضاً حين تقرا رسائل ابنك: تقرأ قليلا، ثم تنقطع عن القراءة، وتعاود القراءة مجدداً. أما أنا، فلا أحب الاطالة. ولا أستطيع الصبر على ذلك. هيا أعطني السطل والا فسوف تنتفخ.

تناول السطل من نيكولاي، وألقى رأسه الى الخلف، ثم أخذ يشرب بنفس واحد، وبجرعات كبيرة محدثاً صوتاً كالفرس حينما يشرب، وشرب كثيراً، وتفاحة آدمه، المكسوة بالشعر الخشن الكثيف، تتحرك بارتعاش، وعيناه الرماديتان الجاحظتان تضيقان بغبطة وسرور. وبعد أن شرب حتى ارتوى، تنحنح، ومسح شفتيه وذقنه المبللة بكم قميصه العسكري، وقال بامتعاض:

– ليس هذا الماء ببالغ الجودة، باستثناء برودته وكونه نديا، أما الملح فيه فبامكانه قتلك. أتريد أن تشرب المزيد؟

هز نيكولاي رأسه بالنفي، عندئذ ساله زفياغينتسيف فجأة:

– يكتب ابنك لك كثيراً، بيد أنني لم الاحظ تلقيك رسائل من زوجتك. أ أنت أرمل؟

وأجاب نيكولاي بصورة لم يتوقعها هو نفسه:

– لا زوجة لي. طلقتها.

– ومنذ أمد بعيد؟

– في السنة الماضية.

– هكذا اذن، – قال زفياغينتسيف شاعراً بالندم. – والأطفال مع من؟ انهما اثنان، أليس كذلك؟

– اثنان. انهما يعيشان مع والدتي.

– هل تركت زوجتك، يا ميكولا؟

– لا، هي التي... ففي اليوم الأول من الحرب عدت الى البيت من سفرة عمل، فلم أجدها، هجرتني. تركت لي ملحوظة وذهبت...

كان نيكولاي يتكلم دون تأثر في بداية الأمر، ثم تلعثم فجأة وسكت. قطب حاجبيه، وزم شفتيه، وجلس في ظل شجرة التفاح وخلع حذاءه ملتزما بأهداب الصمت. كان في قرارة نفسه قد ندم على ما قاله. وهل كان من الجائز، بعد كتمان هذا العذاب المؤلم في نفسه لسنة كاملة، أن يبوح به الآن، ودون أية مناسبة، لأول شخص صادفه، ذلك الشخص الذي أحس من خلال صوته بنبرة تنم عن المواساة له. وما الذي جعله يثرثر؟ وما علاقة زفياغينتسيف بخوالجه وما يعانيه؟

لم يلحظ زفياغينتسيف التجهم على وجه نيكولاي المطاطىء الرأس، وواصل استفساراته:

– وما الذي حدث؟ هل عثرت هذه السخيفة على شخص آخر؟

– لا أدري، – أجاب نيكولاي بجفاء.

– اذن، عثرت! – قال زفياغينتسيف مؤكداً وهز كتفيه متأسفاً. – يا لمعشر النساء! ان مظهرك يدل على أنك شاب رائع، ولا شك في انك كنت تستلم راتباً جيداً، وما الذي كانت تريده فوق هذا؟ ولم لم تفكر هذه الكلبة بأولادها؟

وبعد أن نظر زفياغينتسيف، بانتباه اكثر، الى وجه نيكولاي الذي تظلله الخوذة، أدرك أنه عليه الكف عن مواصلة الحديث في هذا الموضوع. وشأنه شأن الناس البسطاء الطيبين اللبقين، لاذ بالصمت، وأخذ يتحسر متنهداً ويرتكز بجسمه على احدى رجليه تارة وعلى الثانية مرة. وصار يشعر

بالاشفاق على هذا الرجل الضخم القوي والرفيق الذي يحارب معه جنباً الى جنب منذ شهرين، ويشاركه في المحن وساعات الضيق في حياته الحربية، وأراد التخفيف عنه، بالتحدث عن نفسه فجلس بجواره وطفق يحدثه:

– لا تتأثر من أجلها، يا ميكولا. سننهي الحرب، وعندها سنرى. فالمهم لديك أطفال. والأطفال، الآن، يا أخي أهم شيء في الوجود. انهم جذر الحياة ودعامتها، هذا ما افهمه. وسيتوجب عليهم اعادة بناء مادمرته الحرب، وليس دمارها بالقليل. أما المرأة فاقول لك بصراحة أنها من أغرب خلق الله. ولو قيدتها بالقيود، فانها رغم ذلك تحصل على ما تريد. فالمرأة من أسخف المخلوقات، انني أعرفهن، يا أخي! أترى الندبة على شفتي العلوية؟ لقد حدثت لي في السنة الماضية. قررنا أنا ورفاقي سائقو الآلات الحاصدة واناس آخرون، ان نشرب بمناسبة عيد الأول من مايو – أيار – في احتفال عائلي، فاجتمعنا بصحبة زوجاتنا، وباشرنا بالاحتفال وحصلنا على هارمونيكا، وشربنا قليلا. بالطبع شربنا أنا وزوجتي أيضاً. أما زوجتي، كيف يمكنني وصفها لك، انها مثل رامي الرشاش الألماني الذي اذا ما شرع في اطلاق الرصاص فانه لايتوقف حتى ينفد كل ما في بيت خراطيشه من طلقات، وكذلك يندفع بوقاحة جامحة، يا أخي.

في تلك الحفلة كانت ثمة امرأة تجيد رقصة «الغجرية». وانا انظر اليها باعجاب دون أي قصد وبلا سوء نية. فاقتربت مني زوجتي واخذت تقرص يدي وتهمس في أذني: «لا تنظر اليها!» وفكرت، ياله من أمر غريب، وهل سأقعد في الحفلة مغمض العينين؟ ونظرت اليها ثانية. ودنت زوجتي مني ثانية وقرصت رجلي بشدة وبشكل مؤلم جداً: «لا تنظر اليها» فأشحت بوجهي عنها مفكراً بيني وبين نفسي: فلتذهبي الى الجحيم، لن أنظر، وسأحرم من هذه المتعة. وبعد انتهاء الرقص جلسنا الى المائدة. وجلست زوجتي قبالتي، وعيناها كعيني الهر، – مستديرتان تقدحان شرراً.

والكدمات من القرص في يدي ورجلي تؤلمني. ونظرت الى تلك المرأة اللعينة ناسيا تحذير زوجتي وفكرت: «لأجلك، أيتها الشيطانة، أضطر الى تحمل العذاب بلا ذنب! أنت كنت تلفين وتدورين على رجليك، وأنا أدفع الثمن.» وبينما كنت افكر بذلك، فاذا بزوجتي تختطف من على المائدة صحنا قصديرياً، وتهوي به على وجهي بكل قوتها. طبعاً، كان الهدف سهلا جداً لها ومكشوفاً وكان وجهي، آنذاك، مكتنزاً. لن تصدق اذا قلت لك، بأن الصحن قد انثنى عند منتصفه، أما أنفي وشفتي فأخذ الدم ينزف منهما بغزارة.

طبعاً أخذت تلك المرأة تتاوه مرتاعة، أما عازف الهارمونيكا فسقط على الأريكة، رافعاً رجليه أعلى من رأسه مقهقهاً، وأخذ يصرخ بصوت قبيح: «اضربيه بالسماور ان وجهه الشبيه باللوح، سيتحمل! «أظلمت الدنيا في عيني! فنهضت وشرعت اقذفها بالشتائم. ورحت أقول لها: «ما هذا الذي تفعلينه أيتها المرأة المتوحشة، انت كذا وكذا». أما هي فترد عليّ بصوت هادىء: «لا تحدق بها، أيها الشيطان الأشقر! لقد حذرتك». وهنا هدأت قليلا، وجلست أخاطبها بلطف واحترام: «أهكذا، يا ناستاسيا فيليبوفنا، تعرضين حسن أخلاقك وطيب خصالك؟ لايليق بك مطلقاً أن تضربي زوجك بالصحون أمام الناس، ليكن هذا بعلمك، وسنتحدث عن ذلك في البيت بصراحة!»».

ولكن، من الواضح أنها أفسدت علي العيد بأكمله. فشفتي مفلوعة ومشقوقة الى قسمين، وسن من أسناني تتأرجح، وقميصي الأبيض المطرز ملطخ بالدم، وأنفي منتفخ بل ومائل جانباً. واضطررنا الى مغادرة الجماعة. فنهضنا مودعين، ومعتذرين لأصحاب البيت كما ينبغي، وقفلنا عائدين الى البيت. كانت تسير أمامي، أما أنا، فأسير خلفها كالمذنب. مشت طول الطريق بحيوية ونشاط ولكن ما ان تخطت عتبة البيت حتى أغمي عليها فجأة. القت بنفسها على السرير مستلقية بلا تنفس ولا حراك ولا نأمة.

أما سحنتها فحمراء كالبنجر، وعينها اليسرى مفتوحة قليلا تنظر الي من وقت لآخر. ولكنني فكرت بان الوقت ليس مناسباً للشتم، المهم ألا يكون قد حصل لها مكروه. رششت وجهها بالماء وقد استبد بي القلق خشية عليها وبعد لأي انقذتها من الموت. ثم عادت الى وعيها. وبعد مرور فترة قصيرة اغشي عليها ثانية. ولكن في هذه المرة لم تكن تنظر حتى بعين واحدة. وهنا أيضاً صببت عليها من سطل الماء، فافاقت من غيبوبتها، واخذت تصرخ وتذرف الدموع وتركل برجليها. وهي تقول:

«أنت كذا ومذا، لقد افسدت بلوزتي الحريرية، بللتها بالماء، والآن يتعذر غسلها! أيها الخائن! تجحظ عيناك لدى رؤيتك أية فتاة! انني لا اقدر على العيش معك، مع انسان متوحش!» – وهكذا دواليك. وفكرت: بما أنك بدأت تركلين برجليك، وتتذكرين بلوزتك، فهذا يعني أنك قد عدت الى وعيك ولاخطر عليك من الموت يانور عيني!

جلست الى الطاولة، أدخن واتطلع اليها – نهضت عزيزتي، وذهبت الى الصندوق، واخذت تحزم امتعتها. واتجهت بصرة الملابس نحو الباب قائلة: «لا اطيق العيش معك بعد الآن، سأعيش عند أختي». ورأيت طبعاً، أن الشيطان قد ركب رأسها، ولا يجوز الآن اعتراض سبيلها، ولذا لم أعارضها. وقلت لها: «اذهبي هناك سيكون الأمر أفضل بالنسبة لك». فقالت: «آه، هكذا اذن! أهذا اذن هو حبك لي؟ حتى أنك لا تمنعني من الخروج! ومادام الأمر على هذا النحو، فاني لن أذهب الى أي مكان، وسأشنق نفسي في الحال، فليظل ضميرك يعذبك طيلة حياتك، يا بن الكلبة!»

تناول زفياغينتسيف كيس التبغ، وقد بعثت الذكريات فيه الحيوية، وأخذ يلف سيجارة، هازاً رأسه والبسمة تعلو شفتيه. في حين كان نيكولاي يحمل لفافة الساق الساخنة المبللة بالعرق، فابتسم بدوره أيضاً، ولكن بابتسامة فاترة باهتة. كان نيكولاي يريد الذهاب الى البئر

لغسل لفافة ساقه ولكنه لم يشأ قطع حبل الحديث ومقاطعة استرسال زفياغينتسيف المنسجم في سرد قصته، وعلاوة على ذلك كان عاجزاً عن النهوض والسير تحت أشعة الشمس المحرقة. وبعد أن أشعل زفياغينتسيف سيجارته واصل كلامه:

– وبعد تفكير قلت لها: «اذن فاشنقي نفسك، ياناستاسيا فيليبوفنا، ان الحبل خلف الصندوق». القت صرتها جانباً، واختطفت الحبل وذهبت الى الغرفة المجاورة. قربت الطاولة وثبتت طرف الحبل بالكلابة التي كانت تربط بها ارجوحة الأطفال وفي الطرف الآخر عقدت منه أنشوطة ووضعت عنقها فيها. لم تركل الطاولة بقدمها بل ثنت ركبتيها، وأسندت ذقنها على الأنشوطة وأخذت تجشر، وكأنها تختنق فعلا، بينما جلست أنا قرب الطاولة أتطلع عبر باب الغرفة المفتوح قليلا مشاهداً كل شيء بصورة جلية. انتظرت قليلا، ثم قلت بصوت مرتفع: «آه، الحمد لله، يبدو أنها قد شنقت نفسها فعلا وتخلصت من عذابها!» واذا بها تقفز من فوق الطاولة وتنقض علي بقبضتيها: «أها، اذن كنت ستفرح لو اني شنقت نفسي؟! وأي زوج محب أنت؟!» وهدأتها بعد جهد جهيد. طارت النشوة من رأسي وكانني لم أشرب لتراً من الفودكا في الحفلة. وبعد هذه المعركة جلست أفكر: ان الناس يذهبون الى المسارح لمشاهدة التمثيليات، أما أنا فأشاهد مسرحيتي في البيت مجاناً. وتملكني الضحك بينما الأسى يملأ قلبي. وشر البلايا ما يضحك.

أرأيت ما باستطاعة النساء – بنات الأبالسة – أن يفعلنه! ولحسن الحظ لم يكن الأطفال في البيت تلك الليلة! كانت والدتي قد أخذتهم لاستضافتهم، والا لتقطعت نياط قلوبهم خوفاً من هذا المنظر.

صمت زفياغينتسيف، ثم عاود الكلام، ولكن ليس بالحماس السابق:

– لا تظن، يا ميكولا، أن حياتي كلها مع زوجتي كانت

على هذه الشاكلة. انها بدأت تسيىء التصرف معي خلال السنتين الأخيرتين. وأقول لك بصراحة أنها تغيرت بسبب قراءتها للروايات والقصص.

عشنا ثمانية أعوام، مثل البشر، كانت تعمل مساعدة سائق جرارة، لا يغمى عليها، ولا تقوم بمثل هذه الخدع والأعاجيب، وبعد ذلك اعتادت على قراءة الكتب المختلفة، وهنا بدأت المشاكل. وبلغ بها الذكاء حدا غدت معه عازفة عن التحدث ببساطة مثل خلق الله، بل صارت تتحدث بالأحاجي والألغاز، وأولعت بقراءة هذه الكتب لدرجة أنها غدت تمضي الليالي بأكملها في القراءة، وفي النهار تدور كالنعجة الدائخة تطلق التأوهات ولاتستطيع عمل شيء. وذات مرة، وبعد أن تنهدت وتأوهت ماشاء لها اقتربت مني مصعرة خدها، وقالت: «ليتك، يافانيا، تطارحني ولو لمرة واحدة عبارات الحب الأسمى. لم أسمع منك البتة، مثل تلك الكلمات والعبارات الرقيقة الواردة في الروايات». اعتراني السخط والغضب وهممت بأن أقول لها: «لقد أفرطت في قراءة القصص» – ولكنني فكرت فقلت: «هل خرفت، ياناستاسيا! هانحن نعيش معاً منذ عشرة أعوام ولدينا ثلاثة أطفال، وبعد كل هذا أتريدين أن أناجيك مناجاة العشاق واناغيك كأهل الغرام والهيام؟ ان لساني عن ذلك لعاجز! وأنا حتى في شبابي لم أغازل ولم أناج أية فتاة، وكنت انسانا عملياً على العموم، فكيف، تريدينني أن أفعل ذلك الآن، هذا مستحيل، أنا لست مجنونا الى هذا الحد، كما تعتقدين! وقلت لها: – أما بالنسبة اليك فانك لو أعتنيت بأطفالك لكان ذلك أفضل لك وأجدى عليك من مطالعة هذه الكتب التافهة». وبالفعل اصبح الاطفال بلا عناية ولا رعاية، يركضون ويلهون ويلعبون على هواهم، قذرين، يسيل المخاط من أنوفهم كالمشردين وامور البيت تجري كيفما اتفق.

ما رأيك، يا ميكولا، أيجوز هكذا؟ لست طبعاً ضد التسلية الثقافية فأنا بدوري أحب قراءة الكتب الجيدة،

كالكتب المتعلقة بالتقنية، والموتورات. وكانت بحوزتي كتب طريفة شتى عن كيفية الاعتناء بالجرارات، وعن محرك الاحتراق الداخلي، وعن تركيب محرك الديزل، هذا بغض النظر عن الكتب المتعلقة بالآلات الحاصدة. وكم من مرة رجوتها: «خذي، يا ناستيا، واقرئي هذا الكتاب عن الجرارة. انه كتاب مسل جداً، ويحتوي على رسوم وتصاميم. لابد لك من معرفة ذلك، فأنت مساعدة سائق جرارة». أتعتقد انها كانت تقرأ؟ كلا ثم كلا! انها كانت تأنف من كتبي وتنفر منها نفور الشيطان من البخور، ولا تريد سوى القصص الغرامية التي يتدفق منها الحب كتدفق الخميرة من القدر. كنت اوبخها، وأرجوها بالمعروف ولكن دون جدوى. فهل أضربها؟ كلا، لم أرفع يدي عليها، وذلك لأنني قبل أن أتعلم قيادة الحصادة، عملت طراقا لمدة ست سنوات، وأصبحت يدي ثقيلة جداً لايتحمل ثقل وطأتها أحد.

هكذا، يا أخي، جرت حياتي العائلية المضطربة المشحونة بالخلافات الى أن أستدعيت الى الجيش. أتظن انني الآن أشعر بالارتياح لبعدي عن أسرتي؟ كلا، قطعاً! أقول لك بصراحة، والكلام بيننا: انني لا أستطيع اقناع ناستاسيا فيليبوفنا أن تكتب لي الرسائل بصورة معقولة. لم أستطع مهما فعلت! فأنت نفسك، يا ميكولا، تعرف ان كل واحد منا وهو في الجبهة يسعده أن يتلقى رسائل من البيت، وكل واحد يقرأ الرسائل للآخر بصوت مسموع، وهذا ما تفعله أنت بالنسبة لرسائل ابنك، تقرأها لي، أما رسائل زوجتي فلا أستطيع قراءتها لأحد، لا أقدر لأنني أشعر بالخجل. وحينما كنا لا نزال في ضواحي خاركوف تلقيت منها ثلاث رسائل دفعة واحدة، وكل رسالة مبدوءة هكذا: «كتكوتي العزيز!» وأخذت أقرأ – فشعرت بأذني تتقدان كالنار وأنا أستغرب ولا أدري من أين أتت بهذه الكلمة المتعلقة بأفراخ الدجاج – لاشك، من القصص التي تقرأها. ليتها كتبت مثل البشر: «عزيزي فانيا» أو بطريقة أخرى لائقة، أما هي فتكتب: «كتكوتي». حينما كنت في البيت –

كانت اكثر ما تناديني بالشيطان الأشقر، وما ان أتيت الى الجبهة حتى تحولت فجأة الى كتكوت وكتبت لي في كل رسائلها، باختصار شديد، أن صحة الأطفال جيدة وانه لا توجد أخبار هامة فيما يتعلق بمحطة السيارات والجرارات وبعد ذلك، كرست باقي الصفحات للعزف على أوتار الحب والغرام، بعبارات غامضة مقتبسة من الكتب، حتى انني لم أفهم منها شيئاً، أشعر بالصداع ويتلبد في عيني الضباب...

لقد قرأت هذه الرسائل التي لاتطاق، مرتين متتاليتين، فجعلتني أشعر وكأنني ثمل. فاقترب مني سليوسازيف من الفصيلة الثانية، وسألني: ما هي الأخبار الجديدة من زوجتك؟ أما أنا فأسرعت بدس الرسائل واخفائها في جيبي واكتفيت بتلويح يدي له قائلا: ابتعد عني يارجل، يا محترم، ولا تزعجني. فسألني: «وهل الأمور في البيت على مايرام؟ أرى على وجهك أمارات الاسى والقلق». وماذا كنت سأقول له؟ اختلقت كذبة وقلت له: توفيت جدتي. وعندئذ كف عن استفساره، وابتعد.

وفي الليل جلست اكتب لزوجتي رسالة. أبلغت التحيات الى الاطفال وكل الأقارب، وكتبت عن خدمتي العسكرية بالترتيب والتسلسل وكما ينبغي، وبعد ذلك كتبت لها: أرجو عدم مخاطبتي بشتى الأسماء والألقاب الغريبة والمستغربة، فأنا لي اسمي الحقيقي، وربما كنت «كتكوتاً» قبل خمسة وثلاثين عاماً، أما الآن فقد اصبحت ديكاً بالغاً، ويبلغ وزني اثنين وثمانين كيلوغراماً - واسم «الكتكوت» لم يعد يليق بي بتاتاً. كما وارجوك الكف عن الكتابة عن هذا الحب ولا تهدمي صحتي، اكتبي لي مزيداً عن سير الأمور في محطة السيارات والجرارات، ومن بقي من الأصدقاء عندنا، وكيف يشتغل المدير الجديد.

وقبل التراجع مباشرة، تلقيت منها الرد على رسالتي. فتحت الرسالة بيدين مرتعشتين - واذا بقشعريرة تسري في جسدي!

كتبت: «تحية، يا قطيطي الحبيب!». وبعد ذلك، ومرة اخرى، أربع صفحات عن الحب، دون أن تكتب كلمة واحدة عن محطة السيارات والجرارات، وفي مكان ما من الرسالة لا تخاطبني باسمي ايفان بل ادوارد. وفكرت، آه لقد فقدت هذه المرأة صوابها تماماً! الظاهر، انها تنسخ كل ما يتعلق بهذا الحب اللعين من الكتب، والا فمن أين نبشت عن اسم هذا الادوارد، ولم تكثر من وضع الفواصل المختلفة في رسائلها؟ انها طيلة عمرها لم تكن على اطلاع بعلامات الترقيم والفواصل، أما هنا فهي كثيرة جداً بحيث يصعب عليك تعدادها، فلو أخذنا فرضاً أي أبرش لوجدنا أن عدد نقط النمش على وجهه أقل من عدد الفواصل في رسالة واحدة من رسائلها. وماذا بالنسبة للالقاب؟ في البداية - «كتكوت»، ثم «قطيط» وأفكر، ماذا بعد هذا؟ في الرسالة الخامسة، قد تناديني بالجرو أو بلقب من تلك التي تطلق على الخيول. وهل أنا من أهل السيرك؟ كنت قد أحضرت معي، من البيت، كتاباً مدرسياً عن جرارات « ЧТЗ »، فخطر ببالي أن أنسخ منه حوالي صفحتين، وأن أرسلها اليها من باب النكاية بها، الا انني غيرت رأيي فيما بعد. اذ انها ستعتبر ذلك بمثابة اهانة مقذعة. ولكن من الضروري عمل شيء لجعلها تكف عن هذه السخافات... بم تنصحني، يا ميكولا؟

نظر زفياغينتسيف الى رفيقه وتنحنح متكدراً. كان نيكولاي مستلقياً على ظهره، ويغط في نوم عميق، وقد بانت، أسنانه الناصعة غير المستوية، من تحت شاربه الكثيف المنكس الى الأسفل، وعلى زاويتي فمه المرفوعتين قليلا بدت تجاعيد خفيفة هي ظلال ابتسامة تكاد ترتسم على شفتيه.

* * *

وبعد مدة قصيرة أفاق نيكولاي من نومه. كانت نسمة تحرك اوراق شجرة التفاح.

وبقع ضوئية تتحرك على العشب بسرعة وتختلف أشكالها بصورة عجيبة. وفي مكان قريب كانت يمامة تهدل وثمة صوت هدير محرك جرارة متقطع مفرقع يطغي على ذلك الهديل. وكانت الأصوات والضحكات تسمع من الزقاق، ثم صرخ شخص بصوت فتي جهوري رنان:

– لقد قلت لك أن شمعة الاشعال معطوبة. هل المفتاح الانجليزي عندك؟ هاته، يا عزيزي! أعطني اياه، يا عيني السمكة!

كانت الحديقة تفوح برائحة الحشائش الذاوية والدخان، ورائحة عصيدة محروقة. كان بيتر لوباخين، رامي المدفع المضاد للدبابات وصديق نيكولاي، يقف قرب مطبخ الميدان مباعداً ما بين ساقيه المعوجتين، ويدخن متكاسلا ويتبادل الشتائم مع الطباخ ليسيتشينكو.

– وهل طبخت عصيدة مرة أخرى، أيها الحصان الكميت الخصي؟

– أجل، ولكن لا تشتم.

– أتعرف، ان عصيدتك وصلت الى هنا؟ – قال وهو يشير باصبعه الى بلعومه.

– لا يهمني الى أين وصلت.

– انك لست طباخاً، ولا أحد يدري من أنت. لا تقدر على ابتكار أي شيء، ولا تخطر برأسك أية فكرة حسنة. فرأسك كالقدر الفارغ، لا يسمع منه سوى الرنين. أو لم تستطع في هذه العزبة اختطاف شاة أو عنزة أو خنزير خفية عن أصحابها؟ اذن لكان بامكانك طبخ حساء كرنب لذيذ واللون الثاني من وجبة الطعام...

– اذهب من هنا، اذهب، لقد رأيت كثيراً من أمثالك!

– ثلاثة أسابيع، لم تقدم لنا طوالها سوى عصيدة جريش الدخن، وهل الطباخون المعتبرون يفعلون فعلتك؟ أنت اسكافي ولست طباخاً!

– وماذا بعد، عساك تحلم ايضاً بتناول شريحة انتريكوت؟ أو ربما كستليتة من لحم الخنزير؟

– ليتهم يصنعون منك كستليتة فلحمك مناسب جداً لهذا الغرض، لقد سمنت كثيراً كمشرف تموين من الدرجة الثانية.

– كن اكثر حذراً، يا بيتكا، فالماء الساخن في متناول يدي... هل كنت في كتيبة الاسعاف والخدمات الطبية؟

– نعم.

– وماذا هناك؟

– لا شيء.

– ولم ذهبت اذن؟

تثاءب لوباخين متصنعا، ثم صمت. ووقف ليسيتشينكو، واضعا يده على خاصرته وهو يبتسم وينظر اليه في انتظار رده.

– هكذا بلا سبب، كنت أبحث عن أحد معارفي، – قال لوباخين بلا اكتراث.

– كانت هناك فتاة رائعة... ألم تقع في صنارتك؟

– لم أحاول ايقاعها في صنارتي.

– هلاكففت عن هذا الهراء! لقد رأيتك كيف كنت تنظف جزمتك بالعشب، وتلمع مداليتك بخرقة. اذن، ألم تساعدك المدالية؟ وكيف بالامكان أن تساعدك؟ فلو كان لديك على سبيل المثال وسام لاختلف الأمر، أتظن أنها لم تر نوط شجاعة! لايصح الذهاب الى هناك يا أخي، بمثل مداليتك!

– يا مجنون، – قال لوباخين دون حقد. – أقول لك، انه لم تكن لدي أية نية معينة وكل ما في الأمر هوانني ذهبت الى العزبة هكذا بلاقصد. فبعد حساء الكرنب الذي تعده لنا، ليس بالامكان الذهاب بعيداً، حتى انني لم أعد أرى زوجتي في المنام.

– وما الذي تراه في منامك، أيها البطل الهمام؟

– أرى انني صائم عن الطعام، وأشياء سخيفة أخرى مثل عصائدك.

«يجدان متعة في الثرثرة»، – فكر نيكولاي، ورفع رأسه قليلا مادا يديه الخدرتين متمطيا.

دنا لوباخين منه، حانياً رأسه وقال مازحاً:

– وكيف كان نومك يا حضرة السيد المحترم ستريلتسوف؟

– اذهب الى الطباخ وتحدث معه ودعني وشأني فانني أشعر بصداع في رأسي، – قال نيكولاي متجهماً.

ضيق لوباخين عينيه المتلالئتين في بريق جريء، وهز رأسه وهو يعتدل في وقفته:

– كل شيء واضح! مزاج متعكر نتيجة تقهقرنا، حرارة وصداع أليس كذلك؟ هيا بنا، يا ميكولا نسبح في الماء حتى الظهر، فسوف يتعين علينا التحرك قريباً. ان شباننا لا يكادون يخرجون من ماء النهر. فحتى أنا غطست جسمي الآثم في الماء مرة واحدة.

نشأت الصداقة بين نيكولاي ولوباخين منذ امد قصير. أثناء القتال دفاعاً عن سوفخوز «سفيتلي بوت» كان خندقاهما متجاورين. وكان لوباخين قد وصل الى الفوج قبل يوم واحد فحسب، ضمن الامدادات الأخيرة، وكان نيكولاي قد شاهده لأول مرة في ساحة القتال حينما أحرق مقاومو الدبابات دبابتين بعد ان سمحوا لهما بالاقتراب لمسافة مئة او مئة وخمسين مترا، ولدى مقتل الجندي الثاني المساعد من افراد الطاقم تأخر لوباخين في اطلاق النار، واندفعت الدبابة الثالثة، فاتحة نيرانها، فاخترقت خنادق مقاومي الدبابات منطلقة باقصى سرعتها الى موقع البطارية الذي تنطلق منه القذائف المضادة للدبابات. كان نيكولاي راكعاً على ركبتيه، وهو يحشو خزان مدفعه الرشاش بيدين مرتعشتين، وشاهد كيف ينهال من تحت حصائر الدبابة الطين الصلصالي الاصفر على خندق لوباخين معتقدا بأن مقاومي الدبابات قد لقوا حتفهم، ولكن بعد ثوان معدودة، برزت سبطانة المدفع الطويلة، من سحابة الغبار الأصفر التي لم تهدأ بعد، موجهة صوب الدبابة المقتحمة، وانطلقت منها قذيفة مضادة،

فاندلعت السنة النيران بالدرع القاتم للدبابة التي توقفت فجأة، وأخذ الدخان الأسود الكثيف يتصاعد منها. وفي نفس اللحظة تقريباً، هتف لوباخين مخاطباً نيكولاي:

– يا هذا، أنت، أيها الأسمر ذو الشنب! أحي أنت؟ –

رفع نيكولاي رأسه قليلا، ورأى وجه لوباخين محمراً محتقناً غاضباً، ملوثاً بالطين. – ما لك لا تطلق النار. أتريد أن تلقى حتفك؟! ألا ترى؟ ها هم يزحفون! – صرخ لوباخين باعلى صوته وعيناه البراقتان جاحظتان كعيون الوحوش المفترسة، مشيراً الى الألمان المتسللين الزاحفين على طول امتداد الخط الأمامي لجبهة القتال.

قطعت رشقة الرشاش الأولى القصيرة التي أطلقها نيكولاي، رؤوس الأقاحي النامية عند منطقة الخط الفاصل، وحينما خفض مستوى تسديده، سمع ونشوة المتعة تغمره صرخة حادة تكررت مرتين متخللة صوت طقطقة رشاشه الصخابة.

وفي المساء، بعد انتهاء القتال، دخل لوباخين الملجأ، وحدق بالجنود الحمر باهتمام، ثم سأل:

– أيها الشباب، أين ذلك الأسمر الجميل الوسيم ذو الشاربين، شبيه وزير الخارجية البريطاني انطوني ايدن؟

أدار نيكولاي وجهه نحو الضوء، فما ان وقعت عليه عينا لوباخين حتى قال له بلهجة جادة:

– ها قد وجدتك على أية حال! هيا بنا، يا ابن جلدتي نخرج لندخن في الهواء الطلق.

جلسا قرب الملجأ وأخذا يدخنان.

– لقد دمرت الدبابة الاخيرة بحذق وبراعة، – قال نيكولاي وهو يتأمل، في الغسق، وجه لوباخين الأسفع كالطوب الأحمر. – اعتقدت انكما قد طمرتما كلاكما تحت التراب معاً، ثم رأيت سبطانة المدفع تبرز...

وعندئذ قاطعه لوباخين ساخراً:

– هذا بالضبط ما كنت أنتظره... أنت تعبر عن

اعجابك بما قمت به، ولكن لماذا لم تطلق النار حينما داست الدبابة خندقي؟ لم لم تطلق النار من رشاشك الا بعد شتمي لك؟ ان احتياجي الى اعجابك هو كاحتياج الميت الى لزقة الخردل، أتعرف ذلك؟ انني بحاجة الى العمل والتصرف وليس الى الاعجاب والاطناب!

أجاب نيكولاي مبتسماً بأنه كان في تلك اللحظة يبدل الخزان، وأن كل خزانات رشاشه كانت فارغة. ضيق لوباخين عينيه، وأمال رأسه وقال غير مصدق:

– أخذت اهبتك للقتال، وبعد ذلك تبين لك أنك غير جاهز له. ان العلاقة بيني وبينك لا ينقصها سوى أمر واحد: فلو فعلت مثل حلفائنا، ووضعت ضميرك في جيبك، واكتفيت بتزويدي بالرصاص وبالثناء علي حتى أحارب بدلا عنك... أليس كذلك؟ يا للعلاقات الجميلة والصلات الحميمة!..

واذ لاحظ علامات الاستياء على وجه نيكولاي، مد لوباخين يده القصيرة القوية وقال بلطف:

– لا تستاء ولا عليك من هذا، وهل يجوز الاستياء من الحقيقة؟ فبما ان الضرورة فرضت علينا أن نحارب جنباً الى جنب، فسنحارب اذن معاً. دعنا نتعارف اذ يبدو أننا من ابناء منطقة واحدة – ألست من منطقة روستوف؟ أما أنا فمن مدينة شاختي. فلنكن اصدقاء.

ومنذ ذلك اليوم تصادقا فعلا، وكانت صداقتهما عسكرية وثيقة متواضعة. كان لوباخين بتهكمه وسلاطة لسانه اللاذع وتعلقه بالنساء، يبدو مع نيكولاي الصموت المتحفظ وكأنهما يتممان بعضهما البعض، حتى أن رئيس العرفاء بوبريشينكو – وهو عجوز اوكراني بطيء الحركة – قال اكثر من مرة متأملا اياهما:

– لو جمع بيتر لوباخين ونيكولاي ستريلتسوف في عجينة واحدة، ثم خبز منها انسان واحد، فلربما تكون لدينا رجل صالح كل الصلاح أو قد لا يحدث ذلك فمن يدري، ما الذي سنحصل عليه من خليط كهذا؟!

وعند النهر حيث كانت تسمع أصوات حادة صادرة عن المناشير في أيدي جنود سلاح الهندسة وهم ينشرون الاخشاب وتتعالى طبطبة الماء والقهقهة المرحة للجنود المستحمين، سار لوباخين ونيكولاي معاً، فوق العشب النامي صامتين، ثم اقترح لوباخين:

– فلنذهب الى ما وراء الجسر فالماء هناك أعمق.

وتخطى متجاوزاً سياجاً متهاوياً من الأغصان المجدولة، أولا، ثم أومأ برأسه مشيراً الى جرارة قاطرة تقف على الطريق وبجوارها سائقان بملابس عمل ملطخة بالزيت وهما عاكفان على تصليح المحرك. كان زفياغينتسيف متعرياً حتى خصره، ويقوم بمساعدتهما وقد اكتست كتفاه العريضتان وعضلات يديه المفتولة بطبقة كثيفة من الزيت العادم، وامتد خط أسود على طول وجهه. كان زفياغينتسيف قد فكر بذلك وخلع قميصه العسكري مسبقاً، ولسروره بالمناسبة التي أتيحت له بأن يكون قرب الجرارة ويتولى تصليحها. كان يجد متعة خاصة وهو يمسك بالمفتاح ويقوم بالتصليح في مهارة وعناية.

– أنت، يا أيها الغندور! خذ ورق سنفرة من رفاقك وتعال معنا لنستحم في النهر، سننزيل عنك الزيت العالق بجسدك بطريقة ما، – قال لوباخين ماراً بهم.

التفت زفياغينتسيف اليه، وحين شاهد نيكولاي، لاحت على شفتيه ابتسامة عريضة:

– انظر، يا ميكولا، جرارة وأي جرارة! انها ذات قوة جبارة. أرأيت اللعبة التي ألهو بها؟ وخيل الي كانني قد عدت الى الديار وانني اشتغل في محطتنا للسيارات والجرارات... أؤكد لك، بشرفي، أن قوة هذا المحرك بوسعها ان تجر بكل يسر و سهولة ثلاث حصادات مقرونة!

كان وجه زفياغينتسيف اللماع المتفصد عرقاً يشع بسعادة الأطفال البريئة، الأمر الذي جعل نيكولاي يحسده بينه وبين نفسه، لا ارادياً.

* * *

كانت زنابق الماء الصفراء تطفو فوق الماء الآسن. ورائحة الطمى والرطوبة تنبعث من النهر. نزع نيكولاي ملابسه وغسل قميصه العسكري ولفافتي ساقيه، وجلس على الرمل محتويا ركبتيه بين ذراعيه، في حين استلقى لوباخين بالقرب منه قائلا:

– أراك اليوم كئيباً، يا نيكولاي...

– وماهي دواعي الفرح؟ انني لا أرى مايبعث على السرور والحبور.

– واي دواع تريد أيضاً؟ أنت حي ترزق وهذا يكفيك سبباً للفرح، أنظر الى طقس اليوم، ما أروعه! الشمس، النهر، وها هي زنابق الماء عائمة... يا لحسنها، ويا لجمالها! انني أستغرب من أمرك: جندي قديم، تحارب منذ ما يقارب السنة، وكل شيء يقلقك كالمجندين الأغرار. وماذا تظن؟ لقد هزمنا في معركة فهل هذا يعني أن كل شيء قد انتهى وحلت نهاية العالم؟ وان هذه هي نهاية الحرب؟

قطب نيكولاي جبينه متكدراً، وقال:

– وما علاقة نهاية الحرب بالموضوع؟ أنا لا افكر هكذا قطعاً، غير أني لا أستطيع الاستخفاف بما حصل. ان هذا شعورك ولكنك تتظاهر وكأن شيئاً لم يحدث. انني أعي تماماً بأن ما حصل هو كارثة. اننا، أنا وأنت، لا نعرف مدى جسامة هذه الكارثة، ولكن باستطاعتنا تخمين بعض الأمور. اننا نسير لليوم الخامس، سنصل قريباً الى نهر الدون، ثم الى مدينة ستالينغراد... لقد دمر فوجنا شر تدمير. وماذا بالنسبة للباقين؟ وبالنسبة للجيش؟ من الجلي ان قطاعاً عريضاً من جبهتنا قد اخترق. والألمان يتعقبوننا، بالأمس فقط افلتنا منهم، ولا نزال نتراجع، لا أحد يعرف متى سنتوقف. أو ليس هذا بالأمر المضجر والمقرف ان نتقهقر هكذا دون أن نعرف شيئاً! وبأية عيون يشيعنا المواطنون؟ انه لأمر يجعل الانسان يفقد عقله!

صر نيكولاي على أسنانه في صريف، وأشاح بوجهه لائذا بأهداب الصمت لدقيقة من الزمن محاولا السيطرة على الاضطراب الذي استحوذ على نفسه، ثم بدأ يتكلم بصوت منخفض وأكثر هدوءاً:

– ان كل هذه الاشياء تجعل الانسان يتمنى الموت، أما انت فتعظني قائلا – لقد بقيت حياً ترزق فافرح اذن وابتهج بالشمس وزنابق الماء العائمة... فلتذهب الى الجحيم أنت وزنابق الماء، ان النظر اليها يثير اشمئزازي! انك مثل المهرج السخيف الذي يمثل في مسرحية تافهة. حتى لقد سمحت لنفسك بالذهاب الى كتيبة الاسعاف والخدمات الطبية طلباً للترويح عن نفسك و...

تمطى لوباخين حتى سمعت طقطقة عظامه، وقال:

– انه لمن المؤسف، أنك لم تأت بصحبتي. فهناك، يا ميكولا، طبيبة ما أن تنظر اليها حتى تتملكك الرغبة في الذهاب الى المعركة فوراً حتى تصاب بجراح لتقع بين يديها. انها، والله، ليست بطبيبة، بل هي علامة تعجب!

– اغرب عن وجهي، اذهب للشيطان!

– كلا، انني لا أمزح! ما أروع ان تكون ثمة امرأة حسناء بمثل هذا الحسن والبهاء، ليست بطبيبة وانما مدفع هاون ذي ست سبطانات، لا بل أخطر من ذلك ليس على اخيك العسكري النفر فحسب بل وعلى القادة والضباط ذوي المكانة والقدر.

أخذ نيكولاي ينظر صامتا، عابساً الى السحابة البيضاء الصغيرة المنعكسة في الماء، وعندئذ تكلم لوباخين بغضب وتحفظ:

– أما أنا فلا أرى سببا لاخفاء ذيلي بين رجلي كما تفعل الكلاب، أهذا مفهوم؟ أهم يضربوننا؟ اذن نحن نستحق الضرب فعلا. اذن فحاربوا افضل، يا أبناء الكلاب! وتشبثوا بكل ذرة من تراب الوطن، تعلموا توجيه الضربات القاصمة للعدو بحيث تجعلونه يعاني من سكرات الموت وفي حالة عجزكم عن ذلك فلا تعاتبوا احداً، لأن العدو يسفك دماءكم

وأبناء الوطن لا ينظرون اليكم بلطف وعطف. ولماذا سيستقبلوننا بالخبز والملح؟ والحمد لله، ولهم الشكر لكونهم لا يبصقون في وجوهنا. وان لم تكن مهرجاً فاشرح لي: لماذا نلاقي صعوبة بالغة في تطهير قرية صغيرة بحجم الدملة يحتلها الألمان بينما نسلمهم مدناً باكملها، دون مقاومة تذكر، ونتراجع سائرين خبباً. أو ليس من واجبنا استرجاعها؟ أم هل سيعيدها لنا شخص آخر؟ كل هذا يحصل، يا حضرة المستر، لأننا لم نتعلم بعد كيف ينبغي أن نقاتل، ولسنا شرساء بما فيه الكفاية. واما حينما نتعلم هذا فعندها سنذهب الى المعركة والزبد طافح على شفاهنا من شدة الحقد وعندئذ سيدير الألمان لنا ظهورهم متجهين شرقاً وعائدين أدراجهم من حيث أتوا، أفهمت؟ فأنا مثلا، وصلت من الحقد الى درجة الغليان فلو بصقت على وجهي لسمعت لبصاقك نشيشاً كنشيش الدهن في المقلاة من جراء نار حقدي، وهذا هو سبب مرحي، وعدم شدي ذيلي بين رجلي! أما أنت فقد الويت بذنبك وبدأت تذرف الدموع وتقول: — «آه، لقد دمروا فوجنا! آه لقد حطموا جيشنا، آه لقد اخترق الألمان حدودنا!» لعنة الله على هؤلاء الألمان الملاعين! من ناحية اخترقوا أجل اخترقوا، ولكن من الذي سيطردهم من هنا، الى ان نستجمع قوانا وطاقاتنا؟ اننا الآن نضرب رغم تراجعنا، ولكن عندما نبدأ الهجوم فان ضرباتنا ستكون أقوى بعشرة أضعاف! سواء أكان ذلك حسناً أم سيئاً، فنحن نتراجع، أما بالنسبة لهم فلن يكون باستطاعتهم الانسحاب، ولن نفسح لهم مجالا لذلك، فما أن يديروا ظهورهم مولين أدبارهم ووجوههم شرقا حتى نكسر أرجل أولاد الكلاب هؤلاء ونخلعها من منابتها لئلا تطأ أرضنا ثانية. هكذا أفكر، أما ما أريد قوله لك فهو: لا تبك أمامي، من فضلك، فانني لن أمسح لك دموعك مطلقاً، فقد أصبحت يداي خشنتين بسبب الحرب، فمن المحتمل أن أخدش لك وجهك في حالة مسحي دموعك...

قال نيكولاي:

— انني لست بحاجة الى مواساتك لي، أيها المجنون، فلا تتفاصح ولا تتعب نفسك في صياغة العبارات البليغة سدى، ومن الافضل لو قلت لي متى سنتعلم كيف نحارب، حسب رأيك؟ احينما نصل في تراجعنا الى سيبيريا؟

— الى سيبيريا؟ — أعاد لوباخين سؤاله ماطاً كلامه، وغامزا بعينيه المشعتين — لا، أيها المستر العزيز، لن نذهب الى تلك المدرسة البعيدة لتلقي العلوم! بل سوف نتعلم ههنا، وفي هذه السهوب، أفهمت؟ أما سيبيريا، فدعنا نحذفها من الخارطة الجغرافية مؤقتا. البارحة، قال لي ساشكا — مساعدي الثاني: «سنصل الى الأورال، وهناك في الجبال سيكون بامكاننا التغلب على الألمان بسرعة». فقلت له: «اذا ذكرت لي كلمة الأورال مرة ثانية، يا ضفدع، فانني لن أتردد في اطلاق القذيفة المضادة للدبابات عليك، سأسحب البارودة حالا وأسددها مباشرة على رأسك الفارغ هذا ليتدحرج عن كتفيك!» أما هو فقال متراجعاً في كلامه: انني أمزح. فأجبته بأنني أيضاً أمزح والا فمن الذي يطلق القذائف المضادة للدبابات على اشخاص مجانين الى هذا الحد، ولا سيما من مدفع ممتاز؟ وبهذا انهينا هذا الحديث الطريف.

زحف لوباخين، واقترب من الماء، وفرك باطن قدميه المخشوشن بالرمل الخشن البليل، طويلا، ثم التفت الى نيكولاي قائلا:

— لقد تذكرت، يا نيكولاي، عبارة المرحوم روزايف، المشرف السياسي، كما لو انها عبارة جنرال مشهور، اذ قال: لو قتل كل جندي أحمر ألمانياً واحداً — لكانت الحرب قد انتهت منذ زمن طويل». اذن فنحن لانقتل الكثيرين من هؤلاء الأوغاد، أليس كذلك؟

سئم نيكولاي، فأجاب ضجراً:

— انها لمسالة حسابية بسيطة جداً... فلو فاز كل جنرال من جنرالاتنا بمعركة واحدة اذن لكانت الحرب قد انتهت بوقت أبكر أيضا.

كف لوباخين عن فرك قدميه وجعل يقهقه بقهقهة مدوية.

– يا لك من انسان غريب، كيف يستطيع الجنرالات تحقيق الانتصارات بدوننا؟ وكذلك أيمكنك احراز الانتصارات بمقاتلين من أمثال مساعدي ساشكا؟ فقبل وصوله الى نهر الدون، أخذ يفكر بالأورال. الجنرال بلا قوات مسلحة، أو بقوات لا يعتمد عليها، كالراعي بلا عصا ونحن بلا جنرال كالغنم بلا راع. طبعاً هناك بين الجنرالات من يشبه ساشكا من حيث التفكير، وقد يكون هناك جنرال تعيس بدأ الألمان بمطاردته اعتباراً من خط الحدود ولا يزالون يوجهون اليه الضربات المتتالية حتى الآن، أما هو فقد أصبح خائر القوى والعزيمة، ولا يفكر بقهر الألمان، وانما يخشى أن يتلقى هو نفسه مزيداً من الضربات. لكن أمثال هؤلاء قلائل، وليسوا هم الذين سيغيرون مجرى الأحداث. والشيء الدارج عندنا اذا ما ارتكب خطأ بسيط في مكان ما على الجبهة يوجه التوبيخ همساً الى الجنرالات ويوصفون بأنهم كذا وكيت، وتنقصهم المهارة القتالية، وأنهم هم سبب كل هذه المصائب. أما اذا أمعنا النظر في القضية بانصاف، فان الذنب ليس ذنبهم دائماً، ولا يجوز توبيخهم بهذه الشدة، لأن الجنرالات هم أتعس الناس أثناء الحرب. ولكن ما دهاك تحدق بي كشاة ازاء بوابة غريبة عليها؟ هذا هو الواقع بالضبط وكما أقول. في الماضي، ويا لسخافتي، كنت أتمنى أن أصير جنرالا وافكر: «آه، ما أنظف وألطف حياتهم! انهم يمشون متأنقين متباهين كالطاووس، لا يتوجب عليهم حفر الخنادق ولا الزحف على بطونهم في الوحل...» ولكن بعدما فكرت ملياً، شعرت بخيبة أمل.

آنذاك كنت لا أزال رامياً عادياً، لا جندياً في المدفعية المضادة للدبابات، واذا بهم يستنفرون السرية للهجوم. وأقول الحق، انني توانيت بعض الشيء، – كانت الرماية شديدة جداً، وكنت منبطحاً على الأرض لا أريد النهوض، –

فأسرع قائد الفصيلة نحوي صارخاً ومهدداً اياي بمسدسه «الناغان»: «انهض!..» وبدأ يشتم من أنجبني، أفهمت؟ ذهبنا الى الهجوم وبعد ذلك فكرت «لا بأس انني جندي وتلقيت شتيمة صغيرة لتهاوني، فأنا مسؤول عن نفسي فحسب، أما قائد الفرقة، فهو مسؤول عن آلاف الجنود، وفي حالة تقصيره، ما عدد الشتائم التي تنهال على رأسه؟ أما قائد الجيش فحدث عنه ولاحرج!». وبدأت أحسب، حتى أحسست بالرعب من هذه الحسابات. وفكرت وقلت: لا، شكراً لكم! انني أفضل أن أبقى جندياً. تصور، يا نيكولاي، ان الجنرال يمضي الليالي بطولها، مع رئيس أركانه، وهو بعد للهجوم، لا يأكل ولا ينام، ويفكر بأمر واحد، عيناه منتفختان من كثرة التفكير، ورأسه يكاد يتصدع من الأفكار المختلفة المتضاربة، وعليه أن يحسب حساب كل شيء، وان يأخذ بعين الاعتبار كل الاحتمالات المتوقعة... وها هو يحرك الأفواج للهجوم وتمنى عملية الهجوم بفشل ذريع. لماذا؟ وهل الأسباب قليلة! انه، فرضاً، كان يعتمد على بيتكا لوباخين كما يعتمد المرء على أمه وأبيه، أما بيتكا فاتضح أنه جبان فولى الأدبار هارباً، فتبعه نيكولاي ستريلتسوف وتبع ستريلتسوف أناس آخرون قليلو الحياء مثلهما. وهكذا «توتة توتة خلصت الحدوتة!» فأولئك الذين قتلوا، طبعاً، لا يوجد لديهم أي مآخذ على الجنرال، أما الذين فروا، واستردوا أنفاسهم واستقروا بسلام بعد فرارهم، فهؤلاء يطلقون أفظع الشتائم على الجنرال! يشتمون الجنرال مقتنعين تماماً وواثقين بأن كل الأخطاء وقعت منه وكل الذنب يقع عليه، وكأنهم لا علاقة لهم بما حصل، لا من قريب ولا من بعيد. طبعاً كل واحد، طبقاً للنظام، يشتم في نفسه، ولكن هل هذا يخفف من هموم الجنرال؟ انه قابع في ملجئه حاصراً رأسه بين كفيه والشتائم غير المسموعة تحوم حوله بالآلاف كما تحوم الفراشات الليلية مرفرفة حول ضوء المصباح. وها هي أيضاً مكالمة هاتفية مباشرة مع موسكو، ويقف شعر الجنرال رافعاً سدارته الجميلة فوق رأسه،

ويتناول السماعة وهو يفكر في قرارة نفسه: «يا أمي التعيسة لم أنجبتني جنرالا!» ولكنه لا يسمع الشتائم عبر خط الهاتف، ففي موسكو أناس مهذبون، وعلى سبيل المثال، يقولون له هكذا: «ماذا بك، يا ايفان ايفانوفيتش، تحارب بغير كفاءة، لقد صرفت الدولة عليك، علمتك، كستك، وأطعمتك وشربتك، ما هذه الفصول التي تلعبها؟ لا يلام الطفل الرضيع في افساده قماطه ولفائفه لأنه وليد صغير، أما أنت فلست طفلا ولم تفسد قماطاً، بل عملية هجوم. كيف حصل هذا؟ أرجو الايضاح». صوت هادىء يتكلم بلطف، في حين يبدأ الجنرال من جراء هذا الصوت الهادىء بابتلاع ريقه، والعرق يسيل جداولا على ظهره...

لا، يا نيكولاي، فأنت كما تريد، أما أنا فلا أرغب في أن أكون جنرالا! ورغم كل طموحي، لا أرغب، وهذا كل ما في الأمر! وفيما لو دعيت الى الكرملين، وقيل لي: «أيها الرفيق لوباخين، انيطت بك قيادة الفرقة الفلانية»، لشحب كل جسمي من قمة رأسي الى أخمص قدمي، ولرفضت رفضاً قاطعاً. واذا ما ألحوا علي لخرجت من هناك، ولصعدت سور الكرملين لألقي بنفسي في نهر موسكو هكذا!

وضع لوباخين يديه فوق رأسه، وقفز عالياً ليهوي في الماء الأخضر الكثيف الذي يبدو كالحجر. وبرز من تحت الماء عند منتصف النهر، وأخذ يصرخ وهو يعفط ويحملق بعينيه بصورة غريبة:

— اقفز الى الماء بسرعة، النجدة، الحقني قبل أن أغرق!

جرى نيكولاي قليلا، ثم وثب الى الماء، وفجأة تأوه شاعراً بالماء البارد يلذع جسمه، وسبح نحو لوباخين وهو يمد يديه الطويلتين أمامه بعيداً.

— الآن سأجعلك تغرق، أيها الشيطان ذو الساقين الملتويتين! — قال نيكولاي مبتسماً، وقد تأهب للامساك به، الا ان لوباخين لوى وجهه متظاهراً بالبلادة والذعر، وغاص

في الماء ثانية، وللحظة قصيرة لاحت مؤخرته السمراء اللماعة، ورجلاه تتحركان تحت الماء بسرعة جنونية.

نشط الاستحمام نيكولاي. وتلاشى صداعه وارهاقه، وبعينيه اللتين أصبحتا تشعان بهجة، تأمل العالم المحيط به، المغمور بأشعة شمس الظهيرة المتوهجة، بنظرات أخرى مختلفة.

— يا للروعة! كأنني ولدت من جديد! — قال نيكولاي مخاطباً لوباخين.

— بعد مثل هذا الاستحمام، آه على قدح من الفودكا، وحساء كرنب منزلي جيد، أما ليسيتشينكو — لعنة الله عليه — فقد أعد عصيدة هذه المرة أيضا، ليته يختنق بها! — قال لوباخين متذمراً، وأخذ يحجل بطريقة خرقاء، متمايلا وهو يحاول ادخال رجله الثانية في ساق بنطاله — هيا بنا الا يمكننا أن نطلب من احدى العجائز أن تطعمنا الحساء؟

— أشعر بالحرج من ذلك.

— أتعتقد أنها لن تقرينا؟

— ربما تضيفنا، ولكني أشعر بشيء من الخجل.

— وماذا لو لم يكن المطبخ موجوداً، أيها الشيطان؟ واي خجل هذا، دعنا نذهب! وكيف لا نستطيع أن نطلب اطعامنا حساء كرنب ونحن في منطقتنا وبين ذوينا؟

— ولكننا لسنا شحاذين ولا متسولين، — قال نيكولاي مترددا.

ظهر اثنان من معارفهما من الجنود الحمر، من خلف السد. أحدهما طويل القامة ضامرها، ذو عينين صبيانيتين خاليتين من الحيوية، وفم صغير يحمل بيده حزمة رطبة، والثاني يسير خلفه مزرراً قميصه العسكري أثناء سيره ووجهه ازرق كوجه الغريق، يرتعش مقروراً، وشفتاه المسودتان تختلجان. ولما صار الجنديان على محاذاة لوباخين، مد عنقه كالوحش الكاسر، وسألهما:

— ما هذا الذي في الحزمة، أيها النسور؟

– سراطين – أجاب الطويل بفتور.
– واه! من أين حصلتم عليها؟
– قد تكون هناك ينابيع قرب السد، اذ ان الماء بارد جداً بشكل فظيع!
– كيف لم يخطر ببالنا أن نفعل مثلهما! – هتف لوباخين متأسفاً وهو ينظر الى نيكولاي، ثم سأل الشاب الطويل بلهجة جادة: – وكم اصطدتما؟
– حوالي المئة، لكنها ليست كبيرة.
– مهما كان، انها لشخصين كمية كبيرة، – قال لوباخين جازما. – دعونا نشارككما. فأنا أتكفل بالحصول على سطل وملح، ونسلقها معاً، اتفقنا؟
– اصطاداً انتما أنفسكما.
– ماذا تقول، يا عزيزي! ومتى سنلحق الآن؟ اعزمنا ولا تكن عنيداً، فما أن نحتل برلين – سأعزمكما على بيرة، أقسم لكما بشرفي العسكري!
زم الشاب الطويل شفتيه الدقيقتين، وصفر متهكما:
– يا له من وعد!
يبدو أن رغبة لوباخين في تذوق السرطان المسلوق كانت شديدة. فكر قليلا ثم أردف قائلا:
– وبالمناسبة، لدي فودكا جيدة، أحتفظ بها على سبيل الاحتياط لحالة الاصابة بجراح، وباستطاعتي الآن أن أقدم قدحاً لكل واحد منا ما دامت السراطين متوفرة.
– هلموا بنا! – قال الطويل بسرعة، وقد لمعت عيناه بالبشر.

* * *

ودون تردد، وكمن يدخل بيته، فتح لوباخين خوخة متداعية على مصراعيها، ودخل الى فناء بيت معشوشب بالقراص والاعشاب الطفيلية التي يصعب اختراقها. كانت البنى في فناء الدار شبه خربة، ودرفة الباب عالقة بمفصل

واحد، ودرجات الطنف الخشبي متعفنة وكانت كل هذه الاشياء تدل على خلو البيت من ساكنيه.
«لا شك أن رب البيت في الجبهة – اذن سيكون لنا نصيب»، – فكر لوباخين.
قرب العنبر، كانت امرأة عجوز حانقة، بثوب أزرق بال وبلوزة قذرة ترتب الروث المجفف في أقراص «سرجين». وما كادت تسمع صريف الخوخة، حتى اعتدلت في وقفتها مقومة ظهرها بصعوبة ورفعت راحتها المتغضنة الداكنة الى عينيها، وأخذت تنظر صامتة الى جندي الجيش الأحمر الذي لاتعرفه. فاقترب لوباخين منها وحياها باحترام، وسألها:
– أليس بامكانك، أيتها العمة، اعطائي دلواً وكمية قليلة من الملح؟ لقد اصطدنا كمية من السراطين ونريد سلقها.
كشرت العجوز وأجابته بصوت خشن يكاد يكون صوتاً رجالياً:
– أتريد ملحاً؟ انني أبخل عليك بهذا الروث القذر، فكيف بي أعطيك ملحاً!
قلب لوباخين عينيه مشدوهاً، وسألها:
– لم تخاطبيني بهذا الجفاء؟
– ألا تعرف لماذا؟ – سألته العجوز بخشونة. – ياوقح العينين! الى أين أنتم ذاهبون؟ أتسرعون الى ماوراء الدون؟ ومن سيحارب بدلا عنكم؟ ربما تطلبون منا نحن العجائز حمل السلاح للدفاع عنكم وحمايتكم من الألمان؟ منذ ثلاثة أيام والقوات العسكرية تمر عبر عزبتنا، لقد مللنا جدا من النظر اليكم، ايها الناعمون المنعمون! ولمن تتركون ابناء الشعب؟ لعنة الله عليكم يا عديمي الحياء والضمير! مذ متى كان الأعداء يطأون أرضنا ويصلون الى هنا؟ انني لم ار ولا اذكر طيلة حياتي شيئاً من هذا القبيل. ففي الأصباح نسمع قصف المدافع في الغرب. أتريد ملحاً؟ ليتك تملح في الدار الآخرة ولا تشبع من الملح! لن أعطيك! أغرب عن وجهي!

استمع لوباخين، وقد تورد وجهه خجلا وحنقاً وغضباً، الى كلمات العجوز الساخطة، وقال مضطرباً:

– يا لك من قاسية، أيتها العمة!

– لست جديراً باللطف والرافة وهل تستحق العطف واللطف لكونك استطعت اصطياد السراطين؟ ولعلك حصلت على هذه المدالية لمهارتك في اصطياد السراطين؟

– دعي مداليتي وشأنها، أيتها العمة، فلا علاقة لك بها.

انتصبت العجوز ثانية بعد انحنائها مرة اخرى فوق الروث المبعثر، واتقدت عيناها السوداوان الغائرتان ثم قالت وقد استشاطت غضباً.

– لي علاقة بكل شيء، يا صقيري. انني لم ابذل كل جهدي حتى تقدمت بي السن، ولم أدفع كل ما يتوجب علي من الضرائب ولم أساعد السلطة السوفيتية، حتى تهربوا الآن كالمخبولين، تاركين كل شيء عرضة للدمار والفناء، أتفهم هذا برأسك الفارغ؟

قطب لوباخين جبينه وتأوه، كمن يعاني ألماً في ضرسه:

– انني أعرف كل هذه الامور بدونك، أيتها العمة! ولكنك تخطئين في تفكيرك هذا...

– انني أفكر، كما أستطيع... لا تزال صغيراً حتى تعلمني.

– اعتقد أن لا أحد لك في الجيش، والا لكان تفكيرك مختلفاً عن هذا.

– أنا، لا أحد لي؟ اذهب الى الجيران وستعرف ما سيقولونه لك. ان أبنائي الثلاثة وصهري في الجبهة، وابني الرابع، الأصغر، قتل في مدينة سيفاستوبول، أفهمت؟ أنت غريب ولست ابني، ولذا أتحدث معك هكذا، بهدوء. فلو جاء أولادي الآن لما سمحت لهم بدخول الفناء. لرحبت بهم بالعصا على جباههم ولقلت لهم كلمتي الأميّة: «أ أنتم محاربون؟ اذن فحاربوا كما ينبغي، أيها الملاعين، لا

تجعلوا العدو يطاردكم من أول البلاد الى آخرها، ولا تخزوا امكم العجوز أمام الناس!»

مسح لوباخين العرق عن جبينه بمنديله وقال:

– اذن... المعذرة، أيتها العمة، انني على عجلة من أمري، سأذهب الى بيت آخر لآخذ منهم سطلا. ودعها، وذهب سالكا الممر الذي يتخلل الحشائش الطفيلية الطويلة وهو يفكر منزعجاً: «ما الذي جاء بي الى هنا؟! يالله من حديث أحلى من العسل!»

– يا أيها العسكري، انتظر!

التفت لوباخين ورأى العجوز تتبعه. مرت به صامتة، وبخطى وئيدة صعدت الدرج الصرّار، وبعد فترة قصيرة عادت بسطل وملح في قصعة خشبية متصدعة.

– لا تنس اعادتهما، – قالت العجوز بنفس اللهجة الصارمة.

تمتم لوباخين المعروف بسرعة بديهته وعدم تكلفه، بغموض:

– ماذا، نحن أناس غير متكبرين... وبامكاننا اخذهما... شكراً، يا عمة! – ولسبب ما، وفجأة، حنى رأسه بانحناءة شديدة.

أما العجوز القميئة التعبى، التي قوس الزمن والكد ظهرها فقد مرت عابرة اياه بحزم وكبرياء لدرجة خيل للوباخين أنها أطول منه بمرتين تقريباً، وكانت كما لو أنها تنظر اليه من عل باستخفاف واستعلاء واشفاق...

كان نيكولاي والجنديان الأحمران ينتظرون لوباخين قرب الفناء. كانوا يجلسون في مكان معتدل البرودة تحت ظل وارف يدخنون والسراطين تتحرك وتتدافع داخل القميص المبلول المعقود على شكل صرة. نظر الجندي الطويل الى قرص الشمس وقال:

– لقد تأخر صاحبنا، جندي سلاح المدفعية المضادة للدبابات، طويلا، يبدو أنه لا يستطيع الحصول على سطل ولن نتمكن من سلق السراطين لضيق الوقت.

– سنتمكن، – قال الآخر. – اذ لم تمض سوى فترة قصيرة على ذهاب النقيب سومسكوف وقوميسار الكتيبة الى القوات المضادة للطائرات للاتصال بالتلفون.

وبعد ذلك دار الحديث حول محصول القمح وأنه سيكون وفيراً هذا العام، وسيكون من الصعب حصد هذه الحنطة الكثيفة المنحنية مثقلة بسنابلها، وان النساء سيلاقين عناءاً شديداً وعنتاً في جنيها، أما الألمان فانهم ما لم يتم ايقاف تقدمهم، سيحصلون على خيرات وفيرة. كانا يتحدثان عن الشؤون الاقتصادية بتفكير عميق وبدقة، كما يفعل الفلاحون والقرويون عادة، لدى جلوسهم على المصاطب أثناء الأعياد، ومصغياً الى صوتيهما الخشنين أنشأ نيكولاي يفكر: «بالأمس فقط، كانا يحاربان، أما اليوم فلم يعد للحرب بالنسبة لهما من وجود. لقد أخذا قسطاً من الراحة، استحموا، ها هما يتحدثان عن المحصول، زفياغينتسيف مشغول بالجرارة. ولوباخين منهمك بسلق السراطين. كل شيء بالنسبة لهم واضح، وبسيط. ولا يكادون يتحدثون لا عن الحرب ولا عن الموت. ان الحرب – اشبه ماتكون بتسلق جبل شديد الانحدار، والنصر هناك على قمته، وهاهم يرتقون ذلك الجبل ببساطة وبلا تعقيد، غير مفكرين تفكيراً عميقاً بمصاعب الدرب التي لا معدى عنها. ان معاناتهم الشخصية تأتي في الدرجة الأخيرة من الترتيب، والمهم هو بلوغ القمة مهما كان الثمن! يتزحلقون، يسقطون، يقعون، ولكنهم يعاودون الصعود من جديد. وأي شيطان بوسعه ايقافهم؟ تنخلع أظافرهم وتنزف الدماء من اصابعهم، ومهما كلفهم الأمر سيقهرون الجبل، حتى ولو زحفاً على الأربع، لكنهم سيصلون الى القمة!»

كان التفكير بهؤلاء الاشخاص الذين تربطه بهم الصداقة العسكرية يبعث الدفء والبهجة في نفس نيكولاي، ولكن سرعان ما قطع عليه لوباخين تفكيره هذا اذ اقترب منه بخطوات سريعة بوجهه الأحمر المتفصد عرقاً، وقال لاهثاً:

– يا له من يوم قائظ! كنار جهنم بالضبط. – تأمل لوباخين نيكولاي بنظرة فاحصة محاولا من خلال تعابير وجهه، معرفة ما اذا كان قد سمع حديثه مع العجوز أم لا.

– ألم تطلب منها حساء كرنب؟

– وأي حساء، ونحن نريد سلق السراطين! – قال لوباخين بنفور.

– ولكن لم طال مكوثك هناك؟

زيغ لوباخين عينيه بمكر، وأجاب:

– صادفتني عجوز في غاية المرح، وكثيرة الكلام لم استطع التخلص منها بسرعة. انها تهتم بكل شيء مستفسرة: من نحن، ومن أين آتون، والى أين ذاهبون... انها رائعة جداً وليست عجوزا كسائر العجائز! أولادها في الجيش أيضاً، فما أن شاهدتني عسكرياً، حتى ذابت لطفاً، وباشرت باقرائي بكل مالذ وطاب من الطعام، وعرضت علي القشطة...

– وهل رفضت؟ – سأله نيكولاي جزعاً.

قاسه لوباخين بنظرة ازدراء وقال:

– وهل أنا شحاذ أو متسول حتى التهم آخر ما لدى العجوز المسكينة من قشطة؟

– ما كان ينبغي عليك أن ترفض، – قال نيكولاي بكآبة. – كان بالامكان أن ندفع لها الثمن.

قال لوباخين وهو ينظر جانبا:

– لم اكن أعرف انك تهوى القشطة الى هذا الحد، والا لأخذتها حتماً. ولكن هذا ليس بالأمر الذي لا يمكن تسويته: لن أعيد لها السطل، تكفيني المتعة التي حظيت بها، ستعيده بدلا مني واستغل المناسبة لتطلب منها القشطة. ان العجوز لطيفة جداً وطيبة ولن تأخذ منك كوبيكاً واحداً. لاتحاول أن تعرض عليها نقوداً، فانك ستغضبها بذلك. لقد قالت لي هكذا: «كم أشفق على المقاتلين المتقهقرين، لدرجة انني على استعداد أن أعطيهم كل شيء!» والآن هيا بنا والا فان السراطين ستفسد وستذهب هباءاً منثوراً!

* * *

أكل نيكولاي عصيدته كلها، وغسل قدره ومسحها حتى نشفت. أما لوباخين فلم يأكل حصته وظل مقرفصاً قرب النار يحرك السراطين في السطل، وينظر بشوق الى ملاقطها الممتدة بلاحراك في الماء الملفع بالبخار. كانت رائحة غلي الشمرة الطيبة الرائعة تفوح من السطل ولوباخين يحرك منخريه ويتمطق بشفتيه بتلذذ من حين لآخر ويقول:

– بالضبط كما في سادوفايا بروستوف، وفي فندق «اينتوريست»: تفوح رائحة الشمرة والسراطين الطازجة... حبذا لو حصلنا على نصف دستة من قناني البيرة المثلجة ماركة تريوخغورنايا انني لا أتمنى شيئاً آخر عدا ذلك. آه، يا رفاقي، امسكوني! أخشى من الوقوع في النار بتأثير نكهة هذه الروائح!

كانت سيارات كتيبة الاسعاف والخدمات الطبية تسير في الزقاق، متباعدة متجهة شرقاً، وكانت السيارة الأخيرة، هي سيارة أمريكية جديدة مكشوفة تلمع بلونها الأخضر الباهت، لكنها كانت مخرقة بالرصاص، وغطاء محركها مشوهاً نتيجة الشظايا التي أصابته. والجرحى المصابون باصابات طفيفة يجلسون مستندين على جوانبها وتتساقط الظلال على وجوههم وضماداتهم البيضاء الحديثة التي تبهر العيون ببياضها الناصع.

– لو غطيت السيارة بمشمع على الأقل، – قال نيكولاي منزعجاً. – اذ انهم سينشوون في مثل هذا الطقس الحار!

شيع الجندي الأحمر الطويل الجرحى بعينيه، ثم تنهد:

– وأي عفريت أجبرهم على التحرك نهاراً؟ السهب مكشوف وستغير عليهم الطائرات، وستصنع منهم حساء بالشعيرية. هل فقدوا صوابهم!

– ربما الضرورة فرضت عليهم التحرك، – عارضه

الآخر. – وها جنود سلاح الهندسة قد كفوا عن الضرب بمطارقهم، اننا وحدنا فقط القاعدون بلا عمل.

أصاخ نيكولاي السمع: كان يسود العزبة هدوء حذر، ولا تسمع سوى جلبة السيارات المبتعدة وقرقرة يمامة منفردة، ولكن سرعان ما دوى من الغرب صوت اللعلعة الزاحرة المألوفة لقصف المدافع.

– لقد ابتسمت لنا السراطين! – هتف لوباخين بصوت يائس وأطلق شتيمة طويلة معقدة وعلى طريقة عمال المناجم.

وبالفعل لم يتمكنوا من سلق السراطين. اذ استنفر الفوج بعد بضع دقائق. القى النقيب سومسكوف نظرة سريعة على الجنود الحمر المصطفين، وهز رأسه المرضوض وقال بشيء من الاضطراب:

– أيها الرفاق، جاءنا أمر: اتخاذ وضع دفاعي على المرتفع الكائن خلف العزبة، عند ملتقى الطرق، والدفاع عنه حتى وصول الامدادات. هل المهمة واضحة؟ لقد فقدنا الكثيرين خلال الأيام الأخيرة، ولكننا حافظنا على راية الفوج، وعلينا أن نحافظ على سمعته أيضاً. لابد لنا من الصمود حتى النهاية!

خرج الفوج من القرية. لكز زفياغينتسيف نيكولاي بمرفقه وقال وعيناه مفعمتان بالحيوية وهما تبرقان:

– ان الذهاب بالراية الى جبهة القتال أمر طيب، أما التراجع بها – فالعياذ بالله منه! ولطالما ضايقني ذلك خلال هذه الأيام حتى انني فكرت عدة مرات: «لو أعطيناها لبيتكا ليسيتشينكو، على الأقل، حتى يحملها الى المطبخ خفية، اذ اننا ولينا ظهورنا الى العدو حاملين الراية.» حتى انني كنت أشعر بالحياء والخجل أمام الناس، على نفسي وعلى الراية... وبعد صمت سأله: – ماذا تعتقد – هل سنصمد؟

هز نيكولاي كتفيه، وأجاب متململاً:

– يجب أن نصمد. – أما في نفسه ففكر: «ها هي

رومانطيقية الحرب! لم يتبق من الفوج سوى النزر اليسير، الراية، وعدة مدافع رشاشة ومدافع مضادة للدبابات والمطبخ، وها نحن الآن نذهب لنقف حاجزاً... بلا مدفعية ولا هاون ولا اتصال. ياترى ممن تلقى النقيب الايعاز؟ من جاره الأعلى رتبة منه؟ ولكن أين هذا الجار؟ ليت رجال المدافع المضادة للطائرات يساعدوننا في حالة تعرضنا لهجوم الدبابات، ولكنهم أغلب الظن سيذهبون الى نهر الدون لتغطية المعبر. وفي الحقيقة، لم كانوا يتسكعون في هذه العزبة؟ الكل مندفع نحو الدون، بعض الوحدات هائمة على وجهها في السهوب، من المؤكد أن قائد الجبهة نفسه لا علم لديه بالأوضاع، ولا توجد اليد القوية التي يمكنها ترتيب كل هذه الأمور... ان مثل هذه البلبلة والفوضى تحصلان دائماً أثناء التراجع!»

وللحظة، فكر نيكولاي قلقا: «وماذا سيحصل اذا حوصرنا، وهاجمتنا الدبابات باعداد هائلة، ومن الصعب وصول الامدادات لنا في هذه الفوضى القائمة؟»

كانت مرارة الهزيمة بالغة حتى أن هذه الفكرة المرعبة لم تثر الخوف في نفسه، وغير مكترث بأي شيء، فكر بمزيج من الغبطة والحقد: «اه، فلتذهب كلها الى الجحيم! ليتنا نشتبك بهم قريباً! فاذا ما افلحنا في التخندق في الوقت المناسب، فلسوف نهزمهم! وسنهزمهم شر هزيمة! المهم أن تكفينا الذخيرة. ان المتبقى من الفوج هم محاربون محنكون، ومعظمهم – شيوعيون، والنقيب لا بأس به، اذن سنصمد!»

قرب الطاحونة الهوائية، كان صبي عاري القدمين أبيض الرأس، في السابعة من عمره على وجه التقريب، يرعى الاوز. فأسرع مقتربا من الطريق، وتوقف وهو يحرك شفتيه المتوردتين قليلا، متأملا في اعجاب الجنود الحمر المارين. وحدق نيكولاي اليه بعينين متسعتين مندهشتين: ما أشد الشبه! نفس العينين الزرقاوين الواسعتين المتباعدتين، كعيني ابنه الأكبر، ونفس الشعر الكتاني اللون... وكان

هناك تشابه غريب في ملامح وجهه، وفي كل جسمه الصغير الممتلىء. ولكن أين الآن ابنه الصغير الحبيب الغالي على قلبه كوليا؟ أراد نيكولاي القاء نظرة أخرى على الصبي الذي يشبه ابنه الى أبعد الحدود، ولكنه أحجم عن ذلك: انه قبيل خوض المعركة ليس بحاجة الى ذكريات تلين قلبه. انه يتذكر ويفكر بأطفاله الذين تركهم، وأمهم السيئة وليس في اللحظة الأخيرة كما هو متبع في الروايات، ولكن بعد دحر الألمان من ذلك المرتفع غير المسمى. والآن على رامي الرشاش نيكولاي ستريلتسوف أن يزم شفتيه اكثر، وأن يفكر بشيء آخر جانبي، وسيكون ذلك هو الأفضل...

سار نيكولاي بعض الوقت منفعلا، ناظراً أمامه وعيناه لا تريان شيئاً، باذلا جهده لتذكر عدد الطلقات المتبقية لديه في حقيبة ظهره، غير انه لم يتمكن من السيطرة على الرغبة التي استبدت به، فالتفت الى الخلف: وبعد أن مر الفوج كان الصبي لا يزال واقفاً على جانب الطريق وهو يشيع الجنود الحمر بنظراته ويلوح وجلا بيده الصغيرة التي لوحتها الشمس فوق رأسه. ومرة أخرى، وكما حصل في الصباح، أحس نيكولاي بألم مفاجيء يعصر قلبه، وبغصة حادة واختلاج يرتفعان الى حلقه...

* * *

كانت أرض المرتفع العذراء التي جففتها الشمس صلبة كالصوان، وضربة الرفش تغرز فيها لبضع سنتيمترات بصعوبة بالغة ناثرة فتات الطين الصغير، وتاركة أثراً لماعاً على الطين في مكان الحفر.

أخذ المقاتلون يحفرون بسرعة جنونية. منذ فترة وجيزة مرت فوقهم طائرة استكشاف المانية. حامت فوق المرتفع مرة واحدة دون أن تنخفض، واطلقت رشقتين من مدفعها الرشاش، ثم اتجهت شرقاً. «والآن هيا اسرعوا لاستقبال الضيوف»، – قال الجنود الحمر.

حفر نيكولاي خندقاً بعمق يبلغ ركبتيه، واستقام في وقفته ملتقطا أنفاسه. وغير بعيد عنه كان زفياغينتسيف يحفر خندقه والعرق ينهمر من وجهه كالدرر، وقد تبلل ظهر قميصه العسكري وأصبح قاتماً.

– انها ليست أرضاً، بل هي عذاب للناس! – قال وهو يتنفس بسرعة واضطراب ماسحاً وجهه المتورد بكمه. – يجب تفجيرها بالبارود لا الحفر بالرفش. حمداً لله أن الألمان لايعاجلوننا والا فلن نتمكن من حفر خندق بسرعة منبطحاً تحت النيران.

أصغى نيكولاي الى هدير المدافع والذي أخذ يهدأ في البعد وبعد أن استراح قليلا، عاد مجدداً لتناول رفشه ليواصل البحش.

عفر عثير الغبار اللاذع عيني نيكولاي ومنخريه، وصار قلبه يخفق مضطرباً، ويلاقي صعوبة في التنفس. حفر الخندق بعمق يكاد يبلغ خصره، وحينما أدرك فجأة أنه عاجز عن قذف التراب المحفور من الخندق دون استراحة، بصق التراب المخشخش من بين أسنانه، وجلس على حافة الخندق حانقاً.

– كيف يتم انجاز العمل المربح؟ – سأل زفياغينتسيف.

– تماما.

– هذه هي الحرب، يا ميكولا! كم يستغرقك حرث هذه الأرض بالرفش – انه لأمر يصعب تصوره! أعتقد أن ما حفرته هنا في الجبهة لا يقل عما تحفره حراثة في موسم واحد. ان الأعمال التي أنجزناها لا يمكن انجازها في أي يوم عمل!

– هيا كف عن الحديث! – صرخ الملازم غولوشيكوف بنبرة صارمة، واختفى زفياغينتسيف في الخندق بخفة غريبة.

في حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، كانت الخنادق قد حفرت بالعمق المطلوب. حش نيكولاي، ملء ذراعيه كمية من أعشاب الشيح الرمادية القصيرة، وموه بها خليته

تمويهاً جيداً، ووضع في التجويف المحفور في جدار الخندق الأمامي خزانات الرشاش والقنابل اليدوية، ورمى حقيبة ظهره المفتوحة بين رجليه وكان الرصاص مبعثراً بجانب أمتعته العسكرية البسيطة، وبعد ذلك فقط، التفت حوله بانتباه.

كان سفح المرتفع الغربي ينحدر تدريجيا نحو الوادي الضيق حيث غابة البلوط الفتية النادرة الأشجار، وشجيرات العضاه البرية المخضرة والمنتشرة هنا وهناك. والوهدتان العميقتان المبتدئتان من جهتي الرتفع تلتقيان مع الوادي الضيق. وفكر نيكولاي باطمئنان أن الدبابات لن تتمكن من القيام بهجوم جناحي.

مازال الطقس حاراً، والشمس الحارقة تشيط سطح الأرض، ورائحة الشيح الذابل المرة توحي بكآبة غريبة. استند نيكولاي المضني من التعب بظهره الى جدار الخندق وأخذ يتطلع الى السهب الرمادي الذي تنتشر فيه نتوءات جحور المراميط القديمة، والى ضوء قمر السهب المنزلق ببياضه الممتزج ببياض رؤوس الريوش. ومن بين سيقان الشيح لاحت السماء بزرقتها الشديدة الحالكة، وعلى المرتفع البعيد برزت أشباح الغابة الصغيرة بصورة غير واضحة في السديم، وبدت من الخندق زرقاء وكأنها تسبح فوق الأرض.

كان نيكولاي يشعر بظمأ شديد، لكنه لم يشرب من مطرته سوى جرعة واحدة مدركا من خلال تجاربه، قيمة كل قطرة ماء أثناء الحرب. نظر الى ساعته. كانت الساعة الرابعة الا ربعاً. مضى زهاء نصف ساعة من الانتظار المضني. كان نيكولاي ينهي تدخين سجارته الثانية بشغف، حينما سمع هدير محركات في البعد. وأخذ هذا الهدير ينتشر ويزداد وضوحاً ودوياً وهو يقصف كالرعد وعلى علو منخفض فوق الأرض. وفوق الطريق الترابية المتلوية بشكل نزواني، على طول الوادي الضيق، امتد الغبار كذيل رمادي طويل. كانت الدبابات مقبلة. عد منها نيكولاي أربع

عشرة. وهي تتخفى في الوادي الضيق لتتجمع وتتخذ وضع التأهب للقتال. لم يهدأ هدير المحركات. كانت السيارات تنطلق مسرعة في الغابة الصغيرة وهي تقل جنود المشاة. وسارت في المؤخرة سيارة ضخمة مصفحة لتزويد الوقود، واختفت خلف منحدر الوادي.

وهاقد بدأت تلك اللحظات القصيرة الحرجة، التي تسبق المعركة حين يسيطر على الانسان اضطراب نفسي عنيف، ويخفق قلبه بسرعة وخفوت، ويشعر كل مقاتل للحظة، وان كان محاطا بالرفاق، بالوحدة الباردة الموحشة القاتلة، وبحنين شديد يستبد بقلبه. ولم يكن هذا الشعور غريباً على نيكولاي ولا مسبباته: اذ أنه ذات مرة حينما تحدث الى لوباخين عن ذلك، أجابه بلهجة جادة غير مألوفة بالنسبة له: «اننا نحارب معاً، ولكن كل واحد منايموت منفرداً، ولكل منا منيته مثل حقيبة الظهر هذه التي كتب عليها اسم صاحبها بقلم الحبر الناشف... أضف الى ذلك ان ملاقاة المنية، يا نيكولاي، أمر خطير. فان يتم هذا اللقاء أم لا، الا أن القلب يظل يخفق كقلب العاشق، وحتى أمام الشهود تشعر بنفسك وكأنما وحدكما ولا أحد غيركما في هذه الدنيا: أنت وهي... لكننا ما نزال أحياء – فما الذي تريده أيضا؟»

كان نيكولاي على علم بأنه بمجرد نشوب القتال ستحل مشاعر أخرى بدلا من هذا الشعور وهي مشاعر خاطفة، متأججة قد لا تكون دائماً معقولة... ثم أخذ نفساً متقطعاً، وأنشأ يحدق في الخط الأخضر الذي يفصل ما بين الوادي الضيق وسفح المرتفع. هناك، خلف الخط، مازالت المحركات ترسل هديرها منتظماً خافتاً. دمعت عينا نيكولاي من شدة التوتر، وغدا الآن جسمه غير الخاضع لسيطرته الكاملة يقوم بعشرات الحركات الصغيرة غير اللازمة، ولا يمتثل لارادته الواعية ولسبب ما تحسست يداه خزانات الرشاش في التجويف، كما لو كان بامكان هذه الخزانات الثقيلة التي سخنتها الشمس، أن تختفي في مكان ما، ثم رتب ثنيات

قميصه وهو لا يزال يحدق باتجاه الوادي الضيق، ودون أن يحول طرفه عنه زحزح مدفعه الرشاش واذ انهالت بعض الكتل الطينية من متراس الخندق، تحسسها بمقدمة جزمته ثم داسها، وأزاح اغصان الشيح، مع أن الرؤية كانت جيدة دون ازاحتها، ثم هز كتفيه... كانت كل هذه الحركات غير ارادية ولم ينتبه اليها نيكولاي. كان وهو منهمك في المراقبة ينظر باهتمام شطر الغرب، ولم يرد على نداء زفياغينتسيف الهامس.

دوى هدير المحركات عالياً في الوادي الضيق، وظهرت الدبابات، وفي اثرها يسير المشاة منتصبين على طول قاماتهم.

«الى اية درجة بلغت وقاحة هؤلاء الملاعين! انهم يسيرون وكأنهم في استعراض عسكري... انتظروا سندبر لكم الاستقبال المناسب! ولكن من المؤسف أن لا مدفعية لدينا، والا لكنا قابلنا استعراضكم وفق الأصول وطبق القوانين»، – فكر نيكولاي شاعراً بثقل وانقباض في صدره، والحقد يملأ قلبه وهو ينظر الى قامات جنود العدو المقتربين تدريجياً.

كانت الدبابات تسير ببطء، غير مبتعدة عن المشاة، عابرة نتوءات الجحور الصغيرة، وهي تتفقد الأماكن التي تشك فيها برشقات الرشاشات. وشاهد نيكولاي اهتزاز شجيرة العضاه النامية على بعد مايقارب المئتي متر أمامه، كما لو هزتها الريح، ثم تساقطت أوراقها وأغصانها المقطوعة بالرصاص على الارض.

بدأت الدبابات تطلق نيران مدافعها أثناء سيرها. كانت قذائفها تسقط دون أن تصل المرتفع، ويسقط معظمها قرب الشجيرات، وأخذت نوافير الانفجارات السوداء تقترب من الخنادق، فالتصق نيكولاي بصدره على جدار الخندق، جاهزا في اية لحظة لينحني بسرعة.

وبعد قطع الدبابات الجزء الأكبر من المسافة، وبلوغها الشجيرات، ضاعفت من سرعتها. سمع نيكولاي الايعازات

المنطلقة بصوت مديد. ودفعة واحدة تقريباً، فتحت المدافع المضادة للدبابات، والرشاشات نيرانها، وأخذت فرقعة البنادق المتفرقة تختلط مع طقطقة الرشاشات بأزيزها المتميز.

أما المشاة الألمان الذين تأخروا بعض الوقت عن الدبابات، فواصلوا تقدمهم، رغم الخسائر التي تلحق بهم، ثم انبطحوا ملتصقين بالأرض توقياً من وابل النيران.

ضاعفت المدافع المضادة للدبابات قصفها. توقفت اول دبابة قبل بلوغها شجيرات العضاه. واندلعت النيران في الدبابة الثانية، التي استدارت الى الخلف، وتوقفت، وتصاعد منها نار تتلوى قليلا مشبعة بالدخان الأسود كالقطران. وعلى الجناحين أيضاً، احترقت دبابتان. كثف المقاتلون نيرانهم على المشاة الذين كانوا يهمون بالنهوض، وعلى فتحات وابواب الدبابات المشتعلة من حيث كان رجال الدبابات يحاولون الخروج والفرار.

تمكنت الدبابة الخامسة من الاقتراب من خط الدفاع لمسافة تقارب المئة وعشرين متراً، مستغلة توقف مدفع بورزيخ المضاد للدبابات عن تغطية المحور. وللقاء الدبابة كان الجندي اول كوتشيتيغوف وهو شاب صغير الجسم، سريع الحركة قد بدأ يزحف بسرعة ملتصقاً بالأرض، بين نتوءات الجحور ومن المتعذر ملاحظته لولا تموج الريوش الخفيف الذي كان يكاد ينم عليه.

رأى نيكولاي كيف نهض كوتشيتيغوف بسرعة نصف نهضة، ولوح بيده الممدودة جانباً وتهاوى في تلك اللحظة، بعد أن ألقى قنبلة مضادة للدبابات على الدبابة الجبارة الهادرة بحصائرها الفولاذية والمتجهة نحوه.

ومن الجانب الأيسر للدبابة ثار عمود ترابي عريض تخللته نار شاحبة مائلة وكأنما هي طائر بالغ الضخامة يخفق بجناحيه الاسودين. وفجأة، اهتزت الدبابة مختلجة، واستدارت على احدى حصيرتيها وتسمرت في مكانها، معرضة للنيران جانبها الذي يحمل شارة الصليب.

ومن جديد، عاود مدفع بورزيخ، الذي كان قد صمت قبل ذلك بدقائق، مجدداً اطلاقه النيران بشدة على الدبابة المصابة العاجزة عن السير والمائلة على جانبها. بعد الضربة الأولى ظهر دخان رفيع من صدوع الدبابة. أطلق رشاش الدبابة رشقة طويلة متقطعة ثم صمت. لم يحاول رجال الدبابة الفرار اما لانهم لم يريدوا ذلك أو لم يتمكنوا، وبعد بضع دقائق بدأت الذخائر تنفجر في داخلها، واندفع الدخان المحبوس من الثقوب وبرجها الساكن لتشكل أعمدة شاهقة من الدخان الكثيف المتلبد.

حاولت مشاة العدو النهوض عدة مرات لكنها اضطرت للانبطاح ثانية بفعل نيران الرشاشات. وأخيرا نهضت وأخذ أفرادها يتراكضون بوثبات قصيرة للاقتراب من خط الدفاع، لكن الدبابات استدارت في تلك الأونة بحدة ورجعت تاركة على المنحدر ست دبابات مصابة تحترق حتى النهاية.

ومن مكان ما، وكأنما من تحت الأرض، سمع نيكولاي زفياغينتسيف يحدثه بصوت خافت جذل:

– يا ميكولا! لقد دحرناهم أبناء... أرادوا اجتياحنا والاستيلاء على أرضنا حاسبين انها لقمة سائغة، ولكننا دحرناهم! لقد دحرناهم شر دحرة! فليعيدوا الكرة ثانية – سندحرهم مرة اخرى.

حسا نيكولاي خزانات رشاشه الفارغة، وشرب قليلا من ماء مطرته الفاتر المقرف، ثم نظر الى الساعة. كان قد خيل اليه أن المعركة لم تستمر سوى دقائق معدودة، أما في الواقع فلقد مضى اكثر من نصف ساعة على بدء الهجوم، كانت الشمس تميل، بشكل ملحوظ، نحو الغروب، وأخذت أشعتها تفقد حرارتها اللاهبة الحارقة.

شرب نيكولاي جرعة ماء أخرى، وابعد المطرة عن شفتيه الجافتين آسفاً، ونظر من الخندق بحذر، فشم رائحة احتراق المعدن والبنزين مختلطة بالرائحة المرة لرماد أعشاب محروقة. احترقت الاعشاب حول أقرب دبابة حتى آخرها تقريباً، وأخذت السنة النيران المتراقصة المرئية بالكاد في

ضوء النهار الساطع، تتماوج فوق رؤوس الريوش، والدخان ينبعث من هياكل الدبابات الداكنة المتفحمة والهامدة على المنحدر، ومن هنا، من المرتفع، بدت نتوءات الجحور كما لو انها ازدادت، الا انها الآن لم تعد كلها سمراء داكنة متشابهة، فقد بدت اكثر انبساطاً وميلا الى اللون الرمادي الأخضر. وبعد أن أحد نيكولاي النظر تبين له أن هذه النتوءات ليست سوى جثث القتلى من الألمان، واعتراه الشعور بالاسف لكون هذه النتوءات الرمادية الضاربة الى الخضرة لم تكن كثيرة كما أراد...

بدأت المدافع الرشاشة تطلق نيرانها من الوادي الضيق. أخفى نيكولاي رأسه خلف ترس الخندق، واستند بظهره المتفصد عرقاً الى جدار الخندق ليأخذ قسطاً من الراحة، وانشأ ينظر الى السماء غير محول بصره عن زرقتها الجليدية الباردة، اللاابالية تماماً، دون أن يطرأ عليها أي تبديل. وعلى علو شاهق، كان نسر يحوم سابحاً في كبد السماء، نادراً ما يحرك جناحيه العريضين المضاءين من الأسفل، وسحابة بيضاء مشربة باللون البنفسجي، تشبه محارة صدفية رقيقة جداً، مازالت عالقة في السمت تبدو وكأنها لا تتحرك بتاتاً، وكان يتردد من مكان ما في اعالي السماء شدو القنابر الساذج الذي لم يخطىء دربه عبر الآذان الى القلوب وقد جاء في أوانه، غير ان غمامة الضباب الخفيف الجاثم فوق المرتفع النائي بدت شفافة أكثر ولم تعد حواشيها الرقيقة المحيطة بالادغال الصغيرة والمنشورة فوق سطح الارض تبدو خفيفة مثل البخار، بل غدت اكثر زرقة وكثافة الى حد ملحوظ...

كان نيكولاي يتوقع ابتداء الهجوم الثاني للالمان، بعد قيام الدبابات ورماة الرشاشات بحركة التفاف، ولكن يظهر أن الألمان تسرعوا في اختراق ملتقى الطرق والتوجه نحو الطريق الممتد وراء المرتفع فاتجهت الدبابات ومرافقيها من المشاة مباشرة وبعناد وحمق، كالمرة السابقة، صوب المنحدر حيث تناثرت جثث القتلى.

ومرة أخرى، انبطح جنود المشاة المعزولين عن الدبابات بفعل النيران على المنحدر العاري ومرة أخرى اندفعت الدبابات بأقصى سرعتها الى خط الدفاع. في هذه المرة تمكنت دبابتان من الجناح الأيمن من بلوغ الخنادق. ودمرت كلتاهما بالقنابل اليدوية، لكن احداهما تسنى لها تسوية عدة خلايا بالأرض ساحقة اياها، ومازالت تحاول التقدم، رغم اشتعال النار بها، وتهدر وتصلصل باحدى حصيرتيها التي بقيت سالمة، وتدير برجها فاتحة نيرانها وقد أخذت القطارب الصفراء الضاربة للزرقة تنزلق على درعها المبيض من الحرارة، والدهان القاتم البغيض يتقشر عن جوانبها من جراء السخونة الشديدة، وينطوي على هيئة لفائف متدلية.

كانت أشعة الشمس المائلة تتسرب من تحت حافة الخوذة، وتجعل من الصعب مشاهدة الجنود المقبلين راكضين تحجبهم أشعة الشمس أحياناً، والتصويب عليهم. طفق نيكولاي يطلق النار برشقات قصيرة، موفراً الرصاص، ودون الاخطاء في اصابة الهدف، الا ان عينيه عانتا تعباً شديداً من جراء أشعة الشمس القوية، وبعد صد الهجوم الثاني، — تنفس الصعداء وأغمض عينيه لهنيهة شاعراً بالمتعة.

— لقد دحرناهم هذه المرة أيضاً... — سمع صوت زفياغينتسيف الخافت ولكن كان بمزيد من التحفظ والحذر هذه المرة. — أ أنت حي، يا ميكولا؟ أحي أنت؟ هذا حسن. يا ترى، هل ستكفينا الذخيرة لصدهم حتى النهاية، هنا تكمن المشكلة. مهما تضربهم يعاودون الزحف كما تزحف السلحفاة اللعينة نحو قطعة الخبز...

ودمدم بعبارات أخرى في همهمة غامضة مبهمة الالفاظ لكن نيكولاي كان قد كف عن الاصغاء لان دوي أزيز منخفض متقطع ومكبوت لطائرات المانية تحلق في مكان ما جذب كل انتباهه.

«ما كان ينقصنا الا هذا...» فكر وهو يحدق في السماء

باحثاً عنها بلا جدوى، وهو يلعن في قرارة نفسه الشمس التي تعوقه عن النظر.

انها اثنتا عشرة طائرة من طراز «يونكرز» تحلق شمال – غرب المرتفع، على ما يظهر، متجهة الى الدون. في اللحظة الأولى التي حدد فيها اتجاه الطائرات رأى ان مهمتها هي تدمير معبر النهر. حتى انه تنفس الصعداء، وما أن فكر: «لقد ابتعدت!» حتى رأى أربع طائرات تنفصل عن السرب وتنعطف رأساً باتجاه المرتفع.

حشر نيكولاي نفسه في خندقه أكثر، وتأهب لاطلاق النار على الطائرات، لم يتمكن من اطلاق سوى رشقة واحدة على الطائرة المسفة المنقضة عليه بسرعة مائلة الجناح. وامتزج بعواء المحرك المتقطع، أزيز القنابل المتساقطة.

لم يكن نيكولاي يسمع دوي الانفجار الهائل الذي يهز الأرض، ولا يرى الكتل الطينية الضخمة التي تشب ثم تتهاوى بطيئة بقربه. قذفت موجة هواء ساخن مضغوط بركام ترس الخندق الأمامي الى داخل الخندق بعنف وجعلت رأس نيكولاي يرتد الى الوراء. فيرتطم بقفا خوذته بجدار الخندق بقوة قطعت شريط الخوذة المشدود تحت ذقنه، وأفقدته وعيه فارتمى متهاويا وهو فريسة للاختناق والصمم...

أفاق نيكولاي من غيبوبته بعد مرور فترة غير قصيرة من الزمن على قيام الطائرات بغارتين والقاء كافة حمولتها من القنابل وابتعادها، وبعد مباشرة المشاة الألمان هجومهم الثالث، واقترابهم من خط الدفاع عن كثب متأهبين للقيام بالخطوة الفاصلة.

كانت اشتباكات ضارية تدور من حول نيكولاي. ونفر قليل من مقاتلي الفوج لايزالون صامدين يقاتلون حتى الرمق الأخير: لقد ضعفت نيرانهم اذ لم يبق الا عدد قليل من القادرين على مواصلة الدفاع: وفي الجناح الأيمن باشروا باستعمال القنابل اليدوية، وتأهب الباقون على قيد الحياة من مقاتلي الفوج لخوض المعركة الأخيرة بالحراب. أما نيكولاي، شبه المطمور بالتراب، فما زال منطرحاً في أسفل

الخندق مشلول القوى، ينشج مختلجاً، ويتنفس عميقاً، والتراب المنهار في الخندق يلامس خده مع كل زفرة... والدم ينزف من أنفه دافئاً ومدغدغاً. وربما يكون قد مضى وقت طويل على نزفه، ما دام قد جف على شاربيه بكثافة والصق شفتيه. مرر نيكولاي يده على وجهه، ورفع رأسه محاولا النهوض، لكن نوبة شديدة من الغثيان منعته. ثم زالت عنه هذه النوبة. فنهض نصف نهضة، والتفت حواليه بعينين عكرتين وأدرك ان الألمان على مقربة منهم.

وبعناء وجهد طويلين ركب نيكولاي خزاناً جديداً، بيديه الواهنتين، وحاول طويلا النهوض والجلوس على ركبتيه، وهو يشعر بدوران في رأسه، وحموضة الطعام الصاعدة من جوفه تولد نوبات جديدة من الغثيان. لكنه تغلب على الغثيان والدوخان وكذلك على الضعف الذي يمنعه من السيطرة على جسده والتحكم به. وأنشأ يطلق النار، لا يسمع ولايبالي بكل مايحدث حوله، تدفعه الى ذلك رغبتان عارمتان في البقاء حيا ومواصلة القتال حتى آخر قواه.

ومرت الدقائق وكأنها ساعات. لم يحس حين انقضت من الجنوب وفي الجهة الثانية للوادي الضيق هاجمة على السيارات الالمانية ثلاث دبابات سوفيتية من طراز «ك. ف»* يرافقها مشاة من وحدة آلية، ولكون ادراكه مشوشا لم يدرك فورا السبب الذى حدا بالالمان المنبطحين في هيئة حلقة، وعلى بعد حوالى مئة متر من خندقه، الى الكف بغتة عن الرمي والزحف الى الخلف راجعين القهقرى، ثم النهوض لائذين بالفرار هاربين بغير انتظام ليس باتجاه الوادى الضيق وراءهم بل بالاتجاه الشمالي – الغربي نحو الوهدة العميقة. كانوا يجرون فارين على المنحدر في انحراف كانهم أوراق أشجار رمادية ضاربة للخضرة ساقطة تجرفها ريح عاتية، وكان الكثيرون منهم يسقطون كالورقة الذابلة متدحرجين فوق الاعشاب ثم منطرحين بلا حراك على التراب.

---

* «ك. ف.» – «كليم فوروشيلوف» دبابات سوفيتية ثقيلة.

لم يع نيكولاي ما حصل، الاحينمامر بقربه زفياغينتسيف والملازم غولوشيكوف وهما يجريان بسرعة، قافزين من فوق الحفر الناجمة عن سقوط القنابل وبصحبتهما بعض المقاتلين، شاحبي الوجوه من شدة الحقد وبهجة الظفر. جاش في حلقه صوت مبحوح مختنق، اذ صرخ هو أيضاً، مثله مثل سائر الجنود الحمر الذين مروا راكضين بالقرب منه، ولم يكن صوته مسموعاً حتى له. وأراد أن يهتف، كسابق عهده، وأن ينهض ليركض الى جانب رفاقه، لكن يديه خذلتاه اذ انزلقتا واهنتين كيدي عجوز وهما تتشبثان عبثاً بحافة الخندق الخشنة. لم يستطع الخروج من الخندق... واستلقى نيكولاي بصدره على ترس الخندق المدمر وأنشأ يئن، ثم انخرط في البكاء غيظاً وتأثراً لعجزه وفرحاً اذ أسعفهم الحظ وتمكنوا من الدفاع عن المرتفع، ووصلت النجدة في الوقت المناسب، واندحر العدو اللئيم للمرة الثالثة مولياً الأدبار...

لم ير كيف لحق زفياغينتسيف ورفاقه بالألمان الفارين عند الوادي الضيق بالضبط، وباشروا بمقاتلتهم بالحراب؛ وكيف كان الرقيب لوبتشينكو، المتأخر كثيراً عن رفاقه الجنود المنطلقين الى الأمام، يسير وهو يعرج على رجله المصابة، حاملا الراية الملفوفة بيد، وضاغطاً بالأخرى على الرشاش الموجه الى الأمام، تحت ابطه، كذلك لم يشاهد كيف خرج النقيب سومسكوف زاحفاً، من الخندق الذي دمرته القذائف... ويزحف معتمداً على يده اليسرى هابطاً من المرتفع، ويتجه الى الأسفل، تابعاً رفاقه المقاتلين، ويده اليمنى، التي قطعتها قذيفة من عند الكتف مباشرة، تتأرجح خلف ظهره ثقيلة وبصورة مريعة، وقد تعلقت بقطعة من قميصه، مخضبة بالدماء. كان النقيب يستلقي أحيانا على كتفه اليسرى ثم يعاود الزحف ووجهه شاحب تماماً كأنما لم تبق فيه قطرة واحدة من الدم، ولكنه، على الرغم من ذلك، كان يزحف الى الأمام ملقياً رأسه الى الوراء، ويهتف بصوت صبياني رفيع متقطع:

– أيها النسور! الى الأمام، يا نسوري الاعزاء!.. اقضوا عليهم!

لم ير نيكولاي ولم يسمع كل ذلك. لمعت، لتوها أول نجمة وهي تخفق مرتعشة، في الشفق الوديع، أما بالنسبة له فقد حل ليل دامس انقذه من هذا العذاب الطويل متحولا الى غيبوبة عميقة.

* * *

ظلت حقول القمح الناضج الكثيفة الشاسعة، التي أشعلت فيها قنابل الطائرات الألمانية النيران، تحترق طوال الليل، وظلت هالة أرجوانية تخفق في السماء عالية لا تنطفىء، وفي هذا السهب المضاء بشعلة الحرب الملتهبة، بدا ضوء القمر وهو في المحاق أزرق شفافاً ولطيفا جداً، ولعله لم تكن هناك أية ضرورة له.

كانت رائحة الحريق تتجه شرقاً مع الريح ملازمة المقاتلين الميممين شطر الدون، ولا تفارقهم كذكرى اليمة. ومع كل كيلومتر يقطعه من مسافة الطريق كان زفياغينتسيف يحس بضيق متزايد في صدره ويزداد كآبة، كما لو أن الهواء الحاد الملوث الخانق من جراء الحريق الهائل لم يكن يدخل الى رئتيه فحسب بل والى قلبه أيضاً...

وفي الطريق الى المعبر، كانت تسير آخر وحدات التغطية وتتقاطر عربات اللاجئين المحملة بالأمتعة المنزلية على امتداد الطريق، وتسير الدبابات هادرة ومصلصلة بحصائرها على جانب الطريق الترابي مثيرة العثير الأصفر. وما أن تشاهد قطعان ضأن الكولخوز وهي تساق على عجل نحو نهر الدون، هذه الدبابات، حتى يعتريها الذعر، فتندفع الى السهب، وتختفي في ظلمة الليل. ويظل وقع أظلافها الصغيرة يسمع في الظلام لفترة طويلة ويسمع معه أيضا صوت بكاء النسوة المتلاشي مبتعدا وهزج الرعاة الاحداث محاولين ايقاف وتهدئة النعاج المشدوهة خوفاً.

وفي مكان ما أثناء المرور من حول رتل سيارات متوقفة على الطريق، قطف زفياغينتسيف من حافة الحقل سنبلة سلمت من النار، ورفعها الى عينيه. كانت سنبلة القمح هذه من صنف «ميليانوبوس»، مضلعة مكتنزة وممتلئة، ومثقلة بالحبوب، وحسكاتها السود مشيطة، وغلاف الحبوب قد تصدع بتأثير لفحات النار الساخنة، والسنبلة كلها مشوهة وملذعة بالنار في حالة يرثى لها ومشبعة تماماً برائحة الدخان النفاذة.

تشمم زفياغينتسيف السنبلة، وهمهم متمتما بالفاظ لا تبين:

– لشد ما تلوثت بالسخام، يا عزيزتي! ان رائحة الدخان الكريهة تنبعث منك كأنك غجرية... اذن، هذا مافعله بك الألماني اللعين، عديم الشفقة!

فرك السنبلة بين راحتيه برفق، ونقى الحب، وذراه ناقلا اياه من يد ليد، والتهمه دون اسقاط حبة واحدة، واخذ يمضغها مطلقا الزفرات مثنى وثلاث، بصعوبة وتقطع.

لقد شاهد زفياغينتسيف خلال الأشهر الطويلة التي امضاها في الجبهة، الكثير من القتلى والموتى، والويلات والمصائب والأهوال، شاهد المعاقل، القرى المدمرة والمحروقة برمتها، والمصانع المنسوفة، وأكوام الآجر والحصى المبعثرة، حيث كانت منذ أمد قصير المدن الجميلة العامرة وشاهد أيضا الحدائق التي داستها الدبابات، وأشجارها التي اتلفتها نيران المدافع، أما أن يرى بام عينيه حقول حنطة ناضجة تشغل مساحة شاسعة واسعة تحترق، فهذا ما لم تقع عليه عيناه الا اليوم ولذلك اعتراه الأسى وخالجت نفسه الحسرة الشديدة. سار طويلا وهو يستنشق الهواء الخانق، متأملا الحقول المحترقة الفاحمة من حوله، والتي احرقتها نيران العدو، بمقلتين جافتين تحت ضوء الشفق وهو يقطف، أحيانا، سنابل القمح أو الشعير النامية على جانب الطريق السالمة بأعجوبة ويفكر بضخامة الخيرات

التالفة الضائعة سدى، ومدى شراسة الحرب القاسية التي يشنها الألمان ضد كل ما هو حي.

ولكن، أحيانا، لدى مشاهدته لحقول الدخن الخضراء المتماوجة، ونباتات الذرة وعباد الشمس الكثيفة التي لم تمسها النار، كانت عيناه ترتاحان، وبعد ذلك كانت تمتد على جانبي الطريق الأرض المحروقة، سوداء مريعة بصمتها الكئيب لدرجة أن زفياغينتسيف كان في بعض الأحيان لايقوى على اطالة النظر اليها.

كان زفياغينتسيف في غاية التعب وراغبا أشد الرغبة في الخلود الى الراحة، لكن عقله المثقل بما رآه ظل نشيطاً يفكر في شأن هذه الحرب. ولكي يطرد النعاس من عينيه، أنشأ يتكلم بصوت يكاد يكون مسموعاً:

– آه، أنت أيها الألماني الطفيلي المشؤوم! لقد تعودت طيلة حياتك، أيها الوغد السافل، أن تدوس اراضي غيرك وأن تتصرف فيها بوقاحة، ولكن كيف سيكون موقفك حينما نحتل أرضك؟ انك تتصرف هنا بوقاحة وفي منتهى الوقاحة، تعيث فساداً وتقتل النساء والأطفال المسالمين، تفضل أنظر ما اكثر القمح الذي اتلفته، انك تدمر قرانا بلا شفقة... وماذا ستفعل حينما تنتقل رحى الحرب الى أرضك الفريتسية*؟ عندها ستغني المواويل، أيها الألماني، لعنة الله عليك، ولكن ستختلف مواويلك! أنت الآن تعزف على هارمونيكا الشفة وأنت جالس في الخندق، أما عندئذ فلسوف تنسى الهارمونيكا، سترفع بوزك الى الأعلى، وستنظر الى القمر المنير وستعوي وتولول مثل الكلب المسعور شاعرا بدنو أجلك المحتوم. وكم هي الويلات التي جلبتها علينا، كم يتمت من الأطفال ورملت من نسائنا، سنثأر منك بكل تأكيد. ولن تسمع أية كلمة لطيفة، ولن تلاقي أية رحمة لا من أي مقاتل ولا من أي قائد فينا، مهما

---

* الفريتسية – نسبة الى فريتس وهو لقب أطلقه الروس على الألمان الفاشيين.

استعطفت واسترحمت. فثق من ذلك تماماً وكن على يقين. ساعيش حتى ذلك اليوم حتماً، أيها الألماني القذر، حينما نخترق ارضك النجسة بالحديد والنار والدخان، عند ذاك سارى، أيها النذل، ستزحف الينا ذليلا باكياً مولولا، وسوف ارى باي كم من اكمامك ستمسح دموعك. لا بد من بلوغي ذلك اليوم، لانني في غاية الحقد والسخط عليك، وأريد القضاء عليك ودفنك في جحرك الثعباني الى أبد الآبدين، وليس هنا في احدى مقاطعاتنا...

سار هكذا وهو يدمدم بصوت خافت مخاطباً الألماني غير المرئي، مجسداً في شخصه كل الجيش الألماني والأعمال الشريرة التي ارتكبها هذا الجيش على الأرض الروسية، تلك الاعمال الشريرة التي تضيىء طريقه الآن باضواء الحرائق المقيتة.

لقد ساعد التفكير، بصوت مسموع، زفياغينتسيف في التغلب على النعاس، وشعر بشيء من الطمأنينة في نفسه ليقينه باحراز النصر ان عاجلا أو آجلا، فان العدو، ومهما كان، ومهما اندفع الى الأمام، ومهما حاول تاخير فنائه المحتوم فانه لابد له من دفع ثمن عدوانه.

– سنأتيك بالدمار، يا بن الكلبة، سنأتيك! تحب ان تزور الناس – اذن فاحبب استقبالهم ايضا، – قال زفياغينتسيف وقد رفع صوته قليلا، من جراء انفعاله في تفكيره.

وعند ذاك وضع لوباخين، السائر في اثره تعبا مثله، كفه على كتف زفياغينتسيف وسأله:

– ماذا بك، يا سائق الحصادة، تدمدم كالنؤوم على البيدر؟ أتحسب حجم القمح المحروق؟ كف عن ذلك فليس بمقدور رأسك احصاء هذه الخسائر. لابد من استدعاء أساتذة الرياضيات ليحسبوا ذلك.

صمت زفياغينتسيف لهنيهة وبعد برهة أجابه وقد بدا صوته خفيضاً يغالبه النعاس.

– انني أقاوم النعاس بتبادلي الكلام مع نفسي. اما

بالنسبة للقمح، فكوني مزارع أشعر بمنتهى الأسف على هذا الفقدان والخسران. يا الهي، واي قمح أتلف! مئة او مئة وعشرون بوداً* في الهكتار الواحد واعلم، يا أخي، أن انماء قمح كهذا ليس كاستخراج الفحم.

– القمح ينمو تلقائياً، اما الفحم فلا بد من استخراجه، ان عقلك لن يستطيع ادراك ذلك، ولكن من الأفضل لو أخبرتني لماذا تتحدث مع نفسك مثل المجانين؟ لم لا تتحدث معي بدلا من الهمهمة بينك وبين نفسك، اذ انني صرت أفكر: أهو عاقل أم فقد البقية الباقية من عقله في هذه الليلة؟ كف عن التحدث مع نفسك، انني لا أسمح لك مطلقاً بمثل هذه السخافات!

– لست المسؤول عني حتى تمنعني، – قال زفياغينتسيف متكدراً.

– انت مخطىء، يا صديقي، فانا بالذات المسؤول عنك الآن.

التفت زفياغينتسيف الى لوباخين أثناء سيره وسأله متجهما:

– وما هي الدواعي التي خولتك بان تغدو المسؤول عني؟

نقر لوباخين باصبعه المصفرة من دخان السجائر على خوذة زفياغينتسيف، وقال ساخراً:

– عليك أن تفكر برأسك وليس بهذه الخوذة الحديدية! أتسالني عن سر كوني مسؤولا عنك؟ سأخبرك: أثناء الهجوم يكون القائد في المقدمة، أليس كذلك؟ وعند التراجع – في المؤخرة، أليس كذلك؟ لدى دفاعنا عن المرتفع خلف العزبة، كان خندقي أمام خندقك بحوالي عشرين متراً، وأما الآن، فانا أسير خلفك. والآن فكر بعقلك الصغير من منا المسؤول عن الآخر. !هو أنت أم أنا؟ ولا يجوز لك، والحال هذه، التكلم معي بخشونة، بل على العكس ينبغي عليك ارضائي في كافة الأمور.

---

* البود – مقياس وزن روسي يعادل ٣٨، ١٦ كغم.

– ولم هذا؟ – سأل زفياغينتسيف وقد جهم وجهه اكثر، مستاء من مزاح لوباخين ودعابته.

– لأنه، يا فارغ الرأس، لم يبق من الفوج سوى العدد القليل وفي حالة استمرارنا في القتال بمثل هذه الضراوة التي حاربنا بها، واذا ما دافعنا عن مرتفع او مرتفعين آخرين فانه لن يبقى في الفوج الا نحن الثلاثة: انت وانا والطباخ ليسيتشينكو. وحين لا يبقى سوى ثلاثتنا فسأصبح قائد الفوج، وسأعينك انت، أيها الأحمق، رئيس أركان حرب الفوج. ولذا ومن قبيل الاحتياط حافظ على حسن علاقتك وصداقتك معي.

هز زفياغينتسيف كتفه غاضبا. وقال برصانة وهو يرتب سير بندقيته ودون أن يلتفت اليه:

– ان أمثالك لا يمكن أن يصبحوا قادة.

– لمه؟

– قائد الفوج يجب أن يكون انساناً جدياً ذا كلمة مسموعة ومعتدا بنفسه كل الاعتداد.

– أو لست جاداً، في رأيك؟

– انت؟ ما أنت الا ثرثار سخيف. أنك تمزح طيلة حياتك، ولسانك كوتر البلالايكا المشدود. قل لي أي قائد سيخرج منك؟ مصيبة لا غير وليس قائداً!

تنحنح لوباخين قليلا، وحينما عاد يتكلم مجدداً، بدا صوته مشفوعاً بهزل واضح:

– آه، منك، زفياغينتسيف، يا زفياغينتسيف، انك لكولخوزي ساذج! هناك فئات شتى من القادة مختلفون من حيث عقولهم، وطباعهم، فمنهم الجاد والمرح، الذكي، ومن به طيش، أما رؤساء الأركان فكلهم بلا استثناء – أذكياء منصفون. أقول لك، انه في الأزمنة الغابرة كان يصادف ان يكون القائد غبياً فارغا، كالطبل الأجوف، لكنه يمتاز بالجرأة والحزم وهو قادر على اخضاع الآخرين الى ارادته، ويفهم بعض الامور في الشؤون العسكرية، والحربية وبالطبع صدره منتفخ كصدر الديك، وصوته جهوري حين

يصرخ بالايعازات، أما بالنسبة لاطلاق الشتائم، فانه، ياأخي ابن بجدتها! وباختصار هذا هو القائد المقدام، وليس بوسعك أن تضيف الى هذا شيئا. ولكن في الحرب لايغني المظهر وحده ولا يكفيك لقطع شوط طويل، اتوافقني في ذلك؟

وافقه زفياغينتسيف بارتياح ورضا، في حين واصل لوباخين:

– ففي مثل هذه الظروف يعينون للقائد رئيس أركان حرب ذكي. واذا بأمور قائدنا المقدام تتحسن الى حد كبير! القادة الكبار راضون عنه، وتزداد شخصية هذا القائد قوة وتنمو بصورة سريعة، الكل يمجده الكل يتحدث عنه باعجاب واكبار، أما رئيس أركان حربه – فيا له من ذكي... لكنه كونه متواضعاً لا يحب لفت الانتباه نحوه، – اذن فهو يختفي تحت شهرة القائد ويتستر تحت شخصيته الفذة كاختفاء الزهرة تحت ظل ورق راعي الحمام... لحد الآن لا أحد يناديه بلغة الاحترام، بايفان ايفانوفيتش، ان كل هذه الاشياء بفضله، أما القائد فانه كيافطة له فحسب. هكذا كانت الأمور في عصر فرعون.

قال زفياغينتسيف مبتسما بغبطة وحبور:

– انك، يا بيتكا، تتكلم بذكاء مفرط في بعض الأحيان. لو كنت فرضاً رئيس أركان حربك، فانني لما سمحت لك طبعاً بارتكاب الحماقات! وعلى أي حال أنا انسان جدي، أما أنت، فانني لا أريد اهانتك حين اقول لك ان الريح تعبث في رأسك. ومن الواضح ان أمورك كقائد كانت ستتحسن بمساعدتي.

هز لوباخين رأسه متكدراً، وقال معاتباً:

– يا لك من انسان سيىء العشرة، يا زفياغينتسيف! لقد عكست كل كلامي لصالحك...

– وكيف عكست؟ – سأل زفياغينتسيف بحذر.

– عكسته لصالحك، هذا كل ما في الأمر. ليس من اللائق التصرف هكذا!

– لحظة! ألم تقل أنت نفسك أن أمور القائد ستسير نحو الأفضل اذا ماكان لديه رئيس أركان حرب ذكي؟ ألم تقل هكذا؟

أجاب لوباخين متظاهراً أنه موافق:

– أجل، قلت، قلت، انني لا اتراجع عما أقول. هذا بديهي، ان أمور القائد الغبي ستتحسن اذا ما كان لديه رئيس اركان ذكي، ولكن بالنسبة لنا، أنا واياك، فسيحصل العكس، فانا بامكاني أن أصير قائداً ذكياً، أما أنت فستكون رئيس أركاني على الرغم من كون رأسك فارغاً تماماً. لا شك أنك في غاية الشوق لمعرفة سبب اختياري لك، أنت المجنون، بالتحديد لتكون رئيس اركاني؟ الآن سأوضح لك كل شيء، لا تخف. أولا – سأعينك فقط حينما لا يبقى أحد من جنود الفوج خلا الطباخ، بيتكا ليسيتشينكو لعنة الله عليه حتى يوم القيامة. سأحوله الى رام أصدر اوامري اليه، أما أنت فسوف تتولى رسم الخطط الاستراتيجية وتطبخ العصيدة في آن واحد، وتخضع لي كل الخضوع مثل ابن الكلبة. ثانياً – اذا ما بقي في الفوج بضعة مقاتلين اضافة الى بيتكا ليسيتشينكو فانك لن ترى منصب رئاسة الأركان كما لا ترى صيواني اذنيك! عندئذ سيكون أعلى ما يمكنك الحصول عليه هو منصب ياور لدى فخامتي. ستكون عندي ياوراً ومراسلا في نفس الوقت، تمسح جزمتي وتهرع جريا الى المطبخ لتجلب لي طعام الغداء والفودكا، وما الى ذلك من خدمات.

بصق زفياغينتسيف الذي أصغى اليه شاعراً بخيبة الأمل، بعنف ولاذ بالصمت. ضحك الجندي السائر بجوار لوباخين بصوت مكتوم، ويبدو أن زفياغينتسيف قد نفد صبره عندئذ فقال:

– أنت بلالايكا، يالوباخين! انك انسان تافه. لا قدر الله ان أخدم تحت امرتك. اذن لفررت من مثل هذه الخدمة في اليوم التالي. فانت في اليوم الواحد تكثر من الثرثرة بحيث لا يكفي أسبوع بكامله لتحليل أقوالك.

– حسن الفاظك، والا فلن آخذك حتى مجرد مراسل.

– هل شعرت ولو مرة واحدة بالحزن يالوباخين؟ – سأل زفياغينتسيف بعد صمت.

تثاءب لوباخين طويلا، ثم قال:

– انني الآن حزين أيضاً، ولم هذا السؤال؟

– ولكن لا يبدو عليك الحزن بأية حال.

– انني لا أعرض حزني في أجنحة المعارض.

– وما الذي يحزنك مثلا؟

– انها أحزان عادية مرتبطة بما يحدث في أيامنا: لقد سلب مني الألمان بيلوروسيا، مؤقتاً، وأوكرانيا، ودونباس، ولا شك أنهم احتلوا مدينتي حيث زوجتي ووالدي والمنجم الذي عملت فيه منذ صباي... لقد فقدت الكثير من رفاقي في هذه الحرب... أهذا واضح لك؟

– يا لك من انسان غريب! – هتف زفياغينتسيف. – لديك مثل هذه المصائب والأحزان ولا تكف عن المزاح. وبعد هذا كله أيجوز اعتبارك انساناً رصيناً؟ كلا، أنت رجل تافه، ليس فيك من الانسان سوى مظهرك الخارجي. انني أستغرب: كيف عينت جندي مدفعية مضادة للدبابات؟ انها مهمة هامة لاتليق لها فأنت عابث طائش لا تصلح لشيء سوى العزف في جوقة آلات نحاسية مثلا، دق الطبول أو الضرب بالصنوج او الخشخشة بالدقاقات الخشبية.

– زفياغينتسيف، ثب الى رشدك! قل أنك تلفظت بهذه السخافات وأنت ما بين اليقظة والنوم، والا فسوف ينالك مني ما لا يرضيك! – زأر لوباخين بغضب مفتعل.

بيد أن زفياغينتسيف تغلب على نعاسه تماماً، وواصل كلامه بحماس، وهو ينظر في وجه لوباخين من حين لآخر، ويتطلع في عينيه المثقلتين بالنعاس وان كانتا لا تزالان تشعان بالمرح.

– أنت اذن يا بيتكا، لست في مكانك المناسب، لان

بعض القادة العسكريين مثلك من حيث الطباع تلعب الرياح في رؤوسهم الفارغة. فمثلا لماذا زجوني في المشاة ومهنتي سائق حصادة وأحب المحركات بصورة جنونية؟ وفقا للاصول كان ينبغي جعلي سائق دبابة وها أنا في المشاة أحفر الأرض كالخلد. وأنت مثلا: لاتصلح الا لدق الطبول، وادخال السرور الى قلوب الناس بموسيقاك، فتفضل، وانظر، انه لشيء يسر النفس، رام مدفع مضاد للدبابات بل فضلا عن ذلك جعلوك الجندي رقم واحد في الطقم. وهناك مسائل أطرف من ذلك. فالوحدة التي الحقت بها في بداية الأمر شكلت في مدينة صغيرة تطل على نهر الفولغا، وكان هناك أيضاً فوج خيالة احتياطي يتألف من فرسان القوزاق. فوصلت امدادات بشرية من حوض الدون ومن ستافروبول – الولاية السابقة في عهد القيصر. فارسلوا القوزاق والستافروبوليون الى وحدة مشاتنا – ألحقوا القوزاق بسلاح الهندسة، كجنود اتصال تلفوني والشيطان نفسه لا يدري ما هي الأماكن التي لم يزجوهم بها. أما الحرفيون الذين وصلوا من مدينة روستوف بطريق التعبئة العامة فقد الحقوا بفوج الخيالة بعد ارتدائهم بناطيل قوزاقية بخطين أحمرين على الجانبين، وسترات رسمية زرقاء وهكذا دواليك. وها هم القوزاق يعملون بالبلطات ويتعلمون ترميم الجسور، ويتنهدون بالحسرات حين ينظرون الى الخيول، أما الروستوفيون، كلهم حرفيون، فمنهم النجارون والدهانون وأصحاب مهن من هذا القبيل فها هم يلفون ويدورون حول الخيول خائفين وجلين من امتطائها، اذ أنهم، في أيام السلم، لم يروا الخيول الا في المنام. أما الخيول فجيء بها الى الفوج من سهوب سالسك القلميقية وهي خيول في السنة الثالثة من أعمارها، لم تسرج ولم تركب قط. أتعرف ما الذي حصل؟ شر الشدائد ما يضحك! يبدأ هؤلاء النجارون والدهانون المساكين باسراج أحد الخيول غير المسرجة، يجتمع حوله عدة أشخاص، أما الحصان اللعين فلا يكف عن الحمحمة والصهيل وهو يرفس بقوائمه الأمامية والخلفية، ويعض،

أو يسقط أرضا ويروح يتدحرج ويتقلب كبعض النساء الطائشات اللواتي يغمى عليهن بمناسبة وبدون مناسبة... وهل هذا نظام؟ ذات مرة بينما كنت أقوم بخفارة عند مستودع في محطة للسكك الحديدية، شاهدت وحدة خيالة حين ارسالها الى الجبهة. قائد الخيالة يأمر باسراج الخيول، ومن المئة والخمسين مقاتلا، أربعون شخصاً من أمثال هؤلاء النجارين والدهانين الروستوفيين لا يستطيعون شد السروج على ظهور الخيول، أقسم بالله انني لا أكذب ولا ابالغ! امسك قائد الخيالة برأسه وأخذ يشتم ويسب بأفظع الشتائم والسباب، ولكن ماذنب النجارين والدهانين؟ نعم، يا أخي، تحدث مثل هذه الأمور! وذلك لوجود بعض القادة من أمثالك الذين تلعب الرياح داخل رؤوسهم الجوفاء.

– لقد أثرت استياءك لسوء الحظ، – قال لوباخين وقد تنهد متعمداً. – فأنت الآن تهذي بكل هذه التفاهات عن الحكمة وتسرد كل هذه الأمثلة، حتى تبرهن على عدم صلاحيتي أن اكون قائداً. سأصبح قائدا نكاية بك، وعندئذ سأنفض هذه الحماقات من رأسك، وسأريك امكان ادخال الدنيا في ثقب الابرة! لقد اوصاني بك نيكولاي ستريلتسوف، قبل ارساله الى المستشفى قائلا: «اعتن بهذا الأحمق زفياغينتسيف، فالوقت عصيب، ومن المحتمل أن يعرض حياته للخطر بحماقته». فها أنا أحيطك بعنايتي. فافكر، دعني ابادله الكلام حتى ازيل هذه الأفكار السوداء من رأسه. وأنا نفسي لست راضيا لأنني أثرت استياءك. والآن افكر بم اغلق فمك، حتى تصمت قليلا... أتريد أن تأكل خبزا مجففاً؟

– اعطني قطعة.

– خذ اثنتين، المهم اسكت ولا تجادلني. انني لا أطيق أبدا حينما يعارضني مرؤوسي.

امتعض زفياغينتسيف، لكنه تناول الخبز المجفف منه وأنشأ يمضغه مقرقشاً اياه، وتكلم بصوت يغالبه النعاس:

– لقد كان نيكولاي ستريلتسوف انسانا جدياً بمعنى

الكلمة، وليس مثلك ثرثاراً مهذاراً. ومن المستحيل أن ينعتني بالحمق. انه كان يحترمني جداً وأنا أيضاً أبادله الاحترام. كنا، أنا واياه، نتحدث دائماً عن حياتنا العائلية، وعن كل شيء عامة. فانسان مثله يمكن أن يصبح قائداً لأنه جدي في كلامه وذو ثقافة عالية وقد اشتغل قبل الحرب مهندساً زراعياً. حتى أن زوجته هجرته لرصانته الزائدة. أما أنت فمن تكون؟ عامل منجم، نفس متفحمة، انك فقط تنبش الفحم، وتستطيع الرماية بسلاحك الطويل كيفما اتفق، وبين بين...

واستمر زفياغينتسيف طويلا، في تعداد مناقب نيكولاي ستريلتسوف. وبعد ذلك صار يتحدث بصوت خافت، وبعبارات غير مترابطة، ثم سكت. سار بعض الوقت منكساً رأسه، متعثراً، واذا به يتأرجح فجأة وبشدة، ويخرج من الصف ويتجه جانباً. لاحظ لوباخين كيف بدأت ركبتا زفياغينتسيف تنثنيان تدريجياً أثناء سيره، وأدرك أنه قد أغفى ماشيا وسيقع حالا. فلحق به مسرعاً فأمسك بمرفقيه وهزه بشدة.

– هيا ارجع للصف، أيها العسكري ولا تخل بنظام السير، – قال لوباخين بلطف.

وكانت هذه اللهجة الودية في صوت لوباخين الخشن غير متوقعة وغريبة لدرجة جعلت زفياغينتسيف يصحو من غفوته، ويتلفت حوله بانتباه ويسأل بصوت أجش:

– يبدو أنني غفوت، يابيتكا، أليس كذلك؟

– ليست باغفاءة وانما هي نومة حصان خصي هرم مشدود الى العربة. فلولا أمساكي بك في الوقت المناسب لشججت حاجبيك. انك قوي كالحصان، ولكنك لا تستطيع مقاومة النعاس.

– هذا صحيح، – وافقه زفياغينتسيف. – من الممكن أن أعفو ثانية أثناء سيري. واذا رأيتني قد نكست رأسي، أرجوك أن تضربني في ظهري بشدة، والا فلن أسمع.

– أه، انني سأفعل هذا بكل ارتياح وسرور، أعدك

بشرفي أن أضربك بكعب مدفعي بين كتفيك، – وعده لوباخين مطوقا كتفيه العريضتين، وناوله كيس التبغ قائلا:

– خذ، يا فانيا، لف لك سيجارة، وسيطير النعاس من عينيك، ان منظرك يثير شفقتي الشديدة عليك وانت نعسان كالروماني الأسير تماماً، لا بل أسوأ.

تابع زفياغينتسيف سيره خلف لوباخين بانصياع ممسكا لمدة بكيس التبغ حائراً، وقال متأوها وبحسرة:

– ان تبغك كله لا يكفي الا لسيجارة واحدة، خذ تبغك، اذ لا يسعني ابقاءك بلا دخان. والى أي درجة أصبحنا شحاذي تبغ...

صد لوباخين يد رفيقه، وقال بحزم:

– دخن ولا تكثر من الكلام! – وبمحاولة فاشلة لاخفاء رقته الرجولية وراء حزمه المفتعل اختتم قائلا: – للرفيق الطيب لا أبخل بآخر دخاني ولا حتى بآخر قطرة من دمي... فأنت، رفيق كفوء وجندي لا بأس بك، لا تهرب أمام الدبابات، وتحسن القتال بالحربة وتحارب بشراسة، ولدرجة أنك تسقط غافياً أثناء سيرك. انني احترم جداً الناس الغيورين هكذا والذين يقاتلون بكل ما لديهم من قوة وحتى الرمق الأخير: فلابد من محاربة الألمان الاوغاد دون تهاون وبلا هوادة والحاق الضربات الموجعة المتتالية حتى احراز النصر، ان المحاربة بفتور الهمة والتخاذل في القتال لا يجديان نفعا. وهكذا، اذن دخن، يا فانيا، هنيئا لك. كذلك أتعرف ما أود أن أقوله لك؟ أرجو ألا تتأثر لمزاحي معك، ولعل النكتة تسهل علينا الأمور في الحياة والحرب، ألا تعرف انت هذا؟

أهي قبصة الدخان الأخيرة التي تلقاها من رفيقه في تلك اللحظة الحرجة، أم اللهجة الرقيقة التي طغت على صوت لوباخين في مشاركته الوجدانية، وربما الشعور الموحش بالوحدة التي كان يعانيها زفياغينتسيف بعد نقل نيكولاي ستريلتسوف الى كتيبة الاسعاف بعربة مارة، ذات عجلتين، لكن شيئاً ما دفع زفياغينتسيف للتقرب من لوباخين.

عند الفجر، لما انضم ما تبقى من الفوج الى التشكيلة المتخذة موقعاً دفاعياً قرب معبر النهر، صار زفياغينتسيف ينظر الى لوباخين، الذي كف عن تحرشاته به، بنظرة تختلف عن السابق. أما هو نفسه، فقد حفر خندقا في الارض الصلبة بسرعة وهو يتأوه لاعناً حياته العسكرية المرة، كعادته دائما، وبعد ذلك اقترب مبتسماً بطرف فمه من لوباخين وقال له:

– دعني أحفر عنك، اذ ليس من اللائق بقائد فوج المستقبل أن ينبش الأرض هكذا... – فبصق في يده وتناول الرفش.

تقبل لوباخين خدمة زفياغينتسيف بامتنان صامت، ولكنه بعد بضع ثوان صرخ به آمراً مضايقاً اياه بنكتة بذيئة، مربتاً براحته على ظهر صديقه الجديد الساخن المبلل بالعرق قائلا:

– ابحش أعمق، يا ايفان التقي! ماذا بك لا تزيل الا قشرة الأرض كالعجوز؟ فالعمل بالأرض كالحب، لابد من بلوغ عمق معين، في حين أنت تتعمد حفر السطح، أنت انسان سطحي ولذا لا تكثر زوجتك من كتابة الرسائل اليك، انها لا تستطيع أن تذكرك أيها الشيطان الأشقر، بأي شيء طيب...

كان لوباخين الضامر المعروق، شأنه شأن عامل المنجم الحاذق، يعمل بسرعة ودون توقف ولا يكاد يرتاح مستغلا الوقت كله تقريباً، ووجهه الأسمر، الذي كانت تكسوه في الماضي طبقة زرقاء من غبار الفحم، يلمع متفصداً بقطرات العرق المتلالئة، وهو يزم شفتيه الرقيقتين الغاضبتين المطبقتين باحكام، ويقتلع بالرفش الحجارة التي تصادفه بمهارة ولكن حينما يصادفه حجر كبير كان يطلق من بين أسنانه المطبقة الشتائم المعقدة المنمقة حتى ان زفياغينتسيف – المتبحر والعلامة في هذا المضمار كان ينتصب في وقفته لهنيهة، فيهز رأسه مستغربا ويلعق شفتيه الجافتين، ويقول معاتباً:

– يا الهي، ما أحذقك، يا بيتكا، وما أفظع لسانك! ليتك تقلل من شتائمك بعض الشيء، ولا تسب بهذا التعقيد. انك لا تسب كسائر البشر، بل كمن يصعد سلماً، ويضيق ذرعاً بالانتظار متلهفا بفارغ الصبر الى بلوغ آخر درجات السلم.

قال لوباخين بابتسامة مبتسرة لم تكد تظهر اسنانه الناصعة، وبعينين مرحتين مشاكستين براقتين:

– ان هذا، يا أخي، يعود الى اعتياد الشخص على الاكثار من ذكر شيء معين. فانت مثلا تقول: «ياالهي، ياربي» بعد كل كلمة، أما أنا فأقول شيئاً اخر... زد على ذلك، فانت، ريفي كنت تقود حاصدة وتستنشق الهواء الطلق. فان اعصابك بقيت على مايرام بفضل الجهد العضلي. وما الذي كان سيعلمك اطلاق الشتائم؟ أما أنا، عامل المنجم، فقبل الحرب كان معدل استخراجي للفحم في اليوم يزيد عن ٣٠٠٪. وان تنجز نسبة ٣٠٠٪ معتمدا على جهدك العضلي وحده دون استخدام عقلك، لأمر صعب، وهكذا اذن أصبح من الضروري اعتبار عملي عملا فكرياً. ولكن مثلي مثل كل انسان يعمل بذهنه، تهافتت أعصابي المفكرة، ولذا فانني في بعض الأحيان أسب بالشتائم الطنانة كما ينبغي حتى أهدىء نفسي. أما اذا كانت تربيتك النبيلة لا تسمح لك بالاستماع الى كلماتي المهدئة، فضع قطناً في اذنيك: كما كان يفعل رجال المدفعية أيام السلم حتى لايصم دوي القصف آذانهم، وذلك كان يساعدهم...

بعد ما أعد لوباخين موقعه الاحتياطي، خطر بذهنه ايصال الخندقين بخندق اتصال، لكن زفياغينتسيف كان تعباً، وعارضه بحزم:

– ماذا وهل نويت أن تشتي هنا؟ لن أحفر.

– أشتي أم لا، الا انني يجب أن أبقى هنا حتى يعبر الآخرون. أرأيت عدد الآليات التي مرت في الليل متجهة الى المعبر؟ وهكذا لا يسعني تركها لقمة سائغة للالمان،

ان ضميري لن يسمح لي بذلك أفهمت؟ – قال لوباخين بلهجة جادة غير مألوفة بالنسبة له.

– لقد جننت، يا بيتكا! ومتى سنحفر قناة طولها اربعون متراً؟ ابق بلا خندق اتصال قدر ماتشاء، وما حاجتك اليه؟ عند الضرورة ستزحف اذا اقتضى الأمر، وستزحف كالسبع! ما لك تدس الرفش في فمي؟ لقد قلت لك أنني لن أحفر، اذن لن أحفر. وهل أنا في نظرك جندي هندسة؟ أنا لست بمجنون حتى أضيع جهدي عبثاً. اذا كنت تريد فأحفر خندق اتصال يبلغ طوله كيلومتراً، أما أنا فلا تعتمد علي في ذلك مطلقا.

– وهل سأزحف لدى تغييري موقعي على هذه الصلعة؟ – أشار لوباخين، بمهابة، الى الأرض الجرداء التي تغطيها الأعشاب الذابلة بندرة. – ستقع الضربة الأولى علي، كوقوع المطرقة على رأس المسمار لتدفنني في الأرض، وسيصنعون مني كستليتة. يالها من انسانية: أنت تحميه من الدبابات بصدرك، اما هو فلا يريد أن يحفر قليلا بالرفش... اذهب الى الشيطان، سنحفره دون مساعدتك، غير انني أحذرك مسبقاً: حينما أصبح قائداً لا تأمل ان اوصي بمنحك وساماً، ولو صعدت الى السماء وهبطت، ومهما حاولت أن تفوق الآخرين ولو أكلت الفريتس حياً، فلن تنال مني شيئاً!

– لقد وجدت ما ترعبني به، – قال زفياغينتسيف وهو يبتسم ابتسامة كليلة، وتناول الرفش بعزوف ظاهر.

وريثما نظف هو ومساعده الكسندر كوبيتوفسكي، وهو شاب أخرق، ذو وجه عريض يشبه باب الموقد، تتدلى ناصيته الجعداء من تحت الطاقية العسكرية، رفشيهما من الطين العالق بهما، خرج لوباخين من الخندق، وأخذ ينظر حواليه.

كانت الأعشاب الذابلة مثقلة بالندى الرمادي الازرق الكثيف، وقد انحنت سيقانها نحو الأرض. بزغت الشمس لتوها وتراءى وراء أشجار الحور البعيدة منعطف نهر الدون

متألقاً ببياضه الناصع والضباب المنخفض ينبسط فوق سطح مائه، وبدت الغابة المحيطة به، والسفح القريب يكتنفهما الضباب وكأنهما يستحمان في تيار مائي يغلي، في موسم فيضان الربيع.

كان خط الدفاع يمر بالقرب من منطقة سكنية. وما تبقى من افراد الفوج، الذين الحقوا بالسرية، يحتلون قطاعاً ليس ببعيد عن عمارة طويلة ذات سقف من القرميد، وتجاورها حديقة كبيرة مسورة بسياج.

أطال لوباخين النظر وهو يلتفت حواليه مقدراً المسافة التي تفصلهما عن القمة الواقعة أمام المرتفع، وحدد نقاط الرؤيا، ثم قال بسرور:

– ما أروع مجال الرؤية من هنا! ليس هذا موقعاً قتالياً بل شيء فتان خلاب. من هنا سأضرب هؤلاء الوحوش المدرعة بحيث تتطاير الدبابات نثاراً، أما رجال الدبابات فسوف يتحولون الى خليط ممزوج من اللحم البشري والصوف المحروق.

– أراك شجاعاً الآن، – قال الكسندر كوبيتوفسكي بخبث وسخرية وهو ينتصب في وقفته – لقد أصبحت شجاعاً ومرحاً لأنك تعرف بوجود العديد من المدافع المضادة للدبابات اضافة الى مدفعيتنا، أما البارحة فقد امتقع وجهك حينما هاجمتنا الدبابات...

– أنا أمتقع دائماً حينما يهاجموننا، – اعترف لوباخين ببساطة.

– وكنت تصرخ، بصوت كصوت الماعز بالضبط: «أعد الخراطيش!» كأنني لا أعرف ما علي فعله ما لم تخبرني أنت. وتبين أيضاً، أن أعصابك أعصاب نسائية...

صمت لوباخين مصغياً. تهادى الى سمعه صوت نسائي وصلصلة اواني زجاجية آتية من خلف الحديقة ودبت الحيوية في عينيه الشاردتين التائهتين، وبدتا مرحتين، وامتدت عنقه الى الأمام وانحنى جسمه كله قليلا مصيخاً السمع، وقد تحول بكليته الى أذنين وعينين.

– لمه تقف هكذا كوقفة الكلب، أم هل شممت رائحة طريدة مثله؟ – سأله الكسندر كوبيتوفسكي مستهزئاً. لكن لوباخين لم يجبه.

بدا قرميد العمارة البيضاء الأحمر المبلل بالندى يلمع كاببياً، وأشعة الشمس المائلة تسكب تبرها على القرميد وتسطع على النوافذ بالوان قزحية. ومن خلال الأشجار أبصر لوباخين امراتين، وفوراً نضجت لديه فكرة.

– أنت، يا الكسندر، قف هناك في حراسة مصالح الوطن، وسأذهب أنا الى هذه المؤسسة ذات السقف القرميدي لدقيقة من الزمن، – قال لكوبيتوفسكي غامزاً.

رفع الكسندر كوبيتوفسكي حاجبيه الرماديين مستغرباً، ثم سأله:

– ولم ستذهب؟

– نفسي تحدثني، ما لم تكن هذه العمارة مدرسة أو مصحاً لأمراض السل، فمن الممكن الحصول على طعام لذيذ للافطار.

– اغلب الظن أنها مركز للبيطرة، – قال الكسندر بعد صمت. – من الواضح أنها مركز للبيطرة ولن تحصل على شيء سوى جرب الأغنام والحكة، ولن تجد هناك شيئا للفطور.

ضيق لوباخين عينيه بازدراء، وسأل:

– وما الذي جعلك تحكم بانها مركز... وللبيطرة؟ وهل رأيت ذلك في المنام، يا مستبصر الأمور؟

– لأنها تقع بعيداً عن العزبة، وقبل فترة سمعت خوار بقرة تخور شاكية، ربما جاءوا بها لمعالجتها.

شعر لوباخين بشيء من الحيرة، ووقف متردداً خائب الأمل وهو يصفر مرتبكاً، غير انه في نهاية المطاف قرر الذهاب.

– سأذهب للاستطلاع، – قال مشجعا نفسه. – اذا سأل عني رئيس العرفاء أو شخص آخر، قل ذهب لقضاء

حاجته، انه يشعر بمغص شديد وحتى ربما يكون مصاباً بالزحار.

دار لوباخين من حول خنادق الملازم غولوشيكوف، حانياً ظهره وهو يجر رجليه لاوياً وجهه كمن يحس بالم ما، ومر بجنود الهاتف المشغولين بايصال الخط الهاتفي الى مركز القيادة وتسلل الى الحديقة. وما كاد يتوارى عن الأنظار خلف شجرة الكرز حتى عدل قامته وشد حزامه، وامال خوذته جانبا كالشطار، واتجه بساقيه المتقوستين بمشي الهوينا قاصداً باب العمارة المفتوح على مصراعيه وكأنه يرحب بالقادمين.

وكان لا يزال في البعد، حين أبصر بعض النساء مشغولات بالعمل قرب العنبر، وصفوف صفائح الحليب البيضاء التي تنعكس عليها أشعة الشمس، واقتنع تماماً أن الذي أمامه اما مصنع للسمن او ملبنة الكولخوز. وكانت صدمته عنيفة، حينما قفز بخفة من فوق السياج المصنوع من الأغصان، وفوجيء برجل عجوز ضخم قرب العنبر يصدر بعض الأوامر للنساء. كان لوباخين يحبذ دائماً التعامل مع النساء اذا أراد كسب شيء ويثق تماماً بطيبتهن ورقة قلوبهن، رغم فشله الكثير في الحب، كان على ثقة وطيدة بانهن لن يصددنه... أما فيما يتعلق بالشيوخ فانه ببساطة لم يكن يحبهم هذا الحب ويكرههم بعض الكره، كلهم ودون استثناء، ويعتبرهم أشحاء، ويتجنب، قدر استطاعته طلب أي شيء منهم. غير انه الآن ليس بوسعه تجنبه: كل الدلائل تشير الى انه هو المسؤول هنا ولا أحد غيره.

وعلى مضض منه، ومتمنياً للعجوز الذي لا ذنب له المنية العاجلة، سار لوباخين نحو العنبر، ولكن ليس بتلك المشية المتبخترة غير المتكلفة السابقة الشغوف لغزو قلوب النساء، بل بمشية عسكرية، وقد عدل خوذته على رأسه وانطفأ شعاع المرح في عينيه.

ألقى لوباخين نظرة خاطفة على كتفي العجوز المعتدلتين وظهره غير المحدودب، وفكر: «لعله خدم برتبة رقيب أول،

هذا الشيطان الملتحي! ولن ينفع معه شيء سوى الاحترام».
وعلى بعد عدة خطوات منه، صفق بكعبيه، وأدى التحية له، وكأنما الواقف أمامه قائد فرقة على الأقل. وأتضح أن حساباته لم تخطىء: لقد ترك ذلك انطباعاً في نفس العجوز، فرد هو بدوره أيضاً التحية له، رافعاً راحته الربلة الى قبعته القوزاقية الباهتة، وباحترام لا يقل عنه رد تحيته بصوت جهوري مرتفع:

– وعليكم السلام.

– أهذه اسطبلات خيول الكولخوز، أيها العم؟

– انها مؤسستنا لانتاج الألبان. وها نتأهب للجلاء...

– لقد تأخرتم في التأهب، – قال لوباخين صارماً. – كان من الضروري التفكير بذلك في وقت أبكر.

تنهد العجوز، ومسد لحيته، وقال مركزا نظره على مكان ما قرب لوباخين:

– لقد أسرعتم كثيراً، أيها المحاربون الشجعان، في فراركم حتى عزبتنا... أول أمس أذاع الراديو، أن الحرب تجري قرب روسوشا، وقبل ان يرتد الينا طرفنا واذا بكم قرب فناء عزبتنا ولا شك أنكم تجرون الألمان خلفكم...

بدأت دفة الحديث تتجه بوضوح في الاتجاه الذي لا يريده لوباخين، وبمهارة حولها الى اتجاه آخر، وسأله مهموماً:

– ألم تجلوا ابقاركم الى ضفة الدون الأخرى بعد؟ لا شك أن أبقاركم من السلالة الجيدة؟

– ان أبقارنا ليست أبقاراً بل هي ذهب خالص! – رد العجوز بنبرة اعجاب. – لقد اجليناها سباحة منذ مساء أمس، أما الأملاك والأمتعة فلا نزال ننقلها، ولكن أتقدر عبور النهر بها ام لا؟ ذلك ما لا استطيع قوله، فالمعبر شديد الازدحام. ان الالمان لليوم الثاني يلقون القنابل على الجسر، وسوف يدمرونه، فالسيارات العسكرية المختلفة هنا بالآلاف، والقواد يتدافعون قرب الجسر، وكيف يمكننا العبور بخردواتنا...

– نعم، ان هذا لأمر صعب، – أكد لوباخين. – ولكن لا تقلق كثيراً، أيها العم العزيز، ان فوجنا البطل تعهد بالدفاع – اذن، كن على ثقة بأن الألمان لن يتمكنوا من بلوغ ضفة الدون الأخرى بسهولة. وسنسفك دماءهم هنا أيضاً، على هذه الضفة. كما ينبغي.

– ستتلف عزبتنا، وستشتعل بالنيران، اذا مادارت الحرب هنا، – قال العجوز بصوت مرتعش.

– نعم، أيها العم، ستلحق أضرار بعزبتكم على ما يظهر، لكننا سندافع عنها بكل امكانياتنا.

– ليكن الرب بعوننا، – قال العجوز بانفعال شديد، وأراد رسم علامة الصليب على نفسه، الا انه نظر شزراً، الى صدر لوباخين المزين بالمدالية، ودون ان يرفع يده حتى جبهته جعل يمررها بوقار على لحيته الشائبة العريضة الكثة. – اذن، أهي وحدتكم التي تحفر الخنادق خلف الحديقة؟ – سأل بعد صمت.

– بالضبط، أيها العم، وحدتنا. نحفر ونبذل كل ما في وسعنا، الا انني أشعر بحلقي وقد جف تماماً... – وسكت لوباخين بطريقة دبلوماسية، على ان العجوز، على ما يبدو، لم يدرك ما يلمح اليه. وما فتىء يمسد لحيته، وينظر الى الحلابات وهن ينقلن الصفائح الى العربة، وفجأة، جحظ عينيه بصورة فظيعة، وصرخ بصوت جهوري:

– غلاشكا، داهية تسم بدنك، لم لم يعد الحجر للآن؟ حينما يبدأ الألمان بالقصف عندئذ ستتململين!

نظرت الحلابة، المكتنزة الطويلة، ذات الشفتين القرمزيتين والنهدين الممتلئين بلمحة خاطفة باتجاه لوباخين، وهمست بشيء ما للنساء اللاتي ضحكن بصوت خفيض، وبعد ذلك ردت عليه بلا استعجال:

– سيعود به قريباً، يا لوكا ميخاليتش، لاتقلق، ستلحق بالفرار مع عجوزك الى الدون...

أخذ لوباخين ينظر الى الحلابة، مفتوناً بها، لا يحول بصره عنها، مضيقا عينيه كأنما الشمس تبهرهما باشعتها

الساطعة. وبصعوبة ظاهرة حول نظره عن الوجه النسائي الأسمر المتورد، وندت من صدره تنهيدة، ولسبب ما سأل بصوت أجشر:

– وماذا، أيها العم، هل كانت حياة الكولخوز حسنة قبل الحرب؟ يبدو الناس لديكم موفورو الصحة والعافية...

– كانت ممتازة جداً، كانت لدينا مدرسة، ومستشفى، وناد وما الى ذلك، هذا بغض النظر عن المأكل والمشرب والملبس، لقد كان كل شيء عندنا على مايرام وكنا غارقين في الخير والبركات حتى آذاننا، أما الآن، فنحن مضطرون لترك خيراتنا هذه. وما الذي سنعود اليه؟ الى الجذامير الجرداء بكل تأكيد ودون شك، – قال العجوز بحسرة.

لو كان ذلك في وقت آخر، فلربما شاركه لوباخين في أساه وواساه، الا أنه الآن لم يكن لديه متسع من الوقت، فأقدم على خطوة أخرى، حتى يحمل العجوز على تخمين سبب قدومه.

– ان ماء البئر عندكم مالح. ونحن اذ نحفر الخنادق، نشعر بظمأ شديد، أما الماء فلا يمكن شربه. وكيف تعيشون بلا ماء عذب سائغ للشرب؟ – قال بلهجة فيها رنة عتاب.

– مالح؟ – كرر العجوز سؤاله مستغرباً. – ومن أي بئر شربت؟

لم يشرب لوباخين الماء في هذه العزبة، ومن البديهي انه لم يكن يعرف مكان البئر، ولذا أشار ملوحاً بيده بلا تحديد صوب المدرسة المرئية خلف الأشجار.

تضاعفت دهشة العجوز فقال مستغرباً:

– يا للعجب! ان ماء بئر المدرسة هو أفضل ماء في منطقتنا، وأهل العزبة كلهم يجلبون الماء من هناك. وما الذي افسده الآن؟ البارحة جئنا بالماء من هناك، وكان كالعادة لطيف الطعم وعذب المذاق، وجربته بنفسي.

أخذ يحدق بالأرض مفكراً، أما لوباخين فتنحنح متضايقاً، وقال:

– اضافة الى ذلك، لايسمح لنا بشرب الماء نيئاً، حتى لا نصاب بالاسهال والأمراض المعدية الأخرى.

– ان ماءنا يمكن شربه نيئاً، – قال العجوز باصرار. – فكل سنة ننظف البئر، والعزبة بأكملها تشرب منها، ولم يشك أحد للآن من أي ألم في معدته.

نفدت كل امكانيات لوباخين في افهام العجوز، الذي لايفهم، بأسلوب التلميح، وبعد أن يئس، خاطبه بالمكشوف:

– أليس بالامكان الحصول على حليب طازج لديكم، أو زبدة على الأقل؟

– هذا يتطلب بالضرورة مقابلة مديرة المؤسسة، ها هي تقف بجوار الحلابات. انها تلك النمشاء، المستديرة المرتدية شالا رمادي اللون.

– وأنت... ما منصبك؟ – سأل لوباخين بارتباك.

فأجابه العجوز بفخر وهو يمسح على ذقنه:

– أنا أعمل هنا سائساً للسنة الثالثة. أشتغل – والحمد لله على كل الاحوال، كما ينبغي فأنا أقوم بحش الأعشاب، والعناية بشؤون المؤسسة وترتيبها وسوى ذلك. وقد وعدت بعلاوة في هذه السنة...

وقال أشياء أخرى، لكن لوباخين لطم براحة يده على خوذته ضجراً، وحرك شفتيه صامتاً، وقصد المرأة الملفعة بالشال الرمادي.

اتضح أن المسؤولة امرأة متواضعة دمثة الخلق. أصغت الى لوباخين باهتمام، فقالت:

– لقد صرفنا مئة وخمسين لترا من الحليب والزبدة للجرحى في المستشفى، وقد تبقت لدينا كمية معينة، طبعاً ليس بوسعنا أخذها معنا. أتكفي لمقاتليكم صفيحتان من الحليب؟ غلاشا، اصرفي صفيحتين من حليب الأمس للرفيق القائد، وكيلوغرامين أو ثلاثة من الزبدة اذا ما تبقى في الثلاجة.

صافح لوباخين المسؤولة بحرارة، وقصد الثلاجة بغبطة وخفة، وغرور شديد لأن المسؤولة ظنته قائداً. وقال باعجاب

وهو يتناول من يدي الحلابة صفيحتي الحليب، الباردتين المتعرقتين من الجليد:

– انني لا أعرف اسم أبيك*، يا غلاشا، لست امرأة كالنساء بل أنت امرأة رائعة! انك، ببساطة، قشطة صافية، لا بل أكثر! وبشهيتي هذه، بمقدوري أن آكلك بأكملك في وجبة واحدة وذلك بأن أدهنك بقطع صغيرة على الخبز وأمضغك حتى بلا ملح...

– كما تراني، – أجابت الحلابة المحصنة بجد.

– لا داعي للتواضع، انك لجميلة حقاً، يا غلاشا، وان كنت لغيري وهذه هي المصيبة! ولكن ما الذي جعلك سمينة بهذا الشكل، أهو الحليب الطازج أم اللبن الرائب يا ترى؟ – واصل لوباخين اطراءه عليها.

– خذ الصفيحتين، وهيا بنا. ستأتي من أجل الزبدة فيما بعد.

– أنا اوافق على الجلوس معك في هذه الثلاجة طيلة حياتي، – قال لوباخين مظهرا التوله.

أسترق النظر متلصصاً الى الباب نصف المفتوح، وحاول معانقة الحلابة المكتنزة، لكنها صدت يد لوباخين بسهولة، ولوحت له بقبضتها السمراء محذرة، وابتسمت له في مودة قائلة:

– أحذرك، أيها الشاب، أن هذه القبضة ستبرد حرارتك أسرع من الجليد. أنا أرملة حازمة ولا أحب هذه الحماقات.

– أنا مستعد لتحمل كل شيء من أرملة مثلك، غير انني لا أفكر بالتراجع، وبدون ذلك لقد تراجعت الى حد التقزز، – قال لوباخين بهدوء، واقترب من الحلابة بعناد مقربا فمه من شفتيها القرمزيتين.

ولكن في تلك اللحظة، انفتح باب الثلاجة المكسو

---

* الدارج عند الروس مخاطبة الانسان باسمه واسم ابيه من باب الاحترام.

بالقصب على مصراعيه في غير أوانه، وبرز عند مدخله شبح أسود، ودوى صوت عجائزي جهوري:

– غلاشا! ما بالك تأخرت هناك؟ ألم يلتصق طرف ثوبك بالجليد؟ أسرعي وعودي بالحجر بسرعة!

ارتد لوباخين جانباً وأخذ يصعد درج السلم الزلق من جراء الرطوبة، وهو يشتم بصوت خافت ويصلصل بالصفيحتين. وعند مدخل الثلاجة انتظر الحلابة الصاعدة باثره وهي لاتزال تبتسم بمكر، وسألها:

– هل ستذهبين مع المتراجعين الى ما وراء الدون، أم ستبقين هنا؟ انني أستفسر على سبيل الاحتياط.

– سنذهب من هنا الآن، أيها العسكري. ما رأيك في الذهاب معنا؟

– ليس طريقنا واحداً في الوقت الحاضر، – قال لوباخين بجفاء ملحوظ، ولكن، وفي نفس الوقت استعاد صوته المبحوح نعومته وقرقرته الشبيهة بهديل الحمام. – ولكن فيما لو ساعف الحظ – فأين سنلتقي، يا غلاشا؟

فردت الحلابة، ضاحكة، دافعة لوباخين من الباب بكتفها القوية:

– ومع انه يبدو لي أن لا داعي لالتقائنا، الا انه اذا كنت تريد لقائي هكذا، وبصبر فارغ – ابحث عني في الغابة على الضفة الأخرى. اذ اننا لن نذهب بعيداً عن عزبتنا.

يمم لوباخين متنهدا ولاعناً، في سريرته، الحياة العسكرية غير المستقرة، وحاملا الصفيحتين شطر الحديقة. ورغب في القاء نظرة ثانية على الأرملة، ذات المظهر الصارم الشديد، والعينين اللطيفتين بشكل غريب واللتين تقدحان شرراً. فالتفت فتعثرت رجله بنتأة صغيرة وكاد يقع أرضا وفي تلك اللحظة بالذات انطلقت من خلفه ضحكة نسائية رنانة اخترقت شغاف قلبه...

وفي الخندق، شرب لوباخين الحليب البارد المنعش مباشرة من الصفيحة بنفس واحد طويل، دون توقف. وبعد ذلك – شاعراً بثقل في جسده من الحليب الذي شربه،

وبمرح الاطفال – كلف الكسندر كوبيتوفسكي بتوزيع الحليب على كل المقاتلين وذلك بملء قدر كل واحد منهم، وحذر تحذيراً شديداً من الاجحاف والاساءة للآخرين في حالة تبقي كمية فائضة. أما هو، فاراد العودة مرة أخرى، لكن كوبيتوفسكي نصحه بعدم الذهاب:

– سيوبخك رئيس العرفاء، لا تذهب.

ابتسم لوباخين بابتسامة حالمة، ثم قال:

– كان من المحتمل ألا أذهب، لكن رجلي تنقلانني تلقائياً... فهناك حلابة رائعة الجمال اسمها غلاشا، فلو لا الحرب لوافقت على البقاء معها طيلة حياتي اجلس بجوارها تحت البقرة واشد حلماتها.

سأله كوبيتوفسكي، مضيقا عينيه، واضعاً راحته السوداء على فمه، بصوت متقطع من شدة الضحك:

– حلمات من؟

– هذا غير مهم، – رد لوباخين شارد الذهن، مفكراً بأمر ما.

أجال بصره على قمم الأشجار وتوقف طويلا عند السطح القرميدي الأحمر لمؤسسة منتوجات الألبان.

– احذر الآن، لئلا تنال نصيبك من توبيخ رئيس العرفاء. انه غضبان منذ البارحة، مثل الكلب المربوط، – نبهه كوبيتوفسكي.

لوح لوباخين بيده مشيحاً، وقال بحدة:

– اذهب أنت ونصائحك ورئيس عرفائك الى حيث... ماذا، ألن يسمح لي أن أخطو خطوة واحدة؟ قل له، ان لوباخين ذهب لجلب الزبدة وقدم له حليباً، وهذا كل ما في الأمر. واذا ما حاول التشبث بي فسوف اريه ما يستحقه! انني لم اعد قادراً على أكل عصيدة ليسيتشينكو، لقد بدأت معدتي تتقرح منها. فليقدموا لنا الوجبات بموجب مرسوم ميكويان، وعندئذ سأكف عن مراوغاتي. وهل أنا مجنون حتى أرفض الزبدة، اذا كان الناس الطيبون يعرضونها على هم أنفسهم؟ وهل سنتركها للأعداء؟

– بما أنهم يعطونك زبدة، فاذهب ولا تتردد، – وافقه كوبيتوفسكي بسرعة.

وبعد دقيقة واحدة، كان لوباخين يسير في ممر الحديقة المألوف له، وهو يصغي الى أصوات عصافير الصباح، مستنشقا بمتعة الرائحة اللطيفة الطيبة للاعشاب التي بللها الندى.

وبصرف النظر عن عدم نومه لعدة أيام متتالية، وسوء التغذية، وقطعه مسافة مضنية تقارب المئتي كيلومتر محارباً، كان في هذا الصباح يتمتع بمزاج رائق. وهل مايريده الانسان أثناء الحرب كثير؟ انه مجرد الابتعاد قليلا عن الموت اكثر من المعتاد، وان يستريح، ويشبع نوماً، ويأكل حتى الشبع، ويتلقى رسالة من البيت، ويدخن على مهل مع رفاقه– وهذه هي السعادة العسكرية بكاملها. صحيح أن لوباخين لم يتلق رسالة في ذلك الصباح، الا انهم كانوا قد تلقوا الدخان الذي طالما انتظروه، وعلبة من اللحم المحفوظ لكل نفر، وكمية من الذخيرة تكفيهم تماماً: وقبل بزوغ الفجر تسنى له الاغفاء قليلا، وبعد ذلك، أخذ شاعراً بالحيوية والنشاط، يحفر الخنادق، ويفكر واثقا، أن التقهقر المرير، سيتوقف أخيراً، هنا عند نهر الدون، وفي هذه المرة لم يخيل له ان العمل مزعج وممل الى درجة كبيرة كما كان من قبل. كان راضياً جداً بالنسبة للموقع المختار، وما زاد من رضاه أنه شرب الحليب حتى شبع، وقابل غلاشا الأرملة الرائعة الجمال. طبعاً، لكان أفضل بكثير لو تعرف عليها في مكان ما اثناء وقت الاستراحة، اذن لكان بوسعه اظهار كل قدراته كما كان يفعل في الماضي، ولكن هذا اللقاء القصير أيضاً منحه بعض اللحظات السعيدة. فابان الحرب أصبح قنوعاً يكتفي بالقليل، ويصبر على الحرمان...

سار لوباخين، سالكاً الممر وهو يبتسم لأفكاره، ويصفر بصوت خفيض، شاقا طريقه بين نباتات راعي الحمام المثقلة بالندى. وفي البداية لم ينتبه الى الهدير الخفيض المسموع بالكاد والمتناهي من البعد من مكان ما وراء الجبال،

ولكن مالبث الدوي يسمع بوضوح أكثر، فتوقف لوباخين مصيخاً بسمعه. ومن خلال الدوي أدرك أن الطائرات الألمانية قادمة، وفي تلك اللحظة تقريباً سمع هتافاً مديداً: «ج...و!».

استدار لوباخين بحدة، وجرى مهرولا الى الخندق. وللحظة واحدة فحسب برقت في رأسه خاطرة حزينة: «لقد طارت من يدي الزبدة وغلاشا أيضا...»، وبعد ذلك، ومهما كانت فداحة خسارته الجسيمة فانه نسيها لفترة طويلة...

ظهرت أربع عشرة طائرة المانية فوق خط الأفق بقليل، وأخذت تقترب مسرعة. لم يلحق لوباخين من اكمال الجري الى خندقه، حينما سمع قذف مدافع المقاومة الأرضية تلعلع من حديقة المدرسة. اشتعلت الانفجارات على شكل أكاليل رمادية قاتمة أمام وأسفل الطائرات الأولى وعلى مسافة قريبة منها. ثم أخذت انفجارات قذائف المدافع المضادة للطائرات تزداد، وتختلط في السماء الصافية، مارة بالقرب من الطائرات، مصدعة تشكيلاتها، مجبرة اياها على تغيير اتجاهها.

– أصيبت واحدة! – زأر كوبيتوفسكي فرحاً.

قفز لوباخين الى خندقه، ولما رفع رأسه، شاهد طائرة المقدمة، تجنح متمايلة، وملفعة بالدخان الأسود وراحت تهوي الى الارض مائلة. مرت من فوق الخنادق وهي تصفر وتعوي بحدة والدخان واللهب ينبعثان منها، ثم انفجرت بقنابلها مرتطمة بأرض مرعى العزبة المردوسة. كان دوي انفجارها عنيفاً حتى ان لوباخين أغمض عينيه لبرهة وجيزة، ثم أدار وجهه المشرق الى كوبيتوفسكي، وقال:

– لقد كانت محشوة تماماً بالقنابل... ليت شياطين الجو، رجال المدافع المضادة للطائرات، يضربون هكذا دائماً بتسديد محكم.

أصيبت طائرة أخرى باصابة مباشرة وتحطمت في الجو متطايرة اربا، وسقطت بعيداً وراء العزبة. بينما استطاعت الطائرات الباقية شق الطريق الى الجسر. فاستقبلت بنيران المدافع الرشاشة وبطارية المقاومات الارضية الثانية المرابطة

عند الجسر مباشرة، فألقت قنابلها بصورة عشوائية، واتجهت الى الغرب رأساً، متلافية المنطقة الخطيرة.

ما كاد الغبار الذي أثارته الانفجارات الشديدة يخمد، حتى ظهرت من وراء الجبال موجة ثانية من قاذفات القنابل الألمانية، الا أنها في هذه المرة كانت زهاء أربعين قاذفة. انفصلت عنها أربع طائرات، فانعطفت جانحة شطر خط الدفاع.

– انها تهاجمنا، – قال كوبيتوفسكي بصوت مرتعش من بين أسنانه المطبقة بشدة. – انتبه، يا لوباخين، ان هذه القاذفات ستبدأ الآن بالانقضاض... ها هي آتية!

وجه لوباخين مدفعه، وقد شحب وجهه قليلا، ضاغطاً برجله بقوة على حافة الخندق السفلى وأخذ يسدد بدقة. كانت عيناه الرائقتان مضيقتين لدرجة انه حينما لمحه كوبيتوفسكي بنظرة خاطفة لم يلمح سوى شقين ضيقين، كأنما شقا بسكين، وتحيط بهما بشرة مسودة عميقة التجاعيد.

– رقم النيشان ثلاثة... ثلاثة ونصف... تقدم أربعة هيا اضرب! – تعالى صراخ كوبيتوفسكي مترددا من خلال عواء المحرك الحاد المصم للاسماع.

كان لوباخين يسمع صوته وصوت هتاف الملازم غولوشيكوف المرتج المألوف لديه: «على طائرات العدو!..» تمكن من اطلاق النار، شاعرا بالارتداد العنيف للسلاح بكتفه وبكل جسمه، مدركا اخطاءه في اصابة الهدف عقب جزئين من الثانية. تزايد أزيز القنابل المألوف والبغيض على حين غرة واختلط بدوي الانفجارات العنيف، وأخذت الكتل الطينية المتطايرة تتساقط كحبات البرد الكبيرة، منهمرة بغزارة على خوذة لوباخين وظهره المنحني بذل ومهانة، واندفعت رائحة المعادن المحترقة الحادة الناجمة عن الانفجار في منخريه حابسة انفاسه. كانت القنابل تنفجر على امتداد الخنادق باستمرار، غير أن معظمها كان ينفجر

خلف الخنادق وفي حديقة المدرسة. استجمع لوباخين قواه، ورفع رأسه، وابصر من خلال سحابة الغبار البنية القاتمة المتلبدة المتلوية وفي جهة الشمال، طائرة تندفع بسرعة الى الاعلى في السماء الزرقاء وتبين شارة الصليب المعقوف على ذيلها فانتصب فجأة كاللولب النابض وهو يصر على أسنانه حانقاً، وعاد ليمسك بمدفعه.

– اضرب هذا النذل! اضرب بسرعة!.. – صرخ كوبيتوفسكي في اذنه بصوت مضطرب مرتعش.

في هذه المرة لم يكن بمقدور لوباخين ولا من حقه أن يخطىء! كان جسمه كله كأنه قد تحجر تماماً، باستثناء يديه الحديديتين الصلبتين، يدي عامل المناجم، الممسكتين بالسلاح، كما لو كانت تتمة له، فكانتا تتحركان الى اليسار وعينيه المضيقتين المحتقنتين دماً والمتقدتين حقداً، تنزلقان بنظراتهما أمام الطائرة المندفعة الى الأعلى، وتقيسان البعد المطلوب. ومع ذلك أخطأ في هذه المرة أيضاً... اختلجت شفتاه قليلاً، عندما رأى الطائرة وقد ارتفعت الى العلو المطلوب، واستدارت هادرة، وعادت لتنقض من جديد على الخنادق.

– الخرطوشة! – صرخ بصوت محتدم بالغيظ.

انخفضت الطائرة «يو – ٨٧» بحدة، راشقة الأوكار الصفراء في الخنادق بنيران جميع رشاشاتها. وردا عليها، أخذت النيران تنطلق بغزارة وعنف، من مدفع الرقيب نيكيفوروف اليدوي، وطفقت طلقات البنادق تطقطق بكثرة واطراد وراحت رشقات المدافع الرشاشة تدوي متتالية متخافتة وعلى وتيرة واحدة وبلا انقطاع. كان لوباخين ينتظر، ويراقب، باهتمام، الطائرة التي انخفضت بعواء خفيض مديد مترايد القوة، وفي تلك اللحظة بالضبط، صارت أذنا لوباخين، وبصورة لا ارادية، تلتقطان كافة أصوات النيران المختلفة: دوي الانفجارات العنيفة للقنابل المتساقطة في حديقة المدرسة قرب موقع بطارية المدافع المضادة للطائرات، وقصف المدافع المضادة للطائرات الكثيف،

والزغاريد الطنانة للرشاشات، حتى انه استطاع تمييز صوت عدة قذائف أطلقتها المدافع المضادة للدبابات. وعلى ما يظهر لم يكن هو الوحيد الذي يترصد لطائرة الانقضاض المتمادية في وقاحتها، بمدفع مضاد للدبابات.

– ما لي أراك تسمرت؟! انني أسألك ماذا دهاك، ما لك تسمرت؟ ألم تصب بجرح؟! – أخذ كوبيتوفسكي يصرخ.

بيد ان لوباخين اكتفى باطلاق شتيمة قصيرة شنيعة، دون أن يصرف نظره عن الطائرة، أما كوبيتوفسكي فجلس في قعر الخندق الأحرش المغمور بالكتل الطينية المنهارة بعد تأكده من سلامة لوباخين، وعدم اصابته بأي أذى.

وفي الاغارة الثانية، أثارت النيران الوابلة المستعرة للرشاشات عثير الغبار حاصدة نباتات الشيح القصيرة النامية على حافة الترس الأمامي للخندق، وشملت جزءاً من ركام الترس أيضاً، لكن لوباخين لم يتحرك.

– انحن! سترشقك، أيها الطائش! – صرخ به كوبيتوفسكي بصوت عال.

– تكذب، انها لن تلحق! – رد لوباخين بصوت أجش، متحيناً الفرصة السانحة، فما أن اعتدلت الطائرة من وضع الانقضاض حتى ضغط على الزناد.

نكست الطائرة أنفها بعض الشيء. ثم مالبثت أن واصلت طيرانها باتجاه مستقيم صوب الجنوب، مضطربة كطائر مصاب، وأخذت ترتفع ببطء وبصعوبة. وأخذ دخان أسود قاتم يخرج من جنبها الأيسر.

– آها، كفاك تحليقا فلقد نلت ما تستحقه، – قال لوباخين بصوت خافت، منتصباً في الخندق بطول قامته. – لقد انتهى تحليقك! – كرر بصوت اكثر خفوتاً وتأكيداً، وهو يتابع كل حركة للطائرة المصابة، بامعان.

وقبل بلوغها الجبل، أخذت الطائرة تتأرجح، ثم هوت بشكل يكاد يكون عمودياً. فارتطمت بالأرض محدثة فرقعة، كقشرة البيضة المسلوقة وهي تكسر على طاولة ما بالقرب

منه، عندئذ فقط، تنفس لوباخين الصعداء ببهجة وارتياح شديدين، ثم التفت الى كوبيتوفسكي:

– هكذا يجب ضربهم! – قال موسعاً منخريه الشاحبين، ودون أن يخفي فرحته.

– لا جدال في ذلك، لقد خرقتها بمهارة، يا بيتر فيودوروفيتش! – قال كوبيتوفسكي باعجاب، وتكاد تكون هذه هي المرة الأولى، منذ خدمتهما معاً، التي يخاطبه فيها باسمه واسم أبيه، اكباراً واحتراماً للوباخين.

لف لوباخين سيجارة بيديه المرتجفتين على عجلة من أمره، وجلس، مرهقاً وبشيء من الارتخاء، في قاع الخندق، وسحب نفساً من سيجارته عدة مرات متتالية بنهم.

– كنت أخشى أن تفلت مني الطائرة اللعينة! – قال بصوت أكثر هدوء، ولكنه مازال بطيئاً في كلامه من جراء انفعاله. – ولو انها تجاوزت الرابية، فمن سيدري – أسقطت، أم تمكنت من بلوغ قاعدتها. أما هذا فأمر موثوق واكيد، لقد اصطدمت بالأرض، فاحترقي هنيئاً لك ومريئاً...

وقبل انهائه تدخين السيجارة، نهض من مكانه، وأخذ ينظر بعين الرضى زهاء دقيقة صامتاً، الى حطام الطائرة الذي يتصاعد منه الدخان في البعد. أما الطائرات الثلاث الباقية، فبعد قصفها بطارية المدفعية المضادة للطائرات، اتجهت جنوباً، لكن قاذفات القنابل مازالت تحوم فوق الجسر بضراوة، والمدافع المضادة تفرقع بصوتها المكتوم، والقنابل تسقط مثيرة أعمدة الماء الخضراء الباهتة العالية المتلألئة بلون قزحي تحت أشعة الشمس. وسرعان ما انتهت الغارة الجوية، واستدعى جندي الاتصال، الذي أقبل راكضاً، لوباخين الى قائد السرية.

كانت الأرض بأسرها، أمام الخنادق وخلفها، ملأى بالحفر الصفراء المستديرة بشتى الاشكال وذات الحواشي الطينية المحروقة من جراء القنابل، وكأنها القرح. وما اكثر الممرات المنحنية التي شقتها القنابل في الحديقة، باشجارها المقلوعة والمكسرة وقد تعرت جدران وسقوف العزبة التي

كانت مغطاة بالأغصان والجذوع في السابق، وبدت كل الأشياء المحيطة غير عادية: مختلفة، موحشة وغير مألوفة. بالقرب من خندق زفياغينتسيف انحفرت حفرة عميقة، وعند ترس الخندق مباشرة كانت قنبلة غير كبيرة، مطمورة في التراب حتى منتصفها، وزعانف ذيلها معقوفة ومتصدعة ولماعة. ولكن في كل مكان تقريبا فوق أوكار الرماة كانت رائحة التبغ تفوح بنكهتها الطيبة، ويسمع لغط أصوات المقاتلين، ويتهادى صوت احدهم متوتراً مرحاً، من وكر الرشاش المقام في حوض علف قديم شبه مدمر، تقاطعه ضحكات مدوية جماعية لكنها مكبوتة حملت لوباخين على الابتسام أثناء مروره بهم وجعلته يفكر: «يا لهم من شياطين يستحيل القضاء عليهم! لقد تعرضوا للقصف حتى كادوا ينقلبون رأساً على عقب، فما أن هدأ – حتى باشروا بالصهيل كخيول طال حبسها في الاسطبل»... وهنا أخذ هو نفسه يضحك لدى سماعه صوت الرقيب نيكيفوروف المألوف له والرفيع الباكي من شدة الضحك، يختتم قائلا:

– ... فأنظر اليه، واذا به يقف على أربع، يهز رأسه ويسألني: «ألم أقتل، يا فيديا؟..» أما عيناه فهما، جاحظتان بحجم قبضتيه من تحت جبينه، وتفوح منه رائحة تشبه رائحة اللفت المغلي... ويبدو أنه... من شدة الخوف.

ثمة شخص ما في الخندق الواسع كان يضحك تعباً بصوت رفيع وبكل ما اوتي من قوة، ولكن دون توقف، كما لو أنه مقيد وشخص ما يدغدغه بالحاح. مر لوباخين برماة الرشاش وهو لا يزال يبتسم، ومتجنباً الحفر التحق بجندي الاتصال وقال:

– ان نيكيفوروف هذا لشاب مرح.

– الآن منهم من يضحك، ومن يبكي ومنهم من يحظى بالذكرى الخالدة... – أجاب جندي الاتصال متكدراً، مشيراً الى الوكر المدمر من جراء اصابة مباشرة، والى جندي بقميص مخضب بالدماء يسير في البعد وهو يترنح كالثمل، ويعتمد بصورة لا ارادية على يد رجل الاسعاف.

استقبل الملازم غولوشيكوف لوباخين بابتسامة عريضة، واشار اليه بيده داعياً اياه للنزول الى الخندق. فرغ تواً من تناول طعام افطاره مستعجلا مستغلا فترة الهدوء القصيرة. فمسح غولوشيكوف فمه بمنديله المسود من الأوساخ، وغمزه بمكر:

– أ أنت الذي أسقطها؟

– يبدو هكذا، أيها الرفيق الملازم.

– لقد قمت بذلك باتقان. اهي الطائرة الاولى بالفعل؟

– نعم.

– اذن، اجلس فانت ضيفنا. تقول – انها الأولى، ولكن يجب أن تفكر – انها لن تكون الأخيرة، أليس كذلك؟– قال الملازم مازحاً، ومخفياً في التجويف قدر العصيدة التي لم يفرغ من أكلها، ومخرجاً من هناك زمزمية كبيرة مغنومة.

لم تكن في خندق الملازم تفوح رائحة الطين الرطب والشيح اللذين لم يجفا بعد فحسب، بل ورائحة حزام الحوائج الجلدي، والرائحة الخفيفة لماء الكولونيا، ورائحة عرق الرجال الشبيهة برائحة الخل القابض ونكهة التبغ. فكر لوباخين، مستغربا من السرعة المدهشة التي يتعود فيها الناس على الحياة في الخنادق ويتشبع مأواهم المؤقت بروائحهم المختلفة تماماً والتي يتميز بها كل شخص عن الآخر برائحته الخاصة به. لم يكن تذكره كلمات الرقيب نيكيفوروف وابتسامه في الوقت المناسب، لكن الملازم فهم ابتسامته على طريقته الخاصة، وقال، برزانة، وهو يصب الفودكا في كأس من الألمنيوم:

– هذه «المحروقات» زودني بها جيراننا، رجال المدفعية المضادة للطائرات، أما «محروقاتي» فقد نفدت منذ أمد طويل. اذن، أهنئك بالنجاح، تفضل، اشرب.

تناول لوباخين الكأس باصبعيه، محترساً، وقال شكراً، ولكنه فكر، في قرارة نفسه، بان الاناء صغير جدا ليس على الطريقة الروسية، ثم أغمض عينيه وجعل يشرب، ببطء وتلذذ، الفودكا الدافئة التي تفوح منها رائحة الكيروسين.

تنحنح الملازم مع لوباخين في آن واحد كمن يشاركه متعته، الا انه هو نفسه لم يشرب، ووضع الزمزمية جانباً.

– انظر كيف أصبح الناس عندنا، يالوباخين، ها؟ في السابق، لمجرد سماعهم الطائرات – كانوا ينبطحون ساقطين أرضاً ويشمون الأرض، أما الآن فالوضع يختلف، فليحاول أن يطير عالياً فوقنا، والا فاننا سنكسر ساقيه، اليس كذلك، يا لوباخين؟

– بالضبط، ايها الرفيق الملازم.

– لقد اتصل بي المقدم منذ فترة قصيرة، وسألني عن الذي أسقط الطائرة. لقد أشار الناس اليك، ورأيت ذلك شخصياً. لاشك، ستقدم توصية لمنحك مكافأة. والآن، اذهب، لا بد من وقوع هجوم عاجل، كن حذراً بالنسبة للدبابات ولا تخيب ظننا بك. عرج على بورزيخ ونبهه بالنيابة عني، ستكون المعركة هامة، يجب أن نصمد، وكما يقال، أن نستميت. أخبره، بانني أعتمد عليه، والآن سأقصد الجناح الأيمن. نعم، انني أرى الألمان يشددون غاراتهم لتمهيد السبيل أمام قواتهم للجسر... سيكون اليوم حاراً، ولذا كن في منتهى الحذر!

عاد لوباخين الى مجموعته متورد الوجه بلون الآجر من شدة الفرح والفودكا التي شربها، ولدى اقترابه من خندق بورزيخ، أخفى ابتسامته عن شفتيه، وارتدى هيئة الجد.

كان بورزيخ يتناول فطوره، ويمسح جوانب علبة الكونسروة بقشرة الخبز.

استلقى لوباخين قرب الخندق، وسأل:

– ماذا، أيها السبيري، الا تؤثر فيك حتى القنابل؟

– فيّ؟ لن يؤثر في شيء الى أن يحين أجلي، – أجاب السبيري الوسيم العريض المنكبين بصوت جهير، وهو مازال منشغلا بافطاره.

– ليتك تقريني فطيرة، لقد أتيتك ضيفاً.

– اذهب لضيافة زوجتي في أومسك، اليوم يوم أحد، انها بكل تأكيد تعد الفطائر، وستقريك.

هز لوباخين راسه بالرفض متأسفاً:

– المسافة بعيدة، لن أذهب. الى الجحيم أنت وفطيرتك...

– نعم بعيدة، – قال بورزيخ متأوهاً، وكان من العسير ادراك سر هذه الآهة الخفيفة: أهو بعد سهب الدون العاري هذا عن مدينته الحميمة أومسك، أم السرعة التي فرغت فيها علبة الكونسروة..

ودون أن يلوح بيده، قذف بورزيخ العلبة الفارغة بين الأعشاب الطفيلية الطويلة، ومسح يديه جيداً ببنطاله الملطخ بالزيت، وقال:

– من الأفضل، يالوباخين، لو ضيفتني تبغاً.

– ودخانك، هل حرقته كله؟ – تساءل لوباخين مندهشا.

– ولم تتصور أنني حرقته؟ دخان الغير دائماً افضل، – قال بورزيخ بحصافة، وثنى قطعة من الورق على شكل لفة، ومد يده من الخندق. – أعطني ولا تكن بخيلا. لوكان الحظ قد حالفني وأسقطت طائرة، لوزعت كل دخاني على الزملاء والأصدقاء...

– لقد أمرني الملازم أن أبلغك بأن تكون في غاية الحذر. انه شاب نبيه ويعتقد أن الدبابات ستبادر بتجربة قوتها معنا. فخلف هذه المرتفعات المقابلة لنا، بامكانهم حشد قواتهم بصورة جيدة، أضف الى ذلك ان المسلك الى هناك جيد، مستور، فالوادي الضيق يمتد بميلان مع الرابية، أرأيت ذلك بعينك؟

أومأ بورزيخ برأسه، صامتاً.

– وهكذا قال الملازم: «أنا أعتمد على بورزيخ وعليك. سنصمد حتى النهاية».

– انه محق في اعتماده علينا، – قال بورزيخ باتزان. – فالناس الذين تبقوا لدينا قلائل، لكنهم من خيرة الشبان. فيما يتعلق بنا، سنصمد، ولكن ماذا بالنسبة لجيراننا؟

– فليفكر الجيران هم أنفسهم بمصيرهم، – قال لوباخين.

ومرة أخرى، أومأ بورزيخ برأسه، صامتاً.

نهض لوباخين، وصافح يد رفيقه الضخمة القوية قائلا:

– أتمنى لك التوفيق، يا أكيم!

– ولك أيضاً.

بعد مرور لوباخين بوكرين للرماة، ومحاذاته للثالث، توقف مشدوها، فجأة، كمن صادفته عقبة غير منتظرة، وفرك عينيه، وقال وهو يصر على أسنانه بامتعاض: «يا للمفاجأة السارة! هذا ما كان ينقصني في شيخوختي...» من الخندق المحفور بشكل جيد ومهارة، ومن تحت الخوذة المائلة الى الأسفل، كانت تنظر اليه عينا الطباخ ليسيتشينكو الزرقاوان البادتان المرهقتان برزانة كالمعتاد، ودون أن ترمشا. وبدا وجهه المكتنز بخديه المتوردين كتفاح أنتونوفكا شاب الملامح بشكل غير مألوف، وحتى مرحاً، وخيل للوباخين ان عينيه الزرقاوين الهادئتين تضيقان بشيء من التحدي والوقاحة.

اقترب لوباخين من الوكر وهو يجر رجليه بتعمد، وجلس القرفصاء وقال، ناظراً الى الطباخ من قمة رأسه الى أخمص قدميه، بصوت يفح كفحيح الافعى لايبشر بالخير:

– مرحباً.

– مرحبا، – رد ليسيتشينكو ببرود.

– كيف صحتك؟ – سأله لوباخين بأدب، محدقاً الى الطباخ بنظرات نارية، كاظماً الغيظ المستعر في نفسه بصعوبة.

– شكراً، اغرب عن وجهي وواصل سيرك الى الجحيم.

– لكنت أجبتك وفق كل قواعد العلوم العسكرية، ولكنني أحتفظ بأنفاس وأندر الكلمات ليس من أجلك، – قال لوباخين وهو يعتدل في وقفته. – وكل ما اطلبه منك هو ان تجيبني عن سؤال واحد لا غير: من المجنون الذي أجلسك في هذه الحفرة، وهل تزمع البقاء فيها، وأين المطعم، وما الذي سنأكله اليوم بفضلك؟

– لم يجلسني أحد هنا، يا صديقي. أنا الذي حفرت الخندق لنفسي، واتخذت مكاني فيه، – أجاب ليسيتشينكو بصوت هادىء ضجر.

كاد لوباخين يختنق من شدة الاستياء.

– اتخذت مكانك؟ يا لك من... والمطبخ؟

– لقد تركته. وأرجوك ألا تتأوه هنا، وعبثا تحاول اخافتي. شعرت اليوم بالكآبة وأنا قرب المطبخ، ولذا قررت تركه.

– شعرت بالكآبة، فتركت المطبخ، وأتيت الى هنا بمحض ارادتك، أليس كذلك؟

– بالضبط. وما الذي يثير اهتمامك أيضاً، أيها البطل؟

– ماذا، أتظن بأننا لن نستطيع الدفاع والصمود، بدون مساعدتك؟ – سأله لوباخين بسرعة، محدقاً به بعينين لا ترفان وتنمان عن الكراهية.

ولكن لم يكن من السهل جداً اخافة او حتى ازعاج الطباخ المحنك الذي رأى الكثير. فقال وهو ينظر برزانة الى لوباخين من قدميه الى رأسه:

– بالضبط، لقد أصبت المحز، لا يسعني الاعتماد عليك، يا لوباخين، وفكرت أنك ستخاف وستتراجع، ولذ أتيت.

– ولم لا ترتدي قلنسوتك البيضاء؟ رأيت طباخ الجنرال يضع على رأسه قلنسوة نظيفة ناصعة البياض... فلم لا ترتدي قلنسوتك؟ – سأله لوباخين لاهث الأنفاس.

– هذا عند الجنرال، أما أنا فلماذا ارتديها؟ – سأل ليسيتشينكو متهيباً ومتوقعاً مكيدته.

نفد صبر لوباخين، وقال بمتعة وتلذذ:

– عليك بارتدائها، حتى تقتل هنا، أيها الديك الرومي السمين!

غير ان ليسيتشينكو اكتفى بالتلويح بيده، وأجاب بنفس تلك اللهجة الرزينة:

– سأقتل، يا بيتيا، حينما ينمو الحسك على قبرك، وتمد لك الضفدعة البرية ثديها، وليس قبل ذلك.

كان الحديث مع الطباخ بلا طائل. فقد كان يتمتع بدماثة خلق ووداعة طبع اوكرانية طيبة، ومنيعا لا يخشى الأذى كمعقل محصن بالخرسانة المسلحة، مما جعل لوباخين يلتقط انفاسه، ويقول بهدوء وتردد:

– ليتني أضربك بشيء ثقيل حتى ينهال كل جريش الدخن منك، لكنني لا أريد تبديد جهدي بشيء سخيف كهذا. أخبرني أولا – ودون أي تنكيت – ما الذي سنأكله اليوم؟

– حساء كرنب.

– وكيف هذا؟

– حساء بلحم ضأن، وكرنب مبكر.

خسر لوباخين اللعبة، لقد استهزىء به بشكل لا يقبل الجدل، ولم يجد الكلمات المناسبة ليرد بها.

وعاد مجدداً ليجلس القرفصاء قرب الخندق، واستعان بكل ما يتمتع به من رباطة جأش، وأخذ يخاطبه بلهجة مؤثرة:

– ليسيتشينكو، انني الآن، قبل المعركة، في حالة عصبية متوترة جداً، وقد مللت من مزاحك السخيف، فتحدث باسلوب معقول: أتريد ابقاء الناس بلا طعام ساخن؟ ليكن بعلمك، أن الشبان لن يغفروا لك ذلك. وباستطاعتي تصويب بندقيتي اليك مباشرة والمبادرة باطلاق النار عليك، ولن أبالي بما سيحدث لك، وكيف سيصبح لون وجهك. اذ انك تعرف نفسك؟ فالشيء الرئيسي أثناء الهجوم والدفاع هو – الطعام وأية قوة عسكرية بلا مأكل – لا شيء. لماذا تتسكع هنا؟ اذهب من هنا، يا عزيزي، بسرعة، قبل أن تجر من رجليك، اذهب وتموه كما ينبغي، ما دام الوضع هادئاً في المنطقة، واعد عصيدة دون الاكثار من الدخان. فلتذهب الى الجحيم، انني موافق حتى على أكل عصيدتك فالأمر بدونها أسوأ. وما جدوانا بدون طعام ساخن؟ أقسم لك بأننا أناس مساكين! فأنا، مثلا، بلا حساء أصبح

أتعس من أتعس ايطالي، وأسوأ من أسوأ روماني. ولا أجيد التسديد، وأشعر بوهن ما في ساقي، وتبدأ يداي بالارتعاش... اذهب، ياليسيتشينكو، وكن مطمئناً، سنتمكن من الدفاع دونك. أحلف لك، بأن مهمتك معتبرة مثل مهمتي. ولكن قد تكون أدنا بقدر العشر...

ظل لوباخين ينتظر الرد، أما ليسيتشينكو فأخرج ببطء، من جيبه كيس تبغ زهري اللون مطرزاً بالوان لا يمكن تصورها ومزق من ورقة جريدة شريطا، وطفق يلف سيجارة بكل بطء وبعد أن حشاها بالتبغ وفرغ من لفها، أشعل قد احته التي غنمها، وقال بتأن:

– عبثاً تحاول اقناعي، أيها البطل. فانني لن أستطيع اجتياز الدون سباحة والمطبخ على ظهري، سيغرقني حالا، ونقله عبر جسر العبور أمر مستحيل. سأدمره بقنبلة يدوية، حينما يتطلب الأمر، أما الآن، فان حساء دسماً يطبخ في القدر. انني جاد في كلامي. لم تجحظ بعينيك نحوي؟ أبعدهما قليلا أو امسكهما بيديك، والا فانهما ستسقطان على الأرض. هكذا حصل الأمر: أصابت قنبلة عدداً من النعاج قرب الجسر، وبالطبع، ذبحت واحدة منها ولم أتركها بعد اصابتها بشظية تتعذب في موتها حتى تنفق، وحصلت على الكرنب من البستان، وأقول بصراحة انني سرقته. وكلفت اثنين من المصابين بجراح طفيفة بالاعتناء بالحساء، القيت فيه ما يلزم وأتيت الى هنا، وهكذا فان أموري كلها على مايرام. سأحارب قليلا، سأساندكم، وحينما يحين موعد الغداء – سأزحف داخل الغابة، وستزودون بطعام ساخن، حسب الامكان. أ أنت راض عني، أيها البطل؟

رق قلب لوباخين، وأراد معانقة الطباخ، غير ان الآخر جلس في قعر الخندق مبتسماً، وقال:

– ليتك تعطيني قنبلة يدوية بدلا من تذبذبك مثل الكلب – ربما تنفع لأمر ما.

– يا سمي العزيز! انك لانسان قيم! تفضل حارب الآن قدر ما تشاء! انني أسمح لك! – قال لوباخين بمهابة،

وهو يفك القنابل اليدوية من حزامه ويقدمها للطباخ، منحنيا له باحترام.

اغلب الظن، أن لوباخين كان سيواصل تبادل الكلام الفارغ مع الطباخ، لو لا سماعه هدير الطائرات المقترب، مجدداً، فأسرع الى خندقه.

وفي هذه المرة أيضاً تفرقت الطائرات الى مجموعتين قبل اقترابها من الأهداف! ضرب قسم منها خطوط الدفاع، في حين اتجه الباقي، مخترقاً غلالة نيران المدفعية المضادة للطائرات، نحو الجسر.

ومن جديد تلفعت الخنادق بسحابة كثيفة من الغبار القاتم، كما لو أنها مغطاة بالغيوم، وارتفعت الى علو شاهق في الجو الساكن حاجبة قرص الشمس. ومن خلال دوي الانفجارات، وعواء الشظايا الصافر والجلبة الخفيضة للطين المنهار عليه من الأعلى كان لوباخين يحاول سماع قصف مدافع جيشه المضادة للطائرات. كانت البطارية الموجودة في حديقة المدرسة صامتة، وفكر لوباخين بمرارة: «لقد دمرها الأوغاد!» ثم خطر بذهنه فكرة ان البطارية ربما تمكنت من نقل موقعها القديم، واحس بشيء من الاطمئنان.

في اللعلعة الهائلة التي تملأ المنطقة برمتها، كان لوباخين لا يكاد يسمع صرخات كوبيتوفسكي. وعلى الرغم من أن الانفجارات العنيفة المتوالية كانت تصم أذنيه وتترك أثرها الطاغي في نفسه، الا انه كان يجد فيها قوة كافية، وكثيراً ما كان يبتعد عن جدران الخندق، ويشرئب برأسه حذراً، فوق ترس الخندق. وينظر من خلال غلالة الغبار الى الأمام، برغم اهتزازات موجات الانفجارات التي كانت تصد رأسه، محاولا ان يتبين ما اذا كانت الدبابات آتية تحت تغطية القصف الجوي.

في لحظة من هذه اللحظات، كانت تشق فيها نيران الانفجارات ثوب الظلام المنسدل بسبب انحجاب الشمس، رنا، صدفة، الى حيث يقع خندق زفياغينتسيف، وشعر، بارتياح وسرور، حين شاهد ماسورة بندقيته المرفوعة الى

الأعلى وهي تهتز قليلا بعد اطلاقها النار، ومن ثمة، وللحظة، لمح خوذة زفياغينتسيف تتحرك بنقرتها المالوفة على جانبها، مغبرة بطبقة كثيفة من التراب، وقد فقد دهانها الواقي لمعانه الباهت، تماماً.

«يا له من شاب رائع! – فكر لوباخين باعجاب. – لن يمكنك افزاعه ولا بأية موسيقى...»

وسرعان ما تحقق من ان تخوفاته لم تكن عبثاً، فما كادت الطائرات تبتعد بعد قيامها بغارتين، حتى تناهت الى سمعه جلبة محركات، ولكنها مختلفة تماماً، ومتصلة وملاصقة للأرض، تشوبها صلصلة وصريف حصائر الدبابات. ودفعة واحدة تقريباً، فتحت المدفعية الالمانية نيرانها من وراء المرتفع، وردت عليها بطارياتنا المرابطة في الغابة، على ضفة الدون الأخرى في آن واحد.

– اذن، هيا احزم سروالك، ياكوبيتوفسكي، وشد حيلك! – قال لوباخين مشجعاً وهو يبتسم. – وحينما أشعل النار بدبابة، كن منتبهاً، ولا تدع أحداً من رجالها يهرب. كيف همتك؟ لا بأس؟ حسناً، ان أهم شيء في مهنتنا المؤذية هو الا تخور همتك.

ومرة أخرى، وكما فعل في تلك الوهلة، حينما انقضت الطائرة المعادية على الخنادق: انكب على مدفعه، كما لو انه اندمج بسبطانته الطويلة بصورة خرقاء، غير محول بصره عن الهياكل الفولاذية، المكسوة بغلالة الغبار التي اصبحت الآن خفيفة، والمقبلة، هادرة من الرابية مشكلة حافة ناتئة الرأس ومدببة كاسفين يشق لنفسه الطريق.

لا، كان الآن في مقدورنا أن نتنفس الصعداء! ان بداية هذه المعركة لا تشبه تلك، حينما استطاعت فلول الفوج المدمر الدفاع عن المرتفع، وصد هجوم العدو، ولم تكن بحوزتهم سوى أربعة مدافع مضادة للدبابات وبضع رشاشات. أما الآن فقد انعكست الآية تماماً. فما كادت الدبابات تصل حتى نصف المسافة التي حددها لوباخين كنقاط للرؤية، حتى انتصب في طريقها حاجز أسود من

الانفجارات. كانت مدفعية الفوج تقصف بدقة ومهارة لدرجة أن ثلاث دبابات من أصل عشرين دبابة متوسطة ظهرت من خلف الرابية، تسمرت في مكانها رأساً، وتوقفت دبابة رابعة يتصاعد من خلفها ذيل أسود من الدخان دون ان تتمكن من الاندفاع حتى لمسافة عشرة أمتار، واذا بقذيفة أخرى تنفجر قرب جانبها الأيمن مثيرة عموداً كثيفاً من التراب فمالت الدبابة على جانبها بسهولة وانصياع، وكأنها تحاول أن تغرف بطرف برجها المحطم من تربة الدون السوداء المباركة هذه التي كانت قبل دقائق معدودة فحسب تدوسها حصائر الدبابات بكبرياء...

وضغط لوباخين بأصابعه مأخوذا برماية المدفعية، على كتف كوبيتوفسكي بقوة، وهتف:

– كيف... كيف يضربون! آه يالهم من شبان أماجد! ولكن من الذي علمهم؟ لو عرفته لقبلت هذا الشخص على يافوخه! أنظر، ففي مثل هذه الحالة، من المحتمل أن نبقى عاطلين بلا عمل!..

من الجناح الأيمن، ومن الحديقة الصغيرة، أخذت بطارية المدفعية المقاومة للدبابات تضرب الدبابات. وفي غضون عدة دقائق دمرت دبابتين أخريين، لكن الدبابات الباقية تمكنت من الاندفاع الى الأمام واصبحت على بعد لايزيد على المئتي متر عن الخنادق.

شاهد لوباخين، بوضوح، هيكل دبابة ضخمة رمادية قاتمة، تسير منحرفة قليلا، وشاهد ملامح مبهمة لحيوان ما غريب ذي ذنب، رسم بصورة رديئة على جانب الدبابة بلون ابيض ويكاد يكون على يسار الصليب. وشاهدت عيناه الملتهبتان الدامعتان كل شيء غير ان لوباخين كان ينتظر حتى تقترب لخمسين متراً آخر على الأقل، وذلك لتكون اصابته لها مضمونة.

كان الغبار الرمادي ينبعث بقوة، من تحت حصيرتي الدبابة، وينبسط منخفضاً فوق سطح الأرض ونباتات الشيح القصيرة. وأحيانا، كانت حصيرتا الدبابة الصقيلتان تلمعان

فجأة تحت أشعة الشمس، وتتصاعد سحابة الدخان، مرة اخرى، كما لو أنها نديف قطن رمادي ينجر خلف الدبابة، ورأى برجها الدائر ببطء، وكانت من ماسورة المدفع، تومض فجأة وللحظة قصيرة، شعلة حادة باهتة مثل لسان الأفعى، لا تكاد ترى في أشعة شمس الصباح الساطعة، وبعد ذلك، على الجناح الأيمن للسرية، أمام وخلف نتوءات الخنادق الصفراء، يرتفع التراب كفطر أسود نتيجة الانفجار ويهبط ببطء، ومن ثم يسمع دوي مفرقع مميز للانفجار.

وتمكن لوباخين بالخرطوشة الثانية من اعطاب دبابة. وفي نفس اللحظة تقريبا اشتعلت النيران بدبابتين أخريين... واستدارت الدبابات الباقية بحدة وولت الأدبار مختفية وراء المرتفع.

وحينما اختفت آخر دبابة خلف الرابية التي يعلوها الغبار، عندئذ فقط نظر لوباخين، وبياض عينيه الضارب للزرقة يلمع، الى وجه كوبيتوفسكي الشاحب، وسأله بتعاطف:

– ما لي أراك شاحب الوجه هكذا، يا ساشا؟

– ان حياة كهذه لتشحب الوجه وأي شحوب، – أجاب كوبيتوفسكي وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.

* * *

وبعد مرور نصف ساعة كرر الألمان هجومهم. وفي هذه المرة حاول ما يقارب عشر دبابات يرافقها رماة الرشاشات احداث صدع ما بين السريتين اللتين كانت احداهما تحت قيادة الملازم غولوشيكوف.

وجهت الضربة الى الجناح الأيسر لسرية غولوشيكوف. وانقضت الدبابة المتوسطة السائرة في المقدمة على ورشة الحدادة للكولخوز المبنية من الأغصان المجدولة والمطينة، وللحظة تغطت بالغبار تماماً، وبعد أن خرجت من تحت الحطام، حاملة الأغصان الجافة على درعها والنفايات تتساقط منها، أخذت تطلق النيران من مدفعها على طاقم المدفع الرشاش

الثقيل، وتمكنت من سحق عدة خلايا للرماة... وأخذت تسير بخط متعرج، مارة بجنازيرها فوق الخنادق، ومحركة مقدمتها الرمادية العريضة الواطئة المقطوعة. وانشأت تقترب، بسرعة، من لوباخين، ولما غطت بكامل هيكلها الضخم خندق الجندي اول كوتشيتيغوف، فرملت احدى حصيرتيها وطفقت تدور في مكانها، محاولة ردم الخندق العميق، أطلق لوباخين قذيفة عليها، لكنه ليس هو الذي دمرها: رفع كوتشيتيغوف المطمور حتى صدره بالتراب وهو يصارع الموت، يده الى أعلى، وما كادت الدبابة تزحف عن خندقه، حتى لوح بيده في حركة واهنة كحركة الاطفال الصغار. فاصطدمت القنينة بدرع الدبابة الرمادي المائل، دون أن يسمع لها صوت في دوي وقعقعة المعركة، ثم صلصلت وتطايرت شظاياها صغيرة متناثرة، وشبت النيران الحارقة تلعق درعها المسبوك، وأخذ الدخان يتصاعد متلويا بلونه الأزرق الباهت...

استدارت الدبابة المحترقة بزاوية مستقيمة، مزمجرة بمحركها كما لو أنها تعاني من ألم لايطاق، واندفعت الى البستان وكأنها تريد اطفاء النيران محتكة بأغصان أشجار الكرز الكثيفة التي اقتلعتها نيران القصف.

أغلب الاحتمال أن سائق الدبابة قد اعماه وكاد يخنقه الدخان، وأثناء اندفاعها بأقصى سرعتها سقطت في بئر مهملة فارغة، واصطدمت بالجدار المبني من الحجارة، ومالت على جانبها مظهرة أسفلها الأسود الذي يتصاعد منه دخان الزيت المحروق، وهكذا تسمرت في مكانها، عاجزة، منتظرة فناءها... وما تزال حصيرتها اليسرى تدور بقوة جنونية، محاولة عبثاً التشبث بجنازيرها البيضاء بالأرض أما اليمنى فعلقت مقوسة فوق الأرض المحفورة عاجزة، وفي حالة يرثى لها.

كل هذا شاهده كوبيتوفسكي. وكان يراقب الحركة الجنونية للدبابة المعادية، وهلاكها، وهو يتنفس بسرعة واضطراب وبعينين متسعتين، ولم يثب الى رشده، الا حينما

دوت فوق أذنه طلقة بندقية لوباخين غير الغريبة عليه. فالتفت بسرعة وكأنه طير مرعوب، وشاهد على يمينه، على بعد مئة متر تقريبا من الخندق، دبابة، آتية باضطراب واهتزاز، وبعد هنيهة وجيزة توقفت والى جانبه تماماً شاهد وجه لوباخين المحمر بصورة غريبة.

اندفع جنديان المانيان كشبحين رماديين، من كوة الدبابة المتوقفة. احدهما بسترة رسمية مفكوكة الازرار، استدار بحدة على كعبيه، وسقط على ظهر فارداً ذراعيه جانباً، والثاني - بلا قبعة، أسود الشعر، بقميص رمادي مشمر الكمين حتى المرفقين - أراد الوقوف على ركبتيه، الا انه سقط ثانية على الأرض، سقط بكل جسده، وجعل يزحف، متلويا كالأفعى، وهو لايكاد يحرك يديه...

تباطأ كوبيتوفسكي لثانية، وفي هذه اللحظة بالضبط أحس بيد تنتزع منه رشاشه عنوة: جذب لوباخين رشاش كوبيتوفسكي، دون أن يحول عينيه المشدوهتين عن جندي الدبابة الزاحف، ولكن ما ان انطلقت رصاصة وحيدة من يمينه، من خندق زفياغينتسيف وارتطم جندي الدبابة بأنفه على الأرض، حتى ترك لوباخين الرشاش، والتفت الى كوبيتوفسكي، مصعراً وجهه، حانقاً، وخاطبه من بين شدقيه، صافراً، لاثغاً:

- أنت... أيها النذل، أيها الطست المحطم!.. أ أنت تحارب أم ماذا؟! لم لم تطلق النار عليه في الوقت المناسب؟ أتنتظر حتى يستأسر؟! اضربه قبل أن يتمكن من رفع يديه! اضربه فوراً، انني لا أريد الألماني أسيراً على أرضي، انني أريده هنا - ميتاً، أفهمت أنت يا ابن أمك المدلع؟!

* * *

كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء الزرقاء الصافية الطيبة، فوق الأرض التي حرثتها الانفجارات، وأصبحت رائحة الشيح التي سخنتها الشمس، أكثر حدة،

ومرارة، وأعز على القلب، عندما ظهرت الدبابات والمشاة الألمان، مجدداً، من خلف مرتفعات الدون المكسوة بالضباب لتشن هجومها الفاشل، الثالث من حيث الترتيب.

صد مقاتلو التشكيلة المدافعة عن الطرق المؤدية الى الجسر ست هجمات عنيفة، واندحرت المشاة والدبابات الألمانية متقهقرة وراء المرتفعات، وقبيل الظهيرة، استتب الهدوء لفترة قصيرة.

بعد اللعلعة الراعدة لقصف المدافع، ودوي الانفجارات، وفرقعة وطقطقة المدافع الرشاشة، على طول امتداد الخط الأمامي، بدا هذا الهدوء المفاجيء الى زفياغينتسيف غريباً وغير مألوف... ورفع خوذته عن رأسه ببطء، ومرر كم قميصه العسكري على وجهه المتسخ تعباً، ماسحاً العرق المنهمر بغزارة، ثم أخذ يتكلم بصوت خفيض وهويصغي مستمتعاً الى صوته وهو يقول:

- ها قد عم الهدوء...

وطفق يستمتع بالهدوء اللطيف، وبانتباه طفلي، مميلا رأسه جانباً، ويصغي طويلا الى حفيف التراب الجاف المنهمر من ترس الخندق. كان الرمل وفتات الطين الخشن اليابس ينهمران مع منحدر ترس الخندق كجدول أصفر، ويسقطان عمودياً الى قعر الخندق مصطدمين بالخراطيش الفارغة المتراكمة بكثافة عند قدمي زفياغينتسيف التي كانت تحدث صلصلة خفيفة ذات ايقاع، وكأنها أجراس غير مرئية، مخفية تحت الأرض. وفي مكان قريب جداً أخذ جندب يصرصر، والتفت زفياغينتسيف، ماخوذاً، الى مصدر هذا الصوت الذي جذب انتباهه. وحامت نحلة طنانة برتقالية فوق الخندق، مطنطنة بطنين يشبه دندنة اوتار آلة موسيقية منخفضة جداً، وأثناء طيرانها، أنزلت أرجلها السوداء المخملية الموبرة، وحطت على سويقة أقحوانة بارزة من ترس الخندق. وأخذ زفياغينتسيف يراقب باهتمام، وعيناه ترمشان باستمرار، الأقحوانة المعفرة المتارجحة بمرونة، والنحلة الطنانة رائعة الجمال، وكأنما يرى هذه الاشياء لأول مرة في حياته، ثم رفع

رأسه فجأة: نقلت الريح النافحة من البعد الى مسامعه شقشقة سمانة، صافية رنانة...

ان حفيف الريح في الأعشاب التي شيطتها الشمس، والجمال المتواضع المحتشم لوريقات زهور الأقاحي الناصعة، واجتياس النحلة الطنانة في هذا اليوم القائظ، وصوت السمانة العزيز والمألوف له منذ الطفولة – ان كل هذه الظواهر البسيطة لارادة الحياة المطلقة، أسعدت زفياغينتسيف وأربكته في آن واحد: «كأنه لم تجر أية معركة، ياله من أمر غريب! – فكر مندهشاً. – كان الموت قبل لحظات وجيزة يزمجر بأعلى صوته في كل مكان والآن تفضل، وانعم بالسعادة، السمانة تشقشق، كما في اوقات السلم، وسائر الحشرات تمارس أعمالها بانتظام تام... انها لمعجزة حقا، لابل واكثر من ذلك!»

كان زفياغينتسيف الملتفت مندهشاً، يوحي اليك، في هذه اللحظات، بانه أفاق توّاً من كابوس ثقيل مزعج، وتنفس الصعداء لدى ادراكه الحقيقة البسيطة المنشودة. كان بحاجة الى مزيد من الوقت حتى يتعود على الهدوء ويألفه. لكن الهدوء كان حذراً وينذر بالشؤم وكالسكون الذي يسبق العاصفة، ولو طال أكثر لضجر منه زفياغينتسيف، ولكن سرعان ما سمعت فرقعة رشقات مدفع رشاش قصيرة من الجناح الأيمن ومن وراء المرتفعات شرعت مدفعية الهاون الثقيلة الألمانية باحكام الرمي، وانتهى الهدوء القصير بغتة كما ابتدأ تماماً.

أتى ناقل الخراطيش – وهو جندي أحمر شاب لايعرفه زفياغينتسيف جيداً – من وراء الخندق زاحفاً، وسأل، لاهثاً، متأوهاً:

– لقد أتيت بالذخيرة. كيف الأمر، يا أبا الذقن، هل ستشحنها؟

مرر زفياغينتسيف راحته على خديه المكسوين بشعر خشن كالفرشاة وأشقر مائل للحمرة، وسأل مستاء:

– وأي أبي ذقن، أنا! وهل أنا عجوز في نظرك؟

– أنك لست عجوزاً، غير انك تبدو هكذا بلحيتك الشنيعة. هيا خذ حصتك من الذخيرة!

– وماذا في الأمر ان كانت لحيتي هكذا... لامجال للتأنق ونحن نتقهقر هكذا، لابد من ادراك ذلك، فانا لم أصبح عجوزا بعد، – قال زفياغينتسيف بامتعاض مالئاً حقيبته بالخراطيش الثقيلة وفي لمسها الدافئة الدهنية.

قال ناقل الذخيرة الثرثار، غير مكترث بتصحيحه:

– ما بالك، أيها العم، تنحني في الخندق، كانسان مذنب؟ اذ ان الألمان لايرون في الحوالي، ولا توجد رماية حقيقية أيضاً، أخرج الى الشمس، وحرك عظامك الهرمة!

مما لاشك فيه أن عبارتي «ايها العم» و «عظامك الهرمة» لم تعجبا زفياغينتسيف، فصعر خده، وسأله بطريقة لا تخلو من الخبث:

– ولكن لم تزحف على بطنك، أيها الفتى، مادام الألمان غير مرئيين والرماية غير حقيقية؟

– انني أفعل هكذا على عادتي القديمة، – أجاب ناقل الذخيرة، ضاحكاً. – اتعرف انني في تخصصي هذا تعودت على الزحف مثل الزواحف حتى انني أخشى أن أنسى، تماماً، السير على قدمي. تدفعني، دوماً، رغبة للزحف على بطني...

– ليس من الصعب التطبع بالعادات السيئة، ومن المحتمل جداً أن تنسى، – سارع زفياغينتسيف مؤكداً.

ان شعوره بالضجر، ولد لديه رغبة للتحدث مع الشاب المرح، وسأله بلهجة عفوية يشوبها شيء من التفضل والرعاية، كما كان يفعل دائماً لدى تحدثه مع المقاتلين الشبان:

– ألست من السرية الثالثة، يا فتى؟ يبدو لي انني أعرفك.

– نعم، من الثالثة.

– وما هو لقبك؟

– اوتيشوف.

– أمتزوج أنت، يا اوتيشوف؟

هز الشاب رأسه بالنفي، وأنشأ يضحك:

– أنا شاب صغير بالعمر، ولم الحق أن أتزوج قبل الحرب.

– طبعاً، لم تلحق... فما دمت تعمل ناقل ذخيرة، فانك ستنسى السير على قدميك، وبعد الحرب ستفكر بالزواج، وبدلا من السير على قدميك كسائر البشر ستتذكر عادتك التي تعودت عليها أثناء الحرب، وستذهب لطلب يد فتاتك، زحفاً على بطنك. أما هي، التعيسة، فما ان ترى مثل هذا الخطيب حتى ستسقط فاقدة وعيها! أما والدها فسيتناول عصاً، ينهال بها على ظهرك وهو يقول: «لا تصم عروساً شريفة بالعار، أيها ال...! امض في حال سبيلك».

جذب اوتيشوف حمالة صندوق الخراطيش، وقال ساخراً:

– لست حليقاً، ولكنك ماكر... لا تحاول تضليلي واخراجي عن الموضوع، انني أسمع ماتقوله، ولكنني أعد الخراطيش أيضاً. لقد أخذت حصتك من الذخيرة! لست وحدك الذي يحارب.

أراد زفياغينتسيف معارضته بأمر ما، الا ان اوتيشوف زحف الى الخندق المجاور، دون أن يدير رأسه اليه، وباغته بلهجة جادة واعظة، قائلا:

– أما أنت يا أبا الذقن، كن مقتصداً ودقيقاً في اطلاق النار، أغلب الظن انك تطلق النار بلا تسديد. وكذلك، فانت في شيخوختك قلل من تفكيرك في البنات، وعندئذ لن ترتعش يداك...

ومن شدة المفاجأة والاستياء، لم يجد زفياغينتسيف، فوراً، مايرد به عليه، فتريث قليلا، ثم هتف في اثره:

– علم جدتك الرماية، أيها الغض الغرير!

مابرح اوتيشوف يزحف، مبتسماً غير ملتفت، جاراً صندوق الخراطيش خلفه. نظر زفياغينتسيف باستخفاف، الى ظهره المكسو ببقع ملحية بيضاء عند عظمتي اللوح، والى حبل الحمالة المشدود فوق كتفيه والغائص في قميصه

العسكري الباهت اللون حتى البياض بتأثير الشمس، وفكر متكدراً: «يا لشبان اليوم الطائشين، انه لمن الصعب جداً ادراك ما هؤلاء البشر! وكانهم جميعاً من تلامذة بيتكا لوباخين... آه، يا للاسف، ويالالأسف، اذ ان نيكولاي ستريلتسوف غير موجود، وما من احد يمكنك التكلم معه»،

تأثر زفياغينتسيف لهذه الفكرة العابرة ولغياب رفيقه، وجعل يرتب أدواته العسكرية: ألقى الخراطيش الفارغة المبعثرة تحت قدميه، خارج الخندق، وحزم أمتعته العسكرية جيداً، ثم مسح قدر الجنود بالعشب، وأخفاه في تجويف الخندق: أراد أن يعمق خندقه قليلا، ولكن ما ان تذكر أن عليه استعمال الرفش ثانية، وحفر الأرض الصلبة الجافة كالحجر، حتى اقشعر بدنه بكامله، وأحس فجأة بأن يديه أصبحتا ثقيلتين كالرصاص ومرهقتين حتى انه قرر حالا وبلا تردد: «ان هذا العمق يكفي، وليس من الضروري حفر بئر! أما بالنسبة للمنية، – فانها ستجدك حتى ولو كنت في بئر عميق أو على بعد سحيق».

كانت سحب قطنية خفيفة تسبح ببطء ومهابة نحو الشرق. ونادراً ما تحجب الشمس ببياضها الشفاف المشبع بالنور، ولكن في مثل تلك اللحظات أيضاً، لم تكن تخفف من حرارة القيظ: كانت الأرض المتقدة تنفث بالسخونة، وحتى الجهة الظليلة للخندق كانت ساخنة لدرجة أن زفياغينتسيف كان لا يطيق لمسها.

كان الجو في الخندق خانقا جداً ولا يحتمل كما في داخل الحمام المسخن تماماً، والذباب يطنطن لجوجاً. وجعل زفياغينتسيف، الجالس على أمتعته العسكرية المحزومة على شكل لفافة، وقد أضناه قيظ الظهيرة: ينهض، ويفرك بظهر راحته عينيه المتغامضتين، وينظر الى الدبابات المدمرة المحروقة، جثث الألمان المنتشرة في السهب، وسحابة الغبار المذنبة المتصاعدة فوق الجرافة، في البعد، وراء المرتفعات الممتدة بمحاذاة مجرى الدون. «ان الفريتس الملاعين يخططون لأمرما. – فكر زفياغينتسيف متابعاً

بعينيه اتجاه الغبار. – يظهر أن الامدادات تصلهم – أنظر الغبار الذي أثارته. سوف يستجمعون قواهم، ويعيدون تنظيم صفوفهم، ويضمدون جراحهم ليزحفوا كرة أخرى. انهم شياطين عنيدون في منتهى العناد! غير أن عودنا قد تصلب أيضاً فهو لاينثني، لقد تعلمنا كيف نلقنهم الدروس الصعبة، وليلحقوا فقط، على مسح الدماء النازفة من أنوفهم. وليعرفوا أنهم ليسوا في عام واحد وأربعين! لقد تشاقوا في البداية، وآن الأوان ليكفوا!» – أخذ زفياغينتسيف يفكر، مطمئناً نفسه، ثم حول نظره الى الدبابة التي دمرها لوباخين.

كانت الدبابة الرمادية القاتمة، التي كانت مرعبة قبل أمد قصير، تستقر وقد استدارت جانباً، فاغرة فوهة سبطانة مدفعها الموجهة الى الأعلى، وصامتة الى الأبد. كان جندي الدبابة الأول، الذي قفز من الكوة وأردي قتيلا برشقة رشاش، منطرحاً قرب حصيرة الدبابة، فارجاً ذراعيه، والريح تعبث متكاسلة بأطراف بذلته الرسمية المفتوحة الأزرار: والثاني – الذي قتله زفياغينتسيف بعد أن تمكن من الابتعاد عن الدبابة، زاحفاً. كان زفياغينتسيف يرى من خلال نباتات الشيح النادرة، قفاه ذا الشعر الأسود، ويده المحروقة الملقاة أمامه التي شمر عنها كم القميص الرمادي حتى المرفق، وحدوتيه الصقيلتين اللماعتين تحت الشمس، ورؤوس المسامير، المستديرة، البيضاء البالية المدقوقة على نعلي جزمته.

– في مثل هذا الطقس الحار، قبل حلول المساء ستبدأ الروائح بالانبعاث من الذي قتلته، وباقي القتلى، بكل تأكيد ان مثل هؤلاء الجيران لن يتيحوا لك المجال للتنفس... – قال زفياغينتسيف، لسبب ما بصوت مسموع، وقطب جبينه باشمئزاز.

سرت قشعريرة في ظهره، وحرك كتفيه مقروراً، لدى تذكره روائح الجثث المغثية الحادة المرافقة للفوج باستمرار في تنقله وأثناء المعارك منذ بداية الربيع.

لقد مضى زمن طويل جداً، على تلك الفترة، التي كان

يتمنى فيها زفياغينتسيف، الجندي الغر المستجد وغير المحنك، النظر في وجه العدو المقتول من قبله: أما الآن، فكان ينظر بلا اكتراث الى جثة جندي الدبابة، الطويلة القريبة منه، ولا يرغب بشيء سوى مغادرة الخندق الضيق بأسرع ما يمكن، ذلك الخندق الذي كاد يقضي عليه من شدة الملل والسأم خلال ست ساعات، والنوم ملا جفنيه ليومين من الزمان، في مكان ما فوق كومة تبن جودار حديث.

واستعاد بسهولة، في ذاكرته الرائحة الطيبة للجودار المدروس حديثاً، وأخذ يتأوه شوقاً وحنيناً الى هذه الذكريات الحلوة التي انهالت عليه، ونزل الى قعر الخندق، مجدداً، ثم أقعس رأسه الى الوراء، وأغمض عينيه. استبد به النعاس، وكي يتغلب عليه، كان على استعداد للتحدث حتى ولو مع لوباخين، غير ان لوباخين، بعد هجمة الألمان الرابعة كان قد انتقل الى الخندق الاحتياطي، وصار بعيداً عنه.

كان زفياغينتسيف وسنان في حالة بين الصحو والمنام، وتتراءى له زوجته، وأطفاله، وجندي الدبابة ذو القميص الرمادي الذي قتله، ومدير محطة السيارات والجرارات، ونهير ما ضحل المياه، سريع الجريان، وفي قعره حصى صقيل زاهي الألوان... كان النهير يجري صاخباً بين ضفتيه الصلصاليتين شديدتي الانحدار، وتزداد جلبته وسرعته حدة وقوة، فأفاق زفياغينتسيف مرغماً، وفتح عينيه: كانت ست من طائراتنا المطاردة تمر على علو شاهق، سابقة هدير محركاتها على مسافة بعيدة.

كان زفياغينتسيف انسانا عملياً في تفكيره ويحب سلاحه الجوي، ليس على العموم وفي كل الاوقات، وانما فقط حينما يوفر له الحماية الجوية، أو يغير على المواقع المعادية ويدمرها: ولذا شيع الطائرات المبتعدة بسرعة بنظرة باردة من عينيه شبه المطبقتين، ودمدم بصوت خفيض حانق:

– لقد تأخرتم في هذه المرة أيضاً! في الوقت الذي كانت فيه الطائرات الألمانية تلقي قنابلها على تشكيلاتنا،

وتحلق فوقنا وكانها مربوطة في سمائنا، لاشك أنكم كنتم تشربون القهوة، وترتدون جزمكم المصنوعة من فراء الكلاب، والآن وبعد فوات الأوان، بدأتم بالتحليق في السماء الخالية وبلا هدف، انكم تحرقون وقود الدولة سدى... انكم حارقو وقود لا أكثر ولا أقل!

لم يتح له صب جام سخطه حتى النهاية، اذ بدأ الألمان بغتة، بقصف مدفعي تمهيدي وأخذت النيران تنهال، عنيفة، غزيرة، كثيفة، على الخط الأمامي، بحيث جعلت زفياغينتسيف ينسى فوراً، الطائرات المقاتلة، وكل شيء في الدنيا...

كانت مئات القذائف المختلفة، تنطلق من خلف المرتفعات، وهي تصفر وتعوي، مخترقة الهواء الساخن، وتنفجر قرب الخنادق، مثيرة بشظاياها النوافير الترابية الدخانية السوداء، حارثة، بالطول والعرض خط الدفاع المتعرج الذي كان دونها مملوءا بالحفر الناجمة عن الانفجارات. وما فتئت الانفجارات تتتابع الانفجار تلو الآخر وبسرعة متناهية، ولدى اختلاطها، فوق الأرض الميادة من جراء القصف، كانت تحدث دويا مديداً، شديد التوتر، يطمس كل الأصوات الاخرى.

لم يتعرض زفياغينتسيف، منذ زمن طويل، لمثل هذه النيران الكثيفة المركزة، ولم يشعر بمثل هذا اليأس والخوف اللذين يمزقان قلبه... كانت النيران والقذائف تسقط على مقربة منه باستمرار، ويعلو دوي الانفجارات من حوله بصورة متزايدة ودون توقف، حتى ان زفياغينتسيف، الذي تحلى برباطة جأش ما في البداية، فقد اخيراً شجاعته التي كانت نادراً ما تفارقه، وأمله بالبقاء حياً في هذا الجحيم...

يظهر ان أرق الليالي، والارهاق الشديد وحرب الساعات الست المضنية، قد فعلت فعلها، وحينما انفجرت، عن يساره وبالقرب منه، قذيفة ذات عيار ثقيل، وانطلقت من جاره المصاب صرخة قصيرة فظيعة مخترقة ضجيج المعركة، احس زفياغينتسيف فجأة كما لو أن شيئا ما قد تحطم في

داخل صدره. جفل بحدة، والتصق بالجدار الأمامي للخندق بصدره وكتفيه وبكامل جسمه العبل الضخم، وضغط قبضتيه بشدة حتى تخدرت أطراف أصابعه، وفتح عينيه على اتساعهما. خيل له ان الأرض تهتز وتميد بأكملها تحت قدميه نتيجة الضربات الراعدة وكانها مصابة بالبرداء، وهو بدوره أيضاً كانت تسري به ارتعاشة شديدة، ويلتصق اكثر فأكثر بالأرض المرتعشة مثله، بسبب الانفجارات، طالباً منها الحماية عبثاً. وقد فقد، تماماً، في هذه اللحظات، ما كان يتمتع به في الماضي من ثقة أكيدة بأن أرضه الحميمة اذا كانت ستحمي أحداً، وستدفع عنه الموت، فان هذا الأحد هو نفسه، ايفان زفياغينتسيف...

وللحظة واحدة فقط، برقت في رأسه فكرة جلية: «ليتني كنت قد عمقت الخندق»، — وبعد ذلك اضطربت أفكاره ومشاعره، ولم يعد يحس بشيء غير الخوف المسيطر على قلبه. أغمض زفياغينتسيف، المبلل بالعرق، والاصم بفعل الانفجارات، عينيه، وأرخى يديه الكبيرتين بين ركبتيه، لا ارادياً، ونكس رأسه الى الأسفل، وبصعوبة بلع لعابه، ولسبب ما أحس فيه مرارة، تشبه المرارة الصفراوية، وأنشأ يبتهل بصمت، محركاً شفتيه الشاحبتين.

في أيام الطفولة البعيدة، ولدى تلقيه علومه في مدرسة القرية الدينية، كان فانيا زفياغينتسيف يذهب أيام الأعياد بصحبة امه الى الكنيسة ويحفظ كل الصلوات والابتهالات غيباً، على انه منذ ذلك الحين، وخلال هذه السنين الطوال لم يزعج الرب بابتهالاته ودعواته، وكان قد نسي كل الصلوات—وأخذ الآن يصلي ويبتهل بطريقته الخاصة، ويهمس باستمرار وتقرب مكرراً نفس العبارة: «احمني، يا ربي! قني من العذاب والفناء، يا رب العباد والسماء».

مضت عدة دقائق مضنية، وطويلة جداً. لم تتوقف النيران... رفع زفياغينتسيف رأسه دفعة واحدة، وضغط قبضتيه، مرة أخرى، حتى طقطقت مفاصله، وأخذ يصرخ بصوت عال وهو يطلق سيلا من الشتائم، وينظر بعينين

منتفختين تبرقان حقداً الى جدار الخندق، الذي ينهال منه التراب، مع كل انفجار، بصورة غير مسموعة، ولكن بغزارة. كان يشتم بطريقة فظيعة لدرجة انه لو سمعه لوباخين لكان من الممكن أن يحسده على ذلك. ولكن ذلك لم يخفف عنه، فصمت. وسيطر عليه، تدريجياً، شعور مرهق بعدم الاكتراث. أزاح زفياغينتسيف حزام الخوذة الاملس المبلل بالعرق من تحت ذقنه ورفعها عن رأسه، واستند بذقنه غير الحليقة المعفرة بالغبار الرمادي، على جدار الخندق، وفكر، تعباً، شارد الذهن: «ليتهم يقتلونني بسرعة، وينتهي الأمر...»

كان المكان برمته يهدر بدوي صاخب، ويغلي في الدخان، والغبار، ووميض الانفجارات الأصفر. والعزبة المهجورة تحترق بأسرها. وفوق البيوت المحترقة، فردت سحابة الدخان الأسود الكثيف جناحيها، وامتزجت رائحة احتراق العزبة والتبن الحادة المرة، برائحة احتراق البارود القابضة، السابحة فوق الخنادق.

استمر القصف المدفعي التمهيدي لمدة تزيد عن نصف الساعة بقليل، ولكن خيل لزفياغينتسيف، خلال هذه الفترة، كما لو أنه عاش حياته للمرة الثانية. وأخيراً، ظهرت لديه، عدة مرات، رغبة جنونية في القفز من خندقه، والجري ركضاً الى هناك، الى المرتفعات، للقاء جدار الانفجارات الأسود الكثيف المتحرك صوب الخنادق، ولكنه كان يكبح بصعوبة بالغة جماح نفسه، ويمنعها من القيام بهذا العمل المتهور.

وعندما حولت المدفعية الألمانية نيرانها الى عمق الدفاع، وأخذت تنفجر بكثرة، مدوية بعنف في العزبة المشتعلة، وابعد من ذلك، حيث غابة البلوط النادرة الأشجار غير العالية النامية في المرج، ارتدى زفياغينتسيف الذي تدبب وجهه، وهرم خلال نصف الساعة المشؤوم، خوذته بحركة آلية، ومسح بكمه الغبار عن اطار مشكاة التهديف في بندقيته وتطلع من الخندق.

في البعد، اجتاز جنود المشاة الألمان المرتفع، وتحركوا

بسلاسل كثيفة تحميها الدبابات. سمع زفياغينتسيف هدير المحركات الخافت لبعد المسافة، وعجيج الجنود الألمان المقبلين في هجوم. وتغلب على الغصة العالقة بحلقه، بطريقة لم يلاحظها هو نفسه، استجمع كل قواه، ومع أن قلبه ما فتىء يدق باضطراب وبسرعة ودون انتظام، الا أنه لم يبق فيه أي أثر للوهن والارتباك اللذين كانا يستبدان به قبل هنيهة وجيزة. ان الدبابات الغائصة في الطريق الموعرة، والألمان الذين يشجعون أنفسهم بالصياح – كل هذا كان خطراً مرئياً يمكن مجابهته، وأمراً اعتاد عليه زفياغينتسيف. وهنا، على أية حال، كانت الامور متعلقة به، بايفان زفياغينتسيف: اذ بوسعه الآن أن يدافع عن نفسه، والا يجلس مكتوف اليدين، عاجزاً، حائراً، ينتظر حتى يباغته رام الماني ما بقذيفة طائشة...

شرب زفياغينتسيف جرعة، من ماء مطرته الساخن الذي تفوح منه رائحة الغرين، واسترجع وعيه تماماً، ولأول مرة أحس برغبة شديدة عارمة في تدخين سيجارة، وتأسف، لأن الوقت لن يسمح له بذلك ولن يتسنى له أن يجذب منها الانفاس ولو لبضع مرات. ولمجرد تذكره ما عاناه من خوف، وكيف صلى وابتهل بالدعاء، فكر متأسفاً وكأنما بشأن شخص آخر: «والى اي درك أسفل اوصل هؤلاء الأوغاد الانسان!» وبعد ذلك تصور ابتسامة لوباخين اللاذعة، وهنا فكر بامعان: «يجب أن تبقى هذه الحادثة طي الكتمان، ولا قدر الرب – لو حدثت لوباخين بذلك فانه لن يكف عن مضايقاته لي، ولن أنجو من لسانه اللاذع! طبعاً، بالنسبة لي، غير الحزبي، ليس الدين أمراً محظوراً ولكن رغم ذلك، فان مافعلته... لم يكن بالأمر المشرف...»

كان زفياغينتسيف، بينه وبين نفسه، يشعر بشيء من الخجل وعدم الارتياح، لدى تذكره ما عاناه، على انه لم يكن لديه متسع من الوقت ولا رغبة في البحث عن مبررات معقولة، يقنع بها نفسه، وطرد كل هذه الأفكار من رأسه، وتأوه خجلا، وقال حانقاً: «وما المصيبة اذا كنت قد

صليت قليلا، انني لم ابتهل سوى برهة... لا عليك فان الضرورة تجبرك على ما هو اكثر من ذلك ايضاً! فالمنية ليست عمة حميمة، انها وباء والكل يخافون منه على حد سواء الحزبي وغير الحزبي وسائر الناس...»

عاودت مدفعية العدو مجدداً، قصف الخط الأمامي، لكن زفياغينتسيف، في هذه المرة، لم يشعر باضطراب وخوف شديدين، كالسابق، لدى مشاهدته كل ما يجري من حوله: ولم يخيل له نيران العدو ماحقة هكذا، ولم تكن الانفجارات تقلب التراب رأساً على عقب قرب خندقه فحسب، كما كان يخيل له في السابق، بل هي تطوق بدقة، على الطريقة الألمانية، خط الدفاع المتعرج برمته...

اقترب جنود المشاة الألمان من الخنادق تحت ستار الحاجز الناري. كان الجنود يسيرون بخطى سريعة معتدلي القامات. والدبابات تفتح نيران مدافعها، أثناء سيرها مع توقف قصير، لكن رد المدافع عليها، كما لاحظ زفياغينتسيف، صار أضعف بشكل ملحوظ. عندئذ هبت مدفعيتنا الثقيلة لنجدة قواتنا.

وبعيداً، وراء الدون، دوى هدير رباعي خافت ومرت القذائف، وهي تحدث حفيفاً حاداً، صافرة، مشكلة أقواساً عالية غير منظورة في الجو ثم ارتفعت أعمدة ترابية ضخمة سوداء أمام سلاسل مشاة الألمان، دفعة واحدة.

اندفعت الدبابات الى الأمام للخروج من منطقة القصف بسرعة، وأخذ المشاة يجرون خلفها، دون التمكن من اللحاق بها.

كان زفياغينتسيف، منقبض القلب، يراقب جنود الأعداء، الموزعين والمنتشرين على شكل مجموعات بحيث قلت كثافتهم تدريجياً، وهم يقتربون بسرعة ساقطين، وجافلين من الانفجارات، متحاشين الحفر. أخذ الكثيرون منهم يطلقون النيران من رشاشاتهم أثناء جريهم... وفجأة دبت الحياة في خطنا الأمامي، الذي ظل صامتاً ساكناً حتى ذلك الحين! كانت كل الكائنات الحية هنا تبدو وكأنها قد أبيدت وسويت

بالأرض، منذ زمن طويل، من جراء نيران بطارية العدو، لكن أوكار النيران التي بقيت سالمة، باشرت العمل معاً وأخذت نيران الرشاشات المائلة تنهال بكثافة على مشاة الألمان، الذين انبطحوا أرضاً، الا أنهم بعد ان انتظروا قليلا، عادوا للاقتراب، مجدداً، قافزين بقفزات قصيرة.

وللحظة واحدة فقط، رفع زفياغينتسيف عينيه المطرقتين الى الأرض – لم يتغير أي شيء، هناك في السماء، خلال نصف الساعة الأخير! مازالت السماء زرقاء، هادئة مهيبة، لا أبالية، والسحب النادرة، مسودة الحواشي قليلا تبدو وكأنها ملتهبة بأشعة الشمس، وهي تسبح ببطء في السماء الزرقاء اللازوردية، وما زالت الريح تهب بخفة وانتظام، وتقود السحب شرقا... أبصر زفياغينتسيف هذا الجزء البسيط الأزرق والمضاء بأشعة الشمس، من الكون، ولكن ما استطاع ان يلحظه بهذه النظرة القصيرة الخاطفة، أثر في نفسه كثيراً، وكان أشبه بابتسامة وداع حزينة ترتسم على شفتي امرأة، تذرف عيناها الدموع...

كانت أقوانة، مثقلة بالغبار تهتز قريباً جداً من وجه زفياغينتسيف، والى جانب عينه المضيقة، مانعة إياه من النظر، وأغصان نباتات الشيح الرمادية تنتفض، ووراء ذلك، وخلف الأعشاب المتشابكة بصورة غريبة، ظهرت، فجأة وبوضوح، قامات أفراد العدو، منحنية بنصف انحناءة، وما انفكت تكبر تدريجياً مع مرور كل دقيقة، وتقترب بعناد...

كان ثمانية من الجنود الألمان، يتجهون رأساً الى خندق زفياغينتسيف، وأمامهم ضابط، يسير بسرعة، حانياً رأسه بعض الشيء، كمن يقاوم ريحاً قوية مضادة. كان يلوح بعصاه أثناء سيره، ثم استدار بنصف استدارة، ويظهر انه أصدر ايعازاً ما. فلحق به الجنود وأخذوا يركضون بتثاقل.

صوب زفياغينتسيف سلاحه نحو الضابط، كتم أنفاسه لثانية، ثم أطلق النار. توقع أن الضابط سيسقط ارضاً، غير انه واصل سيره وكأن شيئاً لم يحدث. اطلق زفياغينتسف مستغربا من شجاعة الضابط المقدام، وحانقاً على نفسه،

طلقة ثانية، ثم ثالثة، ثم أطلق رصاصتين، باضطراب وعلى عجلة من أمره. وما برح الضابط يمشي، وكأنه مسحور، وربما أسرع في سيره قليلا، ولكنه واصل السير بطريقة لعوب، كمن يتنزه، ملوحاً بعصاه، صارخاً بأعلى صوته في اثر الجنود.

«آه، ان هذا الكلب ثمل!» – أدرك زفياغينتسيف الأمر، وجعل يركب مشط الخراطيش باصابع مرتعشة، ويصر على أسنانه غاضباً وقد فرغ صبره: «اذن، انتظر... الآن، ساطرحك أرضاً! والآن ستشرب كأسك حتى الثمالة...»

وريثما كان يركب مشط الخراطيش، أطلق الرقيب نيكيفوروف، بهدوء وبطريقة عملية متروية، رشقتين قصيرتين، وأردى الضابط المقدام قتيلا وثلاثة جنود آخرين. أسرع الآخرون الخمسة، وقد أصحتهم خسائرهم من سكرهم، بالانبطاح أرضاً داخل الحفر التي احدثتها الانفجارات، وبنفس السرعة، شرعوا باطلاق النار من رشاشاتهم وكأنهم يريدون اطلاق كل ما لديهم من ذخيرة، دفعة واحدة.

كانت الدبابات تصلصل في مكان ما الى اليمين. وبسبب عجيج القتال كان زفياغينتسيف لايكاد يسمع صوت الملازم غولوشيكوف المبحوح، الذي كان يصرخ ملء حنجرته:

– دعوا الدبابات تمر! دعوا الدبابات تمر! اطلقوا النار على المشاة!

انبطح مشاة الألمان منعزلين عن الدبابات بفعل النيران، على طول امتداد مواقع السرية الدفاعية، والقطاع المجاور أيضاً، الى حيث وجهت الضربة الأولى، ثم أخذوا يزحفون في اثر الدبابات المقتحمة، منتقلين من مخبأ لآخر، مقتربين ببطء، تهيؤاً للقفز بوثبة حاسمة.

كان الألمان على مقربة. وكان زفياغينتسيف يسمع عبارات الايعازات الألمانية – كلمات باللغة الألمانية البغيضة – ودقات قلبه العنيفة تدوي في صدره. كان يطلق النار، وفي نفس الوقت، يصغي بشوق – ألن يباشر

رشاش الرقيب نيكيفوروف، الذي صمت على حين غرة، بفتح نيرانه ثانية؟ لكنه ظل صامتاً. «الآن – بالحراب»، – فكر زفياغينتسيف بتأكيد وعدم اكتراث، وهو يتحسس القنبلة اليدوية بيده المتفصدة عرقاً. وكان من جراء اضطرابه يلاقي صعوبة في التنفس، ويوسع منخريه مستنشقاً الهواء الساخن المفعم برائحة الدخان بأنف يئز بشدة وكأنه حصان أجبر على العدو لمسافة طويلة فوق طاقته.

وبعد مرور دقيقة، نهض الألمان صارخين. وشاهد زفياغينتسيف البزة العسكرية الرمادية المائلة للخضرة وكأنها في الضباب، وسمع وقع اقدام ثقيل الوطأة، ودوي قنابل يدوية متفجرة، وطلقات سريعة، ورشقات مدفع رشاش قصيرة متقطعة... وتلفت حوله بنظرات سريعة عاجلة: لقد هب رفاقه، رفاقه الاعزاء، واخوته في الحياة والممات، من الخنادق، لم يكن عددهم كثيراً، غير أن صيحة «هورا» المديدة انطلقت من أفواههم مدوية، مفعمة بالحماس ومرعبة، كما في الأيام الآمنة الماضية...

قفز زفياغينتسيف، من الخندق، بجسمه الضخم دفعة واحدة وأحس فجأة، بأنه قد أصبح خفيفاً جداً بصورة غريبة، وتناول بندقيته بسرعة، واندفع الى الأمام صامتاً، بأسنان مطبقة بشدة، وعينان تحدقان من تحت جبينه الى الألماني المقترب، وشاعراً بأن كل ثقل بندقيته قد انتقل الى سنان الحربة.

لم يتمكن أن يعدو، مبتعداً عن الخندق، سوى بضعة أمتار. خفق خلفه لهيب كالبرق، ودوى انفجار يصم الآذان، وسقط على وجهه في ظلام صاعد انشق فجأة، أمام عينيه المخبولتين المفتوحتين على اتساعهما من شدة الألم.

* * *

قبيل غروب الشمس، كف الألمان منهكي القوى عن شن هجماتهم، بعد محاولاتهم الفاشلة للاستيلاء على المعبر، وتحصنهم فوق المرتفعات. ودون القيام بأعمال حربية

فعالة، أخذوا يقصفون بانتظام، المعبر والطرق الخاوية المارة بالمرج بقذائف مدافع الهاون.

في المساء، تلقت التشكيلة المدافعة، أمراً من القيادة بالانسحاب الى الجهة اليسرى للدون. انتظرت الوحدات المقاتلة حلول الظلام، ومن ثم تركت مواقعها بهدوء، وبدأت بالتراجع الى الدون مارة بالعزبة المحروقة المدمرة، سالكة الغابة وحيث لاتوجد طرق معبدة.

قاد بقية السرية ، رئيس العرفاء بوبريشينكو، في حين كان المقاتلون ينقلون الملازم غولوشيكوف، المصاب بجراح خطيرة، على الرداء المشمع، بالتناوب. فيما سار لوباخين خلف الجميع وهو في غاية الغضب والسخط. وعلى مقربة منه سار كوبيتوفسكي محدودب الظهر، حاملا كيساً ثقيلا يحتوي على الخراطيش وبندقية بورزيخ الذي قتل.

اثناء مرورهم عبر المكان الذي كان في الصباح بستاناً رائع الخضرة، صادحاً بتغريد الطيور الشادية، ولا يرى فيه الآن سوى الجذامير السوداء المتفحمة، والأشجار المقتلعة من جذورها، والمبعثرة بشكل شنيع، والمكسرة المحطمة بفعل الشظايا، وكأنها تعرضت لعاصفة شديدة عاتية، توقف لوباخين قرب بئر ذات فوهة واسعة، ونظر باهتمام الى الشبح المريع للدبابة الألمانية المحروقة المسودة في الظلام. كانت الدبابة تقف، مائلة على جانبها، ساحقة تحت إحدى حصيرتيها شجيرة توت العليق، واطار دولاب الماء المحطم الى جذاذات، الذي كانت الاشجار تحصل بفضله على الماء، وتحيا، وتنمو، وتحمل الثمار. كانت الرائحة المرة، الناتجة عن احتراق الحديد والشحم واللحم البشري، عالقة في الجو الساكن، بلا حراك، ولكن، حتى رائحة الموتى النتنة العفنة هذه، كانت عاجزة عن طمس العبير الطبيعي اللطيف الرائع للأوراق الذاوية قبل أوانها، والثمار غير الناضجة بعد. ورغم أن البستان كان قد هلك، ما فتئت الروائح العطرية الساحرة الطيبة الموحية بالحياة تنبعث منه في ليلته الأخيرة...

اقترب كوبيتوفسكي من لوباخين، وهو يخفق بجزمته بين شجيرات العليق المتشابكة، ثم تنهد، وقال بصوت هادىء:

– آه، كم أنت سخيفة، يا حياتنا! ليتني أدخن...

– هل اشتقت للقذائف؟ لسوف تصبر عن التدخين،– رد عليه لوباخين بجفاء، وبهدوء أيضاً.

– من ناحية الصبر والتحمل لا بأس، – دمدم كوبيتوفسكي ممتعضاً. – والجندي الروسي طبعاً، صبور، يتحمل كل شيء، لكن كأس صبره ليست من الحديد!.. ولقد تحملت كثيراً لدرجة ان كأس صبري بدأت تتصدع...

ظل لوباخين صامتاً، وما فتىء يحدق الى هيكل الدبابة القاتم. عدل كوبيتوفسكي وضع الكيس على ظهره، وتكلم خافضاً صوته:

– ما أشد رغبتي في التدخين، أما في الأكل فهي أشد بكثير! لكل انسان طبعه: فمن الناس من يتقيأ من شدة الخوف، أما أنا، فكلما ازددت خوفاً، ازدادت شهيتي للطعام. ولقد كان اليوم مرعباً، وأيّ رعب، فياله من يوم! وكيف كانت هجمة هؤلاء الألمان الملاعين علينا، ها؟ لقد اعتبرت نفسي في عداد الموتى، واعتقدت بانني سألفظ انفاسي الأخيرة، ولكن هذا لم يحصل!

لم يسمع لوباخين ما قاله كوبيتوفسكي، وأشار، صامتاً، الى الدبابة وقال:

– هذا من عمل كوتشيتيغوف، أما هو فلم يعد في عداد الأحياء، لقد مات ميتة الأبطال... وأي شاب كان!

لم يكن من عادة المقاتلين، التكلم عن موت رفاقهم الا عند الضرورة، وكان أمراً متفقاً عليه ضمناً، أما هنا، فها هو لوباخين الذي لم يكن من ديدنه الافصاح عما يجيش في صدره، يبدأ فجأة بالتحدث في انفعال وحماس شديدين، وكأنه برميل بارود يتفجر، وأخذ يقول شبه هامس:

– انه لم يكن شاباً، بل شعلة! وهوسكرتير منظمة

كومسومولية حقيقي وجدير، ولا مثيل له في الفوج. وليس في الفوج وحده، بل وفي الجيش أيضاً! وكيف أحرق الدبابة؟ كانت الدبابة قد دهسته، وغمرته بالتراب حتى وسطه، ودعكت صدره.. وأخذت الدماء تتدفق من فمه، لقد رأيت ذلك شخصياً، أما هو فتناهض قليلا في خندقه – نهض المحتضر لافظاً أنفاسه الأخيرة! – والقى القنينة... فأشعل النار بالدبابة! والآن ماذا سيحصل لوالدته لدى معرفتها بما جرى له؟ أتعرف أنت، كيف ستعيش هي بعد هذا؟ لقد أطلقت النيران على هذه الدبابة اللعينة. لكنها لم تتأثر، ولم تؤثر فيها نيراني، تباً لها! كان عليّ ضربها في وقت أبكر، لدى اقترابها، وليس على مقدمتها، بل على جانبها... يا لي من معتوه! انني مغفل كبير وبالتكعيب ملعون من قبل الخالق والناس! لقد تسرعت، أخطأت وها قد لقي الشاب حتفه... دون أن يرى شيئاً من الدنيا، وهو في مقتبل الشباب، أما قلبه فكان كقلب الأسد! أرأيت ما هي الأعمال البطولية التي كان قادراً على انجازها؟ أما أنا... فانني حينما أرى شباناً في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة يقتلون على مرأى مني، فانا، يا أخي، أريد البكاء... البكاء وقتل هؤلاء الألمان الأوغاد، بلا أدنى شفقة! لا، يا أخي، ان أنا أمت – أمر آخر تماماً فأنا كلب هرم عشت ما فيه الكفاية وشممت الحياة من جميع نواحيها، ولكن عندما يموت شبان من أمثال كوتشيتيغوف – فان قلبي لايتحمل، أفهمت؟ بم سيدفع الألمان ثمن ذلك؟ قل لي، بم؟ ها هي الجيف الألمانية ملقاة هنا، تفوح منها الروائح الكريهة، ومع ذلك، لا يزال قلبي متعطشاً، وأريد الأخذ بالثأر! وكذلك بم سيدفعون ثمن دموع الأم؟ فبالنسبة لي لو سفكت الدماء الألمانية القذرة حتى الركب، وحتى حلقي، ولو غصت فيها حتى أنفي، فانني لن أعتبر ذلك كافياً! ولا يساوي جزءاً بسيطاً من الثمن، أفهمت؟

أثار حديث لوباخين، المتلعثم وغير المترابط، كالسكران، دهشة وانفعال كوبيتوفسكي بصورة غريبة. في

البداية استمع اليه بلا اهتمام، وحتى يخفف من رغبته الشديدة في التدخين، وضع في فمه قبضة مسحوقة من التبغ. وجعل يلوك التبغ المر، ويبصق اللعاب الذي كان يحرق سقف حلقه ولثتيه، ويستغرب مما جرى للوباخين، المعروف بكتم شعوره دوماً. لم يكن لوباخين هكذا أبداً، لا لم يكن! وأخيراً، ابتلع كوبيتوفسكي لعابه المشبع بمرارة التبغ، متشنجاً، وبذل جهده للسيطرة على انفعاله، وحاول التطلع الى تعابير وجهه في الظلام. لكن لوباخين كان واقفاً، ملتفتاً اليه بنصف التفاتة، منكساً رأسه، وكان في نبرة صوته، وطأطأة هامته شيء ما أثار سخط كوبيتوفسكي نهائياً. كان كوبيتوفسكي على يقين راسخ بان كل هذه الأحاديث والذكريات المتعلقة بكوتشيتيغوف ليست في اوانها ومكانها المناسبين، البتة، فسيطر على انفعاله، وقال بحدة وحزم:

– كفاك نواحاً! انك، الآن، تبدو كامرأة ضعيفة... وماذا اذا قتل الشاب، وهل هم قلائل اولئك الذين قتلوا؟ ليس بمقدورك أن تبكيهم جميعاً، وليس هذا من شأننا، أنا واياك، أبداً، ولا داعي، البتة للتحدث الآن في هذا الموضوع. هيا، تحرك، فلا شك أن الشبان قد ابتعدوا لمسافة طويلة عنا، والا فسنتخلف عنهم.

استدار لوباخين بحدة، وسار الى الأمام، دون ان ينبس ببنت شفة. ومرا صامتين، بالقرب من مؤسسة الالبان المدمرة، الغارقة في ظلام الغسق البنفسجي، وهما يسيران بخطى عسكرية منتظمة وفتات الآجر المحطم يخشخش تحت اقدامهما، ولم يخرق لوباخين الصمت الطويل، الا بعد أن وصلا الغابة، وجلسا لهنيهة للاستراحة اذ قال:

– وزفياغينتسيف... هل قتل أيضاً؟

– وما أدراني؟

– لقد ذكرت، بأنك شاهدته وهو يسقط.

– نعم، ولكنني لا أدري ان كان قد سقط قتيلا أم جريحاً. لم أجس نبضه.

– قد يكون أحداً غيره؟ ربما لا يكون هو الذي سقط؟ ففي هذا الهرج والمرج، من المحتمل أنك لم تتبين... – سأله لوباخين ثانية، بوجل وبلهجة مشفوعة بالأمل.

وفي هذه المرة أيضاً، كان صوت لوباخين، مشفوعاً بمسحة من الاستكانة غريبة على كوبيتوفسكي فجعلته يلين بطريقة لا ارادية، وقال بلهجة أخرى:

– لا، ان الذي سقط هو زفياغينتسيف، لقد رأيت ذلك تماماً. انفجرت القذيفة خلفه، وهوى على الأرض، ميتاً أم كيف؟ – لا أعرف.

– وماذا تعرف؟ أخبرني ما الذي تعرفه أنت؟ أنك لا تعرف شيئاً، على الاطلاق! فأنت لست بحاجة لمعرفة ذلك، فليس لديك الجهاز الخاص لهذا الأمر، – قال لوباخين بنفور ومرارة في اللهجة. – انهض، هيا بنا. لقد استقررت في جلستك وكأنك في منتجع، وكأنما أنت شخصية بارزة!

لقد صدر ذلك عن لوباخين السابق العادي، وبصوته المعهود المألوف، ذلك الصوت الخشن ذي البحة المتميزة... فعلى الرغم من أن كوبيتوفسكي شعر بالاستياء، الا انه ظل صامتاً: اذ كان من الأسهل له بكثير مواصلة العيش مع لوباخين السابق...

ومن جديد عادا للسير، صامتين في الظلام الدامس، وهما يتعثران بجذور أشجار البلوط المعراة، ويتشبثان بأغصان الشجيرات المتشابكة، ولا يستطيعان تحديد اتجاه سيرهما الا بواسطة وقع اقدام السائرين أمامهما. ولدى اقترابهم من تقاطع الطرق في المنخفض، أخذت بطارية مدفعية هاون العدو تصب نيرانها عليهم، بغزارة، ومكثوا بضع دقائق منبطحين وملتصقين بالأرض الرملية المستبردة، ثم نهضوا بناءاً على أمر رئيس العرفاء، واجتازوا الطريق، جرياً. كان القصف عشوائياً، ولم يمنوا بأية خسائر، ولما اقتربوا من السد شبه المدمر، الذي كان عرضة لقصف المدفعية الألمانية، قبل حلول الظلام، تعرضوا مرة أخرى

للنيران، وفي هذه المرة أيضاً، أمضوا زهاء نصف ساعة منبطحين بين الشجيرات.

كان وميض الانفجارات يضيىء الظلام الحالك، وطلقات الانارة تطرزه بخيوطها المتوهجة، من الطرف الى الطرف الآخر. وفي بعض الأحيان كانت اضواء الصواريخ تسطع بيضاء باهرة فوق المرتفعات، حيث الألمان، وتنعكس على قمم الأشجار، وتنزلق فوق الأغصان بصورة غريبة، وتنطفىء ببطء وكأنها مرغمة. في الليل، كانت القذائف تنفجر في الغابة، مدوية راعدة في منتهى الدوي والرعيد، وفي كل مرة، كان كوبيتوفسكي يهتف مندهشاً:

– ياله من هـ... دي... ر، فانه هنا، يدوي وكأنه داخل برميل معدني!

سمعوا صوتاً منادياً من خلف السد، ثم ومض ضوء مصباح يدوي شاحب مغطى بطرف بدلة رسمية: وسأل صوت رخيم مفعم باللطف والطيبة:

– الى أين يا مشاة؟ الى أين؟ تسيرون كالغنم، هائمين على وجوهكم، الأرض هنا مزروعة بالألغام. اسلكوا يسار السد، على بعد مئة متر... كيف لاتوجد علامات؟ توجد علامات واضحة جداً، ألا ترون الأوتاد المغروسة والناس المنتشرين، وكل في مكانه. أين الحدود؟ هناك، قرب المنخفض، سوف يستقبلونكم ويرشدونكم الى الطريق، هناك اخوتنا جنود سلاح الهندسة سيهدونكم الى الدرب السوي وهم قديرون على كل شيء وبوسعهم تشييعكم الى العالم الآخر، وحتى الى ما هو أبعد من ذلك... ومن هذا؟ جريح؟ ملازم؟ ياله من تعيس! انكم تعذبونه بالهزهزة في مثل هذا الطريق. عليكم أن تنحرفوا الى اليسار أكثر، فالمكان هناك أقل وعورة وأسهل على السائرين.

هذه الفقرات، من الحديث الذي سمعه، جعلت كوبيتوفسكي يتكلم بامتعاض قائلا:

– أسمعت، يالوباخين، أية أنظمة لدى قتلة القطط هؤلاء؟ – قال باستياء. – انهم يقولون عنا – مشاة، ولكن

من هم؟ لقد راينا أمثال هؤلاء الفرسان! انهم يمضون حياتهم، والفؤوس جيادهم والرفوش سياطهم، معتبرين أنفسهم فوق الناس، – ويسخرون من الآخرين... يزرعون الألغام ويطوقون حقلها بأوتاد ما. ما هذا–أهو ميدان للتجارب؟ ان الشيطان نفسه لن يرى أوتادهم في مثل هذا الظلام. فهنا تصطدم بعمود الهاتف ولا تستطيع تبين الأمر الا بعد اصطدام رأسك به. يا لهؤلاء أكلة الدجاج المساكين، حاملي الرفوش، ابناء قبيلة المناجذ. في حين لايرى المرء ما امام عينيه، يقوم هؤلاء بغرس الأوتاد الصغيرة... فلو كان حصان الهندسة ذو الصوت الرخيم، الذي أرشدنا الى الطريق، قد أغفى وسها لكان من المحتمل جدا أن ندخل حقل الألغام. ويا له من أمر عجيب غريب أن نفلت من أيدي الأعداء الألمان ثم تنفجر تحت اقدامنا ألغام ذو ينا... لم يبق علينا سوى عبور هذا الدون اللعين لكي نحس بالنجاة والأمان، وتفضل يا أخي، انظر كدنا نصطدم بحقل من الألغام في أرضنا الحميمة. وما اكثر الحوادث من هذا القبيل! حيث يخيل للمرء أنه قد وصل الى غايته وبلغ مبتغاه، واذا بكل شيء يتبدد ويذهب هباءا منثورا وكأن لم يكن شيئا مذكورا! عندنا في الكولخوز – ولقد كان ذلك فيما قبل الحرب – ظل محاسب الكولخوز يحاول طلب يد احدى الفتيات، طوال ثلاث سنين، كانت الفتاة تشتغل عاملة هاتف في المجلس البلدي، وظل هكذا يطلب يدها وهي ترفض، لأنه لم يكن يعجبها، ولا تخالجها نحوه أية عاطفة من مشاعر الحب. لكنه، ابن الكلب، بلغ مراده في خاتمة المطاف: وافقت الفتاة على الزواج منه يائسة – اذ انها لم تعد تتحمل الحاحه الشديد. يقال: من طرق الباب ولج، ولج... وهذا ما حدث، ظل يطرق الباب ثلاث سنوات ولج، فولج، وحصل على ما أراده. أما الفتاة، فبكت قائلة لصديقاتها: «انني، يا صديقاتي العزيزات، أتزوجه لأنني مللت مضايقاته ولم أعد أشعر بطعم الراحة، وليس نتيجة للحب». باختصار، وصلت المسألة الى نهايتها، وتم تسجيل عقد قرانهما في مكتب الزواج. وفي المساء دعا المحاسب

الضيوف. وجلس الى المائدة ووجهه مشرق ساطع، كالزلابية المدهونة بالزبدة، شاعراً بالغبطة، فخوراً بنفسه الى أبعد الحدود: وكيف لا، وقد قضى ثلاث سنوات وهو يلح في طلب يدها، الا انه بلغ هدفه! وظل هكذا يفتخر بنفسه، ولكنه، بعد نصف ساعة، توفي في مكانه جالساً خلف المائدة. أتعرف سبب وفاته؟ لقد اختنق اللعين بفطيرة سدت حلقه لا أدري، أبفعل سعادته، أم طمعه الا انه ابتلعها كاملة، دون مضغها، ونزلت في قصبته الهوائية، وانتهى! فأوقفوا هذا الشاب التعيس على رأسه، وجعلوا يضربون على ظهره بقبضاتهم وبالكراسي وبكل ما تقع عليه أيديهم، وحتى انهم دسوا فرشاة القطران في حلقه، ولم يدعوا شيئا لم يفعلوه به! ولكن دون جدوى. وهكذا ترملت صاحبتنا عاملة التلفون لحسن حظها وهي جالسة الى مائدة العرس. وكذلك حدثت قصة أخرى عندنا في الكولخوز...

– اغلق فمك، وكف عن سرد حوادثك، – أمره لوباخين بلهجة صارمة.

لزم كوبيتوفسكي الصمت منصاعاً. وبعد برهة من الزمن، تعثر بجذمور ما، وسقط على طوله مدويا بقدره المعلق في حزامه.

– أنت لا تصلح الا لدق أوتاد الجسور! – همّ لوباخين غاضباً.

– الدنيا شديدة الظلام، – برر كوبيتوفسكي موقفه معتذراً، وهو يفرك ركبته المرضوضة.

يظهر انه لم يكن قادراً على الصمت، بعد كل ما قاسوه خلال النهار، وبعد فترة وجيزة، سأله:

– ألا تعرف، يا لوباخين، الى أين يقودنا رئيس العرفاء؟

– الى الدون.

– لا أقصد ذلك: الى الجسر، أم الى أين؟

– يساره.

– وبماذا سنعبره؟ – سأل كوبيتوفسكي متهيباً.

– بمخاطنا، – قاطعه لوباخين.

ولبضع دقائق، سار كوبيتوفسكي، متثاقلا، صامتاً، ومن ثم قال مهادناً:

– لا تغضب، يا لوباخين! فانت لا تكف عن الغضب والسخط... ولكن لمه؟ وهل وحدك الذي يعاني المرارة؟ اننا نعاني منها، جميعاً.

– انني غاضب عليك لأنك لا تتفوه الا بالسخافات.

– وأية سخافات؟ على ما يخيل لي لم أقل شيئاً من هذا القبيل.

– لم تقل؟ بل لم تقل شيئاً معقولا! أترى قصف الألمان للجسر؟

– أجل، أرى.

– ترى، ومع ذلك تسالني – أنحن سائرون الى الجسر ام الى أين؟ ومما هو واضح بجلاء، انه لو اعتمدنا على رأسك، رأس العجل هذا، لسرت بنا، بكل تاكيد، الى الجسر المدمر، لنكون عرضة للنيران... وعلى العموم اليك عني وارحني من أسئلتك التافهة، فانني متعكر المزاج حتى بدون سخافتك. ولا تطأ على قدمي، والا فبمقدوري اسالة الدم من أنفك بمرفقي.

– يجدر بك، أن تعلق مصباحين على كعبيك، اذ انهما غير مرئيين في الظلام. لم أعلم للآن أنك ذو كعبين نسائيين... – أجاب كوبيتوفسكي مكشراً.

– باستطاعتي ان اركب لك مصباحين على راسك كالقرنين اذا اقتضت الضرورة، أما الآن فلا تلتصق بي، فانا لست ببقرة، ولست بعجلي، أفهمت؟

– انني لا ألتصق بك.

– حافظ على المسافة فيما بيننا، ألا تفهم؟

– انني أحافظ عليها.

– وكيف تحافظ عليها، وانت تطأ على قدمي باستمرار؟ ولم تحتك بي؟

– انني لا أحتك بك، وما حاجتي اليك!

– لا، انك تحتك! ماذا، أتخاف ان تضل الطريق؟

– ها، أنت تغضب ثانية، – قال كوبيتوفسكي منقبض النفس. – انني لا أخاف أن أضل الطريق، أما عبور النهر بلا جسر، لا أدري كيف أقول لك... انه يقلقني! ان التحدث عن ذلك سهل جداً بالنسبة لك، فأنت تجيد السباحة، أما انا فلا أعرف السباحة، بتاتاً! اننا نسير الى يسار الجسر، وانا متأكد تماماً من عدم وجود زوارق هناك. وبما انه لاتوجد زوارق، فيتوجب علينا العبور بواسطة الوسائل المتوفرة لدينا، أما انا فقد أصبحت عالماً: حاولت عبور الدونيتس بواسطة الوسائل المتوفرة لديّ، وأعرف معنى ذلك...

– ما رأيك في اغلاق فمك ولو مؤقتاً، واراحتنا من احاديثك؟ – ساله صوت لوباخين، المنبعث من الظلام، بلهجة رصينة ولطيفة ولكنها لا تبشر بالخير.

ومن مكان ما من الخلف، ومن وراء شجيرة تشبه قبعة سوداء، جاء رد كوبيتوفسكي، بصوت رفيع كئيب، ولكنه مفعم بالعناد والاصرار:

– كلا، لن اغلق فمي، اذ لم يبق من عمري سوى النزر اليسير، حتى الوصول الى الدون، ولذا لا بد لي من قول كل ما في نفسي قبل الموت... ثمة حتى قانون بهذا الخصوص، وبمقتضاه يسمح للانسان بالتكلم قبل الموت. فالوسائل المتوفرة هي: اتعرف السباحة – اذن فاسبح والا فدسس اصبعيك في منخريك باحكام، وانزل الى قاع النهر لتكون طعمة للسراطين... كنا قد تلقينا أمراً بعبور الدونيتس، فأصدر قائد سريتنا ايعازه: «استعملوا الوسائل المتوفرة لديكم، واتبعوني، أيها الشباب، بسرعة!» دحرجت برميل البنزين الصغير الفارغ الذي استعمله الألمان الى الماء، وأمسكت به متشبثاً وباشرت محركا قدمي بعبور الحاجز المائي المتمثل في هذا الدونيتس المشؤوم. وصلت الى وسط النهر بطريقة ما، إما عن طريق جريان الماء او تيار الهواء، فما أن تبللت ملابسي بدأ البرميل يفلت مني. وأخذ

اللعين يلف ويدور فوق الماء، وأنا أدور معه: رأسي فوق الماء تارة وتحت سطحه تارة أخرى. وافتح عيني ذات مرة– يا سلام! – أرى جمال الطبيعة: الشمس، السماء الزرقاء، الأشجار على الضفة، وافتحهما مرة أخرى – يا للروعة: –الماء الأخضر من حولي، القعر غير منظور، فقاقيع الماء الشفافة تتصاعد مارة بالقرب مني. وكما ينبغي، أفلت البرميل من يدي، وصرت أغطس الى القعر... لحسن الحظ، غاص أحد الرفاق، وانتشلني.

– عبثاً فعل. ما كان من داع لانقاذك! – قال لوباخين متصنعاً ابداء الأسف.

– عبثاً أم لا، الا انه انتشلني. فلو كنت أنت، لما انتشلتني، طبعاً، اذ انك انسان لا يؤمل منه خير! ولهذا السبب، فقط، أبتعد الآن، عن هذه الوسائل المتوفرة لدي، وأفضل العبور تحت النيران، وعن طريق الجسر. وتنحبس أنفاسي لمجرد تذكري مقدار ما تجرعته آنذاك من الماء في نهر الدونيتس... لقد شربت منه سطلا أوسطلين، دفعة واحدة، وأخرجت هذه الكمية من جوفي قسراً...

– لا تولول، يا الكسندر، واسكت قليلا على الأقل، ستعبر النهر هذه المرة باسلوب ما، – شجعه لوباخين.

– كيف سأعبره؟! – صرخ كوبيتوفسكي، جازعا.– ماذا، هل أصبت بالصمم؟ انني، طول الوقت، أخبرك بأنني لا اعرف السباحة، قطعاً، اذن، كيف سأعبر النهر؟ أضف الى ذلك هذه الخراطيش اللعينة التي دسستها في حقيبة ظهري، انها تزن ما يقارب بودين، وكذلك بندقية بورزيخ معي، وحزمة الأمتعة، والرشاش، وخزانات الرشاش، وسائر الأمتعة الضرورية الاخرى المتمثلة في الرفوش، والجزمة التي انتعلها... وحتى الانسان الذي يجيد السباحة سيغرق اذا كان محملا بمثل هذه الحمولة، أما الذي لا يجيد السباحة، مثلي، فسيغرق بكل سهولة، وما عليه الا أن يدخل الماء حتى ركبتيه، ويستلقي ليموت قرب الضفة الجافة. انني سأغرق بكل تاكيد، أنا أعرف ذلك! ولكن ما الذي يجبرني على أن

أحمل هذه الخراطيش، وباقي الأشياء التافهة، وأعذب نفسي قبل الموت – لا أدري! فما أن نقترب من الدون، حتى سألقي بكل هذه الأشياء لاتخلص منها، وسأنزع سروالي وأغرق عارياً. على أية حال، من الممتع الغرق عارياً...

– اخرس، من فضلك، لن تغرق! الزبل لا يغرق، – همس لوباخين بحدة.

لكن كوبيتوفسكي رد عليه فوراً:

– هذا أمر واضح، ان الزبل لا يغرق، وأنت يا لوباخين ستبادر بالعبور أولا، أما أنا – فسأغرق... فبمجرد وصولنا الى الدون سأهديك موس حلاقتي للذكرى... فانا لست فلفلا لاذعاً مثلك، ولا أضمر الحقد لأحد... فاحلق بها بالعافية، وتذكر الكسندر كوبيتوفسكي، الذي غرق كالأبطال.

– تنتج الأرض أحيانا مثل هذه البزرة! – دمدم لوباخين من بين شدقيه، وحث الخطى مسرعاً.

هبطا كثيبا رمليا، وهما يطلقان الشتائم بصوت خفيض، وأرجلهما تغوص في الرمل حتى الأرسغ، وشاهدا، من خلال الشجيرات، صفحة نهر الدون الرصاصية الفضية، والأطواف القاتمة الراسية على الضفة، وحشداً كبيراً من الناس على اللسان الرملي.

– اهدني موس الحلاقة، يا الكسندر! أتسمع، أيها الغريق؟ – قال لوباخين بنبرة قاسية.

لكن كوبيتوفسكي أخذ يقهقه سعيداً وبطريقة بلهاء:

– لا، يا عزيزي، انني الآن سأحتاج اليها أنا بنفسي! لقد عدت الى الحياة ثانية! فما ان رأيت الطوف حتى شعرت وكأنني ولدت من جديد!

– أهذا، أنت، يا لوباخين؟ – نادى عليهما رئيس العرفاء، بوبريشينكو.

– أنا، – رد لوباخين، بلا رغبة.

خرج بوبريشينكو من بين الواقفين قرب الطوف، وسار للقاء لوباخين، ساحقاً القواقع النهرية، وهي تخشخش تحت

جزمته. واقترب من لوباخين عن كثب، وقال بصوت متهدج:

– لم نتمكن من ايصال الملازم... لقد مات.

وضع لوباخين بندقيته على الأرض، ورفع خوذته بحركة بطيئة. وقفا صامتين. كانت الريح الدافئة، المشبعة برطوبة النهر، تهب على وجهيهما مباشرة.

في الليل، أخذت الأمطار تهطل، والريح الرطبة تعصف نافذة الى العظام، وأشجار الحور الباسقة، النامية على الضفة اليسرى المكسوة بغابة كثيفة – تئن بأنين مديد. كان لوباخين، مبللا حتى العظام ويرتعش، ويلتصق بكوبيتوفسكي الذي يشخر بهدوء، ويشد طرف زيه العسكري الثقيل المشبع بالماء، على رأسه، ويصغي أثناء نومه الى هزيم الرعد، الأنيس الآمن واللطيف جداً، بالقياس الى القصف المدفعي.

توقفت الأمطار عن الهطول عند بزوغ الفجر. وخيم ضباب كثيف. غفا لوباخين مضطرباً قلقاً، ولكن سرعان ما أيقظوه. أوقف رئيس العرفاء الجميع على قدم وساق، وقال بصوت مبحوح من السعال:

– يجب دفن الملازم كما ينبغي، ولا داعي لذهابنا جميعاً لجبل الطين والوحل، عبثاً.

حفر لوباخين وجندي آخر، لقبه مايبورودا، قبر الملازم في مرج الغابة الصغير، قرب شجرة تفاح بري، وحينما ازالا الطبقة العلوية للأرض، قال مايبورودا:

– أنظر، رغم الأمطار الغزيرة التي هطلت طوال الليل، لم تترطب الأرض حتى لعمق ربع ذراع.

– نعم، – قال لوباخين.

لم يتفوها بأية كلمة أخرى، حتى فرغا من عملية الحفر. قذف مايبورودا آخر رفش من التراب من قعر القبر الجاهز. مسح براحته وجهه المتفصد عرقاً، وتنهد:

– هاقد حفرنا لملازمنا آخر خندق.

– نعم، – قال لوباخين مرة أخرى.

– ما رأيك في التدخين؟ – سأل مايبورودا.

هز لوباخين رأسه بالنفي. وفجأة، تغضن وجهه الشاحب الأرق، واستدار، ولكنه سيطر على نفسه بسرعة، وقال بصوت صارم:

– سأذهب لتقديم التقرير الى رئيس العرفاء، أما أنت... فدخن حتى أعود.

* * *

كان رئيس العرفاء يحب الاطالة في الكلام. وكان لوباخين يعرف عنه ذلك، وأكثر ما يخشاه، أن تصدر عنه كلمات فارغة رسمية لا ضرورة لها، فيها تجديف واساءة الى سمعة الملازم عند قبره. وأنشأ ينظر، بقلق وعدم ثقة، الى وجه رئيس العرفاء العجوز، ذي الشارب الأحمر والعينين المنتفختين، ويحول نظره الى حزام وحقيبة ظهر الملازم الرثة، التي يضمها الى صدره بيده اليسرى بحذر.

بالامس فقط، كان لوباخين يشرب الفودكا في خندق الملازم، ومنذ ساعات معدودة فحسب، كانت هذه الحقيبة وحمالتاها المشربتان بالعرق تلتصق بشدة بجسم الملازم الساخن المتناسق، أما الآن فها هو مسجى، قرب حفرة القبر، هامداً وكأن المنية قد قصرت من طوله، وهكذا يستقر جثمان الملازم غولوشيكوف، ملفوفاً بالمشمع الملطخ بالدماء، وقطرات المطر ثابتة على وجهه الشاحب، لا تسيح ولا تتلاشى، وهاهي لحظة الوداع الأخير تقترب...

ارتعد لوباخين، حينما بدأ رئيس العرفاء يتكلم بصوت أجش هادىء:

– أيها الرفاق المقاتلون، وأبنائي الجنود! اننا نشيع ملازمنا، وآخر ضابط في فوجنا، الى مثواه الأخير... لقد كان من اوكرانيا أيضا، مثلي، ولكن من اقليم مجاور لاقليمي، من دنيبروبيتروفسك. انني أعرف تمام المعرفة، أنه ترك من بعده أمه العجوز التي بقيت هناك في اوكرانيا، وزوجته وثلاثة أطفال صغار... لقد كان قائدا جيدا ورفيقا طيباً،

وانتم أنفسكم تعرفون ذلك، وليس هذا ما أريد قوله الآن... أريد أن اقول قرب هذا القبر العزيز الغالي علينا...

صمت رئيس العرفاء، باحثا عن الكلمات المناسبة الضرورية، ثم قال بلهجة مختلفة تماما، وبصوت مفعم بطاقة داخلية غريبة:

– انظروا يا أولادي، ما أعظم الضباب من حولنا! أترون؟ بهذه العظمة يخيم الحزن الاسود فوق شعبنا ليس في اوكرانيا فحسب وانما ايضا في سائر المناطق التي بقيت تحت الاحتلال الالماني! يضطجع الناس ليلا ولا ينامون وفي النهار لا يرون ضوءا من جراء هذا الحزن... أما نحن فعلينا أن نتذكر ذلك دوماً: والآن، وحينما نوارى جثمان رفيقنا الثرى، وبعد ذلك، عندما تعزف هرمونيكا بالقرب منا في مكان ما لدى توقفنا. وسوف نذكر دائما! أننا كنا نسير شرقا، وأعيننا تنظر غرباً. ودعونا ننظر الى هناك، الى ان يخر صريعاً آخر الماني، على أيدينا، وفوق ارضنا! نحن، يا أولادي، كنا نتراجع، الا اننا كنا نحارب كما ينبغي، أنظروا كم تبقى منا – يمكننا ان نعد انفسنا على الاصابع... وليس من المخجل بالنسبة لنا النظر في أعين الناس الطيبين. ليس من المخجل... ولا يسعدنا الا كون ذلك غير مخجل، ولكنه ليس سهلا أيضا! فلكي نرفع أعيننا عن الأرض الى الجبل لا يزال الوقت مبكراً! انني لا أريد أن يكون موقفنا مخجلا حينما ننظر في أعين أبناء رفيقنا الملازم القتيل، الايتام، وألا نشعر بالخجل أمام أمه وزوجته وحينما نلتقي بهم، حتى نقدر، أن نقول لهم بصدق وأمان: «اننا ذاهبون لاتمام ما بدأناه مع ابنكم وابيكم، والذي ضحى بنفسه على نهر الدون من أجله – الانسان العزيز عليكم– وجاد بروحه وحارب حتى آخر قطرة من دمه، نحن ذاهبون للقضاء على الالمان، يا ليتهم يفطسون!» لقد ضعضعونا وايما تضعضع، هذا أمر لا جدال فيه. الا انني الكبير بينكم، وجندي قديم– والحمد لله، هذه هي المعركة الرابعة التي أشارك فيها، وأعرف ان العظم الحي ينمو عليه اللحم دائما.

وسوف ننمو نحن أيضا! سيعاد تاليف فوجنا، وسرعان ما سنعود ثانية عبر الطريق الذي تراجعنا فيه، متجهين غرباً. سنسير بخطى قوية ثابتة... وثقيلة بحيث تهز الأرض تحت اقدام الألمان!

ركع العجوز على احدى ركبتيه، متثاقلا بصورة عجائزية، وانحنى فوق جثمان الملازم وقال بصوت خافت، بالكاد سمعه لوباخين المنفعل:

– وانت أيها الرفيق الملازم، ربما سوف تسمع أيضا مشيتنا المظفرة... وقد تهب على قبرك ريح آتية من اوكرانيا...

قفز مقاتلان الى داخل حفرة القبر، وتلقيا بايديهما جسد الملازم المستقيم. وألقى رئيس العرفاء، وهو لا يزال جاثيا على ركبته، حفنة من التراب الرملي، ورفع يده.

سرعان ما ظهر كثيب رملي صغير، فوق القبر، دوت ثلاث اطلاقات تحية، وواصلت بطارية مدافع هوتزر القريبة التحية، بلعلعة ساخطة وأقوى بعشرات المرات.

لم يسبق للوباخين أن شعر بألم ومرارة في صدره كما شعر في هذه الساعات. وقصد الغابة، باحثاً عن الوحدة، واستلقى تحت شجيرة. مر بالقرب منه، كوبيتوفسكي ومقاتل آخر. وسمع لوباخين كوبيتوفسكي، وهو يتحدث بحماس من شدة الاعجاب والغبطة، قائلا:

– ...انها فرقة جديدة، لم يمض وقت طويل على قدومها الى هنا. أرأيت نوعية هؤلاء الشبان؟ فبناطيلهم وقمصانهم وازياؤهم الرسمية قشيبة، وكلها تلمع! يا لهم من جنود متانقين وكأنهم عرسان بالضبط! ونظرت الى نفسي – العياذ بالله! – كأنني كنت في عرس كلاب، وعشرون كلبا مزقت ملابسي! ونصف بنطالي ممزق بالطول في ثلاثة اماكن، ومؤخرتي مكشوفة حتى نصفها، ولا أجد ما أخيط به الفتق، لقد نفدت الخيوط. وتلف ظهر قميصي من العرق، الخيوط تنسل منه بالجملة، وأصبح أشبه ما يكون بشبكة صيد الأسماك. أما عن جزمتي، فليس لدي ما أقوله، فالفردة

اليسرى فغرت فاها، ولا احد يدرى ماذا تريد بذلك، أتريد سلكاً تلفونياً ليربط نعلها به، ام تصليحا جيدا... وما غذاء هؤلاء؟ انه كما في المصح تماما! يصطادون الاسماك المشلولة من جراء انفجارات القنابل في الدون: لقد القوا شبوطاً ضخماً في القدر على مرأى مني، ما اضخمه! انهم يعيشون مثل المصطافين. طبعاً، هكذا، باستطاعتك ان تحارب. ولكن لو عانوا مثل ما عانيناه بالامس، – لتكاسل هؤلاء العرسان رأسا!

كان لوباخين يستلقى، مستندا بمرفقيه على الارض الرخوة، ويفكر تعباً بأنه من المحتمل، الآن، أن يرسل ما تبقى من الجنود الى الخطوط الخلفية لاعادة تشكيل الفوج، او لالحاقهم بوحدة ما جديدة، ويخشى من اضطراره لترك الجبهة فترة طويلة، في حين يشن الالمان هجماتهم المسعورة متجهين نحو الفولغا، وبينما الجبهة في أمس الحاجة لكل فرد. وتصور نفسه، حاملا كيس الامتعة الفارغ على ظهره، باتجاه ما في الخطوط الخلفية المجهولة، وبعد ذلك، اوحى له خياله كل الامور الاخرى الباقية: الحياة المملة في البلدة الريفية، الخالية من خطر القتال والسعادة، والوضع التافه لجنود الاحتياط، والتدريبات في سهب خارج البلدة تحت أشعة الشمس الحارقة، والرماية على الدبابات الخشبية، والتوجيهات المضجرة لملازم ما مجرب، والذى، كما يفرضه عليه واجب الخدمة العسكرية، سينظر الى لوباخين، الذي حنكته الحرب، كما ينظر الى الجندي الغر المغفل المدعو للخدمة حديثاً. هز لوباخين رأسه بحنق، وأخذ يتململ في مكانه. لا، هذا مستحيل، ان هذه الحياة الهادئة ليست له! انه يفضل الرماية على دبابة المانية حقيقية، وليس على دبابات نموذجية خشبية تافهة، والتوجه غرباً، وليس شرقاً، وفي أسوأ الاحتمالات، أن يتوقف قليلا هنا، عند الدون، قبل هجمة جديدة. نعم، وما الذى يمكنه أن يبقيه في التشكيلة التي لم يبق فيها أحد من رفاقه القدماء؟ – نيكولاى ستريلتسوف غير موجود، وليس من المعلوم الى أين سيرسل

بعد مغادرته المستشفى: وبالامس فقط، قتل زفياغينتسيف، الطباخ ليسيتشينكو، كوتشيتيغوف، الرقيب نيكيفوروف، بورزيخ... وكم قتل من رفاقه في السلاح في السهوب الفسيحة الممتدة من خاركوف وحتى الدون! انهم يستلقون على أرضهم الحميمة المدنسة بأقدام العدو، ويدعون بصمت الى أخذ ثأرهم، أما هو، لوباخين، فسيذهب الى الخطوط الخلفية ليطلق النار على الدبابات الخشبية وليتعلم الاشياء التي تعلمها منذ أمد طويل في ساحات الوغى؟!

هب لوباخين برشاقة، ووقف على رجليه، نفض الرمل عن ركبتيه، وقصد الملجأ القديم الذى استقر فيه رئيس العرفاء.

«سأرجوه، ابقائي في التشكيلة المحاربة. لن أغادر هذا المكان قطعا! لن أذهب الى أي مكان آخر!» – قرر لوباخين في نفسه، سالكاً أقرب طريق، مخترقا شجيرات الورد البري الكثيفة.

لم يقطع أكثر من عشرين خطوة، واذا به يسمع صوت نيكولاي ستريلتسوف غير الغريب عليه. فيستدير لوباخين، بحدة، مشدوها، وغير مصدق نفسه، ويخرج الى المرج الصغير، ليرى نيكولاي الواقف مديراً ظهره اليه، وبصحبته ثلاثة من الجنود، لايعرفهم.

– نيكولاي! – صرخ لوباخين، ناسياً نفسه من شدة الفرح.

نظر اليه الجنود بترقب، في حين ظل نيكولاي على وقفته السابقة، يتحدث عن شيء ما بصوت عال، دون الالتفات اليه.

– نيكولاي! من أين أتيت يا عفريت! – صرخ لوباخين ثانية، بصوت فرح مرتعش من شدة السعادة.

لمس أحد الجنود الواقفين الى جانب نيكولاي، يديه، فالتفت نيكولاي، وعلت وجهه ابتسامة حارة مشرقة، وسار للقاء لوباخين.

– ما الذى جاء بك الى هنا، يا صديقي؟ – صرخ لوباخين قبل الاقتراب منه.

كان نيكولاي يبتسم بصمت، ويسير على أرض المرج

مؤرجحاً يديه الطويلتين، وبخطى كبيرة، ولكن غير واثقة تماماً.

التقيا قرب الخندق المحفور حديثا الذي تتكدس الى جانبه اكوام التراب الرملي الاصفر بصورة جميلة، وتعانقا بشدة. وعن كثب، رأى لوباخين عيني نيكولاي السوداوين المشعتين بالسعادة، وسأله وهو يلهث من الانفعال:—

— ماذا دهاك! انني أهتف بك بأعلى صوتي، أما أنت فتلزم الصمت، ماذا جرى لك! أخبرني كيف ومن أين جئت؟ وما سبب تواجدك هنا؟

وما انفك نيكولاي ينظر، باهتمام وانفعال، وبابتسامة ثابتة، كأنها متجمدة على شفتيه، الى شفتي لوباخين المتحركتين، وأخيراً، تكلم وهو يلثغ قليلا، ويمط الكلمات بشكل غريب، قائلا:

— بيتر! كم أنا سعيد — ليس باستطاعتك تصور ذلك!.. كنت قد فقدت الأمل في العثور على أحد منكم. ان الن..ن..ناس كثيرون جداً هنا..:

— ما الذي جاء بك الى هنا؟ كنت قد ارسلت الى كتيبة الاسعاف أليس كذلك؟ — هتف لوباخين.

— واذا بي أنظر — انه هو! لوباخين! ولكن أين البقية؟

— ماذا بك. هل أصبح سمعك ثقيلا؟ — سأله لوباخين باستغراب.

— انني أبحث عنك منذ مساء البارحة، مررت على كل الوحدات! كنت أنوي الانتقال الى الضفة الاخرى، لكن نقيباً ما في سلاح المدفعية أخبرني بأن الكل ينسحبون من هناك، — قال نيكولاي وهو يلثغ أكثر، وعيناه السوداوان تلمعان.

أخذ لوباخين يضحك، وهو لا يزال لا يعي شيئا مما حصل لصديقه، وربت على كتف نيكولاي:

— ماذا يا أخي، انك لا تصغي الي جيداً! ان ما يحصل لدينا، أنا وإياك، يشبه تلك المحاورة من الحكاية الشعبية: «مرحبا بك، أيتها العرابة!» — «كنت في السوق». — «أأنت صماء» — «اشتريت ديكاً». أم انك لا تسمعني جيداً

في واقع الأمر؟ — سأله في هذه المرة بصوت أعلى. — وتحدثني بطريقة ما مضطربة، وتلثغ... لحظة... وهل هذا نتيجة الرضوض التي أصبت بها؟ آه، هكذا اذن!

احتقن وجه لوباخين، وتورد بحمرة شديدة من جراء انزعاجه من نفسه، ونظر بألم عميق في وجه نيكولاي الذي اختلفت ملامحه وتعابيره، ولكنه ظل باسما كالسابق. وضع نيكولاي يده المرتجفة على كتف لوباخين، وقال، متأثرا، ولاثغا بشدة:

— دعنا نجلس، يا بيتر. سيكون من الصعب عليك التحدث معي، فبعد تلك الحادثة حينما انفجرت القنبلة، فقدت سمعي تماما. وكما ترى... صرت ألثغ... أنت أكتب، وأنا سأرد عليك.

وجلس قرب الخندق، وأخرج من جيبه مفكرة ملوثة وقلم رصاص. تناول لوباخين القلم من يده، وكتب بسرعة: «هل أفهم أنك هربت من كتيبة الاسعاف؟» نظر اليه نيكولاي من خلف كتفه، وقال:

— لست ادري كيف يمكنني القول — هربت... تركت — هذا أصح، أخبرت الطبيب بأنني سأذهب، لمجرد تحسني.

«وهل ركبك الشيطان؟ فأنت، يا مغفل بحاجة للمعالجة!» — كتب لوباخين وضغط على علامة التعجب بقوة حتى أنه كسر سن قلم الرصاص.

قرأ نيكولاي، وهز كتفيه باستغراب!

— كيف تقول — هل ركبك الشيطان؟ لقد توقف نزيف الدم من أذني، ولم أعد أشعر بالغثيان، تقريباً. ولم سأبقى هناك عاطلا؟ — تناول القلم من يد لوباخين بلطف، وخرج مدية، وأخذ يبري القلم، وقال و هو ينفخ نثار الخشب عن ركبتيه: — أضف الى ذلك، ببساطة لم أكن قادراً على البقاء هناك والفوج في وضع حرج، لم يبق منكم سوى القليل... وكيف يمكنني عدم القدوم؟ وها قد أتيت، لأحارب جنبا الى جنب مع رفاقي، اذ أن الصمم لا يعوقني عن هذا. أليس كذلك؟

لقد امتلأ قلب لوباخين بالاعتزاز والحب والاعجاب به. فأراد معانقته وتقبيله، لكنه أحس بغصة حادة تتوقف في حلقه، واستدار، خجلا من دموعه، وأسرع باخراج كيس التبغ.

طاطأ لوباخين رأسه، وجعل يلف سيجارة، وما كاد يفرغ من لفها تماماً، حتى سقطت على الورقة دمعة كبيرة شفافة أتلفت الورقة بين أصابعه...

لكن لوباخين كان انساناً عنيداً: قطع قطعة أخرى، من الجريدة القديمة المسودة عند طياتها، وأهال عليها التبغ من السيجارة الملفوفة، وأعاد لفه مرة أخرى.

* * *

أفاق زفياغينتسيف من غيبوبته من جراء هزات، وألم حاد يسرى في جميع أنحاء جسمه كالنار. تنهد شاخراً، وأخذ يسعل بسعال خانق – كان فمه مملوءاً بالطين والغبار – وسمع سعاله الخافت المتقطع، والأنين الصادر من أعماقه، وكأنهما يصدران من شخص آخر.

كانت القذائف والقنابل تنفجر في المكان بأسره، والضربات المختلفة قوة وصوتاً، تهز الأرض، والشظايا تتطاير بصفير وجلبة متلاشيين تدريجيا، ورشاش ما يطلق رشقات طويلة متواصلة من مكان ما من الخلف، والانفجارات القريبة تولد موجات هوائية مضغوطة ساخنة مشبعة برائحة الحريق تضغط زفياغينتسيف المتمدد على الارض، وتثير أعمدة الغبار الزنخة المنتنة المتلوية، من حوله. وتحرك زفياغينتسيف قليلا، وهو لا يزال يخيل اليه ان قعقعة ودوي المعارك تتناهى الى سمعه من مكان ما بعيد غير مرئي، وبهذه الحركة الخفيفة ضاعف حدة الألم المضطرم في جسده، عندئذ فقط، أدرك بوعيه الغامض، أنه حي.

فهم زفياغينتسيف، خائفا من التحرك، وشاعراً بعظمي لوحه وظهره ورجليه، أن قميصه وبنطاله مشبعان بالدم تماماً، ويلتصقان ثقيلين بجسمه، وأدرك أنه مصاب بجراح

بالغة، وأن هذه الجراح هي سبب الألم الذى يسيطر عليه.

بلع آهة، كادت تنطلق من بين شفتيه، وحاول بلسانه التخلص من الطين اللزج في فيه والذي يعوق تنفسه، وأخذت حبات الرمل تصرف على أسنانه، وكان صريفها قويا جدا سبب له صداعا حادا في رأسه. وتسربت، رائحة دمه، المقيئة، في منخريه بقوة، لدرجة أنها كادت تفقده وعيه ثانية. ولكن فيما بعد أخذ وعيه، الشبيه وكأنه متأرجح بخيط رفيع يمكن ان ينقطع في أية لحظة، يزداد ويقوى، وعندئذ تذكر أخيراً، وقد انتابه رعب مفاجيء، كيف أنه ذات مرة، وربما منذ فترة وجيزة، هب من خندقه، فرأى الالمان قريبا، راكضين صوبه مباشرة، وبينهم واحد – بحتر، ظهره محدودب قليلا، ياقة بذلته العسكرية الملوثة بالطين، مفتوحة، وعيناه الرماديتان ناتئتان من محجريهما... كان الالماني يركض نحوه، مطبقا شفتيه الشاحبتين بقوة، ويستنشق الهواء بمنخريه المنفوخين، مقدماً كتفه اليسرى الى الامام قليلا. وحاول، أثناء جريه، تركيب مشط رشاشه الأسود، أما زفياغينتسيف، المقترب منه بخطى قصيرة سريعة، فرأى، خلال هذه الثواني عيني العدو الرماديتين المسعورتين من حماس الهجوم، وزر بزته الرسمية ذا البريق الباهت، والذى كان ينبغي من لحظة الى اخرى أن تنغرز تحته، حربة زفياغينتسيف بصلصلة خفيفة بغيضة مالوفة، ورأى وهج سنان الحربة اللماع، وبقعه الضوئية البيضاء المنزلقة... وفي تلك اللحظة بالضبط وجه شيء ما ضربة عنيفة الى ظهره وساقيه، ودوت، خلفه، فرقعة انفجار قصيرة تشبه الرعد الصيفي، وأدرك زفياغينتسيف عند سقوطه على وجهه، سقوطا نهائيا مروعا، اذ كان لا يقوى على رفع يده ليقي وجهه من الاصطدام بالارض – أدرك أن هذا كله هو النهاية...

فتح زفياغينتسيف عينيه بصعوبة. وأبصر من خلال الغبار المختلط بالدموع والطبقة القذرة التي تغطي عينيه، أبصر جزءاً يسيراً من السماء الارجوانية المعتمة، وأعشاباً،

متشابكة بصورة غريبة تمر بالقرب من خديه، سابحة الى مكان ما. و كان شخص ما يجره فوق الاعشاب، وأغلب الظن على مشمع، وانضم الى خشخشة الاعشاب العنيفة التنفس المضطرب المتقطع للشخص الذى زحف امامه، وهو يجر خلفه جسمه الهامد الذي ازداد ثقله ثقلا، بعناء سنتمترا بعد سنتمتر.

وبعد قليل، صار زفياغينتسيف يحس، وكما في البداية، ان رأسه يهبط الى مكان ما في الأسفل ويليه جذعه. اصطدمت كتفه، بصورة مؤلمة، بشيء صلب، وفي الحال فقد وعيه مرة أخرى.

وأفاق من غيبوبته، ثانية، وشعر بيدين صغيرتين خشنتين نوعا ما تمسان وجهه، وتنظفان بحذر فمه وعينيه بشاش مبلل، ولمح يداً نسائية صغيرة، وعرقا أزرق رفيعاً ينبض عند معصمها الابيض، ثم قربتا من شفتيه، فم مطرة المنيوم دافيء، ذا مذاق حلو. وسالت منه الفودكا الى فمه بخط رفيع، حارقا سقف حلقه وحنجرته. وأنشأ يجرع الفودكا بجرعات قصيرة متقطعة مرتعشة، وبعد أن ابعدت المطرة عن فمه بلطف بلع ريقه عدة مرات عبثاً، وكالعجل الصغير الذى أقصي عن ضرع أمه، جعل يلعق شفتيه الجافتين، ثم فتح عينيه. انحنى فوقه وجه أنمش شاحب، رغم تلويح الشمس الشديد لبشرته، لفتاة غريبة ترتدي قبعة خدمة باهتة تخفي الشعر الأجعد الأحمر المتوهج المحشور تحتها. يبدو، بجلاء الوجه العادي الخالي من الجمال للفتاة الروسية الفطساء، لكن تعابير هذا الوجه الفاقد لنعومته، والتي كانت تنم عن منتهى العطف والرقة والقلق، والعينين الرماديتين الوديعتين الانثويتين المشعتين بالدفء والنعومة والرأفة اللامحدودة، مما جعل زفياغينتسيف يشعر، أنه في أمس الحاجة الى هاتين العينين، وانهما جميلتان وضروريتان له كالحياة نفسها وكالسماء الفسيحة الزرقاء اللانهائية التي يعلو كبدها جيش من الغيوم السماحيقية.

ومن شدة فرحه، لبقائه حياً وعدم اهمال ذويه له، ومن

شدة الامتنان الذي لم يكن قادرا على التعبير عنه للفتاة الغريبة المنتمية الى فوج آخر، شعر باختلاج قصير ممتع في قلبه، وهمس بصوت لا يكاد يسمع:

– أختي... العزيزة... ما الذي جاء بك الى هنا؟...

كانت الفودكا قد أنعشته. وتدفق دفء ممتع في جسده، ورشحت قطرات العرق الصغيرة كالخرز من جبينه، حتى ان آلام جراحه بدت وكأنها قد سكنت، فاقدة حدتها الشديدة قريبة العهد.

– حبذا لو تعطيني مزيداً من الفودكا، أيتها الأخت...– قال بصوت أعلى قليلا، وقد استغرب في نفسه من صوته الصبياني الواهن.

– أية فودكا هذه! لا يجوز، لا يجوز لك أن تشرب اكثر، يا عزيزى! عدت الى وعيك – هذا يكفي. ما أشد القصف، انه لأمر مروع! ليتني أتمكن الآن من جرك الى سرية الاسعاف، – قالت الفتاة شاكية.

حرك زفياغينتسيف يده اليسرى، قليلا الى جنب ثم اليمنى، وتحسس باصابعه غير الممتثلة لارادته بشكل غريب، وصلة البندقية وماسورتها اللتين سخنتهما الشمس، وحاول عبثاً، تحريك رجليه، وسأل صارأ على أسنانه:

– اسمعي... في أي مكان جراحي؟

– في كل الاماكن... في كل جسدك!

– وساقي... أهما سليمتان على الاقل أم كيف؟ – سأل زفياغينتسيف، بصوت خفيض، مستعداً نفسياً لمواجهة أسوأ الاحتمالات، ولكن غير مستسلم أبدا.

– سليمتان، سليمتان، يا عزيزى، لكنهما مخرقتان بعض الشيء. لاتقلق ولا تتكلم، وحينما نصل الى المكان المطلوب، سيكشفون عنك، وسيضمدون جراحك كما يجب، وسيبدأون بمعالجتك، وربما يرسلونك. الى المستشفى في المؤخرة، وسيكون كل شيء على مايرام. الحرب تحب النظام...

لم يستوعب زفياغينتسيف كل ما قالته الفتاة.

– اذن لطخوا جسدي كله؟ – قال متسائلا، وبعد لحظة صمت، همس بصوت كئيب: – قلت أيضا... وأى نظام هذا الذي تحدثت عنه؟

كانا منبطحين في حفرة عميقة، فوق كتل طينية صلصالية صلبة اقتلعتها القذيفة من أعماق الارض. مرت فوقهما قذيفة هاون بدوي خافت متزايد في القوة، وزفياغينتسيف لايبالي بشيء سوى آلامه، الا انه رأى، بطرف عينه التي تراقب الفتاة، كيف ارتمت على الارض، وانكمشت في كتلة صغيرة، وأغمضت عينيها، وغطت وجهها براحتيها الصغيرتين المتسختين بحركة طفولية ساذجة مؤثرة، وهي تنتظر دوي الانفجار القريب.

في خلال اللحظات الوجيزة الخاطفة من صحوة العقل والوعي، لم يدرك زفياغينتسيف بعد حالته الحقيقية ومدى سوء وضعه وقبل الاشفاق علي نفسه اشفق على الفتاة، وفكر متحسراً عليها «انها طفلة، طفلة تماماً! خيرلها لو بقيت في البيت بين الكتب المدرسية وتذهب الى الصف العاشر لتعلم الجبر والحساب، في حين تراها هنا تحت النيران الكثيفة وتعرض نفسها للأهوال، تكاد بطنها تتفتق وهي تجرنا نحن الجرحى...»

يظهر أن النيران بدأت تهدأ، وكلما قلت الانفجارات، موقظة زفياغينتسيف ومعيدة اياه الى الحياة بأصواتها الهادرة، كان يزداد ضعفا، وتشتد استحواذا على نفسه هدأة السكون الغامض المطبق المنذر بالشؤم، وحالة الذهول تهيؤا لغيبوبة الموت...

انحنت الفتاة عليه، ونظرت في عينيه المستوحشتين من الألم، وكأنهما تنظران من القبر، وكمن يجيب على شكوى خرساء متجمدة في عينيه وفي الثنيات المريرة قرب فمه، هتفت به مذهولة وراجية:

– تحمل، يا عزيزي! أرجوك، اصبر قليلا يا عزيزي! الآن سنبتعد عن هذا المكان، غدت المسافة قريبة! اتسمعني؟!

بعد جهد جهيد، استطاعت أن تجره من الحفرة. أفاق هو من غيبوبته، وحاول مساعدتها، شادا ومادا يديه ومتشبثا بأصابعه بالاعشاب الشائكة الجافة، لكن الألم ازداد حدة حتى عاد فوق الاحتمال، وضغط خده المبلل بالدموع على المشمع المبلل بالدم، وجعل يلوك كم قميصه، لئلا يبدو ضعفه الرجالي أمام الفتاة، ولكيلا يصرخ من الألم الذي خيل اليه أنه يمزق جسده المنهوك المرهق، الخالي من الدم.

وعلى بعد عدة أمتار عن الحفرة، أفلتت طرف المشمع من يدها العرقة الخدرة، والتقطت أنفاسها لاهثة، وعلى حين غرة، قالت بصوت يخالطه البكاء:

– يا الهي! لماذا يقبلون في الجيش مثل هذه الخرق؟ لمه؟ وهل بوسعي جر حصان مثلك؟ فانت يا عزيزي، لابد انك تزن ستة بودات على الاقل!

فتح زفياغينتسيف أسنانه المطبقة، وقال بصوت أجش:

– ثلاثة وتسعين...

– ثلاثة وتسعين ماذا؟ ماذا تعني؟ – سألت الفتاة وهي تتنفس بحشرجة من الصدر.

– كيلوغراما كنت أزن... قبل الحرب. الآن أقل، – قال زفياغينتسيف بعد أن صمت مصغيا الى تنفس فتاة الاسعاف المضطرب.

ومرة أخرى، ولسبب ما أحس بالشفقة على هذه الفتاة ضئيلة الحجم، المرهقة تماماً، وفي البداية فكر شارد الذهن: «وهكذا، ستكون ابنتي نتاشا بعد زهاء ست سنوات: غير جميلة الوجه، ولكن طيبة القلب...»، – ومن ثم قال بصوت متقطع ومتروياً، ومحاولا اضفاء الحزم والجزم الرجالي على صوته:

– ان ما أريد قوله لك، يابنيتي هو... دعيني، ولا تعذبي نفسك... أنا – نفسي... سارقد قليلا وسأحاول بنفسي... يداي سليمتان – سأزحف بطريقة ما:

– ما هذه السخافات! لم أنتم، يا معشر الرجال، تتفوهون، دائما بالتفاهات المختلفة؟–همست الفتاة حانقة.–

ما الذي تقدر عليه أنت؟ ماذا؟ انني أبدو هكذا لاننى تعبت قليلا، وما أن ارتاح سنزحف مجدداً. لا تقلق علي، لقد جررت من هم أثقل منك، أيضا! ولقد مررت بتجارب كثيرة مختلفة، وحتى ما هو أصعب من هذه الحادثة! فلا يغرنك حجمي الصغير، فانا قوية...

وقالت أشياء أخرى، مشجعة ومتبجحة بنفسها بعض الشيء، ولكن مهما حاول زفياغينتسيف، فانه لم يستطع تمييز الكلمات. أخذ الصوت الانثوي اللطيف يخفت ويبتعد، وأخيراً، تلاشى تماماً عنه. فلقد أغمي على زفياغينتسيف من جديد.

صحا من غيبوبته بعد مرور ساعات طويلة، ووجد نفسه في كتيبة الاسعاف الواقعة على الجهة اليسرى لنهر الدون. كان ممددا على حمالة، وأول ما شعر به هو، رائحة الادوية الحادة، والكحول، وبعد ذلك رأى القبب الخضر المنخفضة للخيم المنصوبة، وأشخاصاً بأردية بيضاء، يسيرون بلطف فوق المشمع المفروش على الأرض بمثابة أرضية.

«ثلاث مرات افقد وعيي، ولكنني لا أزال حيا... اذن، سأعيش، اذن لن أستعجل في ملاقاة الموت»، – فكر زفياغينتسيف بأمل متعاظم.

لسبب ما كان يلاقي صعوبة في التنفس، فرفع يده، المسودة من الاوساخ، الى فمه ببطء وحذر، وبصق في راحته. كان البصاق أبيض اللون يخلو من أية فقاعة وردية. عندئذ ابتهج زفياغينتسيف، متأكدا تماما بأن كل شيء لديه سيكون على مايرام. «كل الادلة تشير الى سلامة الرئتين، واذا ما اخترقت شظية ما ظهري واستقرت في كبدي، – سيخرجها الاطباء بالملاقط. لاشك أن الادوات الضرورية المختلفة متوفرة لديهم هنا. المهم – كيف حالة الساقين؟ هل مست الشظايا عظامهما؟ هل سأبقى قادرا على المشي؟ أو قد غدوت مقعدا؟» – فكر وهو يعيد النظر باهتمام وامعان الى البصاق في راحته الضخمة المتخشبة.

بالقرب منه، كان ممرضان ينزعان ملابس جندي جريح.

أحدهما كان يسند الجريح متأبطاً ذراعه، والثاني يفرط بالمقص بنطاله، المخضب باللون الاسمر الداكن بحذر، ممسكا به بعناية واهتمام بأصابعه الربلة، ولما انزلق البنطال، متيبسا كالمشمع، ومتجعدا من جراء طبقة الدم الجاف، وسرواله التحتاني القطني الخشن المتسخ تماما، والذي لايكاد يختلف بلونه عن ملابسه الفوقانية، وشكلا، ببطء، كومة لا شكل لها، رأى زفياغينتسيف جرحاً بليغاً غائراً على فخذ الجندي تحت وركه بقليل، وعظمه الابيض الناصع المتصدع، ناتئا بصورة شنيعة من الخليط الاحمر المتخثر.

كان الجندي، غير الشاب، ذو الشارب الذي وخطه الشيب بطرفيه الدقيقين فوق فمه الفاغر قليلا، والوجنتين الناتئتين الشاحبتين الضاربتين للزرقة، والذي يشبه نيكولاي ستريلتسوف بشيء ما يصعب ادراكه – يتحمل الألم برجولة، دون أن تصدر عنه أنة واحدة، وينظر طوال الوقت الى نقطة معينة، بنظرات شاردة غريبة، ونظر زفياغينتسيف الى ساقه اليسرى الهامدة، الهزيلة والشعراء، المنثنية بنصف انثناءة والتي تسرى بها رعشة خفيفة مقشعرة، ولعجزه عن مواصلة النظر الى مايعانيه، استدار بسرعة عنه بوجهه وأغمض عينيه.

«لقد مشى هذا الرجل ماكان عليه أن يمشيه، سوف يبتر الاطباء ساقه، سيبترونها دون شك، أما أنا فسوف أظل أمشي، وأمشي على قدمين. وهل من المعقول أن تكون ساقاي مكسرتين؟» – فكر زفياغينتسيف وهو ينتظر بفارغ من الصبر.

وفي ذلك الوقت اقترب منه ممرض مسن اصلع يرتدي نظارة، وألقى عليه نظرة متفحصة توقفت عند ساقيه، وانحنى عليهما ليشق ساقي جزمته، أما زفياغينتسيف، الذي راقبه بنظرات متوترة حادة، فقد استجمع كل قواه، وقال بصوت هادىء ولكن بلهجة حازمة:

– مزق البنطال، انني لا آسف عليه، أما الجزمة فلا أسمح لك بمسها. انني لم البسها حتى لمدة شهر كامل،

ولم أحصل عليها بسهولة. أترى نوعيتها؟ نعلها جلد فاخر، والساقان مصنوعتان بشكل ممتاز من جلد بقر حقيقي. وليس جلدا اصطناعيا يا أخي، هذا أمر يجب فهمه... ودون هذا فان الله قد أتعسني: لقد بقيت بدلتي الرسمية وحقيبة أمتعتي في الخندق... وهكذا لا تمس الجزمة، أمفهوم لك هذا؟

– أنت لا تصدر لي الأوامر، – قال الممرض بغير اكتراث، وهو يفكر بافضل طريقة لفرط الجزمة.

– وكيف هذا – لا تصدر لي الأوامر؟ أليست الجزمة جزمتي؟ – عبر زفياغينتسيف عن امتعاضه.

عدل الممرض ظهره بعض الشيء، وقال بنفس اللهجة اللاأبالية:

– وماذا في الأمر؟ فلئن كانت جزمتك عزيزة عليك أفليس بوسعي انتزاعها من رجليك؟

– اسمع أنت، يا لك من انسان غريب الاطوار، اسحبها... اسحبها باحتراس وببطء، سأتحمل، – طلب اليه زفياغينتسيف، وهو لا يزال يخشى ان تبدر منه اية حركة ويحدق بعينين متسعتين الى السقف من الانتظار المعذب للألم الجديد.

انحنى الممرض على ساقي زفياغينتسيف، غير آبه به وفرط ساق الجزمة حتى نهايتها، بحركة رشيقة، وباشر بالفردة الثانية. وما كاد زفياغينتسيف يفكر كما ينبغي بقصده من عبارة «كانت جزمتك»، حتى سمع الصرصرة الخفيفة السريعة من تقطع الخيط المشمع. فانقبض قلبه، وأحتبست أنفاسه لدى سماعه صوت كعبي الجزمة، الملقاة بلا اهتمام، تصطدمان بالحائط. وهنا نفد صبره وقال بصوت مرتعش من السخط:

– أنت كالعاهرة القرعاء! شيطان أصلع رجيم! ما هذا الذي تفعله، يا حشرة؟!

– أسكت، أسكت، لقد انتهى كل شيء. فان الشتم يضرك. دعني أساعدك لتستلقي على جنبك، – قال الممرض بصيغة مهادنة.

– اذهب أنت ومساعدتك الى حيث... بل وأبعد من ذلك! – قال زفياغينتسيف وهو يختنق من الغيظ وعجزه عن ابداء السخط. – أنت مخرب، جمل أجرب، طاعون بنظارة! ماذا فعلت بجزمة الدولة، يا ابن الكلبة؟ واذا ما توجب علي لبسها مرة أخرى في الخريف، فماذا سأفعل بساقيها المفروطتين؟ هل سأذرف الدموع باكيا عليها كالثكالى؟ أتعرف، أنه كيفما أعيدت خياطتها فان الماء سيتسرب الى داخلها؟ أنت جيفة قرعاء جرباء! أنت عدو الشعب، أعرفت من أنت؟!

كان الممرض يفك، بحذر وصمت، لفافتي ساق زفياغينتسيف، المبللتين بالعرق والدم، الساخنتين، اللتين يتصاعد منهما البخار: وبعدما فك الثانية، قوم ظهره المحدودب، ودون أن يخفي ابتسامته من تحت شاربيه الاشقرين، ساله بصوت مرح، مبحوح نوعا ما، خشن:

– هل فرغ ايليا موروميتس* من شتمه؟

خارت قوى زفياغينتسيف من ثورة الغضب. وما فتيء يستلقي صامتاً، شاعراً بخفقات قلبه القوية المضطربة، وبثقل شديد في كل جسده، وببرودة ممتعة في باطن قدميه المحكوك. الا انه وجد في نفسه قوة كافية، وأخذ يتكلم بصوت خافت، وينتقي الكلمات المناسبة، وهو لايدري بأية شتيمة يسب الممرض الذي أضجره تماما، قائلا:

– أنت شجرة يابسة عجفاء، ولست بانسان! وحتى لست بشجرة، بل أنت جذمور عفن! وهل في رأسك مخ؟ زد على ذلك أنت رجل متقدم في السن، عساك تخجل من تصرفاتك! أغلب الاحتمال أنه قبل الحرب، لم تكن سوى ضفدعة برية تعيش في فناء دارك وحتى هذه ماتت جوعا... أغرب عن وجهي، أيها النسناس المشؤوم، أنك قشعريرة برجلين!

طبعاً، كان هذا منافياً للنظام اذ أن الهدوء التام السائد

---

* ايليا موروميتس: بطل احدى الروايات الشعبية الروسية.

في مكان تبديل الملابس، والذي لا يعكره عادة، سوى الأنين والنشيج، نادراً ما كان يخرق بمثل هذه الشتائم المقذعة، غير أن الممرض كان ينظر الى وجه زفياغينتسيف المكسو بشعر أحمر خشن وأشعث كالفرشاة، بارتياح ظاهر ويبتسم من تحت شنبه بلطف ودون حقد. لقد عانى الممرض كثيرا، وشاخ قلباً وروحاً وجسداً، خلال الأشهر الثمانية من الحرب، وهو يشاهد صنوف العذاب المصبوبة على الرؤوس، لقد شاخ، على ان قلبه لم يتصلب من القساوة. شاهد الكثير من الجرحى والموتى مقاتلين وقادة، لقد شاهد مايكفيه ويزيد، ولكنه على الرغم من ذلك، كان يفضل هذه الشتائم المنهالة على رأسه، ويصغي اليها مشدوها وبعينين متسعتين مبهورتين لا ترفان، وهنا، وبغتة وفي غير الأوان المناسب، تذكر ولديه، المقاتلين في الجبهة الغربية، وفكر مطلقا تنهيدة خفيفة: «ان هذا سيعيش، انظر اليه، يا له من شيطان جسور مفعم بالحيوية! وكيف حال ولدي هناك؟ تباً لحياة كهذه، ليتني أرى، ولو بعين واحدة، كيف يخدمان هناك؟ اهما على قيد الحياة، أم ممددان هكذا في مكان ما مقطعي الأوصال».

أما زفياغينتسيف فلم يكن حياً فحسب، بل وكان يتشبث بالحياة بأصابعه وأسنانه: ومازال مستلقيا على الحمالة بوجه شاحب كوجوه الموتى، وبعينين مغمضتين تحيطهما الزرقة، ويفكر، متذكرا جزمته التي راحت بلا رجعة، والجندي الأحمر ذا الساق المكسورة الذي نقل توا لتجرى له عملية: «يا للمسكين، لقد رشقوه! ولا شك بشظايا كبيرة. عظمه مكشوف تماما، أما هو فصابر وصامت... صامت صمت الابطال! لقد انتهى أمره، عليه السلام، أما أنا فلابد أن اشفى بسرعة، اليس كذلك؟ فها هي، حتى أصابع رجلي تحس بالألم. المهم الا تبتر ساقاي نتيجة استعجال الأطباء وخطئهم! وهكذا سأرقد هنا حتى أشفى، وسأذهب لأحارب...، وليس من المستبعد أن يقع في يدي هذا الالماني رامي مدفع الهاون الذي أصابني... آه،

لوحصل ذلك فاني لن أقضي عليه رأسا، سأجعله يحزق بين يدي لدقائق معدودة، قبل السماح للمنية بخطف روحه اللعينة! أما بالنسبة لهذا الرجل فأمره واضح، ستبتر ساقه. فهو لم يعد بحاجة لجزمة! وقد نسي التفكير بها، أما أنا فأمرى يختلف: بعد شفائي من الضروري جدا، أن أذهب الى وحدة عسكرية، ولن أجد مادمت حياً مثل هذه الجزمة، أبداً! وما أسرع في فرطها هذا الأبله الاصلع! ان العمل في مسلخ لهو أفضل مكان له، أما هنا فانه يتلف عبثاً جزم مقاتلينا...»

أثارت قصة الجزمة قلقاً شديداً لدى زفياغينتسيف المتأكد بصوره قاطعة، في تفكيره، أن الموت لا يزال بعيداً عنه. وكان متأثراً لدرجة أنه، وهو الانسان الطيب الوديع المتمدد عارياً على طاولة العمليات، حين قال له الطبيب الجراح أثناء كشفه عليه: «يتوجب عليك أن تتحمل قليلا، يا أخي»، – أجابه متذمراً، «تحملت ماهو أكثر، فما وجه هذا الكلام! ولكن لاتقطع شيئا فوق اللازم تسرعا ولا اعتماد لي على سواك...» كان وجه الجراح شاباً ومدبباً. ورأى زفياغينتسيف، خلف زجاجتي النظارة ذات الاطار القرني، عينين منتبهتين ومنتفختين محمرتي الجفنين، في غاية الارهاق من سهر الليالي.

– بما أنك تحملت أكثر من هذا، أيها العسكري، فانك ستتحمله بكل تأكيد، ولن نقطع شيئاً زائداً عن اللزوم، لا تخف، فلسنا بحاجة اليه، قال الجراح بنفس النبرة اللطيفة.

أنشأت الطبيبة الشابة، الواقفة عند الجهة الاخرى للطاولة مقطبة حاجبيها، منحنية، تنظر باهتمام الى ظهر زفياغينتسيف الممزق بالشظايا والى شرائح مؤخرته وردفيه. غضن زفياغينتسيف وجهه متألماً، ونظر اليها شزراً، وخجلا لكونه عارياً، وقال:

– يا الهي! ولم تحدقين بي هكذا، ايتها الرفيقة المراة؟ ماذا ألم ترى في حياتك رجالا عراة؟ وليس في ما هو غريب يثير الفضول، وما هذا بمعرض عموم الاتحاد

السوفييتي للمنتجات الزراعية، وأنا أيضا لست فحل ثور في ذلك المعرض...

نظرت الطبيبة اليه بعينين متألقتين، وقالت بحدة:

– لست أنوي امتاع ناظري بمفاتنك، فأنا أقوم بواجبي. وجدير بك ان تلتزم الصمت، أيها الرفيق! ابق مستلقيا ولا تتكلم. يا له من محارب قليل الانضباط!

نخرت الطبيبة، ووقفت بنصف استدارة. في حين فكر زفياغينتسيف، مكتئبا، ناظرا الى خديها المتوردتين وعينيها المستديرتين مثل عيني القط: «وهكذا جرب أمرك مع جنس النسوة، ما ان تطلق على الواحدة منهن طلقة واحدة حتى ترد عليك برشقة طويلة... ولكن، بالمناسبة، ليست مهنتهن سهلة أيضاً – انهن ينبشن بأظفارهن في لحومنا البقرية، ليل نهار». وقد أحس بالخجل لتكلمه بهذه الخشونة مع الاطباء، قال بلهجة أخرى، متوسلة مهادنة:

– ليتك، أيها الرفيق الطبيب العسكري، انني لا أعرف رتبتك لأن الرداء يخفيه، ليتك توصي لي على قليل من الكحول للاستعمال الداخلي. – أجيب على سؤاله بالصمت. وعند ذلك نظر، متضرعا، الى الطبيب من أسفله الى أعلاه وهمس بحيث لا تسمعه الطبيبة الصارمة المستديرة جانبا: – طبعا، أرجو المعذرة، ايها الرفيق الطبيب، لطلبي هذا، ولكن الألم حاد جداً لا يطاق...

ابتسم الطبيب باقتضاب، وقال:

– هذا كلام آخر! انه يعجبني أكثر. تريث قليلا، سنكشف عليك أولا، وبعد ذلك سنرى. اذا كان ممكناً، – لا أعارض، سنصرف لك مئة غرام كما في الجبهة.

– لكنني لست في الجبهة، الجبهة بعيدة عنا، فهنا وحيث أعاني من ألم كهذا، بامكاني أن أشرب أكثر من مئة غرام، – قال زفياغينتسيف ملمحا، ومضيقا عينيه متأملا.

ولكن حينما أدخل جسم مدبب في جرحه المغسول بالكحول اللاذع، قرب عظمتي لوحه، انقبض كل جسمه،

وأخذ يفح متألماً، وقال، وقد تبدلت لهجته المتوسلة المسالمة بتوعد وبصوت أجش:

– حاسب، حاسب، رويدك قليلا... عند المنعطفات!

– وماذا يا أخي، علام الغضب! مالك تفحفح على وجهي كما يفعل الأوز حين يقترب منه الكلب؟ أيتها الممرضة، ناوليني قطناً وكحولا! ألم أنبهك، أنه سيتوجب عليك أن تتحمل قليلا، ماذا جرى لك؟ أ أنت سيىء الطبع أم ماذا؟

– ولماذا، أيها الرفيق الطبيب تنبش في الجسد الحي كمن ينبش في جيبه الخالي؟ والحالة هذه لن تفحفح فحسب، بل وستنبح مثل ذلك الكلب... وتعوى أيضاً، – قال زفياغينتسيف، ساخطاً، تاركاً فواصل صمت طويلة ما بين الكلمات.

– ماذا، وهل يؤلمك الى هذا الحد؟ ألا تستطيع التحمل؟

– لايؤلمني، بل يدغدغني، وأنا أخاف الدغدغة منذ طفولتي... هذا سبب عدم تحملي... – قال زفياغينتسيف وهو يصر على أسنانه، مديراً وجهه، محاولا مسح الدموع المنهمرة على خديه بطرف اللحاف.

– اصبر، اصبر، أيها الجندي المقدام! فهذا سيكون أفضل لك، – قال الجراح مهدئا اياه.

– ليتك تعطيني البنج أو مسحوقاً ما منوماً، ولم تبخل علي بالدواء؟ – همس زفياغينتسيف بغموض.

على ان الجراح قال عبارة وجيزة بصيغة آمرة، وصمت زفياغينتسيف، الذي تعود أثناء الحرب على الأوامر القصيرة، واللهجة الآمرة، صمت مذعنا لأمره، وصار يتحمل، ويغفو أحيانا باغماءة مزعجة، وحتى من خلال هذه الاغماءة كان يشعر كما لو ان ناراً متقدة تلتهم بنهم جسده العاري حتى تصل الى العظام...

كانت أصابع ناعمة لشخص ما، أغلب الاحتمال نسائية، تمسك رسغه باستمرار، وهو يشعر بالدفء الممتع لهذه

الاصابع، وبعد أن صبت في فمه كمية قليلة من الفودكا، سكر أخيراً وليس بفعل الفودكا – اذ ليس من الممكن أن تشمله مثة الغرام التعيسة تلك من المادة الكحولية – بقدر ما سكر مما عاناه طوال هذا اليوم الشاق الذي لا مثيل له، الا أن الألم خف، أخيراً، وأصبح هادئاً ساكناً، وكأنما يدا الجراح الماهرتان الجمتا ذلك الألم.

وحينما نقل زفياغينتسيف، للمرة الثانية مضمداً، على النقالة المتأرجحة بصورة ايقاعية، لم يكن يشعر بثقل جسمه، حتى انه حاول التلويح بيده السليمة، وقال بصوت خافت بحيث لم يسمعه الا الممرضون، أما هو فخيل اليه أنه يصرخ بأعلى صوته:

– ... لا أرغب في البقاء بهذه المؤسسة! العياذ بالله! ان أعصابي لن تتحمل كل هذا! ابعثوني حيثما شئتم عدا هذا المكان! الى الجبهة؟ أرسلوني اليها ثانية، اما هنا – فلست موافقاً! اين ذهبت جزمتي؟ هاتوها لي، سأضعها تحت رأسي لئلا تضيع... فالكثيرون منكم هنا يطمعون في جزم الغير! لا، كن أولا جديراً بها تتمشى بها قرب الموت، أما التقطيع فباستطاعة كل مجنون... آه، يا الهي، ما أشد الألم!

وتمتم بأشياء أخرى، مشتتة وغير مترابطة وكان يهذي مناديا على لوباخين، ويبكي محرقاً على أسنانه بصرير، مستغرقا في غيبوبته كمن يغوص في ماء قاتم اللون. وفي ذلك الوقت، كان الجراح يقف، ممسكا بكلتا يديه بطرف الطاولة البيضاء، التي كانت تبدو وكأن نبيذاً أحمر قد اندلق عليها، ويترنح مرتكزا على كعبي قدميه تارة وعلى رؤوس أصابع رجليه تارة اخرى. كان غافيا... ولم يفق الا حينما سأله زميله وهو طبيب ضخم الجثة، ذو لحية سوداء، كان قد فرغ توّاً، من اجراء عملية جراحية معقدة في الجوف– نازعا قفازيه المبللين دماً، بجلبة خفيفة، ومستفسراً بصوت غير عال: «وكيف حال عملاقك، يا نيكولاى بيتروفيتش؟ هل سيعيش؟» – أفاق الجراح الشاب وتركت

يداه طرف الطاولة وبحركته المعهودة رتب وضع نظارته، ورد عليه بنفس اللهجة الجادة، ولكن بصوت مبحوح نوعا ما:

– دون شك. حتى الآن لم تظهر مضاعفات خطيرة. انه لن يعيش فحسب، بل وسيحارب. فهو يتمتع بصحة جيدة جداً وحتى انني لأحسده عليها... أتعرف ذلك، ولكن ومع ذلك لا يجوز السماح له بمغادرة المستشفى لأن جرحه يثير قلقي... ولابد من التريث بعض الوقت.

وصمت، وتأرجح مترنحاً عدة مرات على كعبيه ومقدمة قدميه، محاولا، بكل ما اوتي من قوة، التغلب على الارهاق والنعاس الشديدين، وبعد استعادته وعيه وارادته، وقف، مجدداً موليا وجهه نحو الستار المعلق على باب الخيمة وهوينظر بعينين متفحصتين وملتهبتين مرهقتين للغاية، كما كان قبل نصف ساعة، وقال بصوت جاف:

– يفستيغنييوف، هات التالي!

* * *

سقطت قذائف الهاون على الغابة بشكل شبه دائري وأخذت تنفجر مدوية. ومن وراء الشجيرات، وبالقرب من لوباخين سمع أحدهم يقول، بلا اكتراث مع تثاؤب مديد:

– هؤلاء الافاعي، يقومون بقصف تجريبي لاحكام تسديد الرمي والآن سيبدأون القصف الحقيقي خابطين الرمل بالقذائف، حتى يمشطوا الغابة برمتها، أنهم هكذا، الاوغاد، ولن يخجلوا من قذف قذيفة زائدة...

غير ان النيران هدأت في الحال، باستثناء رشقات رشاشة طقطقت في البعد بصلية قصيرة في حقد وجفاء، وطلقات مدفع رشاش الماني تسمع، بتقطع منتظم، عند الضفة الاخرى من نهر الدون، قبالة الجسر المدمر نتيجة القصف، وكأنها تختبر هدوء الغابة الخادع.

وبعد ذلك صمت الرشاش، وفي السكون المخيم، صارت تسمع الاصوات الاخرى، بوضوح أكثر: الهدير

الخافت نتيجه بعد المسافة للقصف المدفعي المديد الذي يدوى دون أن يهدأ في مكان ما بعيد في الشرق، وأزيز متقطع لطائرة استطلاع بعيدة المدى تحلق هادرة على علو شاهق بحيث لا تراها العين، وهدير منتظم لاعداد ضخمة من الدبابات والسيارات الالمانية المتحركة على طول الضفة اليمنى للدون حيث تتكاثر الاتمام باتجاه دسكرة كليتسكي.

كان ضباب خفيف، ليلكي اللون يتخلل اشعة الشمس المائلة ويتموج قليلا فوق قمم أشجار الحور البعيدة. وكانت قطرات الندى تتلألأ وتسطع متوهجة كشذرات قوس قزح منثور على النباتات العسلية المطأطئة برؤوسها، وازهار الورد البري.

قال نيكولاى، مستغرقاً بالتفكير، ومتأملا الغابة التى استعادت نضارتها غب أمطار الليل.

– ما أجملها، أليس كذلك؟

نظر لوباخين الى صديقه، شزرا، ولكنه لم يقل شيئاً. أطبق أسنانه بشدة، وأخذ يحدق بعينين ملتهبتين لا ترفان، الى سحب الغبار السمراء الداكنة المتجهمة، والمتصاعدة وراء الرابية البيضاء: ويصغي صامتا الى الجلبة العنيفة للهجوم الكبير، والمألوفة له منذ زمن طويل.

كان لوباخين، أيضا، يحب الطبيعة – وكان يحبها كما لا يمكن أن يحبها الا الانسان الذى كد طيلة حياته في العمل تحت الارض. حتى انه في بعض الاحيان، وهو في الخندق، وفي فترات الهدوء القصيرة، كان يجد وقتا لتأمل الغيوم البيضاء كالبجع، السابحة بمهابة في سماء الجبهة المسودة بالدخان، تارة، او زهرة برية تستقر بأمان بجمالها الفطرى السرمدي على حافة حفرة قديمة، أحدثتها قذيفة ما، والى جانبها اكوام التراب المقفرة المحروقة تارة أخرى... على انه الآن، لم يكن يرى جمال الغابة المغسولة بالمطر، ولا الجمال الكئيب للورد البري المتفتح تماماً، على مقربة منه. لم يكن يبصر شيئا، سوى الغبار المثار بعجلات آليات العدو المتجهة الى الغرب ببطء.

هناك، في الغرب، في سهوب الدون المزرقه، سقط رفاقه في المعارك، وهناك بعيداً في الغرب، بقيت مدينته الحميمة، أسرته، وبيت والده الصغير، واشجار القيقب الذاوية المزروعة بيدي والده المكسوة بغبار الفحم على مدار السنة، والتي كانت رغم منظرها الحقير، تسر أعينهما لدى ذهابهما الى المنجم، صباحاً. لقد بقي كل ماكان عزيزاً وغاليا في حياته، هناك رازحاً تحت وطأة احتلال الألمان... ومرة أخرى، وأية مرة هذه خلال الحرب، شعر فيها لوباخين بحقد خانق أخرس نحو العدو، وبجفاف مفاجيء في حلقه، بحيث لا يستطيع حتى اطلاق الشتائم. هكذا كان يحصل له أحياناً أثناء القتال. لكنه، آنذاك، كان يرى جنود العدو، وهذه الدبابات الرمادية الداكنة البغيضة بصلبانها الموسومة على دروعها، ولم يكن يرى فحسب، بل ويقضي عليهم بسلاحه. عند ذاك، كان الحقد الخانق المطبق علىخناقه يجد له متنفسا في القتال. فكيف هو الأمر الآن؟ انه الآن – مجرد متفرج خامل، وجندي وحدة مدمرة مشتتة يراقب من بعيد، وبسخط باطل، كيف يثير العدو على أرضه الغبار بمشية الفاتح الظافر، ويندفع دونما رادع، أكثر فاكثر متجهاً شرقاً...

انتزع لوباخين المفكرة من يدي نيكولاي، وكتب بسرعة: «نيكولاي، أني لن أذهب الى المؤخرة. كل المؤشرات تدل على أن أمورنا سيئة. انني لا أقدر على ترك هذا المكان! أفكر بالبقاء في الخطوط الأمامية، سأنضم الى احدى الوحدات. فابق معي، أيضا، يا نيكولاي!»

قرأ نيكولاي، وهو لا يكاد يلثغ، وأجاب فوراً:

– هذا هو رأيي. ولهذا أتيت الى هنا. ولكن ماذا سيكون موقف رئيس العرفاء؟ هل سيسمح لك؟ لا ادري ولكنني أشك... الأمر بالنسبة لي أسهل: لا أزال محسوباً على كتيبة الاسعاف.

– وهل أنا أطلب اجازة لزيارة زوجتي؟ كيف لن يسمح لي بذلك؟ هل اود مشاهدة فيلم؟ كيف لن يسمح لي؟ –

قال لوباخين باستياء، ناسياً للحظة أن نيكولاي لا يسمع، ولكن ما ان نظر الى وجه صديقه المكتنز الممعن اليه، كالابكم الاصم، المضطرب المترقب بلهفة حتى صمت متكدرا، وكتب بحروف عريضة «سيسمح» ووضع بضع علامات تأثر كبيرة، وبدا أن منظرها وحده، كان كافياً تماماً لتبديد شكوك نيكولاي.

أخذ وقواق يوقوق، بتردد ووجل، فوق شجرة دردار مترامية الاغصان. وقوق قليلا ثم صمت، وكأنه اقتنع بأن وقوقته الكئيبة الحزينة قد أتت في غير اوانها المناسب في هذه الغابة التي تعج بأناس مسلحين، وتنهال عليها نيران المدافع المدوية الآتية من بعيد. وفي تلك اللحظة تقريبا، سمع لوباخين صوت كوبيتوفسكي المفعم بالثقة في النفس والبغيض الى حد الاشمئزاز:

– ... ان الوقواق لطائر خارق الذكاء! فهو يوقوق لك حتى يوم بيتروف*، وينش نشيشاً لطيفاً، كنشيش شحم الخنزير في المقلاة، ومن ثم ينقطع عن ذلك تماما وحتى لو رجوته متوسلا، فانه لن يوقوق لك مهما ألححت. وبالمناسبة – أضمرت في نفسي سؤالا: كم سأعيش؟ أما اللعين، فوقوق مرتين، ثم انكتم. آه، لقد «أفرحني» طويل الذيل النحس هذا! ومع ذلك، فانني غير مستاء منه: اذن، سأعيش سنتين، وسأحارب باطمئنان تام، ولن أقتل انه لشيء رائع جدا! انني لا أريد أكثر من ذلك. أفلن تنتهي الحرب المشؤومة خلال سنتين؟ لا بد. ولكن بعد الحرب، لن اكترث بهذا الوقواق الحقير، وسأحيا قدر ما أريد. نعم سأحيا وبكل بساطة!

– انك لذكي حقاً، أيها الشاب! – قال رامي الرشاش بافل نيكراسوف المندهش، بصوت عميق مبحوح. –

---

* يوم بيتروف – عيد يحتفل به المسيحيون في ٢٩ يونيو – حزيران حسب التقويم القديم.

اذن، أنت الآن تصدق الوقواق، وبعد الحرب لن تصدقه؟

– وكيف كنت تريدني ان أفعل؟– أجاب كوبيتوفسكي بتحصف. – انني الآن لا أريد الا ما يهدىء نفسي، أما بعد الحرب، فسأعيش بطريقة ما ودونما تهدئة، معتمداً على قواي نفسها...

ظهر كوبيتوفسكي من وراء الشجيرات، وما ان شاهد نيكولاي حتى فتح عينيه على اتساعهما مندهشا، وعلت وجهه المكتنز المستدير ابتسامة حائرة بلهاء. لطم نفسه على فخذه العارية، وبالضبط في المكان الممزق من بنطاله بطريقة عجيبة نازلا من خصره وحتى ركبته تماماً، وهتف عالياً:

– نيكولاي؟ يا للعجب!...

أما نيكراسوف، المسن، والفاتر بطبيعته، فقال، وهو لا يزال ممسكا، برشاشه المعلق في عنقه، وكأنه لم يفارق نيكولاي الا منذ نصف ساعة:

– هل عدت، يا نيكولاي؟ هذا حسن. اذ انه لم يبق منا هنا كثيرون... لقد نخلنا الالمان الملاعين، كما ينخل الدقيق.

كان نيكولاي يفكر بأمر ما تفكيراً عميقاً، مطأطئاً رأسه، وينظر الى الأرض بارماً شاربه بأصابع يده اليسرى، ولا يرى رفاقه المقتربين منه.

رمق لوباخين رأس ستريلتسوف المهتز اهتزازاً خفيفاً، ويديه المرتعشتين بعض الشيء كأيدي العجائز، وحملق في وجه كوبيتوفسكي المفعم بالصحة، بنظرات تكاد تكون حاقدة، وقال:

– لا تصرخ! ومهما صرخت فانه لن يسمعك. لقد فقد حاسة سمعه.

– لا يسمع بتاتا؟ – ازدادت دهشة كوبيتوفسكي، ولطم نفسه للمرة الثانية.

– لا يسمع. وماذا في هذا؟ – رفع لوباخين صوته والحمرة تعلو وجهه ببطء. – ولم تلطم لحمك المكشوف،

هنا، وكأنك ممثل على خشبة المسرح؟ لم أكن أعرف أنك فنان! انه أصيب برضوض، وما الداعي للاستغراب وعرض رقصة الباليه! ليتك تخيط بنطالك، يا غندور، بدلا من التجول بمؤخرة تسطع كقديس في الجنة...

– ها قد أخذ بنطالي يثير ازعاجك! – قال كوبيتوفسكي ممتعضا. وكم من مرة أخبرتني عنه؟ لقد سئمت ملاحظاتك! وكيف سارقعه وأنا لا أجد ما ارقعه به؟ وانظر جيدا الى ما تبقى من البنطال! لم يبق سليماً منه سوى محيط الخصر ومكان اتصال نصفي البنطال، أما الباقي فمثل المنخل، مخزق. انك هنا تصبح قديساً رغم أنفك، لابل وأسوأ... والخيوط غير متوفرة. الخيوط في خيمة الحانوت العسكري، وهل تعرف اين هو الآن؟ أغلب الظن أنه يثير الغبار في الطريق فيما وراء مدينة سراتوف، أما أنت فلا تعرف سوى: ليتك تخيط، ليتك تخيط!

وضع نيكراسوف يده على كتف نيكولاي، وقال بصوت عال:

– مرحبا بك، يا نيكولاي!

جفل نيكولاي فجأة، رفع راسه، وقطب جبينه، ولكن سرعان ما برقت أسنانه البيضاء الناصعة المعوجة، بابتسامة أطلت من تحت شاربيه. وفغر فاه، محاولا قول شيء ما، مشرئبا باضطراب، وهازا راسه. وأخذت حرقدته المكسوة بشعر أسود غير كثيف تختلج بعنف ولكن لماما، وراحت أصوات مبحوحة غامضة تغص في حلقه مبقبقة.

أحس لوباخين بانقباض مؤلم في قلبه. وكعادته دائما، حينما يشعر بانفعال نفسي شديد، شحب منخراه، واذا به يصرخ بكوبيتوفسكي، ويحدق اليه بعينين مسعورتين محملقتين، قائلا:

– احجب عينيك! لم تجحظ عليه؟ انه أصم لا يسمع ويلثغ! لا تنظر اليه! اذ انه محرج، ألا تفهم ذلك؟ أدر وجهك أيها الشيطان المهلهل!...

هز كوبيتوفسكي كتفيه حائرا:

– لم يكن لي علم بذلك... ولم تصرخ بي هكذا، يالوباخين؟ انك بحنجرتك هذه لاتصلح الا لبيع عباد الشمس في البازار، مادحا بضاعتك... أنت انسان فظ، ووقح أيضا، فرغم عملك في المنجم ودراستك في كلية العمال فان ثقافتك – لا تساوي قيد انملة!

أشار كوبيتوفسكي المستاء بظفره الى انملة خنصره، مقيماً بهذه الاشارة مدى ثقافة لوباخين، حسب رأيه. الا ان الآخر لم يعره أي اهتمام، وأخذ، ممسكاً بعض الاعشاب بيديه، يتململ فوق الرمل قلقاً، وينتظر بفارغ الصبر متى سيتمكن من اخراج الكلمة الاولى من فيه. حتى لقد اعترته الحمرة قليلا من شدة الاضطراب.

نطق نيكولاي، مغلقا عينيه، واهدابه ترف من جراء التوتر، متلفظاً بطريقة ما ببعض الكلمات الترحيبية، وعندئذ مسح لوباخين العرق المتصبب على جبينه، متنفسا الصعداء، وقال:

– ان أصعب شيء بالنسبة له، هو مباشرة الكلام، وما أن ينطلق لسانه، حتى سيكون بوسعه التكلم بصورة معقولة، ربما بدون تحديد، ولكن بشكل يمكن فهمه وبوضوح. وأقسم لك أن بعض الخطباء لا يجيدون النطق مثله عندئذ!

قال نيكولاي، متمكنا من النطق بصعوبة، ومبتسما باعتذار، ومصافحاً رفاقه:

– لقد صمت أذناي، أيها الشباب، وشيء ما طرأ على لساني... لا أستطيع السيطرة عليه... لكن الطبيب قال لي ان ذلك – ظواهر مؤقتة... انني في غاية السعادة للالتقاء بكم ثانية. ولكن للتفاهم معي لابد من الاستفسار تحريريا... انظروا الى المكتب الذي افتتحناه أنا ولوباخين،– وأشار بعينين متأثرتين مضيقتين ولكن مبتسمتين الى الصفحات المكتوبة في مفكرته.

أنزل نيكراسوف مدفعه الرشاش، متنحنحا ومقطبا حاجبيه، وجلس الى جوار نيكولاي، مواسياً اياه مربتا على ظهره، وقال بصوت مديد:

– هـ ... كـ ... ذا. اذن، هذا ما فعله الاوباش برفيقنا... وجعلوه من ذوي العاهات.

كانت نسمة خفيفة تموج أعشاب المرج بتكاسل وتجفف قطرات المطر المتبقية على أوراق الاشجار. والورد البري المتسخن بأشعة الشمس، يعبق برائحة غير طيبة للاعشاب التالفة المتبقية على جذورها، ومن الأرض، المتبخرة بعد الامطار تنبعث رائحة تعفن اوراق الاشجار قابضة منتنة، تشبه رائحة برميل قديم من خشب البلوط.

دوت على الجهة اليمنى لنهر الدون انفجارات قوية، وتصاعدت اعمدة الدخان الاسود المتبددة في الريح، على ارتفاع أعلى من أشجار الحور النامية على الضفة.

– السيارات المحملة بالذخيرة والوقود تنفجر. هذه امداداتنا تضيع هباءاً منثوراً! – أنشأ كوبيتوفسكي يدمدم، دون مخاطبة أحد على التعيين.

وبعد صمت لبرهة وجيزة أخرى، سأل نيكراسوف لوباخين:

– أتعتقد انهم سيرسلوننا الآن لاعادة تشكيل قواتنا مجددا؟

هز لوباخين كتفيه بصمت.

– ذهب رئيس العرفاء لمعرفة المكان الذى سنرسل اليه، ربما الى أقرب مكان تتواجد فيه قواتنا. لقد سمعت من أحد رفاقنا، أنهم رأوا رئيس أركان حرب الوحدة الرابعة والثلاثين هنا في الغابة. لقد آن الأوان بالنسبة لنا أيضا لنغادر هذا المكان، – قال نيكراسوف باتزان. – الناس يتخذون وضعا دفاعيا، يعدون المخابىء، يحفرون خنادق الاتصال، كل واحد منهم مشغول بأمر ما، أما نحن، الكسالى، فنتلوى ونثرثر هنا في الغابة، ولا نفعل شيئاً سوى اعاقة الآخرين.

ظل لوباخين صامتا، في حين حول نيكراسوف نظره الى نيكولاي، وهز راسه قائلا:

– أما نيكولاي فلم يكن ثمة من داع لمغادرته وحدة

الاسعاف. اكتب له، أنه يجب عليه مواصلة العلاج، والا فانه سيبقى طيلة حياته هكذا الثغ، ويهز راسه كالماعز.

– لقد كتبت، – أجاب لوباخين بجفاء.

– وماذا قال؟

– سيبقى هنا.

– وهل خرج دون السماح له؟

– وماذا تظن؟

– آه، عبثا فعل! ليتك تقنعه فانتما صديقان.

– حاولت.

– وما النتيجة؟

– لا يوافق. انه يفهم الوضع الراهن ليس كما يفهمه بعض اولاد الكلاب الآخرين، – قال لوباخين بلهجة ذات قصد خفي.

– يا للعجب! – قال نيكراسوف من بين أسنانه، باحترام ونظر في نفس الوقت بشيء من التهكم الى نيكولاي.

كانت معرفة لوباخين بنيكراسوف قديمة. لقد خدما معا في وحدة واحدة، أثناء معارك الشتاء الصعبة باتجاه مدينة خاركوف، – وبعد ذلك – ضمن وحدة امداد واحدة – جاءا الى هذا الفوج. لم يتصادقا أبدا ولم يتفقا أيضا، وربما لهذا السبب، لم يكن نيكراسوف ودودا، أما عند القتال، فيمكن الاعتماد عليه دائما. كان لوباخين يعرف ذلك تمام المعرفة، ولذا قال، ملقيا نظرة فاحصة الى عينيه الزرقاوين الذاويتين اللتين تبدوان قد فقدتا بريقهما من شدة الارهاق:

– أنا ونيكولاي قررنا، هكذا: سنبقى هنا. فالظروف الآن ليست بالظروف التي تسمح لنا بالتسكع في المؤخرة. والى أي مدى دحرنا الالمان... ان تفكيرنا في دحر أبناء الكلاب لنا لأمر مخجل وفظيع! ما رأيك أنت يا نيكراسوف، وانت لنا صديق قديم، ألن تنضم الينا؟ اذا ما بقي محارب قديم، وثان، وثالث، – فهذه قوة، وماء النهر يتألف من

قطرات. والحاجة الينا هنا أكثر منها في أي مكان آخر، أليس كذلك؟

استغرب كوبيتوفسكي، بينه وبين نفسه، من لهجة الرجاء التي شابت صوت لوباخين. غير ان نيكراسوف أجابه فورا، بلا تردد، وبصورة قاطعة:

– لا، لن أبقى. فليحارب الجنود الجدد الأغرار الذين لم يشموا رائحة البارود بعد، وليتذوقوا طعم النار، اما أنا فلست اعارض الذهاب الى المؤخرة. وريثما يعاد تشكيل الفوج، وريثما تتم كل الأمور – سأرتاح كما يحلو لي، وعلى الاقل سأنام تعويضا عن السهاد خلال هذه الأيام الصعبة الشاقة التي لاتطاق! أتفهم، ان في الفترة الأخيرة ظهرت قملات غريبة في ملابسي. أبسبب الشوق، ياترى؟

– بسبب الاوساخ. تستحم مرة في السنة، – قال لوباخين بصوت خافت، متأملا باهتمام فائق، أظافر يديه المسترخيتين على ركبتيه، تلك الأظافر الناتئة كدروع صلبة وتشبه ثمار اللوز.

– ربما، – وافقه نيكراسوف، عن طيب خاطر. – الا انك تعرف انه لا مجال للاستحمام، ولسنا في منتجع نتشمس فيه، كما وان الملاريا لاتسمح لي بذلك. ولكن في المؤخرة سأتخلص من القمل تدريجياً سوف اعاشر امرأة ما... أية امرأة كاسدة، المهم أن تكون لديها بقرة! آه، وسأعيش بالقرب من جرار القشدة ممتعا نفسي، واتلذذ بالفطائر المحشوة بالجبنة! سأرتاح كما ينبغي، وبعد ذلك... وبعد ذلك يمكنني أن أعود الى الجبهة، انني لا أعارض...

كان نيكراسوف يتكلم، مسدلا رموشه البيضاء المشيطة بالشمس، فوق عينيه المضيقتين ويتمطق بشفتيه الغليظتين المقلوبتين متلذذاً. أما لوباخين، فكان يصغي الى حديثه المتروي، وهو يرفع حاجبه الأيسر المعقوف تدريجياً، وأخيراً، لم يتحمل، وصرخ به بمرح متكلف:

– لم أعرف انك انسان غريب هكذا، يا نيكراسوف!

– لست أنا الغريب، الغريب هو الحمل: انه يرضع

حتى موعد بدء هطول الثلج، وعيناه مستديرتان. وأي غريب أنا؟ كلا، لقد أخطأت...

– اذن، فانك لست بالغريب، وانما انت ما هو اسوأ... – قال لوباخين بعبارات متقطعة، وبتحفظه المنذر بالسوء، الذي يسبق في العادة ثورة غضبه.

– انا هكذا على ما أنا عليه ولا يمكن أن أتغير، لقد فات الأوان، – أجاب نيكراسوف بتنهيدة خفيفة. – وليس في هذا ما يدعو للاستغراب. لقد أخبرني شاب من تلك الفرقة التي كانت تحتل مواقع دفاعية، بأنه تم تشكيل فرقتهم في مدينة فولسك، وهناك عاشر امرأة كان زوجها في الجيش، وكانت لديها ثلاث عنزات. يقول أن البيت لم يكن مسكنا بل مصنع زبدة! لقد ازداد وزنه، خلال شهر واحد، ستة كيلوغرامات، لا أدري ان كان سبب ذلك حليب الماعز أم ثمة سبب آخر. وهذا ما أفهمه، – فلقد تمتع الفتي برغد العيش وكأنه كان في منتجع.

– لا شك أنك فقدت صوابك، –قال لوباخين غاضبا. – أتسمع، ايها التعيس، أين تدور المعارك؟

– لم أصب بالصمم بعد، أسمع.

– اذن، عم تتكلم؟ وأية معاشرات؟ وأية استراحة؟

نفذ صبر لوباخين، فانطلقت منه الشتائم الطويلة المتصلة الفظيعة الغريبة، المركبة بصورة مذهلة بحيث جعلت نيكراسوف يبتسم فجأة باستمتاع، غير مصغ اليها حتى نهايتها، ويغمض عينيه مميلا رأسه على كتفه اليمنى، كمن يصغي الى الحان موسيقية رائعة تسلب الالباب.

– يا ويحك! ما أمهرك في التعبير! – قال نيكراسوف باعجاب، واستغراب ظاهر حين التقط لوباخين أنفاسه وبعد تخفيفه بعض الشيء من ضائقة نفسه.

وطار النعاس المضني الذي كان يستبد به منذ هنيهة كما لو أن يدا رفعته عنه بسرعة، وطفق يتكلم، حثيثا وهو ينظر مبتسما الى لوباخين من حين لآخر.

– ما أعنفك، يا أخي! وكم كان مساعد مكتب القسم

السياسي لسريتنا عام ١٩٤١، أستاخوف، متضلعا بمثل هذه العبارات، وطليق اللسان مفوها، ولكن شتان مابينه وبينك! انه حتى لايقربك في هذا! لم يكن المرحوم يستطيع أن يتفنن وأن يرقص الكلمات مثلك. الا انه كان فصيح اللسان، ويحب التكلم كثيرا – لا مثيل له! كان يقودنا الى الهجوم، ونحن في وضع الانبطاح، فيستدير على جانبه، ويصرخ: «الى الامام، أيها الرفاق، اهجموا على العدو اللعين! أقتلوا الفاشيين الانذال!» ونظل منبطحين بسبب نيران الفريتس العنيفة التي لاتسمح لنا بمجرد التنفس! فاللئام يعرفون ان المنبطح على بعد مئتي متر عنهم لا نحن، وانما منيتهم المبيتة لهم ويدركون أننا سننهض بين لحظة وأخرى... وهنا يزحف أستاخوف الي، أو الى مقاتل آخر ويقول وهو يصرف باسنانه من شدة الغضب. «اتفكر بالنهوض أم هل انك مددت لك في الأرض جذوراً لاتقتلع؟ أ أنت انسان أم بنجر السكر؟» وعندما يصرخ وهو منبطح متفوها بمختلف التعابير! كان صوته جهوريا، ومدويا، ومفعما بالوقار... وعندئذ ننطلق في الهجوم والويل عندئذ للالمان، وما ان نلحق بهم حتى نشرحهم تشريحاً!.. كان قاموس أستاخوف غنياً دائماً بمختلف المفردات. وتسمعه يقدم مثل هذا العرض الفني، وانت منبطح في الوحل وتحت وابل النيران، فتسري القشعريرة في ظهرك، كأنها البراغيث المتواثبة، وتهب واقفا، كمن شرب أربعمئة غرام من الفودكا لتوه، – وتركض، لابل تطير الى خنادق العدو! غير مبال بالبرد ولا بالخوف، وناسيا كل شيء! أما أستاخوف فتراه منطلقا في المقدمة هادراً، وكأنه الرعد: «اضربوا أيها الشباب، اضربوهم ضربا لما!» وكيف كان يمكنك الا تحارب مع مثل هذا الانسان؟ فهو نفسه كان ماهراً جداً في استخدام الحربة والقنبلة اليدوية في القتال وهو أمهر من ذلك في قوة التعبير اذ كان يعبر بابداع وجمال! وحين يبدأ بالقاء كلمة باستطاعته ابكاء السرية بأسرها بعباراتها المؤثرة، وباستطاعته أيضا رفع معنوياتهم اذا أراد، وأن

يجعلهم يضغطون بايديهم على بطونهم من شدة الضحك. لقد كان عسكرياً رائعا!

– لحظة، وما علاقة طلاقة اللسان بالموضوع؟ – حاول لوباخين، حائراً، مقاطعة نيكراسوف، على ان الآخر، المستغرق في الذكريات، لوح بيده ضجراً:

– لا تقاطع، واسمع ما يتبع! فاذا أردت أن تعرف، فان ابناء جميع القوميات كانوا يفهمونه ويحترمونه، هكذا كان! رغم كونه ليس ضابطا مسلكيا نظاميا وعلى انه لم يكن عالي الثقافة من حيث التحصيل التعليمي فانه كان عسكرياً ممتازاً: كما وانه كان قد نال وسام الراية الحمراء أثناء الحرب الأهلية، نعم هكذا يا أخي! وكم كان أفراد السرية، يحبون أستاخوف هذا! كانوا يحبونه لشجاعته، ومعاملته الانسانية اللطيفة للمقاتلين، أما السبب الرئيسي لحبهم اياه فهو صراحته وطلاقة لسانه. وعندما دفناه قرب قرية كراسني كوت، اغتسلت السرية بأكملها بالدموع. بكى عليه حتى المقاتلون المسنون كالفتيات الصغيرات. لقد بكاه كل الجنود من مختلف القوميات، ناهيك عنا الروس، ودون استثناء، ورثاه كل واحد منهم بلغته القومية. أما أنت، يالوباخين، فتقول – وما علاقة طلاقة اللسان بالموضوع. لا، يا أخي، ان طلاقة اللسان بالنسبة للانسان – أمر هام جداً. والكلمة الضرورية اذا ما قيلت في وقتها المناسب، فانها دائما تجد الطريق الى قلب الانسان، هذا ما أفهمه أنا.

وما فتىء لوباخين يصغي الى رفيقه هازاً كتفيه مبهوتاً وهو في غاية الحيرة، وينظر أحياناً باستغراب الى كوبيتوفسكي تارة، والى نيكولاي الوسنان تارة اخرى، وعلامات الارتباك تنعكس على وجهه بجلاء وبصورة غريبة. لم يكن يعتقد، أبداً، أن تترك شتائمه مثل هذا الانطباع، ولا يتوقع أن تثير مثل هذا الحماس الشديد وأن تؤثر في نيكراسوف، الذي كان يبدو له دائماً، انساناً فظاً لا يهتم بالكلمة الساطعة...

ومازال نيكراسوف يبتسم بلطف، مستغرقاً في التفكير،

وغائصاً في الذكريات. أما لوباخين فقال، وهو يفرك مضطرباً، خده الملوث بغبار الفحم:

– اسمع، يا صديقي، فنحن لسنا بهذا الصدد! وليست المسألة في طلاقة اللسان، ولتذهب هذه الطلاقة الى الجحيم، المسألة تنحصر في أن الألمان قد تجاوزونا، وهم يشقون طريقهم الى نهر الفولغا. وهناك مدينة ستالينغراد... أهذا مفهوم لك ياسيد العارفين؟

– مفهوم جداً. وهذا ما يهدف اليه هؤلاء الانذال. ان هؤلاء الأوباش يودون الوصول الى هناك.

– وبما انك تعرف، فما هذا الذي تحلم به؟ وأي مغفل يمكنه ان يفكر الآن بالزواج والراحة؟كف عن التفكير في هذه السخافات، يا نيكراسوف، لاشك أن هذه الأفكار الغامضة في رأسك هي نتيجة نومك على الأرض الرطبة...

– وأنت أين نمت – أعلى فرشة ريش؟ لقد رقدنا جميعاً على الأرض الرطبة.

– لم يخطر الاقدام على الزواج ببال أحد سواك. تقول لا، كما تشاء، ولكن الرطوبة هي سبب ما حصل لك...

– ومن أية رطوبة بحق السماء؟! – قال نيكراسوف متكدراً. – من شدة الارهاق خلال السنة التي حاربت فيها، هذا هو السبب اذا كنت تريد أن تعرف. وهل خلا العالم الامني ولم يعد يوجد فيه غيري؟ اذا كنت ترغب في البقاء هنا – فابق، أما أنا فلست بحاجة لدعايتك وتوعيتك، فأنا مثقف سياسياً منذ صغري. وماذا لو بقينا أنا واياك، هل سنقتل الأعداء وحدنا؟ وهل ستصمد جبهتنا ببقائنا؟ طبعا لا! فانا، يالوباخين أعاني من هذه البلية البغيضة منذ الأيام الأولى للحرب. – ضرب نيكراسوف على أمتعته المحزومة براحته العريضة، ودبت الحيوية في عينيه الذابلتين ولمعتا براقتين قاسيتين. – وهل يحق لي أن أرتاح أم لا؟

– هذا يعتمد على الظروف، – رد لوباخين مراوغاً.

– لا، أجبني بلا مداسة!

– الآن – لا.

قال لوباخين ذلك باصرار، ونظر مجدداً الى عيني نيكراسوف، محدقاً بعينين لا ترفان. ابتسم نيكراسوف معوجا فمه قليلا، وكمن يبحث عمن يواسيه ويؤيده، غمز كوبيتوفسكي الذي كان يتتبع حديثهما باهتمام:

– آها! الآن – لا؟ متى اذن؟ فبعد اصابتي الاولى، ماكدت أصحو حتى أرسلت، فوراً، من كتيبة الاسعاف الى الوحدة، وبعد الاصابة الثانية، حولت الى لجنة الحامية الطبية في المؤخرة، وعندها فكرت: لاشك أنهم سيمنحونني اجازة اسبوع للذهاب الى البيت. ولكن هيهات وكيف يمكن السماح للشيطان الاصلع! ومن معسكر الانتقال ارسلت الى الجبهة. وبعد الاصابة الثالثة رقدت في المستشفى العسكري، وعدت مجدداً الى الوحدة. وها أنا أتارجح مجانا في هذه الارجوحة الدوارة لسنة كاملة... والى متى يستطيع رجل مسن مثلي ممارسة هذا اللهو؟ فأنا لست شاباً.

– اذن فانت عجوز عندما يراد منك القتال اما، عند الزواج فان سنك مناسبة جداً؟

– وهل أنا أريد الزواج لاني في عنفوان فتوتي؟ بل بدافع العوز، أيها الغبي! لقد أتلفت عصيدة جريش الدخن المركز اللعين هذا كبدي وطحالي تماما! – صرخ نيكراسوف وقد ازداد تكدراً. – والآن وبعد الاصابات الثلاث هل ستسمح لي صحتي بمزاولة اللهو؟

– اذن صحتك لاتسمح لك بأن تحارب، ومناسبة جداً للزواج، أليس كذلك؟ – أعاد لوباخين سؤاله وسمات الجد لا تزال تعلو محياه.

زنخر كوبيتوفسكي، كحصان يشمشم الشعير، وأغلق فمه بيده. أما نيكراسوف فنظر الى لوباخين باهتمام، وقال:

– سمعت أثناء رقادي في المستشفى بوجود مرض خبيث، يعرف بسرطان المعدة...

ضيق لوباخين عينيه بمكر:

– أولست مصاباً بالسرطان؟

– لا، أما أنت يا لوباخين، فانك نفس هذا المرض بعينه!

وهل بالامكان التحدث معك كالبشر؟ فأنت دائماً بملاحظاتك اللاذعة ومكائدك، ونكاتك السخيفة... انك لست بانسان وانما انت سرطان برجلين!

– بالامكان عدم التحدث عني، لا جدوى من ذلك، دعنا نتحدث عنك فهذا افضل. ما الانحراف الذي تشكو منه في جسدك؟ وما الذي تعانيه أيها الجندي اول المقدام؟

– اليك عني! اغرب عن وجهي!

– لا، ولكنني اسألك جاداً، ما الذي تشكو منه؟

– أنت لست طبيباً حتى اخبرك؟ – قال نيكراسوف بتوان، ويظهر انه كان مترددا.

لف لوباخين، باعتناء، سيجارة، وناول كيس التبغ لنيكراسوف، وحين نظر اليه دب الرعب في قلبه: مزق نيكراسوف ربع صفحة الجريدة تماماً، ووضع في الورقة التي مزقها كمية كبيرة من التبغ ولف سيجارة ثخينة.

– على مهلك! – هتف لوباخين فزعاً، مختطفاً كيس التبغ منه. – ما هكذا تلف السجائر فهذا لا يجوز! ما لك تلفها بهذا الحجم، بثخن الاصبع؟ أتحسبني أحمل شركة تبغ في حقيبة ظهري؟ هيا افرغ نصفها!

– لا أستطيع ان الف سيجارة رفيعة من دخان غيري– قال نيكراسوف بهدوء.

– اذن دعني الفها لك، أتسمعني؟

– لا – لا، ابعد يدك، والا سيتناثر الدخان، سافعل ذلك بنفسي. – ابعد نيكراسوف يد لوباخين بسرعة، وجعل يبلل طرف الورقة الخشنة بلعابه جيداً، وينظر الى لوباخين شزراً من تحت جبينه.

– انك لماهر فعلا بلف السجائر من تبغ الغير... – تنحنح لوباخين متكدراً، واخذ يهز رأسه متأملا ووازناً كيس التبغ الذي أصبح خفيفاً في يده.

– من تبغي الف سجائر أصغر، – قال نيكراسوف بنفس الهدوء الرصين، ومد يده ليشعل السيجارة.

أشعلا سيجارتيهما بعود ثقاب واحد. وصمتا وهما يتبادلان نظرات عدائية واضحة.

في البداية راقب نيكولاي بانتباه التعابير المتبدلة على وجه لوباخين ونيكراسوف، ولكنه سرعان ما سئم من ذلك، واستلقى متوسداً رداءه المشمع، شاعراً بارهاق، ناتج عن مرضه غير المألوف والمستبد بكل جسده، وبغثيان يرتفع الى حلقه. وكان يعرف مدى طول نقاشات الجنود لدى اضطرارهم للجلوس بلا عمل، فاراد أن ينام قليلا، لكنه لم يقدر. وصار يشعر بطنين حاد مستمر في أذنيه، وبالم في صدغيه. كان الصمت الموحش المطبق كصمت القبور يخيم على أطرافه، بحيث يضفي على كل ما يحيط به شعوراً كما لو انه غير حقيقي ويكاد يكون خيالا.

لم يتمكن نيكولاي بعد، ولا بأي حال، من التعود على وضعه الجديد، ولم يتمكن أيضا من ان يالف فقدان سمعه بشكل غير متوقع. كان يرى اوراق الشجر الكثيفة، المغسولة بمطر الليلة الماضية حتى اللمعان، وهي تتحرك بصمت فوق رأسه، والنحلات الطنانة والبرية تتزاحم فوق الورد البري، بلا أي صوت، وربما، لأن كل هذه الأشياء كانت تحصل أمام عينيه، خالية من حيوية الأصوات المختلفة؛ أحس بدوار خفيف في رأسه، فأغمض عينيه وطفق، على عادته، يفكر بالماضي، بتلك الحياة الآمنة، التي تعكر صفوها، بصورة مباغتة، في ٢٢ يونيو – حزيران من السنة الماضية... ولكن ما أن تذكر أطفاله، والقلق على مصيرهم وهو ما لم يفارقه خلال الفترة الأخيرة، حتى اخذ من جديد يشعر بانقباض في صدره واذا به يتنهد في آهة طويلة، فجأة، وبطريقة لم يتوقعها هو نفسه، ففتح عينيه مذعوراً.

لما يزل لوباخين جالساً كالسابق، محدودب الظهر قليلا، واضعاً كفيه العريضتين الممتلئتين على حافتي ركبتيه المدببتين محتبيا، لكن تعابير وجهه لم تكن تشير الى السخط والتوتر، كما كانت منذ فترة قصيرة. كانت عيناه الزرقاوان الجريئتان تضيقان بسخرية ومكر، واخذت

تختفي الابتسامة المرتسمة في طرفي شفتيه الرقيقتين.

كانت تعابير وجه لوباخين هذه مألوفة لدى نيكولاي، فابتسم، عفوياً، وفكر: «لا شك انه يضحك على نيكراسوف هذا شبيه الفقمة».

وما لبث نيكولاي أن غط في نوم ثقيل كثيب، ولكن حتى في نومه أيضا كان رأسه الملقى الى الوراء، يهتز متشنجاً، ويداه المشبكتان على صدره ترتعشان باضطراب.

أطال نيكراسوف النظر اليه، وهو يبتلع دخان سيجارته صامتاً، ويحرك حرقدته بصعوبة، ثم ألقى عقب السيجارة تحت قدميه بعد أن لذعت أصابعه، وقال:

– وأي مقاتل تتوقع من هذا؟ انه مصيبة مريرة. انظر كيف ترجه الرضوض، انه عاجز عن حمل الرشاشة بيده، وها أنت تغريه بالبقاء عند الخطوط الامامية. انك لكثير النشنشة، يالوباخين، أما عقلك فأصغر من عزمك...

– لا تتكلم عن الآخرين، من الأفضل لو أخبرتنا عن مرضك الخفي، – قال لوباخين ساخراً ونظر الى وجه نيكراسوف الملوح بالشمس، الأقشر الوجنتين – منتظراً الرد.

– لا مدعاة للضحك، – قال نيكراسوف بامتعاض، – وان شئت معرفة ما أعانيه، فانه مرض الخنادق، هذا ما أعانيه.

– ذلك ما أسمع به لأول مرة! وما هذا؟ – سأل لوباخين باستغراب شديد. – أهو شيء من ذاك... يعني هكذا؟

غضن نيكراسوف وجهه منزعجاً:

– كلا بتاتاً انه ليس ما تفكر به نتيجة سخافتك. انه ليس مرضاً جسدياً، بل عقلي.

– ع ... ة ... لمي؟ – مط لوباخين كلامه بخيبة أمل. – هذا هراء! من المستحيل أن تكون مصاباً بمثل هذا المرض، هذا لا أساس له... لا أساس له!

– وكيف يكون هذا؟ قل، ومالك تماطل، – قاطعه كوبيتوفسكي بلهفة، وبفضول زائد.

تغاضى نيكراسوف عن ملاحظات لوباخين اللاذعة، مواصلا عبثه بالغصن المكسور في يده، ممرراً اياه فوق الرمل، وعلى ساقي جزمته القديمة الممزقة البالية، ثم قال بلا رغبة:

– ذلك ما حصل... فمنذ الشتاء بدأت ألاحظ تغيراً ما يطرأ على تصرفاتي. صرت عزوفاً عن التحدث مع اصدقائي وحلاقة ذقني والاغتسال والاهتمام بنفسي أيضاً. اما سلاحي، فاني أقول لك بصراحة انني صرت أهتم به غاية الاهتمام، أما الاهتمام بنفسي فلا أقدر البتة. ناهيك عن خياطة ياقتي، أو عمل شيء آخر للمحافظة على قيافتي، فانني لم أبدل ملابسي الداخلية منذ شهرين، ولم أغتسل كما ينبغي. وافكر بانني سأهلك سواء اغتسلت أم لم اغتسل، وباختصار فان الملل يسيطر علي ويكاد يجن جنوني. أعيش، وكأنني في منام، وأسير وأنا كانسان معطل الارادة... ولقد هددني الملازم جميخوف بضمي الى كتيبة المعاقبين، ومهما فكر بوسيلة لمعاقبتي فاني أعتقد، انه لن يستطيع ارسالي الى ما هو أبعد من الجبهة، ولن يمكنه تخفيض رتبتي الى أقل من جندي نفر! وكما ترون فقد توحشت، أعتزل رفاقي، ولست راضياً أنا نفسي عن نفسي، لا أشفق على أحد، لا رفاقي، ولا أصدقائي ولا نفسي أيضاً. في الربيع، أتذكر، يالوباخين، أثناء اعادة تجميع قواتنا، وتحركنا على طول خط الجبهة ومبيتنا في سيمينوفكا؟ حينها حصل لي ذلك لأول مرة... حيث احتشد نصف افراد السرية في بيت أحد الفلاحين، ونمنا، كل اثنين في سرير، وبوضع الجلوس، وبأوضاع مختلفة أخرى، في جو البيت الخانق الحار، غير قادرين على التنفس وأفقت من النوم لقضاء حاجتي، ونهضت، وخيل الي وكأنني في الملجأ، وكي أخرج، لابد لي من صعود الدرج. كنت في وعيي، أذكر جيداً، وصعدت الموقد... وهناك كانت تنام امرأة عجوز طاعنة في السن بلغت التسعين او المئة سنة من عمرها، هرمة فانية...

أفاق كوبيتوفسكي بصورة غريبة مفاجئة، وتورد حتى الزرقة، وأخفى وجهه براحتيه كابتاً أنفاسه. وأخذ ينظر الى نيكراسوف من خلال أصابعه بعين مغرورقة بالدموع ويهتز كاتماً ضحكه.

تلعثم نيكراسوف قبل انهاء عبارته عابساً. وبطريقة لم يلحظها نيكراسوف أرى لوباخين قبضته، المبيضة عند المفاصل، لكوبيتوفسكي، محركا شفتيه بغضب، وقال:

– هيا يا نيكراسوف، هيا لا تخجل، واصل حديثك، الكل هنا يتفهمك، باستثناء مجنون واحد.

استدار كوبيتوفسكي الضحوك جانباً، وطفق يكركر وينشج ويولول بصوت رفيع، محاولا بكل جهده كبت نوبة القهقهة الجنونية المستبدة به، وأخذ يسعل متصنعاً. انتظر نيكراسوف ريثما يفرغ كوبيتوفسكي من سعاله، ثم واصل حديثه، وعلامات الجد السابقة ما تزال مرسومة على وجهه العابس، قائلا:

– وما هو المفهوم، ان هذه العجوز لغباوتها اغترت بنفسها... أنا أقف على درج الموقد، أما هي، العجوز الهرمة العجفاء الشمطاء، فأخذت طبعاً، تتكلم، بين نائمة وصاحية، خائفة، مضطربة وبصوت حزين: «يا معيلي، ما الذي خطر ببالك، أيها الصبي اللعين؟» وتدفعني بجزمتها اللبادية في وجهي. كانت هذه الحسناء الدينارية في شيخوختها تنام فوق الموقد الدافيء، وهي في كامل ملابسها حتى جزمتها اللبادية ومعطفها الفور. انه لأمر مضحك ومؤلم في آن وحق الرب! ولما ركلتني مرتين، ثبت الى رشدي، وسارعت قائلا: «بالله عليك أيتها الجدة، لا تصرخي وكفي عن التلويح بساقيك، وليس من المستبعد أن تنفكا وأنت في هذا العمر. لقد حصل ذلك سهواً كنت شبه نائم، اذ خيل الي انني أخرج من الملجأ، وهذا ما جاء بي اليك. المعذرة، ايتها الجدة على ازعاجي لك، ولكن لا تقلقي اطلاقاً، على عفتك، ليتك تبتلين بالكوليرا» قلت لها ذلك ونزلت عن الموقد، وأنا أتارجح من النعاس كالثمل، أما أذناي فكانتا

متقدتين كالنار. وفكرت: «يا الهي ماذا دهاني؟ هل سمع أحد من الشباب حديثي مع العجوز، يا ترى؟ وماذا عندئذ؟ انهم سيدفنونني حياً، ساخرين بي بسبب هذه العجوز المجنونة!» وما كدت أفكر حتى جذب شخص ما ساقي. كان ضابط اتصال – برتبة رائد – نائماً قرب الموقد. انه هو الذي صحا من نومه، وأضاء مصباحه اليدوي، وسألني بصرامة: «ماذا تفعل؟ ماذا جرى؟» وشرحت له بالطريقة العسكرية كيف خيل الي انني في الملجأ، وأزعجت العجوز عن غير قصد. وعندها قال لي: «ان ما تعانيه أيها المقاتل، هو مرض الخنادق، حدث لي أيضا مثل هذا وأنا في الجبهة الغربية. الباب – على يمينك، ولكن حذار أن تتسلق السطح لتقضي حاجتك لئلا تسقط من هناك وتكسر عنقك».

ولحسن حظي، لم يسمعني أحد من الشباب، اذ كانوا جميعاً ينامون مرهقين تماماً، وانتهي كل شيء على خير. ولكن منذ تلك الليلة كثيراً ما كان يتهيأ لي انني في الملجأ أو في خندق أو مخبأ ما. فالمصيبة هي اني في حالات الاستنفار ادرك كل شيء بسرعة، ولكن حين أفيق لقضاء حاجتي، – لا بد من ان أفعل العجائب...

في الاسبوع الماضي، لدى مبيتنا في ستوكاتشيف، تصور انني دخلت الى داخل الموقد، ومن الذي يخطر بباله الاقدام على الولوج الى الموقد! لن يفعل مثل هذا حتى المجنون حقاً، ولما خطر بذهنه... كدت أختنق هناك. وحيثما وليت وجهي وأدرت رأسي لم أجد أي مخرج! ولم أفطن للتراجع الى الخلف، واستلقيت ضاغطاً رأسي الى الطوب ورائحة الشواظ تفوح من حولي... وعند ذاك فكرت بان أجلي قد حان، لا شك في أن قذيفة ما طمرتني تحت التراب، وحصلت لي مثل هذه الحادثة، في نوفمبر – تشرين الثاني، طمرنا في الخندق. فلو لم يسارع رفاقنا الى النبش عنا، لكانت الآن شجيرة هندباء برية نابتة فوق عظامي... وهكذا صرت أخدش الطوب داخل الموقد، وأبعثر الحطب واتحرك قليلا، وأنادي بصوت وحشي: «أيها الرفاق

الأعزاء! يا من بقوا احياء؟ هيا بنا نقم بازاحة التراب عن انفسنا بقوانا!» لا أحد يرد علي. ولا أسمع غير دقات قلبي الذي ينبض عند حلقي مباشرة من شدة الذعر. بحثت بيدي عن رفشي، الا انني لم أجده معلقاً بحزامي. واعتقدت بأن رفاقي كما يبدو قد هلكوا جميعاً، ولن أستطيع وحدي ازالة التراب بيدي المجردتين. وهنا أعترف لك بأنني بكيت... وجعلت أفكر في الميتة الحقيرة التي سوف يتوجب علي ان أموتها مرة ثانية، تباً لحرب كهذه! واذا بي أشعر بأن شخصا ما يشد رجلي. اتضح انه رئيس العرفاء. أخرجني جراً، طبعاً لم أتمكن من تبينه في الظلام، وقفت على رجلي وأنا في منتهى السعادة، وعانقته شاكراً: «جزيل الشكر لك، ايها الرفيق العزيز، على انقاذك لي من الموت. هيا بنا نسارع لانقاذ باقي الشبان، والا فانهم سيموتون، سيختنقون! فسألني رئيس العرفاء شبه النائم وهو لا يعي شيئاً، هازاً اياي من كتفي، وهامساً ببطء «وكم شخصاً كنتم داخل الموقد، وأي شيطان زج بكم فيه. وبعد ذلك، ولدى ادراكه الأمر، اقتادني الى المدخل وشرع ينهال علي بالشتائم طولا وعرضاً ودون أن يبقي لي لا أول ولا آخر ويقول: «شاركت في ثلاث حروب، ورأيت مختلف الصنوف والألوان، الا انني أرى للمرة الاولى أناساً يسيرون أثناء النوم مثلك، ولا يسيرون فوق سطوح المنازل وانما يزجون بانفسهم في مواقد الغير. لقد رأيت بنفسك، قبل أن يخيم الظلام، كيف أخرجت ربة البيت كل المأكولات من الموقد، ووضعت الحطب لتوقده، فأي عفريت حملك على الدخول الى هناك؟».

عدت الى وعيي، وشرعت أشرح له عن مرض الخنادق الذي أعاني منه، أما هو فلم يرد حتى الاصغاء الي، فحك جسده قليلا، ثم تثاءب، وقال ببطء وبلغته الاوكرانية الطريفة: «انك تكذب يا ابن الحرام! غدا ستقوم بنوبتي خدمة اضافية عقابا على قيامك بمحاولة سلب ما في الموقد، والاساءة الى السكان الآمنين، وبنوبتين اخريين كيلا تعود الى البحث حيث لا ينبغي لك البحث. اذ ان ربة البيت نقلت

ما تبقى من العشاء من حليب وحساء كرنب الى القبو منذ المساء. انك لا تتمتع بقوة الملاحظة العسكرية قطعاً!..»

قهقه كوبيتوفسكي ولطم فخذه العارية مرة أخرى.

— كم كان قراره سليماً! انه ليس رئيس عرفاء بل محكمة عليا!

رمقه نيكراسوف باستنكار وواصل حديثه بنفس الهدوء والاتزان، وكأنه يتحدث عن شخص غيره:

— ومهما جربت من وسائل، حتى لا افيق ليلا — لم تكن لتجدي مطلقا! كنت لا أشرب الماء ولا أتناول الأطعمة الساخنة أياماً ولكن بلا جدوى! قبل بزوغ الفجر أفز من نومي، كمن تلقى الايعاز: «تهيا»، — وأسير في النوم هائما على وجهي. واليك مثلا ما حدث الليلة الماضية — أفقت قبيل السحر، الامطار تهطل، رجلاي مبللتان. وبسبب نعاسي، وهذا المرض الخبيث — مرض الخنادق — خيل الي ان الامطار تسربت الى الملجأ. وكان علينا حفر قنوات تصريف منذ البارحة. نهضت، حركت يدي — شجرة. ولم يخطر ببالي انني كنت نائما مع مايبورودا تحت شجرة الحور... فجعلت اتحسس الشجرة وأتوهم في نفسي بأنها حائط، وأبحث عن الدرج حتى أصعد. وصدفة، ولدى دوراني حول الشجرة دست على رأس مايبورودا هذا... آه، ما أشد الضجة التي أثارها — العياذ بالله! هب، نافضا المشمع عن نفسه باصقاً مطلقاً الشتائم التي تخدش الاذن! ويقول: يا لك من مختبل العقل، أنت كذا وكذا، هل جننت تماماً حتى تتسلق الأشجار ليلا، كأتعس قرد، اذا كنت لاترى من ذلك بدأ، فلا تدس على الناس الأحياء ولا تسر فوق الرؤوس على الأقل، والا فسأتناول بندقيتي وسأرفعك الى الشجرة بحربتها! حتى تجف على الغصن كتفاحة مدودة!

لم يفهم هذا المغفل المجنون انني لم أطأ على رأسه متعمداً، بل بسبب مرض الخنادق اللعين هذا. واسترسل في شتائمه من شدة سخطه حتى بح صوته. وبقيت ساكتا حتى النهاية، لانني أعرف أن الخطأ مني أما هو، فجمع

أمتعته ولفها داخل ردائه المشمع، وقبل الذهاب للبحث عن مكان آخر في الغابة قال مودعا: «يا له من قدر لئيم: الشبان الطيبون يقتلون، أما أنت يا نيكراسوف فلا تزال متمتعا بالحياة...» وهنا، لم اتحمل بالطبع وقلت له: «تفضل علينا بالابتعاد وكف عن نشر روائحك الكريهة هنا! للأسف لم أطأ رأسك الفارغ الا برجل واحدة، كان علي أن أطأه بالاثنتين بعد جرى...» فانقض علي بقبضتيه. وهو شاب موفور الصحة ،ذو قوة خارقة مثل الثور. فاختطفت رشاشي، وتراجعت بسرعة مبتعداً عنه، وصرخت به من بعيد: «لا تقترب، والا فاني سارشقك بصلية وامحوك عن وجه الأرض! ساشوه وجهك بحيث يكون من المستحيل التعرف عليك!» وكدنا نتعارك بالأيدي...

– سمعت كيف كنتما تتبادلان المجاملات ليلا، – قال لوباخين، – ولكن لا استطيع أن أفهم ما تريده من وراء كلامك هذا كله.

– انني بحاجة الى استراحة.

– وماذا بالنسبة للآخرين؟

– بالنسبة للآخرين، لا أعرف. لعلي لست رجلا نولاذيا مثل الآخرين، – قال نيكراسوف منقبضاً.

وما انفك يجلس فارجا ساقيه، بجزمته المهترئة البالية بفعل حشائش السهب الطفيلية الكثيفة، ولا يكف عن العبث بالغصن الصغير ورسم رسوم لا معنى لها على الرمل، دون رفع رأسه المنكس.

في مكان ما الى اليسار، خلف الغابة، وفي السماء الزرقاء الصافية البادية من هنا، من الأرض، شديدة الزرقة كثيفتها بشكل ملموس كانت تجري معركة جوية حادة. ولا أحد من الجالسين في المرج يرى الطائرات، لم يكن يسمع الا اشتباكها هناك في الأعلى، والدوي المميز لرشقات المدافع الرشاشة المتقطعة منها والطويلة، التي تتخللها طلقات المدفعية المكبوتة المتكررة.

ومن بين كل الاصوات، وهدير المحركات المختلفة

سمع، بوضوح ولبضع دقائق، صوت احدى المقاتلات، رفيعاً حاداً، بدأ يتضخم، ليتحول الى زمجرة خفيضة عميقة هادرة، ومن ثم ليهدأ تماماً. وما كانت تسمع الا فرقعة المحرك المتقطعة البعيدة وطقطقة الارتجاج الثقيل، وتوحي اليك كما لو في مكان بعيد كان قماش من الكتان يمزق ارباً ارباً.

في السماء، ومن الجهة اليسرى، وعلى حين غرة، ظهر خط دخان أسود عريض مائل، يزداد طولا، وفي مقدمته طائرة تلمع كابية تحت أشعة الشمس، وتهوي نحو الأرض بقوة. وبعد لحظات، سمعت من ضفة نهر الدون المقابلة قرقعة ارتطام قصيرة خافتة...

شحب وجه كوبيتوفسكي، في الحال وبصورة ملحوظة، وقال بهمس:

– اسقطت واحدة... ليتها لا تكون من طائراتنا! انني اشعر وكأن شيئا ينشف معدتي، وبالملوحة في فمي حينما تهوي احدى طائراتنا على مرأى مني...

صمت قليلا، وبعد أن خفت حدة الانطباعات الاولى، نظر بارتياب وشزر الى نيكراسوف وسأله بقلق وجد، وقد اختلف صوته:

– اصغ الي، أليس مرضك هذا، مرض الخنادق، أليس... معدياً؟ فلكوني بجوارك أخشى أن تنتقل الي العدوى بمرضك، وقد أبدأ السير نائما في الليل، الى حيث لا ينبغي.

قطب نيكراسوف جبينه، وقال باستخفاف وخبث:

– أنت مجنون!

– عجبا، ولم أنا مجنون؟ – استغرب كوبيتوفسكي بصورة لا توصف.

– لأنك، مادمت تتمتع بمثل هذه الصحة، لن تصيبك حتى الجمرة الخبيثة، ناهيك عن الامراض العقلية.

أبرز كوبيتوفسكي صدره الضخم بغرور واعجاب، وقال متفاخراً:

– صحيح ما تقول، نعم صحتي جيدة.

– فانتم الشبان وبما تتمتعون به من صحة، باستطاعتكم أن تحاربوا بلا أية استراحة، أما أنا فلا، – قال نيكراسوف بكآبة. – فانا لست من جيلكم، ويشدني حنين الى بيتي... لي أربعة أطفال، وكما ترى فانني لم أرهم منذ سنة ولقد نسيت أشكالهم... أقصد نسيت منظر وجوههم... تلوح أعينهم في خيالي بغموض، أما باقي ملامحهم فكأنها ملفعة بالضباب... وفي بعض الأحيان، ليلا، عندما لا نكون مشغولين بالقتال كم أتعذب وأنا أحاول تذكرهم بوضوح، – الا انني لا أوفق! وأتصبب عرقا من بذل الجهد ومع ذلك لا أقدر على تصورهم بدقة، مهما حاولت. والأدهى من كل ذلك لا أستطيع حتى تذكر ماشوتكا، ابنتي الكبرى، انها الآن بنت ربيعها الخامس عشر... وهي ذكية جداً، أذكى طالبة في المدرسة...

كان نيكراسوف يتكلم بخفوت وغموض متزايدين. وذكر العبارة الاخيرة بصوت أجش تشوبه رعشة خفيفة – ولزم الصمت، كسر الغصن الذي ظل يعبث به طوال الوقت، وعلى حين غفلة، رفع رأسه، ونظر الى لوباخين بعينين مخضوضلتين لامعتين، ومن خلال دموعه – الدموع الرجالية الشحيحة – ابتسم ابتسامة خرقاء:

– انني لا أتحدث عن زوجتي... انها مسألة خاصة هكذا، ليس بمقدورك العثور على كلمات مناسبة فوراً... الا أنني قد نسيت أيضاً ومنذ زمن طويل رائحة ابطيها...

ما فتىء لوباخين ينظر الى نيكراسوف. بوجه شاحب لا يكاد يتمالك أعصابه، وبعينين متكدرتين حنقاً، ويصغي اليه صامتاً، ومن ثم سأله بصوت هادىء تخنقه العبرة بصورة غير متوقعة:

– من أين أنت، يا نيكراسوف؟ من مدينة كورسك؟

رد عليه نيكراسوف بدوره، بهدوء أيضا، وهو يسعل قليلا:

– كنت من كورسك. من ضاحية ليبيديانى.

شبك لوباخين أصابع يديه بشدة، وهو ما يزال كالسابق يحدق الى وجه نيكراسوف المسترخي حزناً، بدأ يتكلم بصوت خفيض:

– انك تتحدث عن الاطفال بصورة مؤثرة، أيها السافل! بصورة مؤثرة! وتقول بأنك أب وزوج محب. الألمان يستحوذون على أرضه، ينكلون بأسرته شر نكال. أما هو أرايت بم يفكر، يريد أن يعاشر امرأة وينعم بالراحة في المؤخرة: لقد اخترت الوقت المناسب جداً... ماذا اذن، اخلد الى الراحة، تسمن وتعرض، ومتع نفسك مع امرأة غريبة، أما بالنسبة لزوجتك فليحرث الألمان بها الأرض. وأما أطفالك فليموتوا جوعاً كالجراء الضالة... شيء رائع! كذلك، تقول بأنك نسيت هيئة أبنائك. ليس من الصعب عليك نسيانهم مادمت لا تفكر بشيء الا جلدك! لا تدر بوزك، واسمع ما أقول! تقول انك تتمنى الذهاب الى بيتك، ولكن أخبرني كيف ستعود؟ هل ستعود مرفوع الرأس معززا، كمقاتل، أو ربما ستزحف على بطنك مستأسراً للألمان؟ وبعدئذ ستزحف الى عتبة بيتك كالكلب لتهز ذيلك ولتفرح اسرتك: لقد أضنى القتال بطلكم، والآن افكر بالوقوف على قائمتي الخلفيتين أمام الفريتس لاخدمه بصدق واخلاص، أهكذا؟ كنت أعتبرك انساناً روسياً، ولكن اتضح لي أنك حقير مجهول القومية. اغرب عن وجهي، يا نخامة الضفدع، ولا تدفعني الى ارتكاب جريمة!

كان لوباخين يتكلم، وقلبه يزداد غلياناً مع مرور كل دقيقة، وأخيراً صمت، وزفر بقوة عنيفة وكان صدره فيه كير حداد.

– من الافضل لك أن تذهب، يا نيكراسوف اذ ليس من المستبعد أن... يضربك – نصحه كوبيتوفسكي، الذي لم يسبق له أن رأى لوباخين المتحفظ ثائراً بهذا الشكل والى هذا الحد.

لم يتحرك نيكراسوف من مكانه. في البداية أخذ يصغي والحمرة تعلو وجهه ببطء، ولا يكف عن النظر الى عيني

لوباخين الزرقاوين، اللتين تلمعان باهتتين بلمعان فولاذي، ثم حول نظره عنه، وسرعان ما طغى الشحوب والارتباد على عنقه ووجنتيه وذقنه، حتى ان خديه المقشرين من الشمس اكتسيا بزرقة فظيعة كشحوب الموتى.

وما برح صامتاً، منكساً راسه الى الأسفل، عابثاً بأصابعه المرتجفة بحزام رشاشه الملطخ بالزيت. ولقد كان هذا الصمت الطويل ثقيلا، حتى ان صبر لوباخين فرغ اولا، وخاطب كوبيتوفسكي وهو لايزال يلهث ويتنفس مضطرباً:

– وأنت يا ساشكا، ما رأيك؟ أستبقى؟

مزق كوبيتوفسكي بخشخشة، ورقة مائلة للف سيجارة ورفع حاجبيه الاشقرين غاضباً:

– يا له من سؤال، حتى انني أستغرب سماعه! وماذا هل سنكسر سلاحنا الى قسمين؟ ان بقيت أنت سأبقى انا أيضاً. فانا واياك كالسمك والماء... سنحارب معاً حتى النصر. انني لن أقدر على تركك، اذ انك ستموت هماً بدوني، لن تجد من تشتمه. أنا صبور، أما شخص آخر غيري فقد لا يسكت لك – وهذا يعود الى من هو الذي سيصادفك.

انغمرت عينا لوباخين بالدفء، وبدا تعبير جديد ما فيهما حينما نظر شزراً الى مساعده الثاني.

– هذا صحيح، – قال مستحسناً. – هذا يتناسب والعلاقة الرفاقية. اذن فابق يا عزيزي ساشكا، بجوار نيكولاي، أما انا فسأذهب الى رئيس العرفاء. من الضروري اخبار القيادة، باننا سنبقى، اذ لا يجوز القيام بذلك خفية.

وفي الحال لحقه نيكراسوف منادياً.

– ما الذي تريده بعد، ياصهر العمة؟ – سأله لوباخين بخشونة ودون الالتفات اليه.

وبعد ان صار نيكراسوف بمحاذاته أخذ يدمدم بصوت متقطع:

– قررت... انا أيضاً... قررت البقاء معكم، هكذا اذن! لقد ثبت الى رشدي! ولكن ما هي الأشياء التي لا تخطر ببال الانسان حينما يكون تعباً وغاضباً، وما الذي لا يقوله

لدى فقدانه زمام نفسه... لا تلمني يا لوباخين على كل ما صدر عني... وكم من الدروب قطعنا معاً، فانا لست غريباً عنك، في واقع الأمر... وليس هنا ما يستحق الغضب. أتسمعني يا بيتكا؟ ماذا، ألن تقدم لي الدخان لندخن احتفالا بتصالحنا؟

اتضح أن قلب لوباخين سريع العفو عن صاحبه... فأبطأ الخطى، وناوله كيس التبغ أثناء سيره، وتمتم بصوت أضحى ألطف بعض الشيء:

– ان مجنوناً مثلك ينبغي تضييفه بمؤخرة البندقية! فيما تحاول اقناعه وافهامه منهكاً ما تبقى من أعصابك التعيسة، تجده يحوك أشياء لا يعرفها الا الشيطان... خذ، ولكن لا تنس انك يجب أن تلف من تبغ غيرك سيجارة أرفع.

– أقسم لك انني لا أستطيع لف سجائر رفيعة! – هتف نيكراسوف وقد بدا مرحاً.

توقف لوباخين، لف سيجارة رفيعة، ودسها صامتاً، في يد نيكراسوف. فتناولها الآخر منه بحذر وباصابعه السوداء المتصلبة، وجعل يتفحصها من جميع الجوانب بنظرات ناقدة، ثم تنهد، وأخذ صامتاً بدوره أيضاً، يدخن.

* * *

وصلا ملجأ رئيس العرفاء في الوقت المناسب: كان فاسيلي خميز، رامي الرشاش الثقيل يقف في حالة تهيؤ عند المدخل، فيما يقوم رئيس العرفاء، بوبريشينكو بتوبيخه، وعيناه المؤرقتان الحمراوان المنتفختان تبرقان غضباً:

– ... من أين ظهر هؤلاء الأبطال! لا يريدون الاعتراف لا بالضبط والربط ولا بالقوانين العسكرية، ولا يفقهون شيئاً في شؤون الخدمة العسكرية، ويتصرفون كأطفال في السوق: يلحون للحصول على كل ماتتمناه أنفسهم ولو كان ذلك مستحيلا. ولكن أتعرف أن أكل العصيدة والذهاب الى

الموت بالنسبة للجندي لا يتمان الا بموجب اوامر من القيادة، وليس حينما يخطر بباله؟

صمت قليلا، ورفع صوته بغتة، محدقاً بنظرات ثاقبة الى وجه الرامي الوسيم:

– أصبحتم فوضويين! تتصرفون على هواكم! وبم جئت الي أيها الشرير؟ أنحن في وحدة عسكرية أم مشغل للنجارة؟ وهل أنت تعمل في الجيش حسب نظام المياومة، أم ماذا؟ أيحق لي ان أتركك تنضم لوحدة اخرى، هل لدي مثل هذه الصلاحية؟ اليوم تترك الوحدة أنت، وغداً شخص آخر وهكذا وهلمجرا، وبعد ذلك ما الذي سيحصل؟ انني أسالك أنت؟ سأبقى وحدي، وهل سأذهب وحدي الى قائد الفرقة؟ وأقول له: ألم تعرف عجوزاً مجنوناً مثلي أيها الرفيق العقيد؟ لقد تشرفت بالقدوم اليك – أنا رئيس العرفاء بوبريشينكو. بقي في الفوج رجال سالمون بعد المعارك، الا انني سرحتهم كالرنقاء الرديئة التي تعود الى البيت وحيدة بلا كتاكيتها... انزع عني رتبة رئيس العرفاء الرفيعة، وأمر بشنقي على أتفه غصن، انني استحققت هذه الارجوحة عن جدارة... أهكذا يا فاسيلي خميز؟ أهذا ما تريد أن تشرفني به في شيخوختي العسكرية؟ ألم تشم هذا أيها الكلب؟

أخرج رئيس العرفاء ابهامه من بين اصبعيه المصفرتين من الدخان، واضعاً اياه بعض الوقت قرب أنف الرامي الدقيق المعقوف قليلا، ثم أنزل يده قائلا:

– اذا ما فكرت بارتكاب حماقة والذهاب بلا اذن، سأعتبرك فاراً من الخدمة، ليكن هذا بعلمك! وستقدم للمحكمة العسكرية كهارب من الخدمة! اغرب عني واذهب الى الجحيم، ولا تأت الي بمثل هذه السفاسف!

– سمعاً وطاعة، يا رئيس العرفاء لن اتقدم اليك ثانية بمثل هذه السفاسف، – كرر خميز مشدداً على العبارات بصورة رسمية، وقطب حاجبيه الرفيعين الاسودين كحواجب النساء، واستدار الى اليسار صافقاً كعبيه بلطف.

شيع رئيس العرفاء بنظرات طويلة مشيته العسكرية، وقامته الممشوقة الأنيقة، وقال فارداً ذراعيه.

– أرأيتم مثل هؤلاء الأذكياء؟ – قال وهو يرمش بعينيه الصغيرتين المخضوضلتين، نافخاً شاربه الأشقر كثيف الشيب، باستياء. – انه يتقدم الي للمرة الرابعة منذ الصباح – مكرراً نفس الاسطوانة! للمرة الرابعة! انهم غير راغبين في الانتقال الى المؤخرة، ويودون البقاء هنا... لعلي أنا أيضاً لا أريد قطعاً الانتقال الى المؤخرة، ولكن اليس من الواجب تنفيذ الأوامر؟ – صرخ فجأة بصوت مرتفع ناشز ومبحوح، على انه تمالك نفسه، وواصل بصوت أهدأ: – لقد رأيت الرائد توآ – قائد الفوج الرابع والثلاثين. أمر بالاتجاه فوراً الى عزبة تالوفسكي، هناك قيادة اركان فرقتنا. تجرأت على الاستفسار منه: ما مصيرنا؟ فأجاب: «لا تقلق أيها العجور، مادمنا حافظنا على شرفنا العسكري المقدس وهو الراية، فلن يسرح الفوج، سيتلقى بسرعة الامدادات البشرية من جنود وضباط، وسنتحرك الى الجبهة من جديد، والى أهم قطاع». – رفع رئيس العرفاء سبابته بمهابة، وكرر: – الى أهم قطاع، كيف تفهمون ذلك؟ يقول الرائد ذلك لأن فرقتنا محنكة اجتازت كل الاختبارات، وشديدة الصمود. ان مثل هذه الفرقة، لن تبقى عاطلة لمدة طويلة رغم خسائرها الفادحة. هكذا قال الرائد وهنا يأتي الي بعض المراهقين الطائشين لتصديع رأسي ببطولاتهم الصبيانية... انهم يريدون التخلي عن وحدتهم الحميمة والتسكع في الجبهة مثل الكلاب الضالة. مذ متى كان الأمر على هذا النحو بحيث يهرب الجندي من وحدة لاخرى حسبما يراه هو مناسباً؟ اني أسالكم كيف يكون بامكان فاسيلي خميز، هذا الجرو الرضيع، أن يعرف موقع أهم قطاع؟ وربما تظل الفرقة التي احتلت مواقع دفاعية بدلا منا ترابط في الدفاع حتى فصل الشتاء وقد لاتحدث هنا أية معارك، بل مجرد مرابطة هكذا. من يدري أكثر، الرائد أم هذا البقباق خميز؟

لقد ضاع كل شيء سدى! ولقد فشلت خطط وحسابات لوباخين السابقة كلها، فشلا ذريعاً أمام حجج رئيس العرفاء الدامغة. ولسبب ما نزع لوباخين خوذته عن رأسه، وطفق يمرر يده على سطحها العلوي المحمي بالشمس. «ان العجوز الشيطان محق تماماً! وكيف لم يطبخ رأسي القدر هذه المسائل من قبل؟ – أخذ يفكر خائر النفس ناظراً باتجاه ما نحو رئيس العرفاء. – من المحتمل جداً أن يرسلونا الى قطاع حساس، وماذا الا يشدد الفريتس هجماته هنا. نعم، لاشك ان الأمر سيكون على هذا النحو. ها هم ينطلقون الى مكان ما شرقاً متجاوزين ايانا... آه لقد اخطأت، أما الآن فعلي بالعدول عن قراري...»

– ولم جئتما يا طفلي؟ – سأل رئيس العرفاء بلهجة مبطنة بالغضب، يظهر انه خمن السبب غير السار لقدومهما، ومد عنقه المتغضن الى الأمام، وكأنه ديك يتهيأ لخوض الصراع ضد ديك آخر، منتظراً الرد.

ارتخى فك نيكراسوف السفلي بتأثير المفاجأة، في حين أجاب لوباخين، ماسحاً بكمه العرق المنهمر بغزارة على جبينه، لا أباليا:

– جئنا لمعرفة موعد بدء القتال.

تنفس رئيس العرفاء الصعداء. وتخلص لوباخين، ليس بلا صعوبة، من قراره السابق وزفر بتنهيدة ثقيلة. أما نيكراسوف فاستنشق بصفير، وهمس:

– لم تعقد الأمور؟ اخبره رأساً أخبره بلا لف ودوران، انه لن يخيفنا!

– لقد قيل كل شيء! – قاطعه لوباخين. واستدار الى رئيس العرفاء: – أصدر أمرا بالاصطفاف، والا فليس من المستبعد أن تتفرق وحدة نجاريك وتتلاشى...

* * *

قطعوا مسافة خمسة عشر كيلومترا، توقفوا في منتصفها لفترة استراحة قصيرة، وفي حدود الساعة السادسة

مساءاً أخذت الحرارة المرهقة تهبط بالكاد، دخلوا الوادي العميق الفسيح الممتلىء بأشجار الصفصاف، المؤدي الى العزبة.

كانت المسافة من هنا الى عزبة تالوفسكي حيث توجد قيادة أركان الفرقة زهاء سبعة كيلومترات فحسب، غير ان رئيس العرفاء كان قد أعلن قبل دخول العزبة انهم سيبيتون هنا. قال أحد المقاتلين متذمراً:

– لا يزال الوقت مبكراً للتوقف للمبيت! سندخن ونرتاح قليلا، وقبيل الغروب سنسير الى تالوفسكي. أتسمع يا رئيس العرفاء؟

وأردف مقاتل آخر:

– لم نأكل طوال النهار! هناك سنجتمع حول قدر القومندان على الأقل...

نخر رئيس العرفاء غاضباً في شاربه الرمادي من جراء الغبار، – وتطلع الى المتكلمين بنظرة صارمة:

– هيا كفوا عن الجدال والكلام! ليس بمقدوري مقابلة العقيد بصعاليك جياع. أواضح لكم هذا؟ سنتوقف للمبيت، حتى ترتبوا كل أموركم كما ينبغي: ارفوا ثيابكم الممزقة ورقعوها، ومن كانت جزمته في حالة سيئة فليصلحها، نظفوا اسلحتكم – طبعا حتى تلمع كالمرآة المصقولة. عليكم أيضا بالاغتسال وقشط لحاكم، ولتكونوا في الصباح كالبلور. وسوف اتشدد في الفحص. مفهوم؟ أما بخصوص الطعام فاني سوف أحصل عليه من الكولخوز. لسنا في دولة غريبة، اياكم ان تتفرقوا طارقين البيوت، فلسنا بشحاذين. مفهوم؟ وليكن واضحاً ومفهوماً انني لن أسمح بالاساءة الى سمعة فوجي!

وجدوا رئيس الكولخوز في مكتبه. دخل رئيس العرفاء الى المبنى، جلس المحاربون في ظل خفيف، وسار البعض، بخطى متثاقلة نحو البئر. مضى ما يقارب خمس عشرة دقيقة وما زالت الأصوات تسمع من المبنى: صوت رئيس العرفاء الحصيف كمن يرجو، وصوت آخر مرتفع،

يكرر دائماً وبنبرات مختلفة: «لا أقدر قلت لك، لا أقدر. لا أقدر، أيها الرفيق رئيس العرفاء!»

– أرى انهما لن يتفقا أبدا. اذهب يا لوباخين لمساعدة العجوز، – قال كوبيتوفسكي ناصحاً. نهض لوباخين، الذي أصغى طويلا باهتمام الى بعض فقرات الحوار المنبعث من المبنى، وسار بخطى حازمة الى الطنف.

كان رئيس الكولخوز يجلس في غرفة صغيرة، قرب نافذتها الملصقة بأوراق الجرائد، وكان شاباً طويلا، بقميص وطاقية عسكريين قديمين، طاقيته كالحة حتى البياض وبلا نجمة، وذراع قميص يده اليمنى المبتورة، مدسوسة في حزامه بلا عناية. وكان رئيس العرفاء يجلس قبالته مباشرة، وقد جر كرسيه بحيث تتلامس ركبتاه مع ركبتي رئيس الكولخوز، وهو يقول، محاولا بشتى الوسائل اضفاء طابع المزيد من الاقناع قدر الامكان على صوته المبحوح:

– أنت محارب سابق، ولا تقدر وضعنا، وتجادل، اعذرني، كامرأة جاهلة...

برقت عينا الرئيس الرماديتان الضيقتان الغائرتان بجفاء، ولوى فمه صامتاً، يظهر ان هذا الحديث قد اضجره. سلم لوباخين عليه، وجلس على طرف المقعد:

– ما هي القضية؟ وعلام تتساومان؟

أجاب رئيس الكولخوز غير ملتفت اليه:

– ان رئيس عرفائكم يطلب أن أصرف له مواد غذائية من مستودع الكولخوز، وذلك ماليس بوسعي فعله.

– لمه؟

– ها! لمه؟ لأن المستودع فارغ. أتظن انكم أول الفارين عبر عزبتنا؟

– لسنا فارين، – صحح لوباخين بتحفظ، شاعراً بالحقد الذي يغلي في قلبه على رئيس الكولخوز، وعلى عينيه الضيقتين الباردتين، وصوته الواثق. وجعل يفكر، ملقياً نظرة جانبية مفعمة بالكراهية على عنقه الأحمر القوي ووجهه الحليق جيداً والمشدود: «لقد نسي حياة الجبهة،

لقد تخلص من الحرب وشبع والآن لاتهمه مصائب الآخرين ولا يبالي بها.»

– لستم اول الفارين ولا آخرهم على ما يبدو، – كرر رئيس الكولخوز بعناد.

– أكرر، لسنا بفارين، – قال لوباخين بحدة. – هذا أولا، وثانياً – نحن الآخرون. لم يبق بعدنا أحد.

– وهل هذا يسهل امورنا! ان الذين سبقوكم، – قد نظفوا المستودع كلياً – حتى أنهم كنسوه كنساً.

أدار رئيس الكولخوز وجهه الى لوباخين، وأراد أن يقول شيئاً آخر، لكن لوباخين سبقه مستفسراً:

– هل حاربت في الجبهة؟

– أتظن ان ذراعي قد أكلها عجل؟

– هل قيض عليك ان تجرب التراجع؟

– كان كل شيء ممكن الحصول، أما مثل هذا الذي يجري حالياً فانه لم يكن قد وقع.

– افهمني يا عزيزي، ياذا الرأس الفارغ، ليس بوسعي ترك رجالي جياعاً، – قال رئيس العرفاء. – انني اتحمل أمام القيادة المسؤولية عن كل فرد منهم. مفهوم؟ أنت اكتب لنا فاتورة، فاننا سنجد شيئاً ما، نحن لا نحتاج الى الكثير.

ولكي يقنعه تماماً، وضع رئيس العرفاء يده على ركبة رئيس الكولخوز، غير ان الآخر أبعد رجله، مبتسماً ببساطة وهدوء:

– آه، يارئيس العرفاء، آه! ان مشكلتي معك أيها العجوز لمشكلة! اذ انني أقول لك باللغة الروسية: لا يوجد في المستودع شيء، سوى الفئران، لا يوجد، الا انك لاتصدق. ولا تضع كفك على رجلي فاني، لست بفتاة، فضلا عن كونها لن تتاثر بمحاولتك اذ انها اصطناعية... سأصرف لكم كيلوغرامين من الدخن لا أكثر، أما الخبز فعليكم الحصول عليه من أهل البيوت. هذه هي كلمتي الأخيرة.

– وكيف سيكفي الكيلوغرامان من الدخن لسبعة وعشرين نفراً من الجنود النشطاء – لفوج كامل؟ وماذا

سنضع في العصيدة؟ وكذلك لن أرسل جنودي الى البيوت لطلب الخبز، فلسنا شحاذين. اهذا مفهوم؟

نظر لوباخين الى وجه رئيس العرفاء المهموم، وأبعد المقعد بجلبة كبيرة. رفع رئيس العرفاء يده محذراً:

– لوباخين اهدأ!

– هيا بنا الى المستودع، – قال رئيس الكولخوز باقتضاب. واتجه الى الباب وهو يطأ بقوة برجله الاصطناعية على الارضية الخشبية. وتبعه رئيس العرفاء بارتياح. وسار لوباخين خلفهما.

قرب المستودع ترك رئيس الكولخوز رئيس العرفاء يسبقه، وامسك بمرفق لوباخين.

– انظر أنت نفسك يا حامي الطبع الى ما تبقى لدينا. لا يوجد لدي مستودع سري، ولا أريد اخفاء أي شيء عنكم. يبدو أنكم شبان شجعان ممتازون، ولما كنت لابخل عليكم بشاة لتذبحوها وتطبخوها، ولكن القطعان كلها – الأبقار والأغنام – هجرت بالأمس فقط بناءاً على اوامر المحافظة. ولم يبق سوى ما يعود الى الكولخوزيين. ولمنحتكم نعجتي لو كان عندي نعجة ولكن بيتي يخلو الا من زوجتي وقطتنا.

ساعده لوباخين، صامتاً، في فتح القفل الكبير، ودخل المستودع شبه المعتم. ولم يكن في الصومعة الكبيرة سوى كومة صغيرة وحيدة من الدخن. وما ان رأى رئيس العرفاء تردد لوباخين حتى أمره بحزم قائلا:

– هيا باشر!

انحنى لوباخين، متورداً خجلا ومضطرباً، أخذ يكنس حبات الدخن المنثورة المتروكة في قاع الصومعة بريش الاوز، وجمعها في الوسط، ثم وقف معتدل القامة وقال:

– هنا ثلاثة كيلوغرامات او ما يقارب ذلك.

– اذن، خذ الكمية بأكملها، دون ابقاء ما نزرعه، – قال رئيس الكولخوز بلطف، غير محول عينيه اللتين غدتا لطيفتين، وحنونين تقريباً، عن لوباخين.

وريثما وضع لوباخين الدخن في حقيبة الظهر، حفنة

حفنة، أخرج رئيس العرفاء من جيبه محفظة نقود رقيقة مشبعة بملح عرقه، وأنشأ يعد الروبلات الملوثة بالزيت، محركا شاربه المغبر.

– كم ثمنها الحقيقي؟ – سأل رئيس الكولخوز ناظرا اليه من تحت جبينه.

لوح الآخر يده ضاحكا.

– لا شيء. لا نأخذ شيئاً مقابل الفضلة.

– أما نحن فلا نأخذ بالمجان، مفهوم؟ – وضع رئيس العرفاء النقود على حافة الصومعة، وقال بطريقة عسكرية: – نشكرك على احترامك لنا، – واتجه نحو الباب.

– الفئران ستأكل نقودك، – قال رئيس الكولخوز وهو لا يزال يضحك.

لم يرد عليه رئيس العرفاء. وخلف الباب أخذ لوباخين جانباً وأخبره هامساً:

– لدينا ما نبدأ به، ولكن ماذا بعد؟ في الحكاية الخرافية صنع الجندي عصيدة من البلطة، هكذا حصل في الحكاية، أما نحن فما عسانا نفعل يا عامل المنجم؟ عصيدة سائلة بلا خبز والمواد الضرورية الاخرى – بالضبط مثل العرس بلا عريس أما الشبان فانهم يتضورون جوعاً! انها لمسألة حرجة بلا حل، – اختتم رئيس العرفاء كلامه بكآبة.

ألا يوجد حل؟ لا، لا توجد مسألة بلا حل! هكذا، على الأقل، كان يفكر لوباخين دائماً، ولربما عبارة رئيس العرفاء الأخيرة هي التي جعلته يتخذ قراراً متهوراً... سطعت عينا لوباخين الزرقاوان الجريئتان مرحاً. اللعنة على الشيطان، وكيف لم يخطر ذلك بذهنه من قبل، وكيف جعل مثل هذه الفرصة السانحة تفوته، وهو الذي لا يخونه حظه مع النساء والذي كان يثق دائماً بكل قلبه من عدم صدهن له ربت لوباخين على كتف رئيس العرفاء المكتئب، وقال مشجعاً:

– المهم ألا تخاف، يا بوبريشينكو! اعتمد علي كلياً. الآن سنتدبر كل شيء. اليوم لا أعدك بالكثير، سأتعرف

على الوضع وساقوم بعملية استطلاعية، وصباح الغد ساطعمكم جميعاً – حتى الشبع! – ووضع حافة راحته عند منخريه المنتفخين.

– وما الذي فكرت به؟ – استفسر منه رئيس العرفاء بحذر.

– سيكون كل شيء وفق القانون، أعدك بشرفي العسكري، – قال لوباخين مؤكداً ومبتسماً بابتسامة عريضة. في هذه المهمة لن يعاني أحد غيري. يتوجب علي هز مبادئي الأخلاقية على كونها منحلة منذ زمن – فانا على استعداد للتضحية في سبيل رفاقي.

– تحدث بما هو معقول ولا تصدع رأسي.

– الآن ستعرف. لحظة، من فضلك أيها الرفيق رئيس الكولخوز!

بدأ لوباخين يخاطب رئيس الكولخوز، لامساً زر قميصه العسكري، ومحدقاً الى عينيه الضيقتين الغائرتين:

– لست بالغريب عنا، وأود التحدث معك بصراحة: لابد لنا أن ناكل اليس كذلك؟ انت لاتستطيع تزيدنا بالأرزاق، اليس كذلك؟ اذن ساعدنا بأمر آخر.

– بأي أمر؟

– هل توجد في كولخوزكم أرملة او زوجة جندي غنية تقتني الأشياء السخيفة، مثلا، الدجاج، أو الأغنام أو سواها من المخلوقات الاخرى الصغيرة؟

– طبعاً لدينا مثلهن. ليس كولخوزنا من الكولخوزات الفقيرة.

– اذن فدلنا على واحدة غنية كهذه لننزل عندها لليلة واحدة. وعندئذ ستجد مشكلتنا حلها بمجرد التحدث معها. ولكن أرجوك، الا تكون متعجرفة، وأن تكون شبيهة بامرأة الى حدما، أتفهمني؟

ضيق رئيس الكولخوز عينيه متهكما، وسأله:

– والا يزيد عمرها عن السبعين؟

كانت المسألة في غاية الاهمية ولا تسمح له بتقبل النكات المختلفة. صمت مستغرقاً في التفكير، ثم أجاب:

– سبعون – هذا كثير جداً يا أخي، هذا سعر غير محدود، اني موافق على الستين في أسوأ الاحوال وعلى أية حال! المخاطرة – أمر طيب! طبعاً، من الافضل أن تكون أصغر سناً...

– من الممكن، – قال رئيس الكولخوز مبتسماً – ان تعالج الامور بالطريقة العسكرية. وعلى رأي المثل: من قلة الخيل شدت على الكلاب السروج. سأدلك على البيت ولكن لا تلمني بعد ذلك...

– وما العمل؟ – سأله لوباخين بحذر.

– تعيش زوجة عسكري قريباً من هنا. لم تبلغ الثلاثين بعد. وزوجها في الجبهة، انه برتبة ملازم أول. تقتني كل شيء ما عدا الشيطان وحده فلديها الدجاج والاوز والبط، وخنزيران كبيران وخمسة عشر رأساً من الأغنام. انها تعيش في بحبوحة! والأهم – وحيدة لا أطفال لديها ولا أحد. ذلك بيتها، خلف أشجار الحور، أترى، بسقف أخضر انها تعيش هناك. أما زوجها فقد اشتغل قبل الحرب...

– انني لا أرى زوجها في منامي ليلا، – قاطعه لوباخين وقد فرغ صبره. – ما العمل؟ ولم سألومك؟ العمر مناسب جداً!

– انها صارمة، أيها الشاب، آه، كم هي صارمة!

– ليس هذا بالأمر المخيف، لقد قهرنا من هن أشد مراساً، سر بي اليها – قال لوباخين واثقاً من نفسه، واستدار نحو رئيس العرفاء. – أتسمح لي بالمباشرة أيها الرفيق رئيس العرفاء؟

لوح بوبريشينكو بيده تعباً.

– باشر. الا انني أخشى... أن تخيب ظننا بك، يالوباخين.

– أنا؟ أخيب ظنكم؟ – استاء لوباخين.

– هذا محتمل جداً. لقد خدمت في الجيش القديم، وكنت شاباً أيضاً، أحفر الأرض بكعبي، ولم أكن بريئا من الآثام. أحياناً تذهب خلسة الى احدى معارفك وتقدم لك

البيض المقلي وزجاجة فودكا. أما هنا فنحن سبعة وعشرون نفراً... ولذا افكر: ما الخدمة التي ستقدمها لهذه المرأة، كي تطعم لا شخصاً واحداً فحسب، بل سبعة وعشرين؟ وهنا، أود يا عامل المنجم، أن أقول لك ان عليك أن تبذل جهداً كبيراً...

– أنا لا ابالي بالمصاعب، – اكد لوباخين بتواضع.

* * *

خيمت سحابة صغيرة، عالقة في الطرف الغربي من السماء، لا تكاد تتحرك، والريح العالية تحوم حول حواشيها البيضاء المشربة باللون الوردي والمتعرجة الشعثاء مجدلة اياها. ومن فوق السحابة مرت أربع طائرات من طراز «ميسير شميت» متجهة شمالا. ثم هوت منقضة على مكان ما وراء العزبة، وبعد هنيهة حملت الريح الى الآذان صوت طقطقة رشاشات ودوي انفجارات مكبوت.

– لقد انقضوا على أحد ما في الطريق. والآن هناك شخص ما يحس بالملل... – قال شاب مديد العنق فارع القامة، كان يصطاد السراطين وراء الدون.

رفع لوباخين رأسه للحظة واحدة فقط، مصيخاً بسمعه الى الانفجارات القريبة، ونكسه من جديد، باصقاً على جزمته وماسحا اياها بشريط طويل، مزقه من طرف بدلة عسكرية المانية...

كان الجنود تحت سقيفة العنبر، بقمصانهم الداخلية المتسخة المشبعة بالعرق، مشغولين برتق أكواع قمصانهم العسكرية وبناطيلهم وبدلاتهم الممزقة الكالحة من الشمس، وبتصليح أحذيتهم وجزمهم الرثة البالية. تمكن أحدهم من الحصول في مكان قريب على أدوات لتصليح الاحذية، عبارة عن قالبي حذاء قديمين وخيط مشمع، ركب كوبيتوفسكي، الذي اتضح أنه اسكافي ماهر، نعلين لجزمته، ونخر ممتعضاً، ناظراً باستياء الى أحذية رفاقه التي تكومت قربه

وقال: «لقد وجدتم ورشة لتصليح الأحذية! لقد وجدتم مجنوناً يشتغل مجاناً! أفتظنون انني سأظل أدق بالمطرقة على هذا المنوال حتى شروق الشمس؟!» كان يجلس بسرواله الداخلي المتمزق على قرمة شجرة، فارجاً ساقيه الربلتين، وهو يطرق على كعب جزمة نيكراسوف بعنف. وكان نيكراسوف يجلس الى جانبه مقرفصاً، ويخيط رقعة كبيرة على بنطال كوبيتوفسكي بخيط خشن. وكان الدرز يحصل غليظاً وبعيداً عن الاستواء وانقطع كوبيتوفسكي عن عمله وقال ناقداً:

– جلستك وحدها جلسة الحائك، ولكن لاخبرة لديك بالمرة. فانت في الواقع لا تصلح الا لتجديل ربقة للبراذين. وليس لترقيع بنطال عسكري معتبر. وهل هذا عمل؟ انه ازدراء بالبنطال وليس عملا! الدرزة بثخن الاصبع. وأية قملة تسقط منها ستموت فوراً. أنت مخرب لا مصلح ثياب!

– أبنطالك هو المعتبر، – رد عليه نيكراسوف. – ان مجرد لمسه يثير الاشمئزاز! ها قد وضعت القناع الثاني المضاد للغازات ولم أفرغ من تصليحه بعد، ولا أرى نهاية لعملي... يجب أن يفصلوا لك بنطالا من الصفائح المعدنية، هذا ماينا سبك. دعني أخيط لك كمرا لسروالك التحتاني، أما البنطال فنحرقه، وما رأيك؟

نظر كوبيتوفسكي من تحت جبينه، مفكراً برد الذع، لكن شخصاً ما هتف عالياً في تلك اللحظة:

– أيها الاخوة، ربة البيت آتية!

صمتوا جميعاً دفعة واحدة. ستة وعشرون زوجاً من الأعين نظرت نحو الخوخة، فيما عدا نيكولاي، الذي كان يزيت رشاشه المفكك باهتمام وهو يصفر بصوت خافت، فظل منكساً رأسه.

ظهرت امرأة طويلة القامة ممتلئتها تقترب من الخوخة وهي تسير بمهابة. كانت ممشوقة القوام مليحة الوجه، أما

بالنسبة لطولها، فاطول من في الفوج قد لا يصل الى كتفها. في السكون المخيم سمع أحدهم يتأوه مندهشاً:

– ياه!

أما رئيس العرفاء، فلكز لوباخين، محملقاً بعينيه المتورمتين:

– هيا افرح الآن... لقد أكلنا الثمرة الموعودة!

وفي الحال، شد لوباخين حزامه، محدثاً صريفاً، مضيقا اياه بأربعة ثقوب، ورتب قميصه العسكري على عجلة من أمره، خلع خوذته ممسداً شعره براحته. وطفق يتابع المرأة الضخمة السائرة في الفناء بخطى واسعة، بعينيه المفتونتين البراقتين، مفعماً بالحيوية كجواد جيش سمع نفخ بوق النفير.

لوح رئيس العرفاء بيده يائساً، وقال:

– لقد ضاع كل شيء! سأذهب الآن الى رئيس الكولخوز لأهشم وجهه، حتى لايهزأ بنا، ابن الكلب!..

وجه اليه لوباخين نظرة شاردة وسأله ممتعضاً:

– لم أنت خائف؟

– وكيف لا؟ – رد رئيس العرفاء ساخطاً. – ألا ترى الآتية؟

– أرى. امرأة عادية بفستان وبكل وقار لاينقصها شيء. انها ليست بامرأة فحسب بل تحفة! – قال لوباخين باعجاب.

– عادية! تحفة بفستان! – شاكسه رئيس العرفاء بفحيح ساخط. – انها ليست بامرأة، بل هي تمثال متحرك. واضح؟ ان مجرد منظرها يثير الخوف! قبل الحرب كنت قد رأيت مثلها بموسكو، في المعرض الزراعي عند المدخل يقف تمثال امرأة منحوتة وهذه أيضا لا تقل عنها البتة... يا الهي ما هذه المخلوقات الغريبة، تفو! – سحب رئيس العرفاء، لوباخين، وهو يبصق ويشتم، الى زاوية العنبر، وسأله هامساً: – ما الذي سنفعله الآن؟ هل نبدل مكان مبيتنا؟

ابتسم لوباخين بلطف، وهز كتفيه.

– ماذا تقول؟ وما الداعي لتبديل مكاننا؟ لن نفعل سوى ما كنا قد قررناه واتفقنا عليه. والمهمة المطلوبة تبقى هي نفسها.

– ولكن افرك عينيك، يا لوباخين، وانظر اليها جيداً! اذ انك لاتبلغ كتفها.

– وماذا في الأمر؟

– ماذا؟ ان طولك لايكفي بالنسبة لها. واضح؟

نظر لوباخين الى وجه رئيس العرفاء الحائر بل والخائف أيضاً، وابتسم هذه المرة باستخفاف ظاهر قائلا:

– لقد عشت حتى شاب رأسك، يارئيس العرفاء، وأنت لا تعرف ما تعرفه أية امرأة...

– أخبرني من فضلك، ما الذي أجهله؟

– ان البرغوث الصغير الذع لدغاً، أفهمت؟

– أخذ رئيس العرفاء ينظر الى لوباخين، مترددا بعض الشيء في ظنونه، ومحدقاً اليه باحترام ظاهر مستغرباً في قرارة نفسه اعتداده المطلق بنفسه. في حين قال لوباخين مضيقاً عينيه الزرقاوين مبتسماً:

– هل سبق لك أن قرأت تاريخ العالم القديم، يا رئيس العرفاء؟

– لا، فلكوني امتهن النجارة كنت اعتبر أن لا داعي لذلك. ولماذا تسأل؟

– عاش في الماضي قائد اسمه اسكندر المقدوني ذو القرنين، وكان شعاره، وهو نفسه شعار يوليوس قيصر من بعده، هو: «جئت. شاهدت. انتصرت». وأنا كذلك أدين لهذا الشعار، وطول قامة هذه المرأة لا يقلقني أبداً! أتسمح لي بمباشرة أداء مهمتي أيها الرفيق – رئيس العرفاء؟

– طبعاً، طبعاً، باشر، انني لا اعارض، اذ اننا في حالة لا مخرج لنا منها. على انني اريد أن أقول لك أمراً واحداً، يا عامل المنجم هو انك لن تموت حتف أنفك...

هز رئيس العرفاء رأسه، فاتر العزم، لكن لوباخين

غمره بالمزاح والدعابة، ووضع يده الثقيلة على كتف رئيس العرفاء الهرمة العجفاء قائلا له:

– سيكون كل شيء على مايرام. لن اخيب لا ظنك ولا ظني بنفسي! كن مطمئناً!

* * *

بذل لوباخين جهوداً خارقة لكسب عطف ربة البيت: تطوع بمساعدتها في سقي البستان، حتى انه حين عاد من البئر حاملا سطلي الماء الممتلئين لم يكن يمشي متهادياً على مهل، كما يفعل أهل الريف، بل كان يركض في خبب خفيف أمام المرأة السائرة خلفه الهوينا، وكسر لها الحطب بحيث كانت جذاذات خشب الحور الرومي تتطاير من تحت البلطة في جميع الاتجاهات كالكهرمان، ودون التردد لدقيقة واحدة، خلع جزمته النظيفة حتى اللمعان، وشمر عن ساقيه، وباشر بحماس في تنظيف مربض البقر الصيفي، غائصاً حتى رسغيه في الروث الدبق النتن...

تقبلت ربة البيت كل هذه الخدمات بسرور وارتياح، متأملة لوباخين المتململ بنظرة ماكرة، مبتسمة له بعينيها الشهلاوين فحسب، ونادراً ما كانت تستدير بجسمها العبل محكمة شد منديلها الأبيض المعصوب على رأسها. آه، فقط لو راى لوباخين في ذلك الوقت، ابتسامتها السافرة وهي ابتسامة العارفين!..

ما انفك المقاتلون يجلسون تحت طنف العنبر يتبادلون الحديث بصوت خافت. كان كل واحد منهم مشغولا بعمله، ولكن دون أن تفلت من رقابتهم الشديدة أية حركة من حركات لوباخين وربة البيت. لكن رئيس العرفاء كان أكثرهم مراقبة للوباخين، اذ اتخذ مكانه فوق مقعد حصادة معطوبة واقفة قرب العنبر، وما فتىء يراقب الفناء، وكأنه قائد يراقب ما يجري في ميدان المعركة. قال فاسيلي خميز ساخراً وهو يغمز للمقاتلين:

– ان نقطة مراقبتك ملائمة جداً، أيها الرفيق – رئيس العرفاء، كمثابة الجنرالات. لا مثيل لها!

دمدم رئيس العرفاء ممتعضاً:

– اخرس أيها الجرو! ان الرجل يعمل لمصلحتنا العامة، أما أنت فتنبح.

مازال رئيس العرفاء، يشك في نجاح لوباخين في مهمته، ولكن حين خاطبت ربة البيت لوباخين الهمام بصوت دافىء خفيض لطيف، – علت البهجة وجه رئيس العرفاء:

– ابن الذين!.. انه لداهية في شؤون النساء! انها تخاطبه باسمه واسم أبيه موقرة! ومتى تهيأت لها معرفة اسمه الثنائي؟ أسمعتم كيف تدعوه منادية باسم بيوتر فيدوتوفيتش! يا عامل المنجم! ان هذا لن يضيع ولو ألقيته في الصحراء.

– انها تقع في صنارته! – قال نيكراسوف برضى مشيراً الى ربة البيت ودافعاً رئيس العرفاء في جنبه بلكزة خفيفة.

– واضح انها تقع في الصنارة! ولكنني اسالك ولم لن تقع؟ انه شاب مقدام، أما طوله، فماذا يعني الطول... ان هذه المرأة لايناسبها من حيث الطول الا زوج ضخم بطول عمود أسلاك الهاتف، أو أن ندق قامتي شابين لا بأس بطوليهما بالمسامير، حتى يبلغا طولها. لكن لوباخين لا يهتم بذلك، ابن الكلب! وليس عبثاً أن يقال في الأمثال: وان كانت البرغوثة صغيرة لكن قفزتها بعيدة المدى. انه يبلغ مراده ببطولاته شأنه شأن ذلك القائد... – حدج رئيس العرفاء بنيكراسوف وهو يعض شفته وباغته سائلا: – هل سبق لك أن درست تاريخ العالم القديم؟

– انني قليل الثقافة، – قال نيكراسوف متنهداً بأسف. – لم اكمل المدرسة الدينية بسبب الحكم القيصري البغيض وفقر والدي. انني لا أعرف شيئاً عن التاريخ القديم ولم تسنح لي فرصة الاطلاع عليه. وما لا أعرفه، لا أعرفه، ولن أتباهى بادعائه.

– عبثا كان عدم دراستك، عبثاً! – قال رئيس العرفاء معاتباً ومتظاهراً بتفوقه عليه واخذ يبرم شاربه. – وأنا أيضا في طفولتي لاقيت شتى الصعاب في تحصيل واستيعاب بعض العلوم. كنت أدرس مثلا، التاريخ القديم وليس التاريخ بوجه عام، او مثلا أدرس علم الجغرافيا العويص، لن تصدق اذا قلت لك انك تلاقي أحياناً صعوبة بالغة في فهم الشيء القليل منه. ولكنك في نهاية الأمر تتغلب على هذه الجغرافيا اللعينة وتزداد ثقافتك بصورة تلقائية وشيئاً فشيئاً، أفهمت؟

– طبعاً، فهمت، – أكد نيكراسوف منقبضاً وشاعراً بالاستكانة لمعرفته بالمستوى الثقافي الرفيع لدى رئيس العرفاء،وهو ما لم ينتبه اليه من قبل لضيق الوقت اثناء المعارك.

– واليك مثلا، كان في الماضي قائد مشهور: الكسندر... اسكندر...، آه يا لذاكرتي التعيسة! لا أستطيع تذكر لقبه على الفور... ذاكرة عجوز – كالمنخل لا تحتفظ بشيء... الكسندر...

سوفوروف؟ – لقنه نيكراسوف متردداً.

– ليس سوفوروف، بل الكسندر مكيدونسكوف، نعم هذا هو لقبه! لقد تذكرت بصعوبة، قبحه الله! وكان ذلك قبل عهد سوفوروف، في الأزمان الغابرة، حين كان الناس قلائل.فكان الكسندر هذا يحارب هكذا: كان ابن الكلب هذا يغزو بلداً من البلدان فيوطد فيه أقدامه بشكل ثابت ويبقى خصمه بعد ذلك يعاني لمئة سنة، ولايستطيع التخلص من وطأة أعبائه. ومن الذي سلم من شره! لقد قهر الألمان والفرنسيين والسويديين، هذا علاوة على الايطاليين. ولكنه لم يتوقف الا بعد اصطدامه بروسيا حيث ادار ظهره موليا الأدبار. لقد كانت روسيا صخرة تحطمت عليها آماله وأحلامه.

– وما كانت جنسيته؟ – استفسر منه نيكراسوف.

– هو؟ الكسندر هذا؟ – اربكه السؤال غير المتوقع. وجعل يفكر طويلا شاداً شاربه ويقطب جبينه منزعجاً مدمدماً:– ان ذاكرة العجوز تخونه دائماً – انها مثل الكلب الهرم:

تناديه باسمه، أما هو فلا يحرك ذيله، ناسياً اسمه... – صمت العجوز مستغرقاً في التفكير لهنيهة، ثم قال بلهجة واثقة: – كانت له جنسيته الخاصة.

– وكيف هذا – الخاصة؟ – دهش نيكراسوف.

– هكذا، جنسيته الخاصة به فحسب. جنسية خاصة، وكفى، أفهمت؟ هكذا ورد في كتب التاريخ القديم. كانت له جنسيته الخاصة، ثم تحولت، وتفرقت واضمحلت. لقد تذكرنا، أنا ولوباخين، الكسندر هذا بهذه المناسبة: قلت له، كن حذراً مع ربة البيت هذه، يا لوباخين ولا تخيب ظننا بك بالنسبة للمآكل. أما ابن الذين... فأجابني: «لدي عادة كعادة الكسندر مكيدونسكوف: أتيت، رأيت، وتركت آثاري» فقلت له أرجو لك التوفيق في مهمتك، واذا كنت تريد ترك آثارك فاترك آثارك بحيث تشجع ربة البيت على ذبح نعجة لا أقل! وعدني بذلك. وكما يظهر فان اموره تسير بصورة جيدة. أسمعت كيف خاطبته: «بيتر فيدوتوفيتش، ناولني السطل من فضلك!» اولا – باسمه واسم أبيه، ثانياً – باحترام، وهذا له مغزاه، أفهمت؟

– طبعاً فهمت، – أكد نيكراسوف بارتياح. – حبذا لو أكلنا حساء كرنب مع لحم ضأن طازج... لدى ربة البيت نعاج جيدة، على الأخص تلك الشاة الفتية السمينة جدا ان اليتها لاتقل عن أربعة كيلوغرامات! واذا ما سخت ربة البيت علينا بذبح نعجة، لابد من ذبح تلك الشاة الفتية البيضاء لا غيرها. ولقد اخترتها منذ عادت الأغنام من المرعى.

– ان حساء البورش مع لحم الضأن بالكرنب الطازج لطعام جيد، – قال رئيس العرفاء مستغرقا في التفكير.

– بالنسبة للبورش يجب أن يكون الكرنب طازجاً، والبطاطس قديمة، – أجاب نيكراسوف بحيوية. – البطاطس الجديدة لا تنفع للسلق.

– لا بأس حتى في وضع بطاطس غير جديدة أيضا، – وافق رئيس العرفاء. ولا بأس أيضاً من اضافة البصل المقلي بكمية قليلة جداً...

قال فاسيلي خميز الذي دنا نحوهما بشكل غير ملحوظ:

– قبل اندلاع الحرب، كانت والدتي، دائماً تشتري لحم الضأن والكلاوي معاً، من البازار. فهذا رائع جداً مع البورش، وكذلك اذا ما زيدت عليه كمية صغيرة من الشمرة، أما نكهتها فلذيذة جداً تملأ البيت برمته!

– الشمرة – شيء زائد. المهم أن يكون الكرنب طازجاً ومع الطماطم. هذه هي القضية! – عارضه رئيس العرفاء بحزم.

– والجزر أيضا جيد اذا ما اضيف للبورش، – قال نيكراسوف بصوت حالم.

أراد رئيس العرفاء أن يقول شيئاً ما، غير انه بصق بلغمه اللزج وهمهم بغضب:

– هيا كفوا عن الثرثرة! وواصلوا تنظيف أسلحتكم، الآن ساتفقد بكل دقة. انهم يسترسلون في الأحاديث الفارغة، وما ان تستمع اليهم حتى تتلوى معدتك الفارغة...

* * *

توسد معظم المقاتلين مواضع رقادهم في الفناء، قرب العنبر. فرشت ربة البيت لنفسها في المطبخ، ونام رئيس العرفاء، لوباخين، خميز، كوبيتوفسكي وأربعة آخرين من المقاتلين، في غرفة الضيوف التي يفصلها ممر صغير.

ظل خميز والمقاتل ذو العنق الطويل، الذي الصق به لقب «صياد السراطين» يتهامسان عن شيء ما لفترة طويلة. أمسك كوبيتوفسكي برغوثة وهو يتحسس بيده ثم شتم بصوت خافت. ودخن لوباخين سيجارتين متتاليتين وسكت. وبعد انقضاء مدة قصيرة ناداه رئيس العرفاء هامساً:

– لوباخين، ألست نائماً!

– لا.

– احذر أن تنام!

– لا تقلق!

– حبذا لو شربت مئتي غرام من الفودكا للتشجيع، ولكن من أين ستحصل عليها، أمن عند العفاريت؟

ابتسم لوباخين في الظلام بهدوء، وقال:

– استطيع تدبير أموري بدون هذا العقار.

سمع صوت طقطقة عظامه لدى تمطيه ثم نهض.

– أذاهب أنت؟ – سأله رئيس العرفاء هامساً.

– طبعاً، وما الداعي الى اضاعة الوقت سدى؟ – اجاب لوباخين غير قادر على كتم صوته.

– أتمنى لك التوفيق! – قال صياد السراطين بصوت متأثر.

لم يجبه لوباخين، واخذ يتحسس طريقة في الظلام الدامس، سائرا على أصابع رجليه، متجهاً صوب الباب المؤدي الى الممر.

– في البيت ينام الجائعون أكثر، والباقون في الفناء، – قال خميز بصوت منخفض وأفلتت من فمه ضحكة صبيانية، وهو يسده بباطن كفه.

– ماذا بك! – سأله كوبيتوفسكي مستغربا.

– نو باساران! لن يمروا! – قال خميز بصوت متقطع من الضحك.

وفي تلك اللحظة بالضبط رد عليه اكيموف قناص الكتيبة الثالثة، وهو انسان حاد الطبع، سريع الانفعال، وكان قد عمل محاسباً في أحد مشاريع البناء الكبيرة بسيبريا:

– أرجوك، أيها الرفيق خميز، أن تكون اكثر حرصاً في استعمال الكلمات العزيزة على البشرية. كما هو معلوم لي، فانت شاب متعلم أنهيت الصف العاشر في المدرسة، ولكنك تتصرف بصورة غير لائقة ولا تفكر بما تقول...

– انه لن يمر! – كرر خميز وهو يكاد يختنق من الضحك.

– لم تنعق يا غليظ البراطم؟ – قال صياد السراطين ممتعضاً. – لن يمر، لن يمر، ها هو يتسلل ببطء. أتسمع لقد

صرّت الأرضية، أما أنت فتردد: – لن يمر. كيف لن يمر؟ انه سيمر وياله من مرور!

قال كوبيتوفسكي غير متمالك نفسه:

– الزموا الهدوء! أهم شيء هنا – الهدوء والشخير.

– أما الشخير هنا ففيه الكفاية...

– المهم هنا – التمويه والهدوء. ان كنت لا تستطيع الاغفاء بسبب الجوع فعليك التظاهر بالنوم.

وأي تمويه هنا، حينما تقرقر البطون، فلا شك ان قرقرتها مسموعة خارج البيت، – قال صياد السراطين مكتئباً. – يا لهم من مصاصي دماء، ويا لهؤلاء الاقطاعيين الأغنياء الملاعين! كيف يمكن حبس الطعام عن المحارب؟ في مقاطعة سمولينسك – كانت المرأة تقدم لك آخر ما تبقى لديها من البطاطس، أما هؤلاء فيضرب بهم المثل في البخل، انهم لايتفضلون عليك حتى ولا بقطعة ثلج في فصل الشتاء! وأغلب الظن، ان كولخوزهم يتألف من الكولاكيين السابقين... الا يزال العدو يواصل تقدمه ام ماذا؟ انني لا أسمع.

– لقد وصل الى نقطة الابتداء، ومع ذلك فانه لن يمر! – همس خميز بسخرية.

– يبدو ان الوضع في الجبهة، قد افسدك تماماً، أيها الشاب، ويبدو ان اصلاحك بات أمراً لا أمل فيه، – قال اكيموف باستياء.

– هيا كفا عن الحديث! – همس رئيس العرفاء بصوت مبحوح.

– ما له يفح كما يفح الاوز على الكلب؟ انه عجوز، فلينم ويشخر ماشاء ويكف عنا شره انه ليس رئيس عرفاء، بل هو وحش مربوط...

– غداً سأريك ما هو الوحش! أتظن انني لم اميز صوتك يا نيكراسوف؟ مهما غيرت من صوتك فانه لن يخفى علي!

وللحظة، ساد غرفة الضيوف هدوء لا تعكر صفوه الا

أصوات الشخير المختلفة! ثم تكلم صياد السراطين بضجر ظاهر:

– انه لا يتقدم! وما له يتململ في نقطة الانطلاق؟ ما العنه! فريشما سيخرج الى خط النار سوف يدمر كل أعصابنا! آه، يا ربي يالهذا الهمام المقدام! قد يصل الى الممر عند طلوع الفجر.

ثم ساد الصمت من جديد لمدة قصيرة، وعاد صياد السراطين مرة اخرى ليقول بصوت حائر:

– لا، انه لايتقدم! ماذا هل اتخذ وضع الانبطاح؟ ولم الانبطاح؟ وهل تمتد اسلاك شائكة أمام المطبخ؟

نهض رئيس العرفاء وقد نفد صبره تماماً:

– ألن تسكتوا الآن، يا أبناء الذين؟..

– يا الهي، وهنا أيضاً كما لو اننا منبطحون تحت وقع صواريخ الألمان... – همس صياد السراطين بصوت لا يكاد يسمع، ثم صمت فقد أطبقت راحة كوبيتوفسكي الكبيرة على فمه...

وبعد انتظار بضع دقائق طويلة مضنية، دوى صوت ربة البيت باستياء، وسمعت جلبة قصيرة، سقط شيء ما مقعقعاً، وتطايرت كسر الآنية المحطمة فوق الأرضية، واصطدمت مرتطمة بالباب بحدة، وكان ذلك من الشدة بحيث أخذ الجص يتساقط مخشخشاً، وصلصلت بصوت فيه رنة الشكوى وتوقفت ساعة الحائط التي كانت تتكتك متململة فوق الصندوق.

اندفع لوباخين الى غرفة النوم، فاتحاً الباب بظهره، وتراجع بعد خطوات سريعة مضطربة، وهو يكاد يقع. وتوقف بصعوبة في منتصف الغرفة...

هب رئيس العرفاء بحيوية الفتيان وأشعل مصباح الزيت، ورفعه قليلا فوق رأسه. كان لوباخين يقف مباعداً ما بين ساقيه، وهو يغطي عينه اليمنى وثمة ورم أزرق ضارب للحمرة لامع، أما اليسرى فكانت تلمع وتسطع مبتسمة. نهض كل النائمين كما لو انهم تلقوا ايعازاً

عسكرياً. وظلوا يتطلعون الى لوباخين، جالسين على البدلات العسكرية المفروشة، دون الاستفسار منه. وعلى العموم لم يكن ثمة من داع للسؤال فان عينه المنتفخة، والورم الناتىء على جبينه بحجم بيضة الدجاجة، كانا يدلان على كل شيء بمنتهى الوضوح ودون حاجة الى اية كلمة...

– الكسندر مكيدونسكوف! أيها البرغوثة الصغيرة! وكيف اكلت الثمرة الموعودة؟ – قال رئيس العرفاء من بين اسنانه بازدراء، وقد امتقع وجهه من شدة الغضب.

ضغط لوباخين بكل أصابعه على الورم الذي يتزايد انتفاخاً فوق عينه، ولوح بيده غير مكترث:

– خطأ طارىء! ولكن، يا اخوتي، ما أقواها! انها ليست امرأة، بل تحفة! لم يسبق لي رؤية مثلها. ملاكمة من الدرجة الاولى، مصارعة من الوزن الثقيل. فانا والحمد لله نشأت ابن عمل، ويداي قويتان وباستطاعتي حمل كيس زنته كنتال ونقله حيثما تشاء، أما هي فلقد أمسكت برجلي، من فوق ركبتي، وبكتفي ورفعتني الى الاعلى وهي تقول: «اذهب ونم، يا بيوتر فيدوتوفيتش، والا سأقذف بك من النافذة!» وقلت لها: «سنرى». ورأيت... تصرفت فوق الحد، واليك النتيجة... – ضغط لوباخين، مرة أخرى، على الورم الليلكي الداكن فوق حاجبه قائلا: – ولكن لحسن حظي، اصطدمت بالباب بظهري، والا لكان من المحتمل أن اخرج والباب على كتفي. أنتم فكروا كما تريدون، أما أنا فاني لو قدر لي البقاء على قيد الحياة بعد الحرب فلسوف آتي الى هذه العزبة لأسلب هذه المرأة من زوجها الملازم. انها ليست امرأة، بل لقية!

– وماذا الآن بشأن النعجة؟ – سأل نيكراسوف بصوت مغموم.

رداً على سؤاله، انفجرت قهقهة مدوية لدرجة ان نيكولاي هب فزعاً، بين الصحو والنوم، وامتدت يده الى الرشاش تحت رأسه.

– وهل ستطعمنا لقيتك هذه غداً؟ – سأل رئيس العرفاء كابحاً جماح غضبه.

كان لوباخين يشرب ماءاً ساخناً من المطرة بنهم، وبعد ان أفرغها، أجاب بهدوء:

– انني أشك في ذلك.

– اذن، لماذا كذبت وصدعت لنا رؤوسنا؟

– وما الذي تريده مني، أيها الرفيق – رئيس العرفاء؟ أن أذهب اليها ثانية؟ انني افضل مواجهة الدبابات الألمانية، على ذلك. أما ان كنت لا تتحمل الصبر فاذهب اليها شخصياً. لقد حصلت منها على ورم واحد، أما أنت فستعطيك درزينة كاملة منها، كن مطمئن البال! ما قولك، هل أقودك الى المطبخ؟ اني في ذلك لخير دليل!

بصق رئيس العرفاء، وشتم بصوت منخفض، وأنشأ يلبس قميصه بصعوبة. ارتدى ملابسه وأخذ يدمدم عابساً، دون أن يخاطب أحداً على التعيين:

– سأقصد رئيس الكولخوز. لن نتحرك ما لم نفطر. فانا لا اقدر، لكوني مسؤولا، ان أطلب مباشرة بقولي: اطعمونا نحن المشردين. انتم ابقوا هنا محافظين على الهدوء، سأعود حالا.

أما لوباخين فقد استلقى في مكانه متوسداً يديه، وقال، شاعراً انه قام بواجبه:

– الآن بوسعي أن أنام. لقد صدت هجمتي. تراجعت بانتظام، غير انني تكبدت بعض الخسائر، ونظراً للتفوق الكبير لدى خصمي لا أفكر باعادة الكرة على ذلك القاطع. أعرف انكم ستظلون تضحكون علي مدة شهرين من الزمان – هذا بالنسبة لمن سيبقى منكم حياً على مدى هذين الشهرين، – ولي رجاء وحيد: ابدأوا بذلك اعتباراً من يوم الغد، أما الآن – فدعوني أخلد الى الرقاد.

ودون انتظار الرد، استدار على جانبه وخلال دقائق معدودة، غط في نوم عميق كنوم الاطفال.

* * *

في الصباح الباكر أيقظ كوبيتوفسكي لوباخين:
– انهض لتفطر، أيها البرغوثة الصغيرة!
– وكيف هذا – برغوثة؟ انه اسكندر المقدوني، – قال اكيموف وهو يمسح ملعقة الالومنيوم بعناية.
– انه غازي الشعوب وقاهر النساء، – أردف خميز.– لكنه لم يمر البارحة، رغم تحذيراتي المسبقة له بهذا الشأن.
– اذا ما اعتمدت على مثل هذا الغازي، فانك ستموت جوعاً! – قال نيكراسوف.
فتح لوباخين عينيه، ورفع رأسه قليلا كانت عينه اليسرى مفتوحة، بحيوية ومرح كعادتها دائماً، أما اليمنى فكانت محاطة بالورم الضارب للزرقة، ترى بالكاد وهي تلمع من الشق الضيق.
– ولقد دللتك كثيراً – أشاح كوبيتوفسكي بوجهه عنه ناخراً وهو يخشى أن ينفجر ضاحكاً.
كان لوباخين يدرك جيداً، أن صمته وحده هو الذي سيقيه من سخرية رفاقه. فأخرج المنشفة وقطعة صابون صغيرة جداً من حقيبة امتعته، صافرا ومتظاهراً بعدم المبالاة تماماً، وخرج الى الطنف. كان المقاتلون يغتسلون، متزاحمين قرب البئر، والقدور والصحون والقصع الكثيرة فوق المشمع المفروش على العشب في الحديقة الصغيرة المتصلة بالبيت. كانت شعلة تتقد على مقربة وقدر كبير معلق على قضيب معدني فوق النار. وكانت ربة البيت المتأنقة معنية باضرام النار، وهي تحرك ما بداخل القدر بملعقة خشبية منحنية بقامتها الضخمة.
كان كل شيء وكأنه في المنام. غمز لوباخين مبهوتاً، ثم فرك عينيه. «شيء لا يصدق!» – فكر هو، لكن سرعان ما أحس أنفه برائحة حساء اللحم، ثم هز كتفيه، وخرج من الطنف. فتوقف قرب الشعلة وانحنى باحترام:

– صباح الخير، يا نتاليا ستيبانوفنا!
اعتدلت ربة البيت في وقفتها، ولمحته بنظرة خاطفة، وعادت لتنحني فوق القدر. تورد خداها، وحتى عنقها الأبيض الممتلىء اكتسى ببقع حمراء وردت عليه:
– صباح النور، أرجو المعذرة يا بيوتر فيدوتوفيتش... ان الكدمة الزرقاء كبيرة... لاشك أن الرفاق سمعونا في الليل؟
– لا تحملي هم ذلك، – قال لوباخين بلطف – ان الكدمات هي زينة الرجال. كان عليك أن تستعملي قبضتيك بمزيد من الحذر، ولكن الآن ليس بالمقدور تلافي ما كان. اما بالنسبة لي، فلا تقلقي فسيشفى الورم بسهولة. يطلب الكلب لحمة فيجد عظمة، وأنا قصدتك للمبيت عندك فعدت بالورم والكدمة. والقصة، يا نتاليا ستيبانوفنا، هي: هكذا أمرنا ومصيرنا نحن الرجال.
اعتدلت ربة البيت في وقفتها ثانية، ونظرت اليه بعينيها الصافيتين، وقطبت حاجبيها الكثيفين المائلين للحمرة:
– وهنا تكمن المصيبة انكم لا تهتمون الاّ بأمركم الرجالي. أتعتقدون بأنه اذا كان الزوج غائباً في الجيش فان زوجته يجب أن تكون سافلة ورديئة؟ وهكذا توجب عليّ أن اثبت لك بقبضتي، كيف نحافظ على شرفنا نحن النسوة والحمد لله الذي أنعم عليّ بالقوة...
نظر لوباخين شزراً وبتهيب الى قبضة ربة البيت المضمومة، وسألها:
– أرجو المعذرة، لجرأتي في السؤال، ولكن أخبريني عن قوام زوجك. قصدي ما طوله؟
قاست ربة البيت لوباخين بنظرها، ثم ابتسمت قائلة:
– انه بطولك، يا بيوتر فيدوتوفيتش، ولكنه كان أسمن منك بقليل.
– لاشك انك كنت تسيئين معاملته وهل عاش عندك في بيتك؟

– ماذا تقول، يا بيوتر فيدوتوفيتش! ما هذا الكلام لقد عشنا بسلام ووئام.

اختلجت شفتا المرأة الحمراوان الممتلئتان فاستدارت ومسحت دموعها عن خديها بطرف منديلها، لكنها في تلك اللحظة، ابتسمت بدهاء وقالت وهي تنظر الى لوباخين بعينين مخضوضلتين:

– لا يوجد في هذه الدنيا كلها من هو أفضل من زوجي! انه انسان جيد، شغوف بالعمل، وديع، ولكن ما ان يترشف قليلا من النبيذ حتى يغدو متهوراً. الا انني لم اتقدم بالشكوى عليه حتى ولا مرة واحدة الى قسم الميليشيا: فما ان يبدأ باثارة الضجيج حتى سرعان ما كنت اعيده الى الهدوء، لم أكن أضربه بشدة، فقط هكذا، بلطف... انه الآن في كوبيشيف يرقد في المستشفى على اثر اصابته بجرح. وهل تعتقد انهم بعد ذلك سيسمحون له بالمجيء الى هنا والمكوث حتى تتحسن صحته؟

– سوف يسمحون له من كل بد، – اكد لوباخين. – ولكنني يا نتاليا ستيبانوفنا، لا أدري ما هي مناسبة اعدادك طعام الأفطار لكل رفاقنا؟..

– ليس في الأمر ما هو عسير على الأفهام. فالبارحة لو كنتم قد شرحتم جيداً لرئيس الكولخوز أن وحدتكم هي التي حاربت دفاعاً عن عزبة بوديمسكي أول امس، لأطعمناكم البارحة أيضاً. اذ اننا، نحن النساء، نفكر في انكم تهربون من الأعداء ولا تريدون الدفاع عنا. فقررنا جميعاً وفيما بيننا: كل فار من نهر الدون الى الخطوط الخلفية لن ينال منا لا كسرة خبز ولا كوز حليب، فليمت هؤلاء الفارون اللعناء جوعاً! أما الذاهبون الى الدون للدفاع عنا، فسوف نقدم لهم كل ما يرغبون فيه من الطعام. وهكذا كنا نفعل. أما بالنسبة لكم فلم نعرف انكم انتم الذين حاربتم في بوديمسكي. أول أمس أوصلت نساء كولخوزنا الذخيرة الى الدون، وعند عودتهن أخبرننا: لقد قتل الكثير من مقاتلينا الأعزاء، على الضفة الأخرى للدون، لكنهم أردوا

الكثيرين من الألمان على الرابية، وجثثهم مكومة على الأرض كقرم الحطب. فلو عرفنا أنكم انتم الذين خضتم هذه المعركة لكنا قد استقبلناكم واحتفينا بكم بطريقة اخرى. لقد ذهب مسؤولكم، العجوز الأشقر الشائب، في الليل، الى رئيس الكولخوز واخبره عن المعركة الضارية التي خضتموها. واذا بي أرى رئيس الكولخوز مسرعاً عند مطلع الفجر الى فناء بيتي وهو يكاد يعدو، ويقول لي لقد أخطأنا يا نتاليا. انهم ليسوا بهاربين، بل هم أبطال. اذبحي الآن دجاجاً واعدي لهم حساء شعيرية، واطعميهم حتى الشبع. وأخبرني كيف دافعتم، وكم فقدتم، وفي الحال باشرت باعداد الحساء، ذبحت ثمان دجاجات – انها في القدر – وهل تعز علينا هذه الدجاجات التافهة حتى نبخل بها على حماتنا الأعزاء؟ اننا على استعداد لتقديم كل ما تريدون المهم ألا تسمحوا للألمان بالقدوم الى هنا! وأود أن أقول الى متى ستواصلون تراجعكم؟ لقد آن الأوان لترسخوا أقدامكم... لا تعاتبني على هذه الكلمات الصارمة، الا انه لمن المخزي أن ننظر اليكم وأنتم...

– اذن يتضح أننا أخطأنا في اختيار المفتاح لقفل قلبك؟ – تساءل لوباخين.

– أجل هذا ما حصل، – ابتسمت ربة البيت.

تنحنح لوباخين متأسفاً، ولوح بيده قاصداً البئر. «ما لي لايحالفني الحظ بالنسبة للحب خلال الفترة الأخيرة»، – اضطر للاعتراف والحزن يسيطر عليه، وهو سائر في الممر الترابي.

* * *

في صباح اليوم، بعد تضميد جراح آمر الفرقة العقيد مارتشينكو المصاب بضاحية سيرافيموفيتش بجراح في كتفه ورأسه، شرب كوب شاي ثقيل واستلقى ليستريح. وكان جراء ما فقده من دم، وبسبب الأرق خلال الأيام الأخيرة بعد اصابته، يشعر بوهن دائم ونعاس شديد مضن يستبد

به. ولكن ما ان غفا قليلا، حتى طرق أحدهم الباب بطرق خفيض ولكن بالحاح. ودون الانتظار حتى يؤذن له، دخل الرائد غولوفكوف. وهو ضابط من هيئة الاركان، الى الغرفة شبه المعتمة وقال متسائلا:

– ألست نائماً، يا فاسيلي سيميونوفيتش؟

– لا، وما حاجتك؟

دنا غولوفكوف، القصير القامة الممتلىء كالبرميل والذي سمن قبل أوانه، دنا بخطى حثيثة من الشباك ونزع نظارته المثبتة على أنفه، وقال بصوت متهدج ماسحاً اياها بمنديله، ومديراً ظهره الى مارتشينكو:

– لقد وصل الفوج الثامن والثلاثون...

– آ – آ – آ... – رفع مارتشينكو رأسه قليلا بحدة، وضغط على أسنانه محدثاً صريفاً: وكاد رأسه يسقط على السرير ثانية من شدة الألم في صدغه.

اضطجع مرة أخرى، واستجمع كل قواه وسأله بصوت غريب وكأنه آت من بعيد:

– وكيف؟..

ومن مكان ما بعيد تهادى الى مسامعه صوت غولوفكوف غير الغريب عليه:

– سبعة وعشرون مقاتلا. خمسة منهم مصابون بجراح طفيفة. أتى بهم رئيس العرفاء بوبريشينكو. معظمهم من الكتيبة الثانية. وحدة المعدات – أنت تعرف... حافظوا على راية الفوج. الجنود مصطفون، انهم ينتظرون. – وأضاف مقترباً جداً عند اذنه: – فاسيلي لا تنهض. سأستقبلهم أنا. لا تنهض، ما أغربك، ان هذا يؤذيك! أنت شاحب مثل الكلس. وهل يجوز التصرف بهذا الشكل؟

جلس مارتشينكو في سريره لعدة دقائق، وهو يتمايل ببطء، واضعاً يده السمراء على رأسه المضمد. تفصد صدغه الأيمن عرقاً. ثم تحامل رافعاً جسمه العبل الضخم عريض العظام، باذلا قصارى جهده وقال بحزم:

– سأخرج اليهم. أنت تعرف يافيودور بانني، قبل

الحرب، خدمت ثمانية أعوام تحت هذه الراية... سأخرج اليهم شخصياً.

– ألن تقع مثلما حدث بالأمس؟

– كلا، – أجاب مارتشينكو بجفاء.

– ربما من الأفضل أن اسندك، ممسكاً بذراعك؟

– كلا، ثم كلا. اذهب وقل لهم – لاداعي لتقديم تقرير. وليخرجوا الراية من غلافها.

نزل مارتشينكو الطنف وهو يطأ ببطء وحذر على درجات السلم، ممسكا بالدرابزين وحينما وطىء الأرض بثقله – اصطفق سبعة وعشرون زوجاً من الكعوب العسكرية.

اقترب مارتشينكو من الصف، وهو يدوس الأرض بمقدمة جزمته أولا ومن ثم بباطن قدميه، كما يسير العميان. كان رئيس العرفاء بوبريشينكو يحرك شفتيه بصمت، ولا يسمع في الصمت المطبق سوى التنفس المنفعل المكبوت للمقاتلين وخشخشة الرمل تحت قدمي العقيد مارتشينكو.

توقف العقيد، وأخذ يتأمل وجوه المقاتلين بعينه البراقة السوداء كالفحم، غير المعصوبة، وفجأة قال بصوت جهوري:

– ايها الجنود! ان الوطن وستالين لن ينسياكم ولن ينسيا أبداً مآثركم، ومعاناتكم. شكراً لكم لحفاظكم على راية الفوج المقدسة. – ازداد انفعال العقيد ولم يتمكن من اخفائه فأخذ خده الأيمن يختلج. صمت لبرهة وجيزة، ثم عاد ليتكلم: – تحت هذه الراية، حارب الفوج في عام ألف وتسعمئة وتسعة عشر، ضد عصابات دينيكن. ان هذه الراية قد شاهدها الرفيق فرونزه، وكثيراً ما رآها في سيفاش الرفيقان فوروشيلوف وبوديوني...

رفع العقيد قبضة يده، السمراء المشدودة، عالياً فوق رأسه. وأخذ صوته المفعم بالحماس والثقة وبمنتهى الانفعال يزداد قوة ورنينا، كوتر مشدود بقوة:

– ليحتفل العدو مؤقتاً، لكن النصر سيكون حليفنا في خاتمة المطاف وستذهبون برايتكم الى المانيا! ستفجع هذه الدولة اللعينة التي أنجبت جحافل السلب والاغتصاب

والقتلة، وحينئذ سوف تخفق راياتنا الحمر فوق الأراضي الألمانية في جولات المعارك الأخيرة... رايات جيشنا العظيم المحرر!.. شكرا لكم أيها الجنود.

كانت نسمة خفيفة تداعب الأهداب الذهبية الكالحة، المحيطة بقماش الراية القرمزي، وهي مرفوعة ترفرف فوق الصارية، وتبدو عليها الطيات الثقال. دنا العقيد من الراية بهدوء، فجثا على احدى ركبتيه راكعاً في خشوع. وتمايل لبرهة قصيرة واستند بأصابع يده اليمنى على الرمل الرطب، بصعوبة، ولكنه سرعان ما تغلب على ضعفه، ثم انتصب، وأحنى رأسه المعصوب باجلال، ضاغطاً شفتيه المرتعشتين الى حافة الراية المخملية، المشبعة برائحة البارود، وغبار المسافات الطويلة التي قطعتها، ورائحة الشيح القوية...

وما فتىء لوباخين واقفاً، ضاغطاً فكيه، بلا حراك، ولكن ما ان سمع نشيجاً خافتاً مكبوتاً على يمينه، حتى أدار رأسه قليلا، ورأى رئيس العرفاء، رفيقه في السلاح، يقف في حالة تهيؤ وكتفاه تهتزان وتختلجان، ودموع المسنين تنهمر غزيرة من تحت جفنيه المسدلين، في اغماضة وتسيل بقطرات صغيرة لماعة على خديه. ولكنه ممتثلا للنظم العسكرية، لم يرفع يديه لمسح دموعه، فقط كان ينكس رأسه الذي وخطه وجلله الشيب أكثر فأكثر.

مصير انسان

الى اوجينيا غريغوريفنا ليفيتسكايا عضو الحزب الشيوعي منذ ١٩٠٣

كان أول ربيع بعد الحرب في الدون الأعلى مفاجئا وشاملا على نحو نادر. ففي نهاية آذار هبت رياح دافئة من بحر آزوف ولم تنقض ثمان وأربعون ساعة حتى تعرت رمال ضفة الدون اليسرى نهائيا، وبرزت للعيان وديان السهب وأخاديده، المحشوة ثلجا، وراحت الجداول الصغيرة في السهل تحمحم مجنونة وتكسر من أسارها الجليدى. وأصبح المسير في الدروب متعذرا.

وفي معمعان هذا الذوبان الشديد كان علي أن اذهب الى قرية بوكانوفسكايا. ولم تكن المسافة كبيرة – لا أكثر من ستين كيلومترا – ولكن قطعها لم يكن ينطوى على شيء من اليسر. وكنا، رفيق لى وأنا، قد رحلنا قبل شروق الشمس. وكان جوادانا، على الرغم من شبعهما والجهد الذى يبذلان، لا يستطيعان جر بريتشكانا* الثقيلة في الرمل المختلط بالثلج والجليد الذي تغوص فيه العجلات حتى منتصفها، الا بشق النفس. وبعد ساعة كان يغلى، في خواصر الجوادين وردفيهما، تحت سيور العدة الرقيقة، نديف من الزبد، بينما تمتلىء رطوبة الصباح من رائحة عرقهما المثيرة المسكرة ورائحة القطران الساخن الذي يكسو عدتهما بسخاء.

وكنا في المواضع التي يستحيل السير فيها أو يكاد، ننزل من البريتشكا ونقطع بعض الطريق ماشيين. فكان الثلج الذائب يخشخش تحت جزماتنا ويعيق من سيرنا.

---

* بريتشكا – كلمة روسية تعنى نوعا من العربات الصغيرة.

ولكن المسير يغدو أصعب على جانب الطريق، حيث تلمع كالبلور تحت أشعة الشمس قطع الجليد الرقيقة التي لم تذب.

وقد قضينا حوالى ست ساعات حتى وصلنا الى معبر على نهر ييلانكا على بعد ثلاثين كيلومترا.

كان هذا النهر الصغير أمام ضيعة موخوفسكى الذي يحيله الصيف في بعض المواضع جافا تماما قد فاض وانطلق زهاء كيلومتر بعيدا من مجراه الموحل المشجر. وكان علينا أن نقطعه على مركب لايحمل أكثر من ثلاثة أشخاص. فصرفنا عربتنا. وكانت تنتظرنا في الجهة الأخرى، في مستودع تعاونية زراعية، سيارة «جيب» أكل عليها الدهر وشرب متروكة هناك منذ الشتاء. وفي غير قليل من الخشية صعدت والسائق متن المركب البالى، وظل رفيقى على الضفة مع متاعنا، ولم يكد يستقر بنا المجلس حتى اندفعت نافورات صغيرة من مواضع شتى في أرض المركب النخرة، فترتب علينا أن نسد خروق هذا الوعاء المتقلقل وننزح الماء طوال مدة العبور. وبعد ساعة كنا على ضفة ييلانكا الأخرى. واحضر السائق سيارة من الضيعة وعاد الى المركب ثم أمسك بالمجذاف وقال لى:

– لا تنتظر عودتنا قبل ساعتين... هذا اذا لم يسقط هذا الطست الملعون في الماء...

كانت الضيعة تنتشر على بعد غير يسير من النهر، وكان يهيمن عند المرسى صمت الأماكن غير المأهولة ابان الخريف المتأخر أو في بداية الربيع. ومن الماء تنبعث رائحة الرطوبة والرائحة الواخزة التي تفوح من تلك الاشجار العفنة – في حين يحمل النسيم العليل، من سهوب الخوبيور البعيدة الغارقة في ضباب بنفسجى، الطيوب الأبدية الشباب، التي لا تكاد تحس، طيوب الأرض التي تخلصت من عبئها الثلجي منذ وقت قريب.

على بعد بضع خطوات كان سياج محطم ملقى على رمل الضفة، فجلست عليه وأردت أن أدخن فدسست يدي في جيب سترتى المبطنة الأيمن واذا أنا أرى، مع الأسف

الشديد، أن علبة «البيلومور» قد ابتلت كلها اثناء العبور، عندما سفعتنا موجة غسلتني حتى الزنار بالماء العكر. ولم تكن اللحظة آنذاك مناسبة للتفكير في السجائر لاننى دفعا لخطر الغرق افلت المجذاف لكى انزح الماء بما استطعت من سرعة. انهلت على نفسى اقرعها لاهمالها وأخرجت العلبة المعجونة في حذر وجلست القرفصاء أصف السجائر المبتلة، التي ضرب لونها الى البني، على خشب السياج.

وكنت أمل أن تنشف سريعا. فشمس الظهيرة حامية كانها شمس أيار، حتى انى بدات آسف لأنى لبست، للسفر، بنطلونا عسكريا سميكا وسترة مبطنة. كان اول نهار دافيء حقا منذ الشتاء، وما كان أطيب ان اجلس على السياج وحدى، مستسلما للوحدة والصمت، ان أنزع قبعتى العسكرية وادع الريح تجفف لي شعرى الذى بلله اجتياز النهر، الا افكر في شيء وانا اتأمل الغيوم البيضاء المترهلة التي تتخطر في زرقة السماء الباهتة.

ورأيت بعد فترة وجيزة أن انسانا قد خرج من آخر منازل الضيعة. كان يمسك بيد صبى صغير لاتتجاوز سنه، كما تدل قامته، الخامسة أو السادسة. كانا يتجهان نحو المعبر بخطوات وئيدة متعبة. ولكن حينما أصبحا قرب سيارة «الجيب» انحرفا ناحيتى. كان الرجل طويلا على شيء من الاحديداب. فلما صار قريبا منى قال في صوت عميق اجش:

– مرحبا، أيها الاخ!

– مرحبا.

وشددت على اليد الضخمة الخشنة التي مدها لي. وانحنى على الولد وقال:

– سلم على العم، يا صغيرى. ألا ترى أنه سائق مثل ابيك؟ لكننا كنا نسير على شاحنة، أما هو فيقود هذه السيارة الصغيرة.

ونظر الولد في عيني – كانت عيناه صافيتين صفاء سماء صائفة – وابتسم قليلا ثم مد اليّ في شجاعة يدا وردية اللون باردة هززتها هزا لطيفا وسألته:

– لماذا يدك باردة جدا، يا شيخ؟ الطقس دافيء وأنت بردان؟

فدنا منى بثقة الصغار المؤثرة، واستند الى ركبتى ورفع حاجبيه الشاحبين مدهوشا:

– أنا شيخ؟ أنا ولد صغير، يا عم، وغير بردان أبدا. يداى باردتان لأنى كنت العب بالثلج.

وتحرر الأب من الكيس الضئيل الذى يحمله على ظهره وجلس قربى متعبا، وقال:

– وامصيبتى مع هذا الراكب! كم يتعبك اللحاق به! توسع من خطواتك فاذا هو يعدو خببا. ما من سبيل لحفظ الصف. حينئذ تخطو أنت ثلاث خطوات في حين ان واحدة تكفيك، حتى اننا، نحن الاثنين، نمشى بخطوات متفاوتة كما يمشى حصان وسلحفاة ناهيك بأن عليك أن تظل طوال الوقت وراءه: ولا تلفت رأسك حتى تراه يغوص في الرامات أو يجمع الجليد ويمصه كانه قطعة من الحلوى. الحقيقة ان المشى مع هذا الراكب في وحدة واحدة شيء عسير – وتوقف قليلا ثم قال: – هل تنتظر رئيسك أيها الاخ؟

لم أجد من المناسب أن أخيب أمله وأقول له انى لست بسائق، فأجبت:

– هذا ما يجب.

– ويأتون من الجهة الأخرى؟

– نعم.

– وهل تعلم ما اذا كان المركب سيعود بعد قليل؟

– ربما بعد ساعتين.

– كثيرا! هذا يتيح لى أن اتنفس قليلا. انا لست على عجل من أمرى. كنت مارا فرايتك فقلت في نفسي: هذا زميل سائق يتشمس، فلم لا ندخن سيكارة معا. الوحدة مضنية سواء في التدخين أو الموت... أنت غني، تدخن سيكارات ملفوفة. يظهر أنها أخذت حماما رهيبا. التبغ المبلول كالحصان المقتول لا ينفع لشيء، أيها الاخ. الاحسن ان نجرب تبغى المفروم. انه ثقيل.

وسحب من بنطلونه الخاكى الصيفى كيسا قديما باليا مرجانى اللون وفكه. استطعت أن اقرأ ما كتب على احدى زواياه: «الى محاربنا العزيز، من تلميذة في السنة السادسة من مدرسة ليبيديان الثانوية».

دخنا اثقل دخان بيتي وبقينا طويلا صامتين. وددت ان اسأله الى أين يمضى بالولد، وما هي الحاجة الماسة التي دفعته الى السفر في مثل هذا الفصل. ولكنه بادرني سائلا:

– هل قضيت الحرب كلها وراء مقودك؟

– تقريبا.

– في الجبهة؟

– نعم.

– اما أنا فقد شبعت من مصائبها، أيها الاخ، وأتخمت.

وقوس ظهره، وبسط يديه الضخمتين السمراوين على ركبتيه. تأملته بطرف عيني فأوجعني منظره... هل سبق لكم ان رأيتم عينين كأنهما مكفنتان بالرماد، عينين ملأهما حزن لا عزاء له حتى اعجزك تحمل نظرتهما؟ كانت لمحدثي هاتان العينان تماما.

وانتزع من السياج غصنا جافا ملتويا وراح يمر به على الرمل دقيقة طويلة في صمت، ورسم بضعة رسوم غير مفهومة ثم أستانف الحديث:

– في بعض الأحيان، يهرب من جفني الكرى، فانظر في الظلام بعينين فارغتين وأفكر: «لماذا اتلفتني، ايتها الحياة، الى هذا الحد؟ على م تعاقبينني»؟ فلا أعثر قط على جواب، لا في فحمة الليل ولا في وضح النهار... والواقع ان سؤالي ليس له جواب وانا لا أنتظر عنه جوابا! – وفجأة تذكر الولد فقال له بلطافة – رح العب قرب الماء، ياجميلي. أيام الفيضان يعثر الاولاد الصغار دائما على أشياء مسلية. ولكن حذار ان تبتل قدماك!

منذ ان كنا ندخن في صمت، كنت اختلس النظر الى الأب والأبن. وقد لفت نظري آنذاك أمر خيل الى انه غريب. كان هندام الولد بسيطا ولكنه متين: كنت ترى في خياطة

السترة الطويلة المبطنة بجلد الخروف العادى، في جزمته الصغيرة التي اختير لها قياسها بحيث يستطيع لبسها فوق جورب من الصوف، في الرقعة الماهرة عند الكم الذي تمزق يعلم الله متى، كنت تحس في هذا كله عناية نسوية، يد أم مجربة. ولم يكن شيء من ذاك في هندام الأب: فقد لفقت خروق السترة المبطنة المحرقة في مواضع عدة، تلفيقا خشنا لا عناية فيه. وبدت رقع البنطلون الخاكى العتيق كأنها خيطت خلافا لكل القواعد أو قل ان رجلا هو الذى لهوجها. وأما الجزمة العسكرية فتكاد تكون جديدة ولكن أبدا لم تمتد يد امرأة الى جوربه الصوفى الذى أكله العث... وقد فكرت بادىء الأمر: أرمل أو تعس في بيته.

لحقت عيناه الولد الصغير ثم سعل سعالا اجش وأستانف كلامه، وأصبحت أنا وكلى اذن صاغية:

– في البداية كانت حياتى عادية. أنا من ولاية فورونيج، ولدت سنة ١٩٠٠. خضت غمار الحرب الاهلية في صفوف الجيش الأحمر، في فرقة كيكفيدزه. في عام ١٩٢٢، عام المجاعة، اشتغلت عند كولاك في كوبان وهذا ما أنقذني: لقد مات ابى وأمى واختى الصغيرة في بلدتنا جوعا. وبقيت وحيدا. فلو طوفت الأرض طولا وعرضا لما وجدت لى نسيبا في ايما مكان. وفي السنة التالية عدت من كوبان وبعت بيتنا وشددت الرحال الى فورونيج. عملت أول الأمر في تعاونية للنجارين ثم ذهبت الى المصنع فأصبحت برادا. وتزوجت من بعد. كانت زوجتى قد ربيت في ميتم، فلم يكن لها أب أو أم. لقد وقعت على فتاة طيبة حقا! هادئة، ممراح، خدوم ذكية لا أقارن بها. تجرعت مر الحياة منذ نعومة أظفارها، وهذا ما اثر في سجاياها. الذين لا يعرفونها الا من بعيد قد لا يرون شيئا. أما أنا الذى أعرفها عن كثب، فلم يكن أحلى على قلبي منها ولا اطلى، ولم يكن ولن يكون لها نظير في هذه الدنيا!

تعود من المصنع مهدود الحيل، وأحيانا غاضبا يتطاير الشرر من عينيك، فلا تجيب على الكلمة الفظة بمثلها.

وديعة رؤوم، تهلك نفسها لكى تراك راضيا وتجاهد حتى تطبخ لك صحنا لطيفا بالدراهم القليلة التي بين يديها. وتنظر اليها وهي منكبة على شؤونها فينصرف غضبك. ولا تنقضى خمس دقائق حتى تأخذها بين ذراعيك وتفسر لها: «عفوا، اغفرى لى، يا صغيرتى ايرينا، اذا كنت كلمتك مثلما يفعل الاجلاف. لم يكن العمل على ما يرام اليوم.» واذا الصلح يعود سيد الاحكام وقلبك منه في راحة. وقد لا تعلم، يا أخى، ما يعنى كل هذا للعمل؟ انهض في الصباح وقد استعدت قواى واذهب الى المصنع، والعمل، أى عمل، يفور بين يدى ويغلى! هذا معنى وجود زوجة ذكية قربك، زوجة صديقة طيبة.

أحيانا كنت أشرب مع الرفاق، بعد القبض. وتصادفك أمسية من الأمسيات التي تعود فيها الى البيت يقذفك جدار ويتلقاك آخر كأن الشارع على عرضه لا يكفيك ويضيق عليك فكيف بالازقة الضيقة! كنت فتى متين البنيان في ذلك الزمان، قويا مثل الثور أمسك القنينة فلا أعيدها الاوكعبها أبيض، أى سيدى، وكنت دائما أعود على ساقى. مرات كان يحدث لى أن أزحف على أربع، أن أجر نفسى جرا لكى اقطع الامتار المئة الأخيرة ولكنى أعود. في هذه المرات أيضا لم تكن تقلب لى وجهها أو تنهال على بالتقريع والملامة. كل ما في الأمر أن تضحك قليلا، لعلمها أن السكارى يجب ألا يساء اليهم. وتنزع عنى حذائى وتهمس لى: «نم الى الجدار، يا أندريه، حتى لاتسقط من السرير أثناء نومك». وأما أنا فاسقط مثل كيس شوفان، ويروح كل شيء يرقص في راسى، وفي سباتى أحس يدها تداعب راسى في لطف وأسمعها تروى لى أشياء ظريفة وأرى انها ترثى لحالي وتعطف علي...

وكانت توقظنى صباحا قبل العمل بساعتين، حتى يتحرك دمي. كانت تعلم انى لا أستطيع أن آكل شيئا وليذهب عني السكر فتحضر قطعة من مخلل الخيار أو شيئا آخر خفيفا وتصب لى قدحا صغيرا من الفودكا. «هذا ينعشك، ياأندريه

ولكن لا تطلب منه أكثر، يا حبيبى». بعد كل هذا ما كنت قادرا على أن اخيبها! فاشرب واشكرها بعينى من غير أن أقول شيئا واقبلها واذهب الى العمل مثل الأسد. لو انها صرفت كلمة في غير محلها وأنا سكران وأمسكت بتلابيبي وجمعت على الحارة لسكرت يعلم الله في اليوم الثانى سكرة مؤكدة لا ريب فيها. هذا مايجرى في الأسر التي تضم زوجات حمقاوات. ولقد رأيت من هاتيك الغبيات واعرف.

ولم نلبث أن جاءنا أولاد. صبى في البدء ثم بنتان بينهما سنة واحدة... فانقطعت عن مخالطة الرفاق وأخذت أحمل أجرتى كلها الى المنزل لأن الأسرة اصبحت كبيرة والقلب لا يطاوع على الشرب. اللهم الا في أيام الراحة، أشرب كوبا من البيرة. واكتفى بهذا.

في عام تسعة وعشرين انصرف اهتمامى الى السيارات فتعلمت قيادة شاحنة. ثم استسغت هذه المهنة فلم يعد بي ميل للعودة الى المصنع: وراء المقود رأيت الحياة اكثر بهجة. وانفقت في ذلك عشر سنوات من غير ان أحس تصرمها. عشر سنوات، لا شيء! واذا شئت سل من شئت ممن هم في مثل سنى هل اهتم لكل سويعات حياته المنقضية؟ كل ما في الأمر انه لم يولها انتباها! الزمن الغابر مثل السهب الذى تراه هناك، في الضباب. اجتزته هذا الصباح، في البداية كان الضياء يعم كل شبر، ولكن لم أقطع عشرين كيلومترا حتى غطى الضباب كل شيء، والآن أنت هنا لا تميز الغابة من الأرض البور أو المرج من الأرض المفلوحة...

اشتغلت هذه السنوات العشر ليل نهار. وكنت أربح جيدا ولا نعيش أسوأ من غيرنا. والأولاد، كانوا زينة حقيقية: دائما الأوائل في دروسهم. فالبكر، اناطولى، أظهر في الرياضيات من المواهب ما جعل احدى صحف موسكو تتحدث عنه. من أين جاءته هذه المواهب في هذا العلم؟ لست أدرى، يا أخي، ولكني كنت أسر لهذا وأعتز به أي اعتزاز!

كنا قد وفرنا بعض النقود أثناء هذه السنوات العشر. وقبيل الحرب عمرنا منزلا صغيرا من غرفتين وممشى وغرفة

للمؤونة. واشترت ايرينا عنزتين. ما عسانا أن نطلب أكثر من ذلك؟ الأولاد يأكلون حساءهم بالحليب، وعندنا ماوى، وكلنا كاسون منتعلون، ونحيا كما نحب. ولكنني لم أكن محظوظا بالأرض: خصصوا قطعة أرض من ستمئة قصبة الى جانب مصنع الطائرات. فلو انى غرست منزلى في مكان آخر لكان للحياة وجه آخر...

اذن فقد بدأت هذه الحرب. في اليوم الثانى ورقة من التجنيد، في اليوم الثالث تفضلوا الى القطار. ورافقنى الاربعة الذين هم عندي الى المحطة: ايرينا، اناطولي، وبنتاي الصغيرتان ناستيا واولغا. واستطاع الأولاد أن يظهروا على أحسن ما تتمنى. البنتان، وهذا حتم، بكتا قليلا. واما اناطولى – وكان آنذاك في السابعة عشرة من عمره – فقد كان ينفض كتفيه، فعل من اصابه البرد. وايرينا المسكينة... لم أراها على مثل تلك الحال طوال السبعة عشر عاما التي قضيناها معا. في الليلة السابقة ظلت تبكى حتى ابتل كم قميصى وصدره. وفي الصباح اعادت الكرة... ونصل الى المحطة. كان رثائى لها كبيرا فلم أجرؤ حتى على النظر اليها: كانت شفتاها متورمتين وشعرها متمردا على منديلها وعيناها عكرتين ضائعتين مثل انسان أصاب مخيخه الخلل. وأعطى الرؤساء الأمر بالصعود الى المقطورات واذا هى تسقط على صدرى وتتشبث بعنقى وترتعش،، ترتعش مثل شجرة على وشك أن تسقط... وحاول الأولاد أن يواسوها، وأنا أيضا، فلم يجد ذلك. وكانت النسوة الاخريات يتحدثن الى أزواجهن والى أبنائهن واما امرأتى فتلتصق بى مثل ورقة على غصنها ولا تعرف الا ان تختلج من غير أن تنطق جملة واحدة. وأقول لها: «يجب أن تتماسكى، يا حبيبتى ايرينا. قولي لى ولو كلمة وداع واحدة». فتجيبنى منتحبة بين الكلمة والكلمة: «يا روحي اندريه... يا حبى... لن يرى واحدنا الآخر... على هذه الأرض... أبدا...».

كنت أحس، لشفقتى عليها، ان قلبى يتمزق. وكان

هذا كل ما تجده لكى تقوله لى! كان عليها، مهما يكن من أمر، أن تفهم: أنا أيضا كان الفراق ينشر في قلبى حدادا أسود. أنا لم أكن فى سبيلى الى أكل الفطائر عند حماتى. فاحنقنى ذلك، فحللت يديها بقوة ودفعتها في كتفها، دفعة خفيفة جدا، كنت أخالها خفيفة جدا، ولكن كانت لى عضلات فظيعة، فانقذفت بعيدا منى خطوات ثلاث ثم عادت الي بخطوات صغيرة وذراعاها مبسوطتان الى الأمام. فصحت بها: «أهكذا يفترق الناس؟ أنت تدفنيننى حيا قبل أن يحين أجلي!» وقبلتها مرة أخرى وأنا أرى أنها في واد آخر بعيد...

وتوقف فجاءة في منتصف الجملة وارتفع في حنجرته نوع من القرقرة عكرت الصمت الذى انبسط. وقد غلبنى التأثر ونظرت من طرف عينى الى الراوى فلم أر دمعة في عينه الخامدة، شبه الميتة. وظل هكذا، منكس الرأس، كئيبا، الا يديه القويتين اللتين كانتا تتدليان بلا حركة فقد كانتا ترتعشان ارتعاشا خفيفا. وذقنه ترتعش وفمه القوى يرتعش...

– لا داعى لهذا، يا صاحبى! لا تتذكر ذلك! – هكذا قلت له في خفوت.

ولم يبد أنه سمعنى. ولم شعثه بجهد من الارادة جبار وقال بصوت أجش تغيرت رنته بشكل عجيب:

– أبدا لن أغفر لنفسى فعلتى تلك! حتى القبر، حتى آخر نفس، بل حتى اذا أهيل التراب فوقى فلن أغفر لنفسى أنى دفعتها!

وصمت من جديد لحظة طويلة، وحاول أن يلف سيكارة بورقة جريدة، فتمزق الورق وتساقط التبغ على ركبتيه... وتوصل أخيرا الى لف فتيل صغير كيفما اتفق واجتذب عدة أنفاس شرهة وسعل وتابع قصته:

– انتزعت نفسي من ايرينا، وأخذت وجهها بين يدى وقبلتها. كانت لشفتيها برودة الجليد. وودعت الاولاد وركضت الى المقطورة وقفزت اليها وهى سائرة. كان القطار يتحرك وئيدا، وأمر أمام جماعتى كلها وانظر. لقد تكوم اطفالى مثل الأيتام، كانوا يلوحون لى مودعين وعلى

شفاههم جهاد الابتسامة التي لا تريد ان تخرج. وايرينا كانت تشد على صدرها يديها الاثنتين وشفتاها البيضاوان مثل الحوارى، تدمدمان بما لست أدرى. انها تنظر الي بعينين لا حركة فيهما وتنحنى الى أمام كأنها تريد أن تسير ضد ريح مجنونة... على هذا النحو تظل في ذاكرتى الى الأبد: يدان الى الصدر وشفتان شديدتا البياض وعينان محملقتان تغرقهما الدموع... انا أراها هكذا على الأخص في الحلم... لماذا دفعتها آنئذ؟ حينما أفكر في ذلك أحس أن قلبي يشطر بسكين غير قاطعة...

شكلوا منا وحدة عسكرية في مشارف مدينة بيلايا تسيركوف، في أوكرانيا. واستلمت شاحنة من طراز «زيس — ٥» ورحلت الى الجبهة عليها. الحرب، لن أحدثك عنها. أنت رأيتها وعرفت ماذا كانت في البداية. من البيت كانت تردنى كومة رسائل، فأجيب بكلمة من حين الى آخر: ان الحال حسن، ان القتال قليل، أننا نتراجع ولكننا لن نلبث أن نعود فنطحن الفريتز، طحنا شديدا. ماذا عساى أن أقول غير هذا؟ كانت أياما خانقة لم تدع لنا مجالا للمراسلة. ثم انى، وعلي أن أقولها، لا أحب أن اجتذب العطف والمرحمة. لم أستطع قط أن أهضم هؤلاء البكائين الذين يكتبون كل يوم، لمناسبة وغير مناسبة، الى زوجاتهم وحبيباتهم، ويملأون الصفحات شكاوى ودموعا وحكايات عن قسوة الحرب عليهم وتربص الموت بهم في كل لحظة. هؤلاء هم ابناء الكلاب، النساء بالبنطلونات الذين لا يكفون عن اثارة الرثاء، عن أن يتمخطوا دموعهم مثل الصنابير، كأن نساءهم المسكينات وأولادهم المساكين يحيون في المؤخرة حياة النعيم. ومع ذلك فكم احتاج نساؤنا وأطفالنا الى ظهور قوية، حينما كانت البلاد كلها تنوء بكلكلها عليهن، حتى لا ينهرن تحت هذا الوقر الكبير — ولم ينهرن بل قمن بالعبء! في حين ان هؤلاء الخرعين البكائين يسودون لك رسائل شاكية، حتى تصبح نسوتهم الشغيلات كأنك كسرت لهن قوائمهن. حينما كن يأخذن هذه الرسائل، المسكينات،

كانت أذرعهم تسقط وحماستهن للعمل تموت! لا! أنت لم تخلق رجلا، لم تخلق جنديا الا لكي تتحمل، تتجرع كأس العلقم حتى الثمالة حينما تمس الحاجة. واما اذا لم تكن نحت من صوان الرجال فتدبر لنفسك تنورة ذات حشايا حتى ينتفخ ردفاك البائسان بعض الانتفاخ: من القفا على الأقل يكون لك هيئة امرأة. ثم اذهب اقلع الحشائش حول الشوندر أو احلب البقرات. أمثالك يستغنى عنهم في الجبهة، لأن الزبالة فيها، حتى من دونك، الى الركب!

ولكن سنة واحدة لم تنقض علي في الجبهة... في اثنائها جرحت مرتين. وكان الجرح في كلتا المرتين خفيفا: الأولى في الذراع والثانية في الساق. الأولى برصاصة طائرة والأخرى بشظية قذيفة. وثقب الألمان شاحنتي حتى غدت مثل المصفاة، ولكنى دائما كنت أنجو بنفسى، ولكن نجاتى الاخيرة كانت من القسوة بحيث سحبتنى من المعركة تماما اذا اسرت قرب لوخوفنكى، في أيار عام ١٩٤٣. ساعة نحس. في تلك الساعة كان الألمان يهاجمون بقوة وبطارية مدفعيتنا من عيار ١٢٢ قد نفدت ذخيرتها أو كادت. ووسقت سيارتى بالقنابل حتى حافاتها وقد اسهمت انا بعملية الوسق حتى التصقت سترتي بعظام ظهرى. كان علينا أن نعمل في سرعة لان المعركة وصلت الينا: الدبابات تهدر من اليسار، واطلاق النار من اليمين ومن الامام. قد انذر بالسوء...

وسألنى آمر السرية: «هل تستطيع المروق، ياسوكولوف؟» أهذا سؤال يسأل! الرفاق قد يكونون أمام الموت وجها لوجه وأنا اقعد أكش الذباب؟ وأجبته: «أما حكاية! علي أن أمرق وسأمرق!» فأوضح لى: «طيب، ولكن عجل. ادعس بنزين!».

ودعست. في حياتى لم أسق مثل ذلك اليوم! لم يكن ما أنقله بطاطا، وأنا أعرف ذلك. الحمل الذى معى كان يفرض علي أن أكون متأنيا. ولكن من أين لي ان اتأنى وأنا أعرف أن رفاقى من الذخيرة معدمون، وأن الطريق كلها تحت نار المدفعية! وقطعت حوالى ستة كيلومترات وكان

علي ان انعطف في طريق فرعي يفضي الى الوادي الذي تعسكر فيه البطارية. وهنا نظرت. العمى! مشاتنا منتشرون في الحقول الممتدة عن يمين الطريق وشماله والالغام تنفجر بين صفوفهم. ماذا علي أن أفعل؟ هل أنكص على عقبي؟ ودعست حتى النهاية. لم يعد يفصلني عن البطارية غير كيلومتر واحد وكنت قد انحرفت سالكا الطريق الفرعي، غير أني لم أستطع بلوغ الرفاق، يا أخي. انفجرت قذيفة ثقيلة من مدفع بعيد المرمى قرب سيارتي. انا لم اسمع لا انفجارا ولا سواه. احسست شيئا يطق في مخي ثم لم أعد أذكر شيئا. كيف بقيت حيا، لست أدري. ولا أدري أيضا الزمن الذي مر علي وأنا ملقى على بعد عشرة أمتار من خندق الطريق. وعدت الى الوعي ولكني عجزت عن الوقوف على قدمي. كان رأسي يغلي وكل عضو في يرتعش كما لو انني محموم. وكل شيء يسود في عيني، وفي كتفي اليسرى شيء يطقطق ويصر وجسدي كله يؤلمني كأنني ضربت خلال ثمان وأربعين ساعة متوالية. ظللت طويلا أجر نفسي على بطني ثم توصلت، على أية حال، الى النهوض كيفما اتفق، ولكنني كنت عاجزا عن افهم اين أنا وماذا حدث لي. لم أعد اذكر شيئا أبدا، غير اني كنت اخشى أن أعود الى الاستلقاء، وأقول في نفسي: اذا عدت الى الاستلقاء فلن أنهض أبدا. وهكذا ظللت مغروسا في موضعي أتأرجح يمنة ويسرة مثل حورة في ريح عاصفة.

لما عدت الى نفسي، لما أخذت أعي وانظر كما يجب. أحسست كأن قلبي تقبض عليه كماشة: القذائف التي انقلها متناثرة في كل مكان، وسيارتي غير بعيد قد رفعت الاربع واصبحت هلاهل واسمالا، والمعركة كانت الآن ورائي... ما معنى كل هذا؟

لا أخبىء عليك. لقد حصد ذلك ساقي حصدا فسقطت كأنني شطرت ببلطة لانه وضح لي انى مطوق أو اذا شئت أسير عند الفاشيست. هكذا تجرى الأمور في الحرب...

ليس هينا، أيها الأخ، أن يتضح لك أنك أسير على

الرغم منك. ومن لم يمر به مثل هذا الويل لا يستطيع أن يفهم ما معنى الأسر.

اذن فقد كنت متمددا على الأرض اصغي فاسمع هدير دبابات تقترب. اربع دبابات المانية متوسطة تمر من امامي مسرعة. كانت تتوجه الى الناحية التي جئت منها مع قذائفي... هل تتصور انني عشت هذا كله؟ ثم أقبلت جرارات تقطر مدافع، ورأيت مطبخا متحركا يمر ثم قطع مشاة، ليست كثيرة، سرية معطوبة لا أكثر. كنت أنظر من طرف عيني وأعيد خدي الى الأرض ثم اغلق عيني لأني أحس الغثيان، كلما نظرت اليهم، في معدتي وقلبي أيضا...

وخيل الي أن أحدا لن يأتي بعد فرفعت رأسي قليلا واذا ستة انفار مسلحون بالرشيشات يتقدمون علي حوالى مئة متر. ويحيدون عن الطريق ويتجهون نحوي خرسا مثل الاسماك. واقول في نفسي: «ها هو ذا موتي يقبل علي». وجلست — كان يزعجني ان اموت مستلقيا — ثم نهضت. ولما باتوا على قيد خطوات مني رأيت أحدهم يزلق حمالة رشيشه. انظر ما اغرب الانسان: في تلك اللحظة لم أحس أي ذعر أو خفقة قلب، غير اني كنت أنظر اليه واقول في نفسي: «سيرشني رشة قصيرة. أين؟ في رأسي؟ أو في صدري؟» كأن الموضع الذي سيثقبه لي رصاصه قد غدا مهما في نظري!

كان فتى، اميل الى الزهو بنفسه، اسمر، ذا شفتين رفيعتين مثل الخيط وعينين ضيقتين. وشرحت لنفسي قائلا: «هذا الولد سيقتلك من غير ان يطرف له جفن». والواقع انه سدد رشاشه نحوي وانا اواجهه بنظراتي من غير ان اقول شيئا — ولكن آخر، أكبر منه سنا، وقد يكون كهلا، واظنه كان رقيبا، صرخ به ما لست ادري وابعده بيده وتقدم مني وأخذ يرطن بلسانه وثنى لي ذراعي اليمنى كأنه يجس عضلاتها. جس وقال: «اوه!» وارانى الطريق، ناحية الشمس الغاربة كأنه يقول لي: «امش يا ثور ستكدح من اجل الرايخ». كان يعرف ان هذا اربح، ابن الكلب!

ولكن الاسمر كان يحدق في جزمتي التي كانت تبدو في مظهرها الخارجي جيدة، ثم اشار اليها بأصبعه كانه يقول: «اخلعها»، فجلست على الارض وخلعتها وقدمتها اليه فنترها كانه يختطفها اختطافا ثم انزلت قماطي وبسطته له وأنا أنظر اليه من اسفل، فطفق يعوى، يسبني بلغتهم، ثم عاد يقبض على رشيشه، والآخرون يقهقهون. ثم مضوا بسلام. ولكن الاسمر نظر الى ثلاث مرات قبل ان نصل الى الطريق، وكانت عيناه تقدحان شررا كالذئب وتنطقان بالغضب. ولم أكن أدرى حقا لماذا. كانى أنا الذى خلصته جزمته.

لم يكن لي، أيها الاخ، من الأمر مناص. خرجت الى الطريق وشتمت، وسرت ونحو الغرب، نحو الاسر!..

في تلك الأيام لم أكن أصلح للمشى: كيلومتر واحد في الساعة على أبعد تقدير. تريد أن تتقدم ولكن شيئا لاتدريه يجعلك تتارجح يمنة ويسرة فتجر نفسك على الطريق مثل انسان شله السكر. لم امش الا قليلا حتى لحق بى رتل من أسرانا، من الفرقة التي كنت اخدم فيها. كان يخفر الرتل حوالى عشرة من الفريتز مسلحين بالرشيشات. ولما وصل أولهم الى قربى اشرع عقب سلاحه، من غير ان يقول لى شيئا، وهوى به على. لو انى سقطت لثقبني برشة من سلاحه ولكن الرفاق لم يدعوني أسقط بل تلقوني ودفعوني الى قلب الرتل. وأسندوني من ابطي نحو نصف الساعة، فلما استعدت بعض قواى راح أحدهم يشرح لي هامسا: «اياك ان تسقط! امش ما أسعفتك قواك والا قتلوك». وأما القوى، فلم يبق منها شيء ولكني مشيت.

ومنذ أن غابت الشمس زاد الألمان في عدد الخفر. جاءت شاحنة تحمل نحو عشرين جنديا برشيشات. استعجلونا، فعجز من كانت جراحه كبيرة عن اللحاق بالرتل فأجهزوا عليهم حالا. وحاول رفيقان أن يهربا، من غير ان يدركا أن نبشك هين في هذه الحقول المنبسطة التي يضيئها القمر. وهكذا فقد أسقطهما الخفر هما أيضا. وفي منتصف الليل

وصلنا الى قرية أكل لهب الحريق نصفها فحبسونا في الكنيسة التي طارت قبتها. كانت أرض الكنيسة من الحجر وليس فيها حتى كومة صغيرة من القش ولم يكن عند أحدنا معطف لاننا كنا في السترات والبنطلونات الصيفية، فلم نجد ما نضعه تحتنا. وقد ترى من كان بالقميص الداخلي، وغالبيتهم من صف الضباط قد نزعوا ستراتهم حتى لا يميزوهم من بقية الجنود. وكان ثمة أيضا سدنة المدافع الذين تحرروا من البستهم فسقطوا في الاسر على هذا الشكل.

في الليل هطل مطر غزير اغرقنا. وقد كانت القبة قد طارت بقنبلة مدفع أو قنبلة طائرة وتهدم السقف كله فتعذر علينا أن نجد مطرحا جافا حتى في المذبح. وهكذا تكومنا حتى الصباح في تلك الكنيسة مثل الخراف في حظيرة مظلمة. في قلب الليل شعرت أن أحدا يمس يدي ويسالني: «الست جريحا، ايها الرفيق؟» فقلت له: «وما حاجتك، ياأخي!» فقال لى: «انا طبيب. هل تحتاج الى مساعدة؟» فشرحت له ان شيئا يطقطق في كتفي اليسرى التي تورمت وتؤلمني جدا. فقال لي بلهجة آمر: «انزع سترتك وقميصك». فخلعتهما. اخذ يجس كتفي بأصابعه الدقيقة فأحس أن النار تشويني وأصر على اسناني واقول له: «يظهر انك طبيب بيطرى. في حياتك لم تعن بمريض. انت تعذبني! انت تضغط على مكان الألم، يا من لا قلب له؟» وأما هو فقد استمر في جسه وأجابني محتدا: «اسكت، ضب لسانك! كيف ابتليت بشرثار من هذا النوع؟ شد على اسنانك سأولمك الآن اكثر!» وشد ذراعى فأحسست أن بابا من ابواب جهنم الحمراء قد خرج من مقلتي.

لما ردت روحي الي قليلا سألته: «ماذا تفعل، يافاشيستي النحس؟ ذراعى مكسورة ولن تلبث أن تعطلها تماما». فسمعته يتضاحك في خفوت وأجابني: «انت صبور. فكرت انك ستهوى علي بيدك السليمة. ذراعك ليست مكسورة. انها مخلوعة فقط وقد اعدت ما نشز من العظام الى موضعه. الست تحس تحسنا الآن؟» هذا صحيح. كنت

أحس في الداخل كان الألم يمضي عني. فشكرته في حرارة، وانصرف في الظلام وأنا أسمعه يهمس: «أما من جرحى، هنا؟» هل تتصور ماذا يعني حكيم حقيقي، قل! في الاسر، في الليل الأسود، يتابع مهنته الجميلة.

لم تكن تلك الليلة هادئة. كان محظورا علينا الخروج لقضاء حاجاتنا، وقد اخطرنا بذلك رئيس الخفر لما ادخلونا الكنيسة اثنين اثنين. واذا واحد من جماعتنا، دين، تستحثه حاجة ملحة في غير أوانها. في البداية سيطر على نفسه. ثم انخرط في البكاء. كان يقول: «أنا لا أستطيع، لا أستطيع أن أدنس بيت الله! أنا مؤمن، نصراني! ماذا عساي أن أصنع، أيها الاخوان!» واما الآخرون — وانت تعرف ماذا يعني أن تكون جنديا — فمنهم من أمسك بخاصرتيه من الضحك، ومنهم من انهال عليه تقريعا، ومنهم من جاد عليه بكومة من النصائح الساخرة. وقد اضحكتنا هذه القصة ولكن ضحكنا انتهى نهاية سيئة جدا، لانه شرع يضرب الباب طالبا الخروج فلم يلبث أن جاءه الجواب: وضع فاشيستي يده على الزناد ورش رشة طويلة حاصدة من خلال الباب. وقتل الولد الدين وثلاثة آخرون ثم خامس أصيب بجراح بالغة ومات في الصباح.

وسجينا القتلى في احدى الزوايا، وجلسنا جميعا صامتين وفكرنا أن البداية سيئة... ثم عدنا بعد قليل نتحدث بصوت خفيض، في همس. كنا نسأل بعضنا بعضاً من أين أنت، من أية ضيعة، كيف أسرت. وكان الذين ضيعوا في الظلام رفاق سريتهم أو فصيلتهم يتنادون في خفوت. وسمعت قربي همسا. احدهم يقول: «غدا قبل ان نستأنف طريقنا، اذا صفونا صفوفا لكي يفرزوا المفوضين السياسيين والشيوعيين واليهود أنت، أيها الملازم، لا تحاول ان تخبىء نفسك، لان ذلك لا يفيد شيئاً. انت تتخيل انك منذ أن نزعت سترتك توهمهم انك عسكري بسيط؟ لا، يافتاي؟ ليس في نيتي أكون كبش فداء لك. سأدل عليك أول من أدل. انا اعلم انك شيوعي، وقد ثقبت لي اذني حتى

تدخلني في الحزب. ذق الآن نتيجة أعمالك». كان الذي يتكلم هكذا جارى المباشر الى اليسار، ومن الناحية الاخرى كان صوت فتى يجيب: «كان يبدو لي دائما انك لست انسانا طيبا، يا كريجنيف، وعلى الاخص حينما رفضت الانتساب الى الحزب زاعما انك امي. ولكنني لم يخطر في بالي قط ان اراك تمسي خائنا. لقد نلت شهادة الدراسة الاعدادية، اليس كذلك؟» فيجيب الآخر بلهجة رخوة: «نعم، نلتها، وماذا في ذلك؟» وصمتا طويلا. قال الملازم — عرفته من صوته — قال في صوت غير عال: — «أيها الرفيق كريجنيف، يجب الا تشي بي». واذا الاخر يتضاحك في خفوت ويقول: «الرفاق بقوا وراء خط الجبهة. انا لست رفيقك، ولن يجديك ان تتوسل الي: سأشي بك. الف ام تبكي ولا امي».

صمتا. واما انا فقد غزت ظهري الرعشات من هذه القذارة، وطفقت أفكر في نفسي: «لن ادعك تنم على ملازمك يا ابن الكلب! لن تخرج من هذه الكنيسة بنفسك. ستسحب مثل الفطيسة: من رجليك!» وبدأ ينتشر في المكان ضياء خفيف جدا. نظرت فاذا قربي رجل مستلق على ظهره يداه تحت قذاله، وشدقه كبير، وقربه فتى مسكين بالقميص الداخلي جالس ممسكا ركبتيه، نحيف ذو أنف أشم ووجه شاحب. وأقول لنفسي: «انه لا يقدر على هذا الثور. يجب ان اسوى امره انا».

لمسته بيدي وسألته: «هل انت ملازم؟» وكان جوابه ايجابا باشارة من رأسه. وأريته الآخر المضطجع: «اهذا الذي يريد أن يشي بك؟» فأشار بنعم اخرى. فقلت له: «طيب، امسك من ساقيه حتى لا يلبط! اسرع!» وارتميت فوق الاخر واطبقت اصابعي العشر على عنقه. لم يسعفه الوقت للصياح. ابقيته تحتي بضع دقائق ثم نهضت. نقص الخونة واحدا. كان لسانه يتدلى على زاوية وجهه.

ثم انى تلفت حوالي وبي رغبة في غسل يدي كأني انما سحقت أفعى... كانت تلك هي المرة الأولى التي اقتل فيها

احدا، ومن جماعتنا أيضا!.. ليس من جماعتنا حقا وصدقا اذا شئت الحقيقة، انه اغرب من غريب لأنه كان خائنا. ونهضت وأوضحت للملازم: «لنبتعد من هنا، ايها الرفيق، الكنيسة كبيرة».

وكما قال هذاك كريجنيف، صفونا، لما كان الصباح، صفوفا أمام الكنيسة يخفرنا ناس بالرشيشات، وبدا ثلاثة ضباط من الفرقة الخاصة بفرز الذين استشعروا انهم مؤذون. طلبوا ذوى الرتب والمفوضين والشيوعيين، فلم يتقدم احد ولم يوجد كذلك اى قذر يخبر عنهم. ومع ذلك فقد كانوا كثيرا. كان نصفنا من الشيوعيين تقريبا وعندنا ضباط وبديهى ان يكون بيننا مفوضون. ومن المئتين او اكثر اللتين كنا هما لم يلموا الا اربعة: يهوديا واحدا وثلاثة من الروس، جنودا عاديين. كانوا، لسوء طالعهم، سمرا وجعد الشعور. ويقبل الفريتز على الواحد منهم ويساله: «يهودى؟» فيوضح له انه روسى فلا يعيره سمعا: «اخرج!» وتكون نهايته.

اطلقوا النار على اولئك التعساء اما نحن فساقونا الى ابعد. وظل الملازم الذي خنقت معه الخائن الى جانبى حتى مدينة بوزنان ولم يكف طوال اليوم الاول عن الشد على يدى وافترقنا عند بوزنان بعد القصة التي سأسوقها لك.

صدقنى، ياخى، فكرت في الهرب منذ البداية. كنت اريده من كل بد. قبل بوزنان حيث ادخلنا في معتقل حقيقى لم تتح لى فرصة مناسبة ابدا. ولكن هناك عرض لى ظرف بدا لي انه مناسب. في نهاية أيار بعثوا بنا الى غابة صغيرة، قرب المعتقل، لكى نحفر قبورا نظرا لأن كثيرا من الرفاق كانوا يموتون آنئذ من الزحار. كنت أجرف الطين وانظر فيما حولي، واذا انا ارى اثنين من حراسنا يفطران، جالسين، بينما كان الثالث يغفو في الشمس. فتركت رفشى وتغلغلت بهدوء بين الادغال... ثم اطلقت ساقى للريح متجها صوب الشمس المشرقة...

ويظهر أن الحرس لبثوا وقتا طويلا قبل أن انتبهوا الى

هربى. واما انا فلست ادرى من اين جاءتنى القوة، على الهزال الذى كنت عليه، لكى اقطع نحو اربعين كيلومترا في اليوم. غير ان هذا لم يفدنى لانهم قبضوا علي في اليوم الرابع، حينما أمسيت بعيدا من ذلك المعتقل الملعون. لقد اطلقوا كلابا بوليسية في أعقابى، فعثروا علي في حقل شوفان.

لم اجرؤ، في الصباح، على المسير في السهول، وكانت الغابة على بعد ثلاثة كيلومترات منى على الأقل، فقبعت في حقل الشوفان في انتظار المساء. واخذت افرك الحب بين يدى وآكل قليلا ثم اضع الباقي في جيبي مؤونة احتياطية، واذا أنا أسمع نباح كلاب وضوضاء دراجات نارية... أحسست أن قلبي قد كف عن الوجيب لان النباح لا ينفك يزداد قربا مني، تمددت على بطني ورأسي بين يدى حتى لا تنهش هذه الضوارى وجهى على الأقل. وبلغتنى أخيرا وما لبثت أن انشبت انيابها في اسمالى واخذت تمزقها، فلما اصبحت مثلما ولدتني أمي اخذت تدحرجني على الشوفان كما يشاء لها هواها. واخيرا شب على احدها وزرع قائمتيه الاماميتين في صدري وشدقه على اصبعين من حنجرتي ولكن من غير ان يعضنى.

وأقبل الفريتز على دراجتين وبدؤوا بضربى ضربا مميتا ثم اطلقوا الكلاب علي. فاندفعت تنهش جلدي وتمزق لحمي. ثم مضوا بي الى المعتقل عاريا، تنزف الدماء من جسدى كله. فحكمت بشهر حبس في الزنزانة لمحاولتي الهرب. وظللت مع ذلك حيا...

ان رواية ما ذقته في الأسر، يا اخى، اشد ايلاما من مروره على بال. وانت حين تفكر في الآلام المريعة التي تحملتها هناك، في المانيا، في كل الرفاق الذين هلكوا تحت التعذيب في المعتقلات يثب قلبك من صدرك ويروح يقرع في حنجرتك حتى تتقطع منك الأنفاس...

أي بلوى لم تنزل بي اثناء العامين المريرين اللذين قضيتهما في الاسر! طوفت نصف المانيا تلك الايام: اشتغلت في سكسونيا، في مصنع سيليكات، ودفعت عربات

الفحم في مناجم الرور، وتكسر ظهرى في تعبيد الطرق في بافاريا، وكنت في تورنج. رباه، اى أرض لم تعرف عذابى! هنالك تتغير البلاد ويتغير المكان ولكن ضربنا واطلاق النار علينا لا يتغير. ويضرب، هذا الجنس الملعون، جنس الشياطين، كما لاتضرب البهائم عندنا، بالقبضتين والقدمين، بهراوات من المطاط، بكل ما يقع تحت أيديهم من الحدائد، ولا احدثك عن الأخشاب وأعقاب البنادق.

كانوا يضربونك لأنك روسي، لانك لا تزال حيا ترزق، لأنك تعمل من اجلهم، هم الأوغاد، لأنك لا تنظر اليهم كما يجب، لأنك لم تضع قدمك في الموضع المناسب ولم تستدر في مشيتك استدارة لائقة... كانوا يضربونك بدون سبب حتى يوردوك موارد التهلكة، حتى تغض بآخر قطرة من دمائك وتموت تحت وقع الضربات، كأن الأفران المنتشرة في كل أرجاء المانيا لا تكفي لاستيعاب جثثنا...

وأما الغذاء فلا تراه يتغير أذا تغير المكان: مئة وخمسون غراما من الخبز نصفها نشارة وحساء مائع من البنجر — وقد لا تجد الماء المغلي في كل مكان. وما اسهل ان اعطيك مثالا: قبل الحرب كان وزنى ستة وثمانين كيلو، في الخريف صرت اقل من خمسين. اصبحت جلدا على عظم اجره بشق النفس، ومع هذا كله كان علي ان اقوم بأعمال تقتل حصان.

في بداية ايلول نقلنا — مئة واثنان واربعون سوفيتيا — الى المعتقل ب — ١٤ قرب درسدن، حيث كان آنذاك حوالي الفي اسير من جماعتنا. وكنا نعمل في مقلع حجارة. وكانت كل الأعمال يدوية — قطع الصخور، سحب القطع تفتيتها. المعدل: اربعة امتار مكعبة يوميا لكل رجل. تصور رجلا لا تكاد قدماه تحملانه. النتيجة: في ظرف شهرين لم يبق من مئة واثنين واربعين رجلا كناهم في البداية الا سبعة وخمسون. ما قولك، ايها الاخ؟ أليس هذا فظيعا؟ كنا لا نكاد ندفن جماعة من رفاقنا حتى يسرى في المعتقل خبر ان الفريتز قد اخذوا ستالينغراد واندفعوا نحو سيبريا! حداد يعقب حدادا، وانت هناك ينقض الذل ظهرك فلا ترفع عينيك

عن هذه الارض الالمانية الغريبة كأنك تود لو تنشق لتريحك الى الابد. وأما حرس المعتقل فقد بلغ من فرحهم أن تابعوا السكر والبعاق بالاغاني والقهقهة أمدا طويلا.

ذات مساء عدنا الى المعتقل بعد العمل. وكانت السماء قد امطرت طوال النهار وأسمالنا تقطر منها سيول من الماء، ونحن نرتجف في الريح الباردة مثل الكلاب ونقضقض حتى يعجز الفك الاسفل عن أن يجد الفك الاعلى. ولا موقد نجفف به أنفسنا أو نصطلى ناره ومعدتنا تعوى من الجوع ولكن التعليمات لا تنص على وجبة مسائية.

ونزعت اسمالى المبتلة وقذفت بها على القواطع وقلت: «انهم يحرصون على امتارهم المكعبة الأربعة، مع اننا لا نحتاج اكثر من متر واحد يكون مرقدنا الأخير». قلت هذا ولم ازد. ولكن صادف أن كان بيننا من نقل كلماتى اليائسة هذه الى رئيس المعتقل.

وكان رئيس المعتقل، اللاجير فوهرر كما يلقبونه، يسمى مولر، المانيا اقرب الى القصر، مفتولا، أشقر حتى البياض: شعره، حاجباه، اهدابه، حتى عيناه الجاحظتان. وكان يتكلم الروسية مثلك ومثلي، — ويخرج كل الواوات مثل فتى من سكان الفولغا. وفوق هذا كان فنانا في شتائم بلادنا. أين استطاع، اللعين، أن يدرس طرائقنا في الشتائم؟ احيانا، كان يصفنا امام البلوك — هكذا كانوا يسمون البراكة — ويستعرضنا مع عصابته من الفرقة الخاصة، يده اليمنى على وشك أن تضرب: كانت ابدا في قفاز من الجلد مبطن بالرصاص، حتى لا يفسد اصابعه. يستعرضنا ويكيل لكل رجل من اثنين لكمة على الأنف تملأ وجهه دماء، لكمة يسميها «تطعيم ضد الرشح». ويتكرر هذا الاستعراض كل يوم. وكان في المعتقل أربعة بلوكات ففي يوم الاثنين تخصص حفلة التطعيم للبلوك رقم ١ ويوم الثلاثاء للبلوك رقم ٢ وهكذا دواليك. كان نظاميا النذل، حتى يوم الاحد لا يستريح.

هذا الرئيس بعد يوم من حديثى عن المتر المكعب، امر

باستدعائي. جاء المترجم مساء الى البراكة مع رجلين من الحرس، وبقبق: «سوكولوف اندريه؟» فاجبت. قال لي: «اتبعنا، انت مطلوب عند الهر لاجيرفوهرر». لم اكن في حاجة للسؤال عن سبب استدعائه لي: انه يريد أن يريني نجوم الظهر. ودعت رفاقي الذين فهموا هم أيضا الأمر وصعدت زفرة ومضيت. مضيت عن طريق فناء المعتقل وانا انظر الى النجوم اقول لها هي أيضا وداعا وافكر: «اندريه سوكولوف، الاسير رقم ٣٣١، انتهت آلامك». واحسست بشفقة على ايرينا والأولاد. ثم تلاشت الشفقة وبدأت استعيد رباطة جأشي حتى استطيع النظر الى ثقب المسدس دون خوف، كما يجب على جندي ان يفعل، وحتى لا يحس العدو انى في اللحظة الاخيرة لا أخلو من حسرة على فراق الحياة...

في مقر القائد كانت الشبابيك مزينة بالزهور، وكل شيء نظيف مثل الاندية الحسنة عندنا، وكل رؤوس المعتقل الى المائدة: خمسة اشخاص يكرعون الشنابس ويأكلون شحم الخنزير. وعلى مائدتهم قنينة كبيرة من الشنابس نقصت قليلا وخبز وشحم وتفاح وعلب من المحفوظات المتنوعة. ألقيت نظرة خاطفة على كل هذه الاطايب واذا احشائي — لا تصدقني اذا شئت — تتزعزع على نحو كدت معه اتقيؤها. كان بي جوع ذئب وفقدت عادة المآكل البشرية واذا أنا أمام كل هذه الاشياء الطيبة... ودافعت غثياني ولكني استنجدت بكل قواي حتى استطعت صرف عيني عن المائدة.

كان مولر سكران بعض الشيء، يجلس على كرسيه ويقذف مسدسه في الهواء ثم يتلقاه عابثا، وينظر الي من غير ان تطرف له عين مثل الثعبان. وانا، ويداي مسبلتان الى تحت، أصفق كعبي اللذين احسهما عاجزين عن حملي: «اسير الحرب اندريه سوكولوف تحت أمركم، أيها السيد القائد!» ويسالني: «قل، أيها الايفان*، أكثيرة أربعة

* ايفان اسم علم تكثر التسمية به في روسيا والالمان يطلقونه على الروس جميعا.

أمتار مكعبة؟» فقلت: «نعم، أيها السيد القائد، انها كثيرة» — «ومتر مكعب هل يكفي لأجل قبرك؟» — «أجل، أيها السيد القائد، يكفي وقد يبقى منه شيء».

فينهض ويقول لي! «نظرا لما قلته الآن سأشرفك باطلاق النار عليك انا بنفسي. هنا، المحل غير مناسب. هلم الى الفناء نسوي هذا الأمر». فاجبته: «فليكن!» فلم يتحرك. جعل يفكر، ثم رمى مسدسه على المائدة وملأ قدحا كبيرا من الشنابس وتناول قطعة من الشحم بسطها على شطيرة من الخبز ومد لي يده بهذا كله وهو يوضح لي: «قبل أن تموت أيها الايفان، اشرب نخب انتصار الجيوش الالمانية».

وكنت قد أخذت من يده القدح والشطيرة ولكن لما سمعت هذا أحسست شيئا مثل الجمر يشويني وفكرت في نفسي: «انا الجندي الروسي اشرب نخب انتصار جيوشهم الالمانية؟ خسئت ايها السيد القائد! ما دام الموت لا بد منه فاذهب عني انت وخمرك!».

وأضع القدح على المائدة والشطيرة أيضا وأقول: «اشكر لك ضيافتك ولكني لا أشرب». فيبتسم: «انت لا تريد ان تشرب نخب انتصارنا؟ اذن اشرب على موتك». لم يغد لدي ما اضيعه فقلت له: «سأشرب على موتي ونهاية تعاستي» وأخذت القدح ودفعته بجرعتين ولم أمس الخبز ثم مسحت فمي بأدب وقلت: «شكرا جزيلا، أيها السيد القائد. أنا حاضر للموت فهيا بنا».

فامعن النظر في وقال: «كل لقمتين قبل ان تموت». فاجبته: «أنا لا آكل شيئا بعد القدح الاول» فصب لي قدحا ثانيا ومد يده به. فشربته ولكني لم أمد يدي الى الزاد. كنت أستنجد بالجراءة وأقول في نفسي: «على الأقل ليتعتعني السكر قبل أن اودع هذه الدنيا». فيرفع القائد حاجبين فاقعين ويسالني: «لماذا لا تأكل، يا ايفان الروسي؟ لا تخجل». فأكلمه قائلا: «عفوا، أعذرني، يا أيها السيد القائد، أنا لا آكل بعد القدح الثاني أيضا». فينفخ خديه ويضحك ثم يروح يتلوى ثم، من غير أن يتوقف عن الضحك، يقول لرفاقه في

سرعة شيئاً بالألمانية لعله ما قلته أنا. ويضحك الاخرون، ويضطربون في مقاعدهم ويديرون فناطيسهم نحوى وأرى انهم لم يعودوا ينظرون الي كما كانوا يفعلون من قبل، قل كانت نظراتهم الطف.

ويصب لي القائد قدحا ثالثا ويده تضطرب من الضحك. وأشرب أنا متمهلا وأقضم من الشطيرة قضمة واضع الباقي على المائدة، حتى ارى هذا الجنس اللعين انى على الرغم من جوعي لست أتهافت على صدقتهم لأن للروسي شرفه وكرامته وانه على الرغم من افاعيلهم لم يتحول الى بهيمة.

فجأة اتخذ القائد سمتا جادا بعض الشيء، وسوى الصليبين الحديديين اللذين يحملهما على صدره وخرج من وراء المائدة من غير أن يأخذ سلاحه وقال لي: «يا سوكولوف، انت شجاع، جندي روسي حقيقي. انا أيضا جندي واحترم شجاعة الخصم. لن اقتلك، ولا سيما ان جيشنا الباسل قد وصل اليوم الى الفولغا واحتل ستالينغراد كلها. هذا اليوم عظيم لنا، واني اعفو عنك. عد الى البراكة وخذ معك هذا مكافأة لك على جسارتك». وبسط لي يده بقطعة من الخبز ليست كبيرة على اية حال وشريحة من الشحم.

فشددت الخبز الى صدري قدر الطاقة وأخذت الشحم بيدي اليسرى. كنت كثير الدهش حتى اني لم أشكر له. ودرت على نفسي واندفعت الى الباب وأنا أقول في نفسي: «لا بد انه مطلق علي النار في ظهري، ولن يتاح لي أن احمل هذه الأشياء الطيبة الى الرفاق». ولكنه لم يطلق النار، هذه المرة مر الموت قربي حتى احسست لذعته الباردة...

خرجت من القيادة منتصبا مثل الألف، ولكني في الفناء شعرت بثقل في رأسي، وما وصلت الى البراكة حتى ارتميت على الاسمنت واغمي علي. وأيقظني الرفاق والليل لا يزال ممتدا: «قص علينا!» فتذكرت ما جرى لي في مقر القيادة. ورويت لهم وسألني جاري في المصطبة: «كيف نقتسم المؤونة؟» كان صوته يرتعش، فقلت له: «على الرؤوس». وانتظرنا الصباح فاقتسمنا الخبز والشحم بخيط متين.

واصاب كل منا قطعة من الخبز بحجم علبة الكبريت ولم نفرط حتى بالفتات. واما الشحم فهل تتصور ان نصيب الواحد منا لا يكاد يملأ سنا منخورة. ولكننا لم نظلم احدا بهذه الطريقة.

بعد مدة وجيزة انتخبوا ثلاثمئة من أقوى الاسرى وساقونا لتجفيف المستنقعات ثم الى مناجم الرور حيث ظللت حتى سنة أربع وأربعين. في ذلك الوقت كان جماعتنا قد بدؤوا يفركون اذن المانيا ولم يعد الفاشيست يشمخون بانوفهم أمام الأسرى.

ذات يوم صفوا وردية النهار كلها وجاء ملازم أول وشرع يقول لنا عن طريق المترجم: «ليخرج من الصف كل أولئك الذين كانوا سائقين في الجيش أو في الحياة المدنية». فخرج سبعة من السائقين القدامى، وسلمونا ملابس عتيقة ورحلنا تحت الخفر الى بوتسدام. هناك أوفدونا كلا الى جهة. وقد عينت في «التودت» وهي مؤسسة المانية لانشاءات الطرق والتحصينات.

وكنت أقل ضابطا برتبة مقدم من فرق الهندسة على سيارة «اوبل — ادميرال». رباه كم كان سمينا ذلك الفاشي! قصير، بطين حتى لا تعرف عرضه من طوله، متكور العجيزة مثل امرأة مدللة، له ثلاث ذقون متدافعة على قبة بدلته العسكرية وثلاث ثنيات ضخمة من القفا، كل هذا في قنطار من الدهن الخالص. اذا مشى نفخ مثل القاطرة، وان انصب على الأكل قلت في نفسك انه ضبع ولا يتوقف فكه عن العمل الا لكي يعب من قارورة الكونياك. واحيانا كان يصيبني شيء قليل: كان يوقف السيارة ويقطع قطعة من المقانق أو الجبن ويأكل ويشرب واذا كان مزاجه رائقا قذف لي قطعة كما يقذف لكلب، ولكنه أبدا لم يعطني يدا بيد: كان السيد يرى ذلك منقصا من قدره. ومهما يكن من أمر فلا مجال للمقارنة مع المعتقل. وبدأت أنا استعيد سمت الكائن البشرى. كنت أستعيد عافيتى، في بطء ولكني استعيدها.

ظللت اطوف بالمقدم اسبوعين بين برلين وبوتسدام ذهابا وايابا، ثم أرسلوه الى منطقة العمليات لانشاء خطوط محصنة ضد جماعتنا. في ذلك الحين استحال علي النوم: طوال الليل كنت لا اكف عن سؤال نفسى كيف اعبر الى جهتنا واعود الى بلادي.

ونصل الى مدينة بولوتسك، فاسمع مع الفجر مدفعيتنا، هذه أول مرة منذ عامين أسمع فيها موسيقاها...

هل تعلم، يا أخي، أن قلبي خفق لها: ايام كنت أعزب، حينما كنت اذهب لاغازل ايرينا، لم يكن قلبى يخفق في مثل هذه القوة. كان القتال يدور شرق بولوتسك، على بعد حوالى ثمانية عشر كيلومترا. والفريتز في المدينة، قد اصبحوا عصبيين والفيل الذى انقله لا ينفك يغمى عليه اكثر فأكثر على القنينة. في النهار امضى به في السيارة فيشرح كيف تبنى التحصينات واما في الليل فيظل يسكر حتى يتورم وتبرز جيوب تحت عينيه...

واقول في نفسي: «طيب، لا حاجة بي الى الانتظار، لقد دقت ساعتي. ولكن يجب على الا أهرب وحدي. علي ان آخذ معي فيلى، قد ينفع عندنا».

في الخرائب عثرت على وزنة من كيلوغرامين غلفتها بخرقة المسح، حتى لا تنفجر الدماء اذا ضربت بها. والتقطت من الطريق أسلاك هاتف. وخبأت تحت المقعد الأمامى اشياء كنت احتاجها. وقبل أن اودع الفريتز بيومين كنت في طريقي الى مستودع البنزين فرأيت رقيبا المانيا سكران مثل الخنزير يسند الحيط بيديه. فأوقفت سيارتى وحملته الى الخرائب واخرجته من بدلته العسكرية ونزعت عمرته وأضفت كل هذه الغنائم الى ما عندي تحت مقعدي وذهبت.

في صباح التاسع والعشرين من حزيران أمرني المقدم ان آخذه الى الريف، ناحية تروسنيتسا، حيث كان يشرف على بناء التحصينات. ورحلنا. كان صاحبى هادئا يغفو على مقعده الخلفى، واما انا فقد كان قلبى يكاد يندفع من صدري. في البداية انطلقت مسرعا ثم، لما خرجت من المدينة، خففت

السرعة وأوقفت السيارة وخرجت وجعلت انظر: كانت ورائي، ولكن في البعيد، شاحنتان. وأخذت وزنتى وفتحت الباب على مصراعيه: كان الفيل يشخر وقد انقلب على ظهر مقعده كأنه يحلم أنه في حضن امرأته. هويت بوزنتى على الصدغ الأيسر، فسقط الرأس، وزيادة في الحيطة ضربت أيضا ولكن على نحو اتحاشى معه قتله تماما نظرا لأنى كنت أود حمله حيا، حتى يستطيع حكاية شيء نافع لجماعتنا. وسحبت مسدسه من قرابه ووضعته في جيبي. وأدخلت عتلة في ظهر المقعد الخلفى واحطت عنق صاحبى بالسلك الهاتفى وثبته بالعتلة بعقدة شديدة، حتى لا ينقلب على جانب او يسقط في أرض السيارة حينما اطلق لسيارتي العنان ثم اني لبست بدلة الفريتزات ووضعت العمرة واندفعت في الناحية التي كانت الأرض تزلزل من المعركة زلزالها.

وقطعت الخطوط الأمامية بين استحكامين، فخرج جنود برشيشات، فخففت السير عن عمد حتى يعلموا انى اقل مقدما أثناء جولة يقوم بها. ولكنهم اخذوا يبعقون ويلوحون باذرعتهم كأنهم يقولون لى ان الذهاب فى هذا الاتجاه محظور، وانا أتظاهر بأنى لا افهم وادعس حتى النهاية فينط العقرب الى الثمانين. وقبل ان يخرجوا من بغتتهم ويفتحوا نار رشاشاتهم كنت في المنطقة الحرام اتلوى بين حفر القنابل مثل الأرنب.

بينما كان الفريتز يرموننى من الوراء أخذ جماعتنا يطلقون على رشيشاتهم مثل المجانين حتى ثقبوا الزجاج الامامى في اربعة مواضع والمبرد... ورأيت حرشا صغيرا على بحيرة وجماعتنا يقبلون عدوا، فدفعت بالسيارة الى الحرش دفعا وفتحت بابها وارتميت اقبل الأرض وقد انقطع نفسى تماما...

واقبل اول من اقبل فتى بسترة ذات كتيفات من الخاكى – لم يسبق لى ان رأيت مثلها – وهو يصرخ بى: «ايها الفريتز القذر، لقد ضللت الطريق، اليس كذلك؟» وأما أنا فانتزعت بدلتى الالمانية والقيت بالعمرة تحت

قدمي واوضحت له: «يا حبيب قلبي، يا فتاى الصغير الجميل، لماذا تظنني من الفريتز، أنا المولود في فورونيج؟ أنا هارب من الأسر، هل تفهم؟ الأحرى بك أن تفك لي الخنزير الموجود في سيارتي، خذ محفظته وقدني الى ضابطكم».

وسلمت المسدس أيضا، وانتقلت من واحد الى آخر حتى اذا كان المساء اصبحت عند العقيد – قائد الفرقة. وكنت حينذاك قد طعمت وأخذت الى الحمام واعطيت ثيابا واستجوبت فقدمت المعلومات التي عندي. فلما وصلت الى مقر قيادة الفرقة كنت على ما يرام: نقي القلب، نظيف الجسد، البس البدلة العسكرية الكاملة. ونهض العقيد واقبل على يقبلني أمام جميع ضباطه ويقول لي: «شكرا لك، أيها الجندى، على الهدية الجميلة التي حملتها لنا من عند الألمان. ان مقدمك ومحفظته أثمن عندنا من عشرين أسيرا. سأقترح منحك وساما». اما أنا فلشدة تأثري بأقواله هذه وبلطفه ارتج علي وارتعشت شفتاى، واستطعت اخيرا بشق النفس أن أقول: «ضعني ايها الرفيق العقيد من فضلك في وحدة من وحدات المشاة».

فضحك العقيد وربت على كتفي وهو يقول: «أي محارب أنت! أنت لا تكاد تقف على رجليك الا بشق النفس. سارسلك اليوم الى المستشفى، حيث يعنون بك ويغذونك ثم ترحل الى أهلك في أجازة مدتها ثلاثون يوما فاذا انتهت، بحثنا في المكان الذي نعينك فيه».

وشد على يدى مودعا، هو العقيد وكذلك الضباط الآخرون الذين كانوا في الملجأ، وخرجت والتأثر يجتاحني لأنى فقدت طوال عامين في الأسر عادة ان اعامل معاملة البشر. ولاحظ، يا اخى، انى ظللت وقتا طويلا ادخل رأسي بين كتفي كلما تحدثت الى رئيس من رؤسائي كأنه يهم أن يهوى بقبضته على يافوخي. انهم هكذا دربونا في المعتقلات الفاشيستية...

في المستشفى كتبت الى ايرينا فورا موضحا لها انى كنت أسيرا وانى هربت حاملا معى مقدما المانيا. ولم استطع

ان ادافع في نفسي الرغبة فى ان اكتب اليها، متفاخرا مثل ولد صغير، ان العقيد قد اقترح منحي وساما...

لم افعل طوال أسبوعين الا أن انام وآكل. كانوا يغذوننى بمقادير قليلة، نظرا لما كان يقوله الطبيب من أني اتعرض للموت اذا سمحوا لى ان آكل على هواى. وكنت استعيد صحتي جيدا. غير أني بعد أسبوعين آخرين ماتت شهيتي للطعام: لم آخذ جوابا من البيت، وعلى أن أقول ان هذا الصمت أوحشني فلا شهية ولا نوم وكومة من الأفكار البلهاء تروح وتجيء في رأسي... في الأسبوع الثالث تلقيت رسالة من فورونيج. لم تكن ايرينا هي التي تكتب الي ولكن جار لنا نجار يدعى أيفان تيموفييفيتش. أنا لا أتمنى لأحد أن تأتيه رسالة من هذا النوع!.. كان يكتب الي أن الألمان قد قصفوا في حزيران سنة اثنتين وأربعين مصنع الطائرات وان قنبلة كبيرة سقطت على منزلي وكانت ايرينا والبنتان فيه. ويقول لى انهم لم يعثروا لهم على اثر وانفغرت في موضع المنزل هوة ضخمة... لم أقرأ الرسالة حتى النهاية، اظلمت الدنيا في عيني وانكمش قلبي حتى صار مثل الكرة وأبى أن ينفتح من جديد. استلقيت على السرير وبعد أن استرحت قليلا عاودت القراءة... كان الجار يكتب أن أناطولى كان وقت القصف فى المدينة وعاد مساء فنظر الى الهوة ورحل حالا، وقبل أن ينصرف قال للجار أنه ذاهب متطوعا للجبهة...

لما عاد قلبى ينفتح انفتاحته الموهونة والدم يهدر في أذنى تذكرت حزن ايرينای المسكينة وحدادها حينما تركتها في المحطة. منذ ذلك الحين أنبأها قلبها النسوى باننا لن نلتقى على هذه الأرض. وأنا الذي دفعتها آنذاك... كان لى اسرة وبيت وانفقت السنوات الطويلة حتى جمعتهما واذا هما يضمحلان في ثانية واصبح وحيدا. كنت أقول في نفسى: «أليست حياتى القحبة حلما مزعجا»، ذلك لأنى كنت، في المعتقل، أكلم، كل ليلة تقريبا، ايرينا والأولاد وارفع من معنوياتهم وافهمهم قائلا: «سأعود، يا أحبائى، فلا تنزعجوا.

أنا صلب العود، قادر على التحمل، وسنلتقى مرة أخرى»... اذن فقد كنت أتكلم طوال هذين العامين مع أموات؟!

وصمت الرجل دقيقة طويلة ثم استأنف بصوت آخر، خافت متقطع:

– لنحرق سيكارة، أيها الأخ. أنا اختنق.

رحنا ندخن. وكان في الحرش الغارق في مياه الربيع شرقرق ينقر نقرا رنانا والنسيم الدافىء لا يزال يعبث عبثه الكسول بكئوس زهر الاشجار الجافة. وفي السماء الزرقاء كانت الغيوم لا تزال تتابع طوافها وأشرعتها البيضاء منتفخة. ومع ذلك ففي تلك اللحظات من الصمت الحزين بدت لى بغير الصورة التي كانت تبدو لى فيها من قبل، تلك الدنيا الشاسعة الارجاء المتهيئة لانجازات الربيع العظيمة، لانتصار الحياة الابدى على الموت.

وكان الصمت ثقيلا، فقلت:

– وبعد؟

فأجاب صاحبى مستأنفا قصته على كره:

– وبعد؟ فقد منحنى العقيد أجازة ثلاثين يوما.

وبعد أسبوع كنت في فورونيج: فجررت نفسى جرا حتى الموضع الذى كانت فيه أسرتى: حفرة هائلة يملؤها ماء صدىء تحف بها حشائش سيئة ترتفع حتى الزنار ويرين على هذا كله صمت كصمت المقابر. لم تكن هذه الوقفة هينة، يا أخى. ظللت هنالك لحظة وقلبى غارق في حداده المديد، ثم عدت أدراجى الى المحطة اذ لم أستطع البقاء هناك ساعة واحدة وأخذت القطار في اليوم ذاته عائدا الى فرقتى.

بعد ثلاثة أشهر أطلت علي الفرحة، كما تطل الشمس من بين الغيوم: وجدت اناطولى. بعث الي برسالة من قطاع آخر من الجبهة. وقد حصل على عنوانى من ايفان تيموفييفيتش، جاري. في البداية يظهر انهم أدخلوه مدرسة للمدفعية حيث نفعته موهبته فى الرياضيات. وبعد سنة تخرج متفوقا وأرسل الى الجبهة، وها هو ذا، كما يكتب الي، رائد، يقود بطارية من عيار ٤٥ وقد منح ستة أوسمة

ومداليات، لقد بذ أباه في كل مجال وهو أمر أدخل الزهو على قلبي مرة أخرى. وأنت تستطيع أن تقول لى ما تشاء، ولكن أن يكون للانسان ولد يقود بطارية ورتبته رائد ليست ضحكة او كلمة تقال ولا سيما مع كل هذه الأوسمة! وأن أبا يطوف بالقذائف المختلفة والاعتدة الحربية الأخرى في سيارة «الستودبايكر»، لأب انتهى دوره ولا يمكن أن يقارن بابنه الرائد الذى يمتلك كل المستقبل الذي يراه مشرقا أمام عينيه...

وهكذا أخذت في الليل أحلم مثل شيخ أنه بعد الحرب سأزوج اناطولى وأذهب أعيش عند الزوجين الشابين، وانصرف الى العناية بأحفادى الى جانب عمل بسيط في النجارة... افكار شيخ هرم. ولكن هنا أيضا طاش سهمى. طوال الشتاء لم نكف عن الهجوم حتى عجزنا مرارا عن المراسلة، نحن الاثنين، نظرا لضيق الوقت. بيد اني، فى نهاية الحرب، لما أصبحنا قرب برلين، كتبت رسالة ذات صباح الى أناطولى فجاءنى الجواب في اليوم التالى. وفهمت لماذا: على الرغم من السبل المختلفة التي اتخذناها نحن الاثنين الى العاصمة الألمانية فقد وجدنا على أبوابها معا. ولم أعد أطيق صبرا على اللقاء. والتقينا ويا له من لقاء... ففى صباح التاسع من أيار، يوم الانتصار، قتل ابنى أناطولى على يد قناص المانى...

دعانى آمر سريتى بعد الظهر، فرأيت عنده عقيدا من عقداء المدفعية لم أكن أعرفه. دخلت فنهض كما لو اني كنت رئيسه. وقال لي آمر سريتي: «اليك، يا سوكولوف» وصرف وجهه عني وذهب ينظر من النافذة. ارتجفت وكأنما مسست سلكا كهربائيا، لانى كنت استشف المصاب. ودنا منى العقيد المدفعى وقال في شبه همس: «تشجع، أيها الاب! ان ابنك الرائد سوكولوف، قتل اليوم في مركز بطاريته. هيا بنا معا».

ترنحت ولكنى لم اسقط. والآن أذكر، كأنه حلم، انا صعدنا، العقيد وأنا، في سيارة كبيرة واجتزنا الشوارع

التي تغطيها الخرائب. واتذكر ذكرى غامضة أن جنودا قد اصطفوا وأن النعش قد جلل بالمخمل الاحمر. ورأيت اناطولى عن كثب كما أراك الآن، أيها الاخ.

اقتربت من النعش. كان ابنى، ومع ذلك فليس هو اياه. كان ابنى غلاما ضيق الكتفين، له جوزة حادة على رقبة نحيلة، لا يكف عن الابتسام. واما هذا المسجى هنا، وعيناه غير مغمضتين تماما، كأنه ينظر، لست أدري أين، بعيدا جدا، فقد كان فتى جميلا، عريض الكتفين، في زاويتى شفتيه غمازتا طولكاي* الصغير الذى كان ابنى والذي عرفته في الماضى... وقبلته ووقفت جانبا. كان أصدقاء ابني يمسحون أعينهم. وأما أنا فيظهر أن الدموع التي استعصت علي قد جمدت في قلبى وربما لهذا يوجعنى قلبى هذا الوجع.

دفنت ابنى عند الالمان، في أرض غريبة. كان آخر فرحة لى وآخر أمل. وأطلقت البطارية مدافعها من قبيل توديع رئيسها الراحل رحلته الكبرى فأحسست أن شيئا في داخلى ينكسر... عدت الى فرقتى مزعزع اللب. ولم ألبث أن سرحت. ولكنى لم اكن ادرى الى اين اذهب ولمن اذهب. على أية حال الى فورونيج. اللهم لا! وتذكرت رفيقا طيبا، سرح على أثر جراح أصابته في الشتاء الماضى ويقطن مدينة أوروبنسك، قد دعانى فذهبت أراه.

لم يكن لصديقى وزوجته أولاد، وكانا يقيمان في منزل صغير في الضواحى. وقد ظل هو، على الرغم من كونه معطوبا، في النقليات. وقد عينت أنا أيضا فيها، وسكنت عند رفيقى الذى آوانى. في البداية اشتغلت على شاحنة بين الضيع ثم انتقلت في الخريف الى نقل الحبوب. في ذلك الوقت عرفت ابنى الآخر الذى تراه هناك يلعب في الرمال.

في بعض الأحيان تعود الى المدينة بعد رحلة وأول ما تفعله هو ان تمر بمطعم فتأخذ لك لقمة من طعام معها

* طولكا – مصغر من اناطولى.

طبعا قليل من الفودكا، حتى تخفف من تعبك. علي أن أقول انى تعودت هذا الشيء الضار في تلك الايام... وذات يوم رأيت هذا الولد أمام المطعم، ثم رأيته في اليوم التالى، في الاسمال، يملأ وجهه عصير البطيخ والغبار، قذرا بما تجرر في الأفنية، اشعث، وعيناه مثل نجوم الليل بعد المطر! واعجبنى جدا وبدأت اشتاق له حتى غدوت استعجل عودتى لكى أراه – أليس هذا عجيبا؟ وكان يقتات مما يعطيه اياه الناس في جوار المطعم.

في اليوم الرابع جئت الى المطعم من السوفخوز مباشرة، بشاحنتي الموسوقة بالحبوب. كان الولد يجلس في أعلى الدرج يؤرجح ساقيه الصغيرتين، أغلب الظن أن معدته كانت فارغة فمددت رأسى من طاقة السيارة وصحت به: «اصعد، يا صغيرى فانيا! ستصل حتى مستودع الحبوب ثم اعود بك ونتغذى معا»، وأما هو فقد نقز لصيحتى وهرول حتى أسفل الدرج وتعروش بالرفراف وسألنى هامسا: «كيف عرفت، يا عمى، ان اسمى فانيا؟» كان ينظر الي بعينيه الصغيرتين المحملقتين منتظرا جوابى. فأوضحت له انى من الناس الذين عركوا الدنيا ويعرفون كل شيء.

وذهب الي اليمين ففتحت له الباب وأجلسته قربى ومضيت. كان الولد كثير الحركة. ولكنه في بعض الأحيان يهدأ فجأة ويغرق في التفكير ثم ينظر الي من خلال أهدابه الطويلة المنثنية الى أعلى، ويتنهد. أمثل هذا العصفور الصغير يعرف التنهد! أهذه اشياء لمثل سنه؟ وأساله: «أين أبوك، يا فانيا؟» فيسرنى: «قتل في الحرب». «وأمك»؟ – «قتلتها قنبلة في القطار ونحن فيه». – «من أين كنتما قادمين؟» – «لست أدرى، لم أعد أذكر...» – «ألم يعد لك أهل؟» – «لا». – «وأين تنام» – «كيفما اتفق».

دمعت عينى دمعة أحرقت قلبى. واتخذت قرارى من فورى. قلت في نفسي: «لم يقل أحد أن يظل كل منا مضيعا في جهة. سآخذه معى، سأكون له بمثابة الاب». وسرعان ما أحسست في قلبى الانشراح وشيئا من النور. وانحنيت

على الصغير وهمست: «ألا تعرف، يا فانيا، من أنا؟» – فسألني، وقد تهدجت أنفاسه: «من أنت؟» فقلت له في همس أيضا: «أنا أبوك».

يا لطيف، ماذا حدث آنذاك! لقد قفز الى عنقى وقبل خدى وجبينى وفمى ثم طفق يزقزق مثل العصافير بصوت عال، رفيع، فلا تسمع غيره في حجرة السيارة: «يا حبيبى، يابابا! كنت أعرف جيدا انك ستجدنى! كنت متأكدا من انك ستجدنى! انتظرت طويلا حتى تجدنى!» كان يشد نفسه الي ويرتجف كله كنبتة في مهب الريح. وأنا، كان يلف عينى ما يشبه الضباب، فارتجف كلي ويداي ترتعشان... كيف استطعت الا أفلت المقود، كان هذا عجيبا! ولكنى غرزت في حفرة ملآنة فتوقف المحرك. وخفت أن أدعس الناس فقررت الا استانف السير قبل أن يتبدد هذا الضباب الذى يلف عينى. وطوال الدقائق الخمس التي لبثناها كان الصبى المسكين يتشبث بى بكل قواه الصغيرة، من غير أن يقول لى شيئا، ويرتعش. وكنت أمسكه بذراعى اليمنى وأنا أشده قليلا الي وباليسرى درت بالسيارة عائدا الى البيت. أ أستطيع أن أفكر في المستودع!؟ أين أنا وأين المستودع...

تركت السيارة أمام المدخل وأخذت ابنى الجديد بين ذراعى وحملته الى البيت. لو أنك رأيت كيف كان يمسكنى بيديه الصغيرتين: ما من سبيل الى تخليصي منه وخده الصغير يسنده الى خدي غير المحلوق، حتى لتقول أن من المستحيل فصلهما أحدهما عن الآخر. وحملته هكذا. وكان رفيقى وزوجته في المنزل. دخلت وأنا أغمزهما بعيني الاثنتين؛ وأقول بصوت عال جدا: «وجدت صغيرى فانيا! لنا الشرف في أن نحييكم، أيها الناس الطيبون!» وفهم الاثنان اللذان كانا بلا أولاد المسألة فورا، واذا هما يركضان يمنة ويسرة. ولكن لم تكن ثمة وسيلة تحمل ابنى على افلاتى مع ذلك فقد مضيت أوضح له، فسمح لى بأن أغسل له يديه بالصابون وأجلسه الى المائدة. وصبت له صاحبة

البيت من حساء الملفوف. وما كادت تنظر اليه كيف يلتهم الحساء بشراهة حتى خنقتها العبرات ووقفت أمام الموقد تمسح أنفها بمريولها. ورأى فانيا انها تبكى فركض اليها وشدها من ذيل ردائها وقال لها: «لماذا تبكين، يا خالة؟ وجدنى بابا قرب المطعم ونحن مسروران جدا. اذن فيجب الا تبكى». واذا هى تنفجر منتحبة وتنهال دموعها كالمطر!

بعد الطعام مضيت بالصغير الى الحلاق ثم غسلته بيدى في المنزل ولففته بشرشف نظيف. وعاد يتعلق بعنقى ونام هكذا على ذراعى. وضعته في تؤدة على السرير وذهبت قاصدا المستودع ففرغت حمولتى من الاكياس وبيت الشاحنة ورحت أطوف بالمخازن ركضا. اشتريت له سراويل من الجوخ وقميصا وحذاء وقبعة من التيل. ولم يكن شيء مما اشتريته على قده، ناهيك بأن النوع عاطل وقد قرعتنى زوجة صاحبى من أجل السراويل: «لن يبلغ بك الحمق ان تلبس الولد سراويل من الجوخ في حرارة مثل هذه!» وسرعان ما وضعت ماكنة خياطتها على المنضدة ونبشت في صندوق لديها ولم تمض ساعة حتى كان لفانياي كلسون جميل من «الساتان» مع قميص أبيض صغير بكمين صغيرين. ونمنا في سرير واحد، وكانت أول مرة منذ زمن بعيد نمت فيها نوما هادئا. ومع ذلك فقد نهضت أثناء الليل أربع مرات. كنت أفيق فأراه متجمعا تحت أبطى مثل عصفور في عشه، يغط غطيطا لطيفا، فيبهجنى ذلك حتى أعجز عن أن أصف لك ما في قلبى. وكنت ألقى كل العسر كيلا أقطع عليه نومه بحركتى، ولكنى آخر الأمر، لم أعد أستطيع صبرا فقمت دونما ضجة واشعلت عودا من الكبريت ورحت أنظر اليه وأنظر...

لما استيقظت قبل الشروق لم أفهم بادىء الأمر لماذا كنت على وشك أن أختنق. كان فتاي الصغير قد خرج من الاغطية ووضع ساقه على حنجرتى ورأسه في الجهة الأخرى على هواه. واها! ان النوم معه خال من الراحة ولكنى تعودته ولا أستطيع أن استغنى عنه أبدا. في الليل تنظر اليه نائما،

أو تستنشق واوات شعره واذا قلبك في أرجوحة من الهناءة حتى لو كان من جنس قلبى أنا الذى جعلته الأحزان مثل قطعة الصوان...

في الأيام الأولى كنت آخذ صغيرى في السيارة، ثم فهمت أن هذا ليس حسنا. أنا وحدى ماذا أحتاج؟ الجندى يقنع بقطعة من الخبز وبصلة وحبة ملح نهارا كاملا. وأما هو فليس كذلك: في الساعة كذا يجب أن يقدم له الحليب، في ساعة أخرى بيضة نصف مسلوقة. وعلى اية حال لا يستطيع أن يستغنى عن الطبيخ. والعمل لا يمكن تأجيله. فاستجمعت شتيت شجاعتى ورجوت زوجة صديقى أن تهتم بالصغير. بكى حتى المساء فلما أمسى المساء ركض ينتظرنى عند المستودع حتى قبيل نصف الليل.

أول الأمر لم يكن الحال معه هينا. استلقينا للنوم مرة قبل أن ينحسر ضوء النهار لأني عدت من العمل متعبا ولكنه هو الذي لا ينقطع عن الزقزقة مثل الدورى لاذ بالصمت فسألته: «فيم تفكر، يا بنى؟» فسألنى وهو يحدق في السقف»: «بابا، ماذا فعلت بمعطفك الجلدى؟» أنا في حياتى لم يكن عندى معطف من الجلد. فكان علي أن أكذب فقلت له: «تركته في فورونيج»، «ولماذا فتشت علي طويلا يا بابا؟» فأجبته: «لأننى بحثت عنك في كل مكان، يا فتاى الصغير، في المانيا، في بولونيا، في بيلوروسيا كلها طولا وعرضا، بينما كنت تنتظرنى في أوروبنسك». «وما هو الأقرب أوروبنسك أو المانيا؟ ومن هنا لبولونيا هل المسافة بعيدة؟»... هكذا نسمر قبل أن ننام.

وهل تتصور، يا أخى، أن معطف الجلد كان سؤالا في الهواء؟ اللهم كلا! هذا يعنى أن اباه، اباه الحقيقى، قد لبس معطفا كهذا وانه تذكره. الذاكرة عند الاولاد مثل ضياء النار: تشتعل فتضىء وقتا قصيرا ثم تنطفىء. وكانت ذاكرة فانيا تعمل مثل ضوء النار.

ربما ظللنا سنة اخرى في أوروبنسك لولا أن مصيبة حلت بي: كنت أسير في الوحل، وبينما أنا أقطع احدى الضيع

انزلقت خارج الطريق فصدمت بقرة وكومتها على الأرض. وهنا، كما تعرف، ولولت النسوة وهرع الناس وجاء مفتش حركة السير لتوه وسحب منى رخصة السوق رغم كل توسلاتى. لقد نهضت البقرة آنذاك وراحت تخب في الازقة وهى تلوح بذنبها. ولكنى أنا فقدت الرخصة. فاشتغلت نجارا طوال الشتاء ثم كتبت الى رفيق من سريتى، هو من منطقتكم، سائق في ناحية كاشارى – نصحنى بالمجيء. كتب الي يقول اننى سأعمل ستة اشهر في النجارة ثم يعطوننى رخصة أخرى. وها نحن أنا والصغير زاحفان نحو كاشارى في وحدة مشاة واحدة.

ولكن، كيف اقول لك، كنت على كل حال سأرحل عن أوروبنسك حتى ولو لم أصدم تلك البقرة. اللوعة لا تسمح لى أن أظل طويلا في مكان واحد. عندما يصبح فانياى كبيرا يترتب علي أن أدخله المدرسة. من يدرى فقد أهدأ واستوطن. وفي انتظار ذلك سنظل نطوف، أنا وابنى، في الأرض الروسية.

قلت:

– وقد يكون المشى مضنيا له؟

– انه لا يسير على قدميه الا قليلا لانى احمله اكثر الوقت على كتفى. حينما تخدر رجلاه ينزل ويركض على طرف الطريق ويروح ينطنط كانه جدى حقيقى... كل هذا يسير، يا أخى، وكنت أكون في هذه الدنيا على أحسن حال لولا هذا القلب الموهون الذي يجب تغيير صماماته. أحس منه أحيانا ما يشبه طعن الرمح أو ما يشبه الغصة فأرى ضوء الظهيرة ينطفىء في عينى. وأخشى أن أموت ذات ليل وانا نائم فيرتعب الصغير... ثم ان هناك مصيبة أخرى: كل ليلة تقريبا ارى احبائى الأموات في الحلم. ويقع لى ذلك على الأغلب هكذا: انا وراء الاسلاك الشائكة، وهم في الطرف الآخر، احرار. وأتحدث عن هذا الأمر أو ذلك مع ايرينا والأولاد. ولكن يكفى أن أزيح الأسلاك بيدى حتى يذهبوا، حتى يذوبوا في طرفة عين... والغريب أنى في النهار أملك

نفسي جيدا، فلا تستطيع ان تأخذ مني آهة ولا زفرة. ولكن في الليل أفيق واذا مخدتي مبتلة...

وسمعت في الحرش صوت رفيقي وضوضاء مجدافه في الماء.

ونهض المجهول الذي غدا قريبا من قلبي وبسط لي يدا ضخمة، صلبة كالخشب:

– وداعا، يا اخي، وسعدت حظا.

– تصل بالسلامة الى كاشاري.

– شكرا لك. هيه، يا ابني، تعال سنأخذ المركب!

وهرع الولد الى أبيه والتصق بخاصرته اليمنى وتشبث بذيل سترته المبطنة وأخذ ينط مع الرجل الذي كان يمشي بخطوات واسعة.

يتيمان، حبتان من رمل قذفتهما زوبعة الحرب بقوة لا مثيل لها الى الغربة... ماذا يخبىء لهما الغد؟ ما أشد رغبتي في أن أتأكد من أن هذا الرجل الروسي ذا الارادة الحديدية سيصمد وأن الولد سيكبر في كنف أبيه وانه، اذ يكبر، سيكون قادرا على أن يتحمل كل عبء، أن يجتاز كل عقبة تعترض طريقه اذا دعاه الوطن الى ذلك.

وشيعتهما بنظري وأنا محزون القلب... ربما كان فراقنا هينا لولا أن فانيا، الذي ابتعد بضع خطوات وهو يرسم خطوطا منحنية بساقيه الصغيرتين، التفت وهو يمشي ولوح بيده الصغيرة الوردية.

أحسست فجأة كأن يدا لطيفة ولكنها ذات مخالب، ضغطت على صدري. والتفت على عجل. كلا، ان الرجال الراشدين الذين شيبتهم الحرب لا يبكون في الحلم وحسب. بل يبكون أيضا في اليقظة. ولكن يجب أن يعرف المرء كيف يلتفت في الوقت المناسب. يجب على الأخص الا تجرح قلب طفل، الا يرى كيف تتدحرج على خدك دمعة الرجال المحرقة البخيلة...

الخاتمة

عزيزي القارىء!

لقد قرأت في هذا المجلد فصول الرواية التي بدأ ميخائيل شولوخوف بكتابتها ونشرها بنشرات دورية في سني الحرب العالمية الثانية، والرواية المشهورة التي صدرت بعد مرور عقد على انتهاء الحرب.

...داهم اعتداء المانيا الهتلرية على الاتحاد السوفيتي في يونيو – حزيران عام ١٩٤١ شولوخوف وهو في موطنه الحميم، في دسكرة فيشينسكي – على الدون. وفي الحال وردت برقية الى مفوضية الشعب للدفاع، كتب فيها شولوخوف: «انني رهن اشارتكم للالتحاق في أية لحظة، بصفوف جيش العمال والفلاحين الأحمر للدفاع عن وطني الاشتراكي حتى آخر قطرة من دمي... قوميسار الفوج الاحتياطي في جيش العمال والفلاحين الأحمر، الكاتب ميخائيل شولوخوف».

وفي يونيو – حزيران عام ١٩٤١ استدعي للخدمة في الجيش حيث خدم كمراسل صحفي عسكري لجريدتي «البرافدا» و «النجمة الحمراء» حتى نهاية الحرب. انه لم يكن شاهداً على وقائع الحرب فحسب، بل ومشاركا فيها. لما كتبت فصول رواية «لقد قاتلوا من أجل الوطن» ومؤلفاته الأخرى عن الحرب، كان قلب الكاتب متأثراً بمصير شعبه العزيز بأكمله، بمعاناته، مصائبه، جراحه، خسائره التي يكابدها من جراء الغزو الهتلري، وشجاعته العظيمة، وحبه واخلاصه والذي اجتاز بفضلهما كل المحن.

وهنا لا يجوز نسيان مسالة شخصية بحتة... ان والدة شولوخوف كانت من احدى ضحايا هذه الحرب، اذ سقطت قذيفة، أطلقتها بطارية المدفعية الهتلرية المتواجدة وراء الدون، في فناء أسرة شولوخوف، فاودت بحياة اناستاسيا دانيلوفنا شولوخوفا المرأة العاملة البسيطة، التي تعلمت القراءة والكتابة كي تتمكن بنفسها من مراسلة ابنها بموسكو في اول غيبة طويلة له عن البيت. كانت امرأة شجاعة حازمة، ذكية سريعة الفطنة لاتكشف عن كل ما يجيش في نفسها. لقد انعكست العلاقة الشخصية الوثيقة ما بين الابن والأم بشكل واضح لايقبل الشك، في شخصية ايلينتشنا، والدة غريغوري ميليخوف في رواية «الدون الهادىء» وفي شخصية النساء الأخريات. اذ تستطيع الأم الايحاء لابنها بتقديس الأمومة، وسائر الأمهات في العالم.

وميخائيل شولوخوف أديب، تمتاز مؤلفاته بتصويرها حياة الشعب في مراحل معينة ولتصبح سجلا للوقائع التاريخية.

ان أحد أسطع الفصول وأكثرها بطولة ومبعثا للاسى في سجل تاريخ نضال الشعب السوفيتي وانتصاراته، يرتبط بالاختبارات الصعبة التي تعرضت لها متانة الدعائم الأساسية للبناء الاشتراكي أثناء الحرب العالمية الثانية. فاستطاع الشعب السوفيتي بكفاحه المستميت، أن ينتصر، ويحرر ارضه، وأن يخلص الكثير من الشعوب والدول الأوروبية من نير احتلال المانيا الفاشية التي كادت تستولي على كل أراضي اوروبا. لقد أصبح شولوخوف مسجلا لهذه الوقائع التاريخية.

واعتبارا من عام ١٩٤٣، بدأت فصول رواية «لقد قاتلوا من أجل الوطن» تنشر، فوراً وبلا تأخير، ولمجرد انتهاء الكاتب من كتابتها لتظهر على صفحات الصحف والى جانب سائر المواد الأخرى البالغة الاهمية. كانت الجرائد التي تحمل الفصول الدورية لرواية شولوخوف تقرأ باهتمام

زائد في الجبهة والمؤخرة، ورسائل الاعجاب والشكر تنهال على المؤلف من جميع أرجاء البلاد.

كانت صفحات الرواية تستقطب القراء باسلوبها الفني الرائع وبصدق وصفها المؤثر لأول وأصعب مراحل الحرب، التي تبتدىء وقائعها في صيف عام ١٩٤٢، وابان تراجع القوات السوفيتية الى الدون. ان تصوير المعارك التي جرت في سهوب الدون كان أشبه ما يكون بمقدمة للملحمة الرائعة على نهر الفولغا. في هذه الأيام الحرجة للدولة، كان العقيد شولوخوف – مراسل جريدة «برافدا» عند منعطف الدون وبين مقاتلي الوحدات الأمامية.

ان محور الرواية هم جنود وضباط فوج المشاة المتراجع متكبداً الخسائر الفادحة. بقي منهم على قيد الحياة مئة وسبعة عشر نفراً. الا انه رغم فقدانه لمعظم افراده ومعداته وتجهيزاته، وكونه مفصولا عن القوة الرئيسية وقيادة أركان تشكيلته – تمكن من الحفاظ على نفسه كوحدة مقاتلة، متشبثاً بكل ربوة لا بل وبكل شبر من الأرض، ومبديا مقاومة عنيفة ضارية.

وفي تلك الساعات الحرجة العسيرة، يعرفنا الكاتب على أبطال روايته الرئيسيين – نيكولاي الصموت المتزن، ولوباخين الساخر المرح، السليط اللسان، وصديقهما زفياغينتسيف.

لقد جمع الواجب ازاء الوطن، كل هؤلاء الذين هبوا والسلاح بايديهم للدفاع عنه. فقبل الحرب، كان لكل واحد منهم طريقه الخاص في الحياة. فنيكولاي – كما تذكرون – كان مهندساً زراعياً، لوباخين – عامل منجم، زفياغينتسيف – سائق جرارة. كذلك كان أبطال الرواية من أماكن مختلفة. فبورزيخ الضخم عريض المنكبين – من سيبيريا، ورئيس العرفاء العجوز بطيء الحركة بوبريشينكو، والطباخ ليسيتشينكو من اوكرانيا، ورامي الرشاش بافل نيكراسوف، الذي ترك أسرته في ليبيديانا بكورسك في اواسط روسيا، ان هؤلاء الناس الذين خلقوا للحياة الآمنة والعمل، هؤلاء

هم الذين أضطروا لخوض أعنف حرب في تاريخ البشرية.

ان الكاتب، ودونما مبالغة او تكلف، يعطي صوراً واضحة للمحاربين وحياتهم في الجبهة، ويتحدث عنهم بقلب عامر بالحب ومفعم بالمرارة من جراء ثقل العبء الملقى على كاهلهم. لكنه مع ذلك مفعم بروح الفكاهة الشعبية المميزة حتى في أحرج اللحظات، مما يدل على التفاؤل الشديد والروح المعنوية العالية التي لاتنهار. فينتقل بسلاسة، وتدريجيا ليعطي صورة حية لمختلف طباع الناس، ولابراز صورة الشعب المدافع عن أرضه المقدسة، ونهج الحياة الذي اختاره هو بنفسه، ووطنه السوفيتي.

ففي كلمات المرأة العجوز، من عزبة الدون، الموجهة للوباخين: «ان كل شيء يهمني يا صقري العزيز» – انها تعبر تعبيراً قوياً عن مسؤولية الجميع وارتباط مصير كل فرد بمصير الأمة والشعب.

وحينما يخاطب لوباخين بتحد صريح وبلهجة غير مألوفة بالنسبة له، مساعده كوبيتوفسكي قبل وقوع معركة المعبر: «لابد لي من الصمود هنا، ريثما يمر...»

لقد عبر الكاتب بعبارة «لن يسمح لي ضميري...» باسلوب فني ساطع عن الوعي الوطني للمواطن السوفيتي وادراكه انه هو صاحب هذا الوطن.

...تزداد أحداث الرواية توتراً، ويصبح القارىء شاهداً على المأثرة البطولية التي يسطرها الجندي اول كوتشيتيغوف وهو يقاوم الدبابات ومصرع بورزيخ البطولي الذي بذل حياته في سبيل الوطن، ويرى الهجوم المضاد لزفياغينتسيف، الملازم غولوشيكوف، وليوبتشينكو – حامل الراية، واندفاع النقيب الجريح لمواجهة العدو.

لقد صور، بغاية الرومانطيقية والحماس، المشهد الذي يقوم فيه قائد الحامية باستقبال القادمين لضاحية ستالينغراد بقيادة رئيس العرفاء بوبريشينكو، ويرى العلم الذي أتوا به. وهنا، في ضاحية ستالينغراد سرعان ما تبدأ معركة طاحنة، ويتبعها الهجوم المضاد الكاسح للجيش الأحمر.

ان الرواية تظهر الصعوبات التي واجهت المناضلين المفعمين بحماس النصر القريب العاجل.

وهناك انتاج ادبي آخر لميخائيل شولوخوف، على علاقة وطيدة بسني الحرب، تناول فيه، بطاقة جديدة، موضوع الحرب والسلام، واظهر فيه، بنزاهة تامة ودون أي تضخيم، طبيعة بطله، ذلك الانسان العادي البسيط الذي تجد من أمثاله الملايين – انه قصة «مصير انسان» التي نشرت في عددي رأس السنة لجريدة «برافدا» في ٣١ ديسمبر – كانون الأول عام ١٩٥٦ وفي ١ يناير – كانون الثاني عام ١٩٥٧، وعلى الفور حظيت بشعبية كبيرة. فاصدرت منذ ذلك الحين، مرات عديدة على انفراد وضمن مجلدات المؤلفات المختارة للكاتب، فصارت تقرأ من قبل فناني المسارح وتذاع بالراديو والتلفزيون، وتطرق أشهر الفنانين والرسامين اليها في مواضيعهم، مثلت على شاشة السينما والأوبيرا، وتم اصدارها في الخارج لاكثر من مئة مرة.

انها تتحدث عن الويلات التي تجلبها الحرب للناس، وعن ماهية الحرب، وتتناول المواطن السوفيتي المعاصر المسالم بطبيعته، والمحب للعمل، والذي يتحدى أشد المحن بحزم وصمود، ولا يخشى بعبع الحرب وقساوتها الشديدة اللتين لا تستطيعان تحويله الى انسان آلي قاتل. فمن خلال كل هذه المعاناة الجسدية والروحية، لابل ويمكن تسميتها الأعذبة تراه يهب قلبه الطاهر النظيف وصدره الرحب لكل ما هو طيب.

تمتاز القصة بسلاسة التركيب، وعدم تسرع المؤلف في حواره مع القارىء عن مصاعب السفر في فصل الربيع في الطرق غير السالكة، ويتعمد الاسهاب في التفاصيل الحياتية مما يضفي نوعاً من الملل على المقدمة الطويلة لاحد لقاءاته العرضية في طرق روسيا. الا ان مثل هذه المقدمة، تساعد على ادراك احدى الميزات الجوهرية الخاصة في النهج الابداعي للقصة: ان مصير كل انسان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الشعب الجدير بالفن الرفيع، فأحياناً اللقاء

العرضي والتحدث مع أناس لاتعرفهم يمكنانك من اكتشاف ماوراء هذا المظهر العادي، وما في ذلك القلب البشرى. ان هذا هو أعز شيء يطمح اليه الفنان. وكان المؤلف يقول: تأملوا الناس الذين يمكن أن يمروا بالقرب منكم – انهم يمرون باستمرار – ان حياة كل واحد منهم مملوءة بالآمال والآلام والصدمات النفسية. ان مصير كل واحد منهم يعرفك اكثر بمعنى حياة البشر على الأرض، وكيف ينبغي عليك أن تشق طريقك في هذه الحياة.

أما بداية اللقاء فهي عادية وبسيطة جداً. اذ يظهر في الطريق رجل وصبي يتسكعان وهما في حالة تعب واعياء، ولدى رؤيتهما شخصاً يجلس قرب ضفة النهر، وسيارة على بعد عدة خطوات منه، يفكران، وقد خدعتهما ملابسه أن الرجل هو السائق. ويدور بينهما حديث عادي جداً... ولكن ما تكاد نظرة الكاتب تلاحظ الجزء الذي بدا غريباً: ملابس الصبي البسيطة المرتبة، التي أعيدت خياطة أكمامها الممزقة بعناية واهتمام، ومعطف الوالد، القصير المضرب المرقع بشكل عشوائي اخرق، والمحروق في عدة أماكن حتى...

حينما تطرق الحديث الى موضوع الحرب، لما كان من الممكن توقع ماذا سيؤدي وكيف سيجري الحديث لو لا تلك الحقيقة، ان الكاتب لم يرغب ولسبب ما أن يحير محدثه بالنسبة لمهنته. وعلى كل حال، هنا بالضبط، وفي هذا الجو البسيط، تولدت تلك البساطة وعدم التكلف في الحديث، تلك البساطة التي تجبر الانسان الروسي على الكشف عن أهم أسراره أمام انسان غريب عليه.

وهنا ينتقل فجأة من سرده السلس المتروي، الى لهجة مضطربة منفعلة وكالمعزوفة السيمفونية الصاخبة بعد مقدمة هادئة («اما أنا، أيها الاخ، فقد شبعت من مصائبها حتى انني أصبت بالتخمة منها...»). وبعد هذه النغمة يعلو اللحن القوي مغيراً سيمفونية القصة بأسرها الى دراما كاملة. هكذا تبدأ القصة المأساوية والرائعة في آن واحد

لمصير ذلك الانسان: (هل سبق لكم وان رأيتم كهاتين العينين اللتين تبدوان وكأنهما مكسوتان بالرماد من شدة الأسى والحزن العميقين، بحيث لا يمكنك النظر اليهما؟ هكذا تماما كانت عينا محدثي»).

ان عيني أندريه سوكولوف هما من أبشع آثار الحرب.

ان بطل القصة هو عامل متقدم في السن. بدأت حياته صعبة، ثم أخذت تتحسن شيئاً فشيئاً وتسير الى مستقبل مضمون، ولربما سارت بسلام وسعادة – مرتاحاً في عمله، شاعراً ببهجة وطمأنينة نفسية مع أسرته العاملة الكبيرة، لولا الحرب التي شنتها الفاشية على الشعب السوفيتي... كان حديث أندريه عن كيفية التقائه أيام شبابه بتلك الفتاة التي أحبها وأصبحت، فيما بعد أماً لأطفاله، حديثاً قلبياً خالياً من التكلف.

يتفق الكاتب وبطله في تصوير ذلك الغريب الهائل الذي دخل البيت الكبير – بيت الشعب السوفيتي – عنوة، وبيت سوكولوف الصغير المؤلف من غرفتين. ولايستطيع القارىء أن يمحو من ذاكرته شخصية ايرينا التي دفعها أندريه عن نفسه بخشونة، اثناء توديعها له في محطة سكة الحديد، مستاء من يأسها الشديد وشعورها بأنهما يفترقان الى أبد. ان أندريه، الآن، يتحدث عن ذلك وعيناه كامدتان لا توجد فيهما أية دمعة وارتعاشة خفيفة تسري في يديه اللتين أسند عليهما ذقنه لا ارادياً، وشفتاه صارمتان، ويقول: «ابدا لن اغفر لنفسي فعلتي تلك مادمت حيا! وحتى بعد مماتي، ودفني لن اغفر لنفسي دفعي لها!..»

لقد انقضى هذا المشهد، وهو أحد المشاهد الأكثر تأثيراً في النفس، ومعه انقضت الحياة الماضية الآمنة لبطله.

وبعد ذلك تبدأ تلك الأحداث الشديدة الأهمية من ناحية الحياة الانسانية العادية، والتي تعرض فيها أندريه الى أصعب المحن النفسية...

أمضى أندريه سنتين أسيراً لدى الفاشيين، والموت

يلاحقه في كل ساعة ودقيقة. وهناك حصل ماهو أروع من ذلك، حيث حاولوا معه، كما حاولوا مع الآخرين، القضاء عليه نفسياً وروحياً، والدوس على مثله العليا، واهانة كرامته وتسخيره كدابة عمل. كان يبدو شبه مستحيل ان يتحمل المرء هذا التعذيب الفاشي الوحشي. لكنهم صمدوا. ولم يثن عزمهم شيء.

ان صمودهم وثباتهم أمام أشد الضربات عنفاً كان من المحتمل أن يجعلانهم قساة متحجري القلوب. ومن كان سيلومهم على ذلك؟.. الا أن اندريه، مثله مثل رفاقه، خرج من هذا الصراع غير المتكافىء مع القدر، بعزة وكرامة.

بعد ان وضعت الحرب أوزارها لم يقدر على العودة الى مدينته حيث ترك أهله وبيته. لان هذا الأمر كان فوق طاقته. وهكذا وفي مدينة غريبة، يتم اللقاء الذي تظهر فيه الثروة النفسية للانسان الروسي الذي لم تؤثر فيه ويلات الحرب. ويصف شولوخوف، بصورة مؤثرة، كيف بدأ يراود أندريه تبني صبي مشرد مثله، شردته الحرب، وربط مصيره بمصيره.

من لا يحب سوى القراءة السهلة، لا ينبغي عليه تصفح هذا المؤلف. أما من أعجبتهم رواية «العجوز والبحر» لهمنجوي وأثرت في أنفسهم رواية ريمارك «وقت الحياة ووقت الموت» عن الحرب العالمية الثانية، والذين يقيمون هذه الروايات الثلاث التي هي وليدة الأدب العالمي والتي تعكس آلام الناس الذين، على رأي الأديب الكلاسيكي الروسي، يولدون على الارض من أجل السعادة، كما يولد الطائر من أجل التحليق.

ان هؤلاء القراء سيقيمون أيضاً المناظرة الداخلية لرواية شولوخوف فيما يتعلق بكلا المؤلفين. ان نهاية القصة تحمل في طياتها فكرة فلسفية، أي أنه لا بد للانسان من السير بثبات في درب حياته حتى آخر مرحلة من مراحله، مواجها كل نكبات الدهر بارادة قوية لا تهين، تلك الارادة التي ترغمه على حب الحياة والتعلق بها، وانشاء انسان جديد الى جانبه

وليشق درباً جديداً من دروب الرجولة والانتصارات، وليسعى من أجل سعادة الناس وهنائهم. وينمو الى جانب اندريه سوكولوف صبي، انه ابنه المتبنى، وأصبح عزيزاً عليه وحميماً، صادفه في درب من دروب الحياة. ان منظر الصبي ذي العينين الصافيتين والزرقاوين كزرقة السماء، وسعادته الصادقة، ووده لذلك الانسان الذي وثق به كأب حقيقي – لأشبه ما يكون بسيمفونية مأسوية عظيمة مؤثرة. بهذا فقط يمكن تشبيه قصة شولوخوف.

ان شولوخوف لم يؤلف رواياته هذه المتعلقة بحياة القوزاق في الدون لكونه من قاطني تلك المنطقة فحسب، بل ولكونه لم يغب عنها طويلا طيلة حياته. وهكذا وعى الواقع المريع للحرب.

«نسافر في السيارة، مسلحين بالأقلام ودفاتر الملاحظات والرشاشات اليدوية، الى خط الجبهة...» هكذا كانت تبتدىء احدى مقالات شولوخوف التي كتبها في الايام الأولى للحرب. «بصفتي مراسل صحفي عسكري، كنت في الجبهات الجنوبية، الجنوبية – الغربية والغربية»، – كتب في «رسالة الى الاصدقاء الأمريكيين» عند نهاية السنة الثانية من الحرب.

لقد كتب شولوخوف، علاوة على ما ذكر آنفاً، العديد من المقالات مثل: «على الدون»، «في كولخوزات القوزاق»، «باتجاه سمولينسك»، «في الطريق الى الجبهة»، «اللقاءات الأولى»، وقصة «تعلموا الحقد» وغيرها. ان هذه الأشياء، وحتى المقالات والتحقيقات الصحفية، كلها تدل على صدق مشاعر المؤلف وعمق تأثره ومعاناته، ويمكن اعتبارها من اوائل المؤلفات النثرية العسكرية السوفيتية، أما قصة «مصير انسان» ورواية «لقد قاتلوا من أجل الوطن» فانهما تمتان الى الأدب الكلاسيكي السوفيتي.

يورى لوكين